سلسلة آفاق عربية
175

طارق الطيب

بيت النخيل

رواية

الهيئة العامة لقصور الثقافة

إهداء ٢٠١٥
الهيئة العامة لقصور الثقافة
جمهورية مصر العربية

بيت النخيل

رواية

طارق الطيب



سلسلة
آفاق عربية
تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• بيت النخيل
• طارق الطيب
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2014م
• تصميم الغلاف:
أحمد اللباد
• المراجعة اللغوية:
ياسمين مجدى
• رقم الإيداع: ٢٢٢٤١ / ٢٠١٤
• الترقيم الدولى: 8 953-718-977-978
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

174
سلسلة شهرية تعنى بنشر أعمال الأدباء العرب

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

بيت النخيل

الإهداء

إلى أورسولا

بيت نخيل لي في فيينا

{١}

المدن الفقيرة أكثر رحمة بالفقراء والمساكين من المدن الغنية. المدن الفقيرة لا تقدّم مقارنات ليدرك الفقير كم هو في أسفل درك من الدنيا؛ فالكل في العدم سواء. المدن الغنية قسوتها مُبالَغ فيها، تقدّم للغني وجهَ رفاهيةٍ إضافيًا بما ليس لدى الآخرين أو بما لا يستطيعه الآخرون. في هذه المدن يكثر ترديد جمل تبدأ بمثل هذه الكلمات:

"لدينا كذا وكذا! لديكم كيت وكيت!"

أمثالي يشعرون بإضافة نوعية لهذه القسوة من خلال هذا الشرخ الكبير في توزيع الدفء وتوزيع بهجة الحياة.

الآن تبدو مدينة ڤيينا أقسى مدن الدنيا عليّ. الوحدة فيها موت بارد للنفس والبرد فيها حياة مؤلمة للجسد. أشعر بشرخ عميق الآن في جسدي وعقلي، على نهاري وعلى ليلي، صدع تحت ذاكرتي لا يرمّمه أيّ نسيان.

أنا الآن في هذه المدينة العريقة الرهيفة الشفّافة العجوز المتجمّلة، القاسية حدّ تمويت أمثالي، الطاردة والمهمِّشة لمن هم على شاكلتي. لم أعُد أسأل نفسي أبدًا هذه 'اللِماذات والماذات' الساذجة العبيطة

التي تتردّد على أفواه الحائرين: "لماذا أنا هنا؟ وماذا أفعل في هذه المدينة؟ ولماذا لا أعود؟" بل أسأل نفسي كثيرًا: "كيف أحلّ هذه الورطة؟ كيف أخرج بأقلّ خسارة من هذه اللعبة التي لا يمكن الانسحاب منها؟ كيف أستمر في الحياة دون أن أموت فيها؟"

أنا الآن هنا. أنا هنا في ڤيينـا.

في ليلة السبت هذه. أسهر قارئًا كتابًا في قواعد اللغة الألمانية. لا أستطيع النوم رغم كثرة البطاطين الخفيفة والألحفة المهترئة في ذلك السرير الذي يشبه التابوت الفرعوني. وتلك الغرفة المستطيلة المصمتة التي تشبه المعبد المهجور بحيطانها العالية وورق حوائطها الملصوق عشرات المرات بعضه فوق البعض والذي استطعت أخيرًا أن أغيّره إلى منظر يريحني نفسيًّا. أعتبره أكثر دفئًا.

أسكن في الدور الأخير من بناية قديمة نجت من دمار الحرب العالمية الثانية. لكنها لم تنجُ من الزمن. لم يُجدَّد شباك فيها ولا حتى بلاطة واحدة. الأدوار العليا في مثل هذه البنايات القديمة لا يُفضّلها سكان هذه المدينة لأسباب كثيرة؛ أبسطها غياب المصاعد وضيق درجاتها الحلزونية بمداخلها المعتمة وبرودتها القارسة ورطوبتها. يسكنها خليط من العاطلين وأصحاب الإعانات الاجتماعية الهزيلة والمعاشات الضئيلة من النمساويين إضافة إلى الأجانب. وهذا سبب أساسي لابتعاد أغلب النمساويين عنها. ممّن يعتبرون أنفسهم أكثر جدارة بالإقامة الأنعم.

أثاث شقتي مبعثر في شكل عبثي. مثل سوق للخردة والروبابيكيا.

ليس هناك قطعة أثاث واحدة في الغرفة تشبه الأخرى: دولاب قديم بنّي غامق ضلفة منه لا تنفتح أبدًا والأخرى لا تنغلق أبدًا، إلى جانب كرسي معدني حديث لعله من مستشفى وآخر من البلاستيك ربما من مطعم رخيص. كنبتان واحدة مخططة مثل جلد الحمار الوحشي والأخرى جلدية حمراء فاقعة اللون كأنّها من بيت متعة. المائدة المائلة بيضاء من خشب قشرة 'الأبلكاش' من شركة 'إيكيا'[1] عليها بقع لحروق سجائر وشروخ كأنّها كانت في سجن تعذيب. الأرضية من مشمّع رخيص بلون أحمر محروق. لن أتحدث عن المطبخ وغرفة النوم الضيّقة وسريرها الذي يبدأ في الصرير بمجرّد اللمس. الشقة تكاد تصلح كمتحف من القرن الماضي، لولا ورق الحائط الذي غيّرته لينقلني نفسيًّا إلى مكان آخر أحبّه.

نحن في نهاية ديسمبر والجو أبرد ما يكون. مساء الجمعة ينتهي زيت التدفئة الذي اشتريته بآخر شلناتي وتحتفظ الشقة بجسد شبه دافئ ليوم واحد فقط، هو يوم السبت ثم تثبت عند درجة الحرارة سبعة. لا أستطيع النوم كأنّ أطرافي مرميّة على الرصيف. يرهقني هذا الكسر الملعون الموجود في زجاج شباك غرفة النوم، حاولت مرات لصقه بالكرتون لكن الريح تخلعه مع كل هبّة. الكسر الآخر الموجود في شرّاعة الباب يفكّ الكرتون ويجعله يرفرف على بقايا زجاج الشباك كطير حبيس يرغب في المروق. البرد والريح والرفرفة المقلقة تنغّص

1- شركة IKEA شركة سويدية عالمية لصناعة الأثاث المنزلي من الأخشاب، قد لا يخلو بيت في النمسا وكثير من المدن الأوروبية من وجود قطعة أثاث أو زينة من هذه الشركة.

كلها ليلتي. ألعن 'فراو أولجا'[1] صاحبة الشقة بصوت عالٍ وأتمنى لها ليلة واحدة في متحفها المريع هذا؛ متحف الأشباح.

فراو أولجا كانت قد بدأت حياتها بعد موت زوجها باقتناء مجّاني للأثاث القديم أو شرائه بثمن بخس ثم تصليحه وإعادة بيعه. اكتشفَتْ بعد وقت قصير أنه يمكنها أن تتملّك بعض الشقق في العمارات شبه المنهارة بسعر منخفض جدًّا، وأن تستفيد في الوقت نفسه من قروض البنك التي تُمَنَح للترميم والتجديد، وتؤثّث الشقق بهذا الأثاث القديم ثم تؤجّرها كشقق مفروشة للأجانب والمهاجرين وأصحاب الدخل البائس من أمثالي.

تأتي في أوّل يوم من أول كل شهر لتأخذ إيجارها دون إبطاء. لا يهمّها أن يكون اليوم يوم سبت أو يوم أحد أو يوم عيد. تصعد الأدوار الخمسة سريعةً حتى يكاد نفسها ينقطع. تكون لطيفة ظريفة حتى تأخذ الإيجار منّي ثم تفرّ من أمامي خفيفة كالحمامة. تخشى من تذمّري الصامت أن ينفجر. أعرف أنها تكسب جيدًا من هذه الشقق العديدة التي تتملّكها ومن قروض البنك، وأعرف أن تصليح هذا الخراب لن يكلّفها الكثير. لكنها تتكئ على صبري وفقري وقلّة حيلتي. تعدني في كل زيارة بتصليح أشياء كثيرة خربانة في الشقة وتتصل أمامي، لا أعرف بمن، لكي ينطلي عليّ المشهد. لكنها لن تصلح أيّ شيء على الإطلاق، وعليّ أن أكرّر رجائي هذا في كل إطلالة لها، وأن تكرّر هي وعودها، حتى أصبحت هذه الرجاءات والوعود جُمَلاً مثل طقوس السلام والوداع.

1- كلمة Frau تعني في الألمانية سيّدة.

شعور مؤلمٌ ومزرٍ وأشدّ وطأة من أن يتحمّله من عاش طوال عمره في بلاد تبالغ فيها الشمس بهرجة وسهرجة، في بلاد يكاد لا يغيب عنها فحّ الشمس حتى في الليل.

عزائي الوحيد هو وجود حكيمة بين ذراعيّ. أنفاسها هادئة مستكينة ودفئها الناعم يعوض هذا الفقد الكبير. تنام دائمًا متمدّدة، رأسها أسفل ذقني وجسدها عند صدري.

أصحو مبكرًا في هذا اليوم. بل أنا صاحٍ طوال الليل. تتمدّد حكيمة فأتمدّد مثلها، وتتثاءب كأنّها تبتسم فأتثاءب وأبتسم. أبحث بباطن قدميّ عن الشبشب، فألمس أرضًا صلبة عليها مشمّع بارد نهم يلحس ما يتبقى من دفء جسدي من لمسة واحدة. أقوم من سريري وأتوجّه إلى المرحاض خارج الشقة. شباكه الزجاجي العلوي مكسور بالطبع. أفتح الباب كالعادة برفعه بصعوبة، ففي الشتاء يزرجن الباب ويزمجر أثناء الفتح ويتصلّب ويكحت في الأرض، كأنّه تيس مسحوب للذبح رغمًا عنه. أدخل وأمسح القاعدة البلاستيكية بورق التواليت. أرى الماء المتبقّي في قعر المرحاض تحوّل إلى ثلج. أحسّ بأنّي أجلس على لوح من الثلج. تنقبض كل عضلاتي فجأة، وأجاهد حتى أُخلّص جسدي من هذا المكان البارد ثم أقوم وأدخل شقتي لأغسل يديّ تحت ماء بارد، ثم وجهي تحت ماء أبرد، فالسخان أيضًا خربان له صوت سخان يخرفش ويطرطش لكنه يترك الماء يمرّ كما يأتي. أجهّز لي كوبًا من الشاي أضع عليه حليبًا خاثرًا، أسكبه في الحوض وأعيد تجهيز شاي من جديد وأشربه سادة، أشعر للحظات بأن لي جزءًا من جسد يحسّ بسريان الشاي الساخن إلى كفّيّ وشفتيّ ولساني وفمي وبلعومي

وبطني. أتلذّذ بهذا الإحساس. أحسّ بجوع من مقاومة ليلة أمس. أجد علبة سردين أخيرة وبيضة واحدة في الثلاجة مدفوشة من أسفلها. بمجرد أن أكسرها- وقبل أن أضعها في طاسة الزيت الساخن- أشم رائحة غدر ومحاولة اغتيال. رائحتها تكركب بطني الفارغ. أسرع بها نحو باب شقتي أفتحه بكوعي متّجهًا إلى المرحاض لأرميها فيه. لا ينفتح باب المرحاض المزرجن وتبدأ البيضة تشُرّ من بين أصابعي إلى يدي الأخرى إلى الأرض في خيوط لزجة مُقرفة. أحاول أن أسرع، تسقط البيضة على الأرض في صوت بائخ ويصعد بخار الرائحة كتبرُّز كلب مريض مصاب بالإسهال. قبل أن أفكر في الجري إلى الشقة لأبحث عن أيّ شيء كي أمسح به هذا القرف، أجد جاري العجوز 'هِرّ نوفاك'[1] الذي تجاوز السبعين في طريقه إلى مرحاضنا الجماعي. يقف فوق رأسي ملتحفًا بروب سميك وجورب وحذاء منزلي من الصوف السميك منحنيًا ومستندًا على الجدار وهو يتنفس بصوت متحشرج. يمدّ يده المرعوشة إلى أعلى ناحية وجهي مشيرًا إلى الجُرم، ويخفضها إلى أسفل نحو الجُرم؛ إلى آثار البيضة الملعونة، وهو يكرّر:

“أفّ! أعوذ بالله!”Pfui» «Um Gottes Willen!ما هذه الرائحة؟”

أقول له:

“أيَر كَبّوت!”[2]

أعرف أن سمعه ضعيف، فأضطرّ لتكرار الكلمة مرات في هذا الصباح الهادئ بصوت جاعر:

1- كلمة Herr تعني في الألمانية سيد.

2- Eier kaputt تعني أن البيض فاسد.

"أيآار كابووت! أياار كابوووت!"

يهزّ رأسه استياءً ويعود بطيئًا نحو شقته. أسمع منه كلمة "شايْسَه"[1] الشهيرة، وهذه أفهمها من كثرة سماعها رغم عدم وجودها في كتاب تعليم الألمانية.

أجري إلى الشقة، أسحب جريدة من تل جرائد 'الكورونا'[2] المكوّم في ركن الشقة، أمسح بها تلك الآثار وأرميها في عين المرحاض. وأشدّ سلسلة السيفون مرّات حتى تختفي الجريدة وأعود إلى الشقة.

الآن ليس عندي نِفْس لأيّ أكل. الرائحة تتشبّث بيدي وتتبخّر في الشقة وتلتصق بأنفي. أفتح علبة السردين وأضعها أمام حكيمة. تأكل بنهم كبير.

أتوجّه إلى الدولاب حيث أحفظ بعض زجاجات زيت عطر اللوتس التي اشتريتها من سوق أم درمان. أدهن يديّ بقطرة من زيت العطر، فأشعر بارتياح مؤقت. أشمّها بعمق حتى أغيّر نفسيّتي وأنا أنظر لورق الحائط الذي أمامي. أروح إلى أسواق أم درمان أتذكر يوم شراء العطر.

أعرف أن البقاء هنا في الشقة الباردة طوال يوم الأحد لن يجدي، كما لا يمكن أن أنام بقيّة اليوم في هذا السرير- التابوت. ولن أستطيع إن حاولت. إذًا الخروج للتمشية أفضل، لكن الجو كئيب ومبادئ سقوط الثلج تعلن عن عبثها في الخارج. أيضًا الذهاب إلى مقهى لن يمتدّ لأكثر

1- Scheiße تعني حرفياً "خراء" في الألمانية، أو كما نقول نحن أحياناً في بعض المواقف كلمة "زفت".

2- Die Krone أشهر جريدة يومية مقروءة في النمسا، وتعني التاج.

من ساعتين، أصدقائي قليلون وليس عندي تليفون لأتصل بأحد منهم. نلتقي عادة صدفة دون موعد وفي أيّ مكان.

أنا اليوم حزين دون أن أدري سببًا لذلك. يبدو أنني حلمت الليلة حلمًا مؤثّرًا لا يزال يحوّم في رأسي ويلخبط بالي. أحاول أن أتذكره دون جدوى. تأتيني فكرة تريحني قليلاً؛ أن أخرج من الشقة وأن أركب الترام خط N الذي يمرّ أسفل البيت حتى المحطة الأخيرة إلى حدائق 'البراتّر'[1]. لديّ بطاقة المواصلات الشهرية، ولن تكلّفني هذه الرحلة شيئًا. وأنا خبير بأدفأ المقاعد في هذا الترام.

أخلع ملابسي وأنا أوحوِح من الصقيع وبخار فمي يفحّ أمامي. ألبس ملابسي على عجل: فانلتين داخليتين وسروالاً داخليًّا طويلاً وجوربين وقميصًا وبلوفرين خفيفين، ليس عندي غيرهما، وبنطلوني القطيفة البني السميك وحذائي ثم البالطو الوحيد الذي أملكه والذي أهدتني إياه فراو مارتا بعد وفاة زوجها رجل المطافئ. عرضَتْ عليَّ بعضًا من ملابسه الكثيرة لكنّي أخذت فقط هذا البالطو السميك وقفازًا من قفازاته السميكة.

أضع حكيمة عند صدري داخل هذا البالطو الواسع وأغطّيها بالشال. حكيمة قطة غير عادية في طبعها وهدوئها، تبدو مثل كلب صغير. هي على غير عادة القطط في العناد، هادئة لطيفة. أضعها في عِبّي فتنام مثل جرو الكنغر. ترافقني إلى كل مكان: إلى المقاهي والسوق والسوبر

1- Prater ميدان كبير ومحطة شهيرة، بالقرب منها توجد أشهر مدينة ملاهي في ڤيينا بالاسم نفسه.

ماركت، وهي معي دائمًا في تلك الساعات الطويلة في المواصلات حين أهرب من البرد، مثلما سأفعل الآن.

قبل أن أخرج، أمدّ يدي إلى آخر قطعة 'سِمِل'[1]، أضعها في جيب البالطو علّني أستعيد شهيتي في الخارج.

أسميت قطتي حكيمة. ركّبت الاسم من اسمي أختيّ الصغيرتين كريمة وحليمة اللتيْن رأيتهما آخر مرّة منذ سنوات بعيدة، وكنت أتمنّى أن أراهما مرّة واحدة قبل أن تموتا. كنت أعرف أنهما تعذّبتا كثيرًا قبل موتهما، دون أن يكون في استطاعتي أن أفعل لهما شيئًا، أو على الأقل أن أؤجّل أو أخفّف من هذا الموت.

بسبب تعوّدي أخذ حكيمة معي لكل مكان، تحدث لي أزمة كبيرة في إحدى المرّات، لم يكن لحكيمة ذنب فيها. أذهب في يوم لأتبضّع في السوبر ماركت القريب 'بيللا'؛ فإذ بعد دفع الحساب واتجاهي للخروج بعد إعادة العَجَلة، يهجم على شابّان يلوي أحدهما ذراعي خلف ظهري ويضغط الآخر بركبته بعنف على ظهري وهو يبرطم بلهجة غريبة:

"أخيرًا قبضنا على أحد الجرابيع!"

أفهم فيما بعد أن مهنة أحدهما هي مفتش سوبر ماركت أو شيء من هذا القبيل، أمّا الآخر فهو عامل يرصّ المعلّبات على الرفوف. لا أعرف ماذا يحدث وأنا راكع على الأرض وسط مشترياتي المنثورة، أحاول حماية

1- Semmel نوع من الخبز الأبيض تشتهر به النمسا، قرص صغير يشبه ما نسميه في بلادنا بالكايزر.

حكيمة من هذه الدهسة المفاجئة من هذين الشابّين اللذين وجداني فريسة سهلة تحقق لهما أملاً في بطولة استثنائية.

يعتقد الغبيّان أنني أقوم بسرقة علبة سردين أو باكو شيكولاته أو قطعة لحم أو شيئًا من مقتنيات'بيللا' الثمينة، وأنني أخفيها داخل البالطو. يفتشان البالطو. يجدان قطة صغيرة داخل حضني. أحاول حمايتها من الأذى قدر ما أستطيع، فأقع على كوعي وركبتي فتتسلّخ، *ما* يجعلهما يصرّان على قلبي على ظهري وإخراج ذلك النتوء المنتفخ عند صدري. لا يشعران بحرج لأن الناس الذين تحلّقوا لا ينبس واحد منهم بكلمة واحدة. يتفرّجون في تلذّذ بما سيحدث لهذا السارق الغريب. لكنهم حينما يشاهدون القطة، أسمع تأسيهم وزعلهم على القطة المسكينة وليس على حالي.

أتنبّه لفتاة جميلة بنظارة وشعر يميل للون الحناء. تجمع كيس مشترياتي المتناثرة وتبرطم بما يشبه السبّ وهي تنظر بغيظ للبطلين، وتملّس على ظهر حكيمة المنزعجة. تلمّ عنّي كل ما وقع وتضعه من جديد داخل الكيس المقطوع. وتمدّ يدها بعلبة من شنطتها وتقول:

"هذه للقطة، طعام للقطط!"

أشكرها وأنهض متكسّرًا والبطلان يحاولان مساعدتي. أرفض أن يلمساني وأصرخ بصوتٍ عالٍ:

"هنا لن أشتري أبدًا أبدًا.. لن أشتري من هذه البيللا أبدًا.. 'شايْسَه'!"

ألوم نفسي فيما بعد لأنني لم أشكر الفتاة الطيبة. شعوري بالظلم

ينسيني. في الشقة أتذكر هذا الوجه المريح المبتسم ثم تلك النظرة الغاضبة- نيابة عني- للبطلين. يعيد لي هذا المشهد شيئًا من توازني وتصالحي مع أهل هذه المدينة، بل أنسى ساعتها كل الآلام التي أشعر بها. ثم أضحك على غفلتي وجهلي حين يتبيّن لي أن هذه العلبة التي قدّمتها الفتاة كهدية لحكيمة هي علبة طعام للقطط. أكتشفُ أنني أشتريها منذ شهور لرخصها ولصورة القطة الجميلة التي تزيّنها، وأنني آكل منها باستمرار. كنت أعتقد أن حكيمة تشاركني فيها بكل سعادة والتذاذ والصحيح أنني أنا الذي كنت أشاركها في علبة طعامها.

أخرج من البيت، أرى الرصيف أبيض والشارع مُغطّى ببساط خفيف من ثلج ينزل ببطء كالدقيق. الترام يقترب. أجري حتى ميدان 'رادِتْسْكي بلاتس'، أقفز إلى داخل الترام قبل أن ينغلق الباب. الكمساري الجالس في الخلف يترك الركاب الجدد يمرّون أمامه إلاّ أنا، يبحلق في وجهي وشكلي. أعرف أنه يريد أن يتأكد من اقتنائي لتذكرة المواصلات. أتحرّك نحوه وأرفعها أمام وجهه بحنق، فيشكرني بأدب بالغ.

أجلس بالقرب من كرسيَّ المفضل والمشغول الآن. تحت هذا الكرسي المفرد مباشرة مركز تدفئة الترام. أعرفه تمامًا. يخلو لي بعد ثلاث محطات فأنتقل إليه سريعًا.

وسائل المواصلات الڤيينّاوية هذه هي ملجئي الوحيد للهروب من عدوّي الأكبر: البرد. المكان الوحيد الدافئ الذي لن أضطرّ فيه- مثل المقهى- لطلب مشروبات إضافية إن أطلت فيه الجلوس. لقد جرّبت كل

الوسائل هربًا من البرد: السينما والمقاهي والمحطات المغلقة. وجرّبت كل وسائل المواصلات: الترام والأوتوبيس والمترو والقطار، لشراء الدفء بأبخس الأسعار، بالبطاقة الشهرية؛ وبقي الترام أجملها. لكني أسأم الآن من هذا التكرار. أسأم من بعض الوجوه التي تنظر إليّ بشكل يجعلني أشعر بانقباض شديد. نظرات مستغربة دائمًا كأنني من كوكب آخر. يتفرّجون عليّ ببجاحة عارضين عليّ أسوأ ملامح وجوههم، لا أدري لماذا. هذه الوجوه الكئيبة المكتئبة سرعان ما تتمدّد وتنبسط أساريرها لرؤية كلب يركب الترام أو المترو. تتحوّل السيدة العجوز أو الرجل الكبير إلى طفل وجد لعبته. يبدأ بالكلام مع الحيوان والابتسام واللطف الزائد ويطَبطِب على الكلب، بل يترك الكلب يلعق يده أو يدها. وحين يعتدل من كان بكلّ هذا اللطف أو من كانت في منتهى الحنان، يعود هذا الوجه الصارم بتلك الملامح والنظرات الغاضبة والوجه الكاره للدنيا ولبعض الناس.

أكاد أن أنعس في الترام من الدفء الذي حُرِمْتُ منه ليلة الأمس. كأن أشواكًا داخل يديّ وقدميّ تسري في دمي كالدبابيس. تلسع ثم تتوقف عن اللسع؛ فأشعر بشيء من الخدر اللذيذ بعد زوال الألم. يصبح الوضع المعتاد لدرجة الحرارة حالة استثنائية وفرصة عظيمة للشعور بالوجود، لكني أروح دائمًا في حالة نشوة عجيبة. حكيمة أيضًا تتمدّد عند صدري. تشعر بالدفء وبالأمان.

تركب سيدة على وجهها الرحمة والابتسام. تجلس بالقرب منّي. أشمّ منها رائحة تشبه عطرًا أعرفه. كأنّي أعرفها. أحاول أن أنظر

لملامحها. لكنها تجلس في موازاتي وخلفي تمامًا. أفضّل أن أغمض عينيّ محاولاً استرجاع ملامح هذا العطر؛ فأروح في نومة هادئة. الآن أشمّ الرائحة بوضوح وأتذكّر المكان الأول الذي شممتُ هذا العبق فيه. لا أفتح عينيّ مرّة أخرى. ها أنا أقترب من صاحبة العطر. إنه ذاته الذي كان في ضفائر أمي حين كنت طفلاً. كان لها هذه الرائحة الدافئة التي تشعرني بالأمان؛ فلطالما نهلتُ من هذا العطر وأنا طفل ملتصقٌ بها أشدّ الالتصاق، حتى أروح في النوم والأحلام. الآن لا أدري أين أنا ولا أريد أن أعرف. لا أريد أن أصحو. أروح مع هذا العطر.

أحلم بأنني مع أمي تحملني رضيعًا صغيرًا على هودج. نتحرّك فوق بعير في اتجاه الشمال مع قافلة طويلة كأننا في هجرة. أصير أكبر عمرًا في وقت قصير كلما نتجه شمالاً وأشعر في آنٍ ببرد أشدّ. عند المغرب ترتاح القافلة عند ما يشبه الواحة الصغيرة. تنزلني أمي؛ فأبدأ للتوّ في تعلّم المشي. بعد قليل أجلس صبيًّا على الأرض ألعب جوار نخلة رمَتْ رطبها. أضع بعضه في فمي، أجد طعمه مختلفًا. بين حلو المذاق ومُرّ وعديم الطعم. آكل منه وأتأمّل النوى. أنظر للنخلة العالية ثم أغني:

يا نخلة دوري دوري	أرمي لي تمر ونوري
أخفيني من الخفاشي	خدّام ابو الرّشاشي
لصّ الماعون والنّاسي	الوسواس الخنّاسي
يا نخلة دوري دوري	أرمي لي تمر ونوري

أدور حول النخلة حتى يصيبني الدوار فأستلقي إلى جوارها وأنام. حين أفيق لا أجد أحدًا جواري. أصير شابًّا يافعًا. تختفي القافلة وتنساني أمي. أشعر فجأة أنني في مكان غريب، وحين أنادي عليها أسمع لي لسانًا غريبًا.

مرتبك الآن في الترام بين صحو ونوم، بين عطر ودفء. أكاد أقترب من سبب حزني الصباحي الذي لا أدري أسبابه. بالتأكيد شيء من هذا الحلم راودني. هذا هو الحلم الذي لخبط بالي، لكن إلى أين سار أو يسير.

أسمع صوت لغط وضجيج. لا أريد أن أفتح عينيّ. أسمع أسماء المحطات من ميكرفون الترام الداخلي. أنتظر سماع جملة:

"المحطة الأخيرة، رجاء نزول الجميع!"

الضجيج يتزايد وأشعر بأضواء باهرة مثل الفلاش وأصوات في لغة لا أفهمها.

أصحو على مواء ضعيف لحكيمة البارزة من البالطو وأطفال متحلّقين حولي غير مهتمين بي بل بالقطة، وجمع من السيّاح يقوم بتصويرها وتصويري دون استئذان. تتّسع الوجوه بابتسامات طويلة عريضة للقطة وليس لي، وبعض الأسئلة السخيفة بإنجليزية ركيكة في رياء متسامح مؤقّت. أستاء من هذه الفرصة السيئة التي غفوت فيها فاغتصبوني بالتصوير وهم يضحكون، كأني تمثال أو لوحة. بينما تُقلِّص حكيمة جسدها وتنشب مخالبها الحادّة في صدري على غير عادة، خوفًا من هذه الأصوات الغريبة والصواعق والتكتكات المتلاحقة.

أملّس على ظهر حكيمة وأضطر للتنازل عن مكاني الدافئ. أتّجه إلى نهاية الترام. وأجلس في المقعد الأخير. لكنهم يملئون الترام بكامله. لحسن حظي تأتي المحطة الأخيرة سريعًا. أنــزل فيها مضطرًّا وأفرح لعدم نــزولهم وعودتهم في الترام نفسه. أودّ أن أبقى مثلهم بسبب البرودة القارسة. لكني أتراجع. أتمشّى قليلاً حتى يأتي الترام التالي. تموء حكيمة مواء الجوع الذي أعرفه فأشعر أيضًا بالجوع. أخرج قطعة 'السّمِل' الباردة ونتقاسمها. تهدأ حكيمة وتهدأ معدتي. أحاول أن أحدّد الوقت- دون ساعتي التي توقّفت- دون جدوى.

المكان يبدو في ضوء خافت لا يُعرَف منه إن كان الوقت صبحًا أو ظهرًا أو عصرًا. ضوء أشبه بنيون كبير شاحب. تختفي فيه معالم تحديد الوقت. هنا لا ظلّ للشجر أو لأيّ شيء. لا ترى لك ظلاً فتصبح هلاميًا مثل هذا الوقت لا حدود لك ولا تفاصيل.

أسير وحيدًا في هدوء جنائزي أتطلّع للثلج المنهمر بإصرار وللأشجار المغطاة بالبياض. ولا أثر للون الأخضر.

يقطع الهدوء صوت صارخ. من السماء المختفية. لمرور طائرة منخفضة. لا أرى شيئًا. أسمع فقط.

أتذكر وأنا صغير كيف كنت أنظر إلى أيّ طائرة تمرّ علينا- ونادرًا ما كان يحدث ذلك- كنت أنظر إليها وهي تتعالى فوقنا مثل السحاب. ثم أفزّ منطلقًا من الدار أو من أيّ موقع أكون فيه. من الحمّام. من النوم. من تناول الطعام. أخرج مندفعًا كالطلقة. عيناي معلقتان بالسماء.

أتكعبل في أشياء الدار أو أحجار الأرض، دون أن أهتمّ بالألم. أنظر إلى هذا الطائر العجيب عالي الصوت، هذا الطائر الفضيّ الشاهق الذي يجعر في السماء، يجعر في مكان ويظهر في مكان آخر. تاركًا وراءه في بعض الأحيان خطًّا أو خطَّين أبيضين مثل سحاب في ذيل طويل يتعرّج ثم يتورّم مثل الأمعاء ثم يختفي. كنت أتعجّب كيف يصدر صوته من مكان بينما هو يطير في مكان آخر. شخص ما لا أتذكره الآن، حاول أن يفهمني أن الطائرة أسرع من الصوت. لم أفهم، لأني لم أرَ الصوت يطير بل لم أرَ الصوت أصلاً. كنت أتمنّي أن أركب يومًا هذا الطائر المعدني العجيب وأن أري قريتنا من أعلى. لكن هذا الطائر لم يهبط أبدًا في قريتنا.

بعد سنوات وسنوات جرّبت الطيران مرات دون فرحة حقيقية. في كلّ مرّة أشعر أنني شخصان: واحد يبقى في مكانه إلى الأبد، والآخر مثل طيف يغادر إلى الدنيا الواسعة. الآن أنظر إلى الطائرات بعين باردة متحسرة. أعرف أنها تنقل الأجساد من مكان لآخر بكلّ سهولة، لكن الأرواح تبقى بعيدة في منأى، الأرواح لا تركب الطائرات. الأرواح لا تسافر بهذه السهولة أو بهذه الصعوبة.

توًّا أتذكر خليفة وَد نفيسة. إنّه هو الذي قال لي إن حركة الطائرة في السماء أسرع من الصوت. كيف كدت أن أنسى هذا الشاب الطويل الرائق. كان الشخص المنفتح الوحيد الصامت الذي التقيته في قريتنا مرتين لا ثالث لهما. كان قد درس في إحدى الجامعات في مصر لكنه

اهتمّ بالموسيقى والرسم. حينما كان يعود من أسفاره وأسمع بوجوده أظلّ أحوّم حول داره علّني أراه، ليحكي لي حكاياته الشيّقة عن البلاد البعيدة والناس البعيدين. مرّة وحيدة رافقني للمقابر وغنّى أيضًا في الطريق أغنيات جميلة لم أسمعها من قبل. كان بشوش الوجه. قال لي وكرّر هذا الكلام في المرتين اللتين التقيت به فيهما حتى حفظته:

"حين تسافر يا حمزة لترى الدنيا، سترى الأعاجيب. سترى أخلاقًا وسلوكًا أرفع من أخلاق وسلوك أهل قريتنا بكثير، وأخلاقًا وسلوكًا أردأ من أخلاق وسلوك أهل قريتنا بمراحل. سوف ترى هؤلاء الحمقى المذعورين الخائفين على أملاكهم في الدنيا، وسترى هؤلاء المخرّبين في الأرض، من ساسة وحكّام ومتديّنين وملحدين، من كبار وصغار، من نساء ورجال، سترى كل هؤلاء المستهترين شديدي الأناقة والكذب، سيحاولون الاستفادة من دمك الطازج- نفط بقائهم- كيفما استطاعوا وبكل الحيل وبكل تقوى وأدب. سترى الأعاجيب يا حمزة! سترى الأعاجيب والله!"

الساعة الجديدة التي أهداني إيّاها الشيخ ركابي في مصر ما زالت متوقّفة. متمرّدة على أوقات هذه البلاد. تحدّد وقتها كما تريد. أضبطها مرّات على ساعات الميادين والمحطات. الآن أضبطها على ساعة ميدان 'شْفيدِن بلاتْس'. أنزل في شارع 'طابُور شْتْراسّه' وأفكر في المرور على سوق 'كارميليتا ماركْت' لتضييع بعض الوقت.

أشعر بالجوع وأعرف أنه لا يوجد شيء يُؤكَل في الشقة، وأن ما معي

من نقود أوفّره لطعام حكيمة، كما أحتفظ لها ببعض من طعام القطط الناشف الذي أقدّمه لها في الأزمات. فأنا لا أحتمّل أن أراها تموء جائعة. الآن أفكر أن أشتري أكلاً يصلح لنا معًا.

لكم أحب الأسواق المفتوحة! أسواق الخضر والفاكهة. أفضّل أن أشتري في بعض أيام الجمع أو السبت من هذه الأسواق. لا أسمع بسوق في ڤيينا إلاّ وأزروها. أكاد أجزم بأنني أعرف كل الأسواق في ڤيينا: 'كارميليتا ماركت، ناش ماركت، هانوڤر ماركت، ڤيكتور أدْلَر ماركت، برونين ماركت.'[1] أفرح بهذه الحركة وأصوات البائعين وتلك الحياة الحيّة والمساومات التي تدور فيها، وفي الوقت نفسه كم أكون حزينًا وأنا أمرّ مساءً بهذه الأسواق! أرى في نهاية اليوم أكوام الخضر والفاكهة الصالحة للأكل ملقاة على الأرض في إهمال، تدوسها الأقدام وتتشمّمها الكلاب، أو تكتظّ بها حاويات النفايات في هذه الأسواق. أودّ مرّات أن أرفعها عن الأرض؛ أن أحملها معي، لكنّي أخجل لمروءتي. سيكون شعوري بالذلّ أكبر إن فعلت هذا.

أتذكر حين كنت صغيرًا، لم أكن أدَع أيّ لقمة خبز يابسة أو طريّة في عرض الطريق. علّمتني أمي أن أُقبِّل ما يقع منّي أو من غيري على الأرض وأن أجنّبه مَداس الأقدام، أن أضعه في ركن جدار، فلربما يكون من نصيب طائر أو دابّة؛ فما وقع هو حساب مُقدَّر لِحقّ الحيوان والطير- هكذا قالت لي. لكن أين أنا الآن من نصيب الإنسان أولاً من هذه الأكوام من النفايات. إن أشدّ الألم أن تكون وسط هذا الركام من الطعام وأنت جائع

- أسماء لأسواق كبيرة شهيرة في أحياء ڤيينا لبيع الخضروات والفاكهة.

ولا تستطيع أن تمدّ يدك إليه. إنها تلك المدن الغنية الأكثر قسوة على من لا يملك الشلنات.

يقف 'مِهْمِت'[1] في السوق، بائع 'ماروني'[2] من تركيا. يراني ويُحيّيني بالعربية دائمًا. يُقرئني دائمًا التشهُّد:

"تهِيّات للّه وسَلوَات وتيِّبات!"

هكذا يقولها معتقدًا أنها السّلام بالعربية. فأردّ عليه. أروح لأشتري خبز 'إكْمِك'[3] وجُبنًا من محل التركي وأعود لأجلس إلى جواره، لأن الفرن الذي يحمّص عليه الماروني يبعث دفئًا حميميًّا. أطيل الحديث معه، لأتدفّأ أكثر ممّا أحكي.

حين أحاول أن أنهض لأتمشّى قليلاً، أشعر بأن رأسي لم يتحرك من مكانه. كأنّي رفعت عينيّ إلى سواد. تتحرّك نقاط سوداء كثيرة تتراقص أمام عينيّ، تتزايد حتى لا أعود أرى. دوار يثقل رأسي ويرنّحني بكلّ هذه الذكريات البعيدة ولا أنجح في فكّ أسر رأسي بسهولة.

أجلس مكاني من جديد، وأروح على الفور إلى هذا الإحساس نفسه الذي دَاخَلَني يوم كنت في زيارة مقابر أمي وأختيّ؛ يوم العطش الشديد. أروح فيما يشبه الدوار. أغفو، فأعود لهذا الحلم الذي انقطع في الترام. أبدأ في استعادة ما انقطع:

1- ينطق الأتراك اسم "محمد" هكذا في لغتهم التركية.
2- أبو فروة.
3- اسم الخبز التركي.

أراني لا أزال أدور حول النخلة حتى يصيبني الدوار فأستلقي إلى جوارها وأنام. حين أفيق لا أجد أحدًا جواري. أصير شابًّا يافعًا. تختفي القافلة وتنساني أمي. أشعر فجأة أنني في مكان غريب. وحين أنادي عليها أسمع لي لسانًا غريبًا.

أقف في مكاني محاولاً أن أصرخ بصوتٍ عالٍ، لكن صوتي لا يخرج أبدًا. أشاهد بيتًا من زجاج على مسافة ليست بعيدة. أجري إلى هناك عسى أن يكونوا في داخله. حين أقترب يكون المنظر من الداخل مثيرًا: حديقة بها طيور ونافورة مياه وبعض الأشجار وبشر يلبسون ملابس عجيبة ويسيرون في خطوات آلية ولا يتكلّمون. أدخل لأبحث عن القافلة. فجأة أسمع صوت باب يُغلَق خلفي. الجو في الداخل أكثر لطفًا ونسيمًا. أرى الناس في خطواتهم الآلية المنتظمة يقتربون منّي ثم يقفون صفًّا يبحلقون فيَّ بتوهان غريب. ثم يُكملون المسير. أسألهم إن رأوا قافلة– أفرح بعودة صوتي لكنه يكون أجشَّ؛ صوت رجل عجوز. يردّون عليَّ بكلام غير مفهوم وإشارات عجيبة. لا أفهم. أبقى منزعجًا أريد الخروج. أكون قد كبرت دون أن أدري. فجأة أصير رجلاً عجوزًا.

عند الباب يقف عملاقان. يأمراني بأن أغيّر ملابسي؛ أن أرتدي الزيّ الموحّد مثل الجميع. أرى من خلف الزجاج خيال القافلة تسير في الخارج. وبالكاد أسمع صدى صوت أمي يناديني. أحاول الهروب لكنهما يهجمان عليَّ ويخلعان عنّي ملابسي ويُلبساني الزيّ الموحّد. ملابس كالإزار في لون أحمر دموي. حين أصير في هذه الملابس. أجدني مطيعًا في التوّ وأبدأ

أفهم كلامهم وتنسحب ذاكرتي تدريجيًّا. أكرّر ما يقول هؤلاء البشر بلهجتهم ذاتها. تكون لنا نغمة الصوت والنبرات نفسها، ولا فرق بين صوت كبير أو صغير ولا بين ذكر أو أنثى. أسير معهم في الخطوات الآلية المنتظمة نفسها التي بها يسيرون، ولا أدري إلى أين المسير.

تموء حكيمة مواء شكوى وضجر فتوقظني من غفوتي وحلمي. أُخرِج لها قطعة خبز وقطعة جبن. ألاحظ أنها في كل مرّة تمدّ قائمتها اليسرى لتجذب الخبز إلى حنكها. أجرّب إطعامها من زوايا مختلفة. فتفعل الشيء ذاته. أكتشف أنها عسراء تستعمل قائمتها اليسرى. أقول لها:

"يا شولة يا سَمحة أنت!"

أبتسم وأملس على رأسها سعيدًا. فأنا مثلها أعسر.

كنت أستعمل يدي اليسرى حين بدأت أتعامل مع الدنيا. قالت لي أمي إنها وجدت هذا شيئًا لطيفًا منّي لم تعرفه من قبل. لم ترَ أحدًا في كلّ عائلتها يستعمل يده اليسرى. تفاءلت أمي بذلك كثيرًا. وكان يسعدها في طفولتي أن تلعب معي وأن تشاهدني كيف أستعمل يدي اليسرى في كل حركة. أبي كان على عكسها، تشاءم من هذا الخلل- في رأيه- تقول أمي إنها بكت يوم عنّفها أبي أن الولد به مسّ من الشيطان، فهو يستعمل يده اليسرى، وأنه إن استعملها في حياته فسيقلّل الله عليه من بركة الدنيا. أمّا الشيخ الفكي، الذي كان يَعتبِر نفسه المفتي والشيخ والعلاّمة، فقد حكى لأبي أشياء كثيرة عن اليد

اليسرى؛ بأنها أولاً يد الشيطان، وأنها يد النجاسة وأن من يأكل بها لا يهنأ بطعام وأكله لا يسري ولا يمري، ومن يشرب بها لا يهنأ بماء ولا يتعافى بشراب.

حكى أبي قصة خرقاء يتداولها الشيخ الفكي في قريتنا، بأن الله حين خلق البشر كانوا أُحاديين بعين واحدة وأذن واحدة وفتحة أنف واحدة ويد واحدة ورجل واحدة، وأنهم كانوا في نعيم وسعداء. لكنهم حين رأوا إبليس بأعضاء مزدوجة، وصار يسخر منهم، اشتكوا لله وترجّوه أن يكون لهم مثل ما للشيطان، فقال لهم إن اليسار شرّ للشيطان يحمله حتى يوم الميعاد؛ فإن أردتم خذوا منه هذا الأذى وسيكون فيكم الخير والشر من الآن فاحذروا! فرح الناس بهذا، ومنذ ذاك اليوم صرنا مثل الشيطان بأعضاء مزدوجة.

أجبرني الشيخ الفكي ومن قبله وبعده أبي على التعامل بيدي اليمنى في كلّ أموري. كنت أجد نفسي أكتب بصعوبة باليد اليمنى بينما تُسهّل لي يدي اليسرى الأمر بكلّ بساطة؛ فكنت حين أكتب في اللوح بالطباشير أو بالأحبار بيدي اليسرى ويلحظني الشيخ الفكي من بعيد، يأتي كالنسر رافعًا عصاه الخيزران الطويلة لاسعًا ظهر يدي اليسرى بها، شاخطًا:

"هذه يد الرجس، ويد الشيطان لا يُكتَب بها قرآن!"

كان أشدّ ما يهري الشيخ الفكي ويغيظه، أنه حين كان يضربني لا أنبس بآهٍ أو هاءٍ. كان يشتعل حنقًا وأنا أنظر إليه بهدوء. أحمي وجهي

فقط من الضربات واللسعات ولا أفرّ رغم الألم، فتزداد رعونته وجنونه، وهذا ما كان يمنحني حالاً من الصبر في مواجهة شرّه المستطير. لن أنسى ضحكات أقراني يوم اشتدّ غيظه منّي فانهال عليَّ وأنا ثابت في مكاني حتى ضرط بصوت مسموع فضحك الحيران، فانهال ضربًا عشوائيًّا على الجميع وهم بين صراخ وضحك. كانت ضحكتي دائمًا هي الأعلى والأكثر سخرية به. وصرنا زمنا نتندّر على الشيخ الفكي بتسميته 'الشيخ زرطة' أو 'الشيخ الزّرّيط' ونقلد صوت الضرطة.

كنا نحن الحِيران- كما كانوا يطلقون علينا نحن من نتعلّم في الخلوة أو نتتلمذ على يد شيخ- كنا في خلوة الشيخ الفكي في خلوة الشيخ الفكي نمسح اللوح في المحاية، وهي جردل قديم من الصفيح الصدئ به ماء مركون. في يومي الأول في الخلوة وبعد الدرس أردت أن أقوم بعمل نافع، فأخذت الجردل الذي نغسل فيه المحايات- كنا نكتب بطباشير أو بأحبار- صببته على الأرض خارج الخلوة، فجنّ جنون الشيخ وسبّني. لم أعرف ما الغلط الذي فعلته. كان يبرطم بكلمات مثل:

"كلام الله! ماء الله! حروف الله! الشيطان الأعسر حمزة وَد الركابي! لعنة الله عليه!" فزعتُ وجريتُ يومها نحو الدار وهو يركض خلفي كالثور الهائج.

كان هذا هو يومي الأوّل في الخلوة.

غِبتُ في اليوم التالي. ادّعيتُ المرض لأبي، وحكيتُ لأمي الحكاية، فأشفقتْ عليّ. في المساء جاء الشيخ الفكي كالعادة لتفقّد الضحيّة

وليحكي لأبي عن فعلتي الشنعاء، بينما أبي يسبّ فيّ ويلعنني ويلعن الشيطان كأننا أنا والشيطان صديقان. خرجت أمي ووقفت وزَغرَت بعينها لهذا الشيخ الفكي حتى غيّر موضوعه إلى حكايات عن بطولات أخرى تروق لأبي. ثم صارا يضحكان في أصوات عجيبة ما بين السعال والفحيح، وهما جالسان على فروة الصلاة يحتسيان الشاي بالسكر الكثير.

ذهبت في اليوم التالي للخلوة وبعد الدرس أمرنا الشيخ الفكي أن نشرب هذا الماء باعتباره ماءً مقدّسًا أذبنا فيه آيات الله. كنت الوحيد الذي رفض، فأنـزل عصاه الخيزران على رأسي وجسدي بعنف. خشى أن يثير رفضي تمرّدًا بين الحيران إثر تمرّدي، حيث إنهم وقفوا لحظة مُتَبَجِّمين من هذا الرفض، ثم شرعوا عن قهر في الشرب، بينما انهال عليَّ مجدّدًا بغضب الدنيا ولهيب خيزرانته الطويلة. حميت وجهي فقط ولم أفرّ رغم الألم. لكنني لم أشرب الماء المقدس.

مرة أخرى في المساء حكى لأبي من جديد أثناء مروره لتوزيع جرعات العقاب الإضافية على ذوي الأطفال قبل النوم. قفز أبي من مكانه كعادته الاستعراضية غاضبًا:

"أنت يا عوير يا كعب يا كئيب! ما تشرب موية الله؟ أنت والله شيطان ابن شيطان!"

ردّت أمي من الداخل على الاثنين بصوت مسموع:

"كلام الله ما في الجرادل يا شيخ الفكي! كلام الله في الكتب وفي

العقول! كلامِ الله يدخل الدماغ ما يدخل البطن!"

ردّ أبي بتواطؤ وبصوت واطئ:

"ما تسمع كلام حريم ونسوان! ناقصات عقل ودين!"

فرحت لنصرة أمي لي، في الأيام التالية صار يأمر الجميع بالشرب بعد أن يوجّه لي أيّ أمر بإحضار أيّ شيء من مكان بعيد. أو يعطيني ظهره كأنه يخشى تمرّدي، إلاّ أن إلياس وَد فرح الناس كان يهرع إليه قائلاً:

"حمزة لم يشرب موية الله يا مولانا!"

فلعنني الشيخ الفكي:

"لعنة الله على حمزة! وشيطان حمزة! هذا الأعسر الكعب! داخل النار من أوسع أبوابها! "

ثم ضرب إلياس من غيظه كأنّه يضربني، فحرم المسكين من الوشاية بي بعد ذلك، ومع ذلك فقد حميت إلياس من أن يضربه صديقي الحميم عثمان دَرَب سِدرو الذي انتظره بعد المِرواح وأراد أن ينتقم منه لأنه دائمًا في صفّ سيدنا بل ويوشي بنا رغم بلادته في الحفظ والكتابة.

عثمان دَرَب سِدرو أو عثمان ضرب صدره، كانوا يطلقونها عليه لشجاعته، فقد حكت أمه أنه لمّا كان صغيرًا ويغضب، كان يضرب صدره بعنف مثل الغوريلا، ولمّا شبّ صار يفعل الشيء نفسه حين يريد أن يتعارك. كنا نخشاه ونخشى أذاه. كنت صديقًا له أعرف كيف كان والده يعنّفه ويضربه ضربًا مبرّحًا كلما رآه دون ما سبب، كأنه عدوّه اللدود.

هذا الرجل الذي كان ينجب كلّ عام طفلاً من زوجته المسكينة التي كانت في شبابها أكبر وأقوى نساء القرية- والتي ضمرت الآن من كثرة الإنجاب. بينما يختال هذا الديك متفاخرًا بأن له ثمانية من الأولاد والبنات، يسير دائمًا ملمعًا معمّمًا نظيفًا كأنّه ليس من أهل هذه الدار المتداعية.

حزنت زمنا طويلاً حين امتنع عثمان عن الحضور للخلوة أو اللعب معنا. هدَّهُ الهزال. شيء ما أصاب كليته وكان يجد ألمًا وحصرًا شديدًا أثناء التبوّل وينـزل بوله داميًا. تاه المسكين بين وَصَفَات الكيّ والتمليس بزيت الأدعية المحروقة ولا طبيب هنا.

مات عثمان دَرَب سِدرو وهو في الثامنة أو التاسعة بعد أن شرب العشرات من جرادل الله.

كان عثمان دَرَب سِدرو صبيًّا وسيمًا يشبه والده إلى حدٍّ كبير وله جسد أمه الضخم القوي. ولأن أباه كان يضربه بلا سبب، صارت وسامته مع الأيام مخدوشة مجروحة وظلّ وجهه يكتئب مع الأيام وسط تقدُّم الجروح والقيح والقرَوح والندوب حتى اختفت الوسامة. وضاع الإشراق خلف القهر وقلة الحيلة.

أتذكر كلّ هذا الآن وأنا أرى حكيمة تستعمل قائمتها اليسرى في جرّ السِّهل وفي اللعب وفي كل شيء. الآن تدور في ذهني هذه الحكايات والاعتقادات والتقاليد التي وصمتني ومسخَتُ من يدي اليسرى، مسخَتُ يدي ونعتتها بأنّها يد الشيطان.

{٢}

على الدرجات قبل الأخيرة من هذا السلم الحلزوني الضيّق في الدور الخامس تنقطع شنطة المشتريات الورقيّة الثقيلة التي أحتضنها طوال الوقت، خشية أن يحدث ما يحدث الآن. طوال الطريق الطويل يسقط عليّ هذا المطر السخيف في قطرات ناعمة، فلا أفكر في فتح المظلة. أُفضّل أن أنقل الشنطة الثقيلة من يد لأخرى كلّ مائة متر، وحين أحسّ أنني مبلول وأن الشنطة الممتلئة عن آخرها قد بدأت تبوش وعلى وشك الاهتراء؛ أرفعها وأحتضنها في صدري.

الآن تنشرخ من قعرها فجأة. صوت تمزُّق سريع يتبعه انهيار. يتدحرج رغيف الخبز إلى أسفل السلّم ويسقط البيض على السكر والشاي وتنفتح علبة الزبادي على الخضروات والفاكهة وينسكب الحليب على الكلّ وتكاد زجاجة الزيت تنكسر، أحاول بتلقائية أن أحميها بقدمي، فتسقط بقوة على قدمي اليسرى وتؤلمني، لكنها لا تنكسر. زجاجة الخلّ تنفَشِق وتصعد رائحتها نفاذة. للحظة تبدو الشنطة في حضني الآن عبثية المنظر وفي منتهى الخفّة، فارغة ومشروخة القعر، وأنا في وجه مغتاظ ألعن المطر السخيف والسلّم الحلزوني والشنطة وأنظر بغِلٍّ إلى المحتويات المبعثرة.

أجمع هذه الأشياء وأركنها في الركن العريض على البَسطة الأخيرة وأنزل الدرجات ألمِلم ما سقط. تقابلني صاعدة رشيقة بوجه مُشرِق مبتسم وفي يدها علبة تدحرجت منّي بعيدًا؛ علبة طعام حكيمة. تهمّ تساعدني في لمّ ما تبعثر. حين ألمس كفّها الدافئة دون قصد- وأنا أسمع صوت شخشخة أساورها الفضية- أشعر بارتياح مفاجئ وأتذكر مكانًا بعيدًا مازال يحيا في ذاكرتي. أبادرها:

"شكرًا.. شكرًا جزيلاً!"

"العفو! هل لديكم قطة؟"

"نعم."

"ما اسمها؟"

"حكيمة."

"هكيمة؟ يبدو الاسم جميلاً، لكن ماذا يعني؟"

"يعني die Weise"

"die Weisse[1]، هل هي بيضاء؟"

"لا، ليست البيضاء إنما الحكيمة!"

"كم عمرها؟"

"أعتقد سنتان ونصف."

1- weise تعني في الألمانية حكيمة أما weisse فتعني بيضاء.

"هل حصلتم عليها من ملجأ الحيوانات؟"

"لا."

".. .."

"هذه حكاية طويلة!"

ألملم بعض ما يمكن لمه وأتحرك في اتجاه شقتي. تسير خلفي وتحمل معي بعض الأشياء. أخمّن أنها بالتأكيد فضوليّة وتريد أن ترى القطة.

أفتح الباب فتستقبلني حكيمة كعادتها بمواء استقبالها الطويل الذي أعتبره دائمًا تحيّة ويعتبره آخرون شكوى.

تقرفص- من لا أعرف اسمها بعد- وتمسح بباطن كفّها الدافئ على ظهر حكيمة التي تقرقر بصوتها العالي ابتهاجًا. أراها رائعة في قرفصتها. أتمنى أن أكون رسّامًا أو نحّاتًا في هذه اللحظة، لأثبّت هذا التكوين الخُرافيّ الفتّان. شعرها مصفوف بعناية ودون تكلّف، ملامحها غنية في فتنتها التي تبدو من كلّ زاوية أجمل من الزاوية الأخرى. حكيمة أيضًا تُحسِن استقبال الضيوف. تدور حول الضيفة وتموء بصوتها العالي، والأخرى تتأوّه استحسانًا لهذا الاستقبال. أتركها تداعب القطة وأحمل شنطة بلاستيك فارغة وأعود لدرجات السلم لأضع فيها ما تناثر، ثم أرجع مرّة أخرى حاملاً جاروفًا ومقشّة صغيرة لأنظّف السلّم من البقايا ومن شظايا زجاجة الخلّ.

تظلّ- من لا أعرف اسمها بعد- مقرفصة على مسافة خطوة واحدة

عند مدخل الباب المفتوح. تتعدّد حركاتها العفوية: جالسة، واقفة، شبه جالسة، منحنية، مقرفصة، دائرة على قدم ثم على اثنتين. أتخيّل أنها راقصة باليه لخفّة حركاتها وخفّة وقع أقدامها، ومن حولها تدور حكيمة مرّة إلى اليمين ومرّة إلى اليسار.

أقول لها:

"تفضلوا!"

فتدخل على استحياء. تتسع عيناها في دهشة طفولية وهي تنظر إلى شكل الشقة. أسألها بصيغة الجمع والاحترام التي تعوّدتُ عليها في هذه البلاد:

"هل تسكنون هنا؟"

"لا، أخي يسكن هنا مع زوجته، وأزورهما لأرعى طفلتهما الصغيرة."

"أعتقد أنني أراكم هنا للمرّة الأولى!"

"أنا أحضر إلى هنا منذ عامين بانتظام، مرّة كلّ أسبوع؛ كلّ يوم جمعة. هل تسكنون هنا منذ وقت طويل؟"

"نعم، منذ أربعة أعوام وشهرين وخمسة أيام!"

"تذكركم الأيام بهذه الدقة يوحي لي بأنكم غير سعداء هنا."

"لا. ليس صحيحًا. إن المسألة مجرّد خشية من الزمن."

"خشية من الزمن؟"

"نعم خشية من الزمن الغادر. لقد عشت أزمنة كثيرة. كلّ زمن لم يدُم لأكثر من شهور معدودات. في كلّ مرّة تتبدّل حياتي إلى حياة أخرى لم أتوقّعها."

"لا أفهم!"

"هُنَا أصبحتُ بالتدريج مِثلَ الناس، أخشى الزمن، وأتوقّعُ في كلِّ لحظةٍ أن يتغيَّر الحالُ إلى ما لا أدري. أصبحتُ أنتظر شيئًا لا أعرفُه وأخافُ منه. أعيشُ الآن في وقتِ الناس هنا؛ الوقت الخطر. أتعرفون؟ لقد أتيْتُ من بلادٍ بعيدةٍ تَرْعَى فيها الوقتَ أمامَها كالغنم. تقول له: 'قِفْ! فيقف. سِرْ! فيسير'. تَهُشُّهُ أمامَها وعند أوَّلِ شجرةٍ تستلقي لتستريح، ثم تنام على الوقت دُونَ ساعةٍ أو حساب. وحين تصحو تَهُشُّ الوقتَ أمامَها إلى بُيوتِهَا من جديد ثم تنعس.

هُنَا الوقتُ خلفَ الناس مثل حيوان كاسِرٍ يجري خلفَ كلِّ واحد. ينهَشُ البطيءَ ويلتهمُ العاجز؛ إنه فوق الناس مثل طائرٍ جارح. على المرء هنا أن يَرْكُضَ ويَرْكُضَ من الوقتِ حتى ينهار. عشتُ زمَنَ الناس هناك والآن أعيشُ زمنَ الناس هنا، ولا حيلة لي، ولا أدري أيّهما أفضَل. لكني تعبتُ في كلٍّ منهما. لذلك أتفلسف."

"كلامكم مثير!"

"أنا أمزح فقط معكم.. إنها مجرد تهيّؤات."

صوتها أيضًا ساحر مثل خطواتها، خفيف وواضح وله لكنة مريحة. فضولي يزداد، فأغيّر دفّة سخافة حديثي:

"هل تشربون شيئًا؟"

"شكرًا، لا بد أن أمشي."

"عندي مشروب جميل من السودان اسمه كركديه، سيعجبكم بالتأكيد."

"لا أريد أن أثقل عليكم."

ردّها مريح ويعجبني، إذًا، فضولها لا يقلّ على الأقلّ عن فضولي.

"إنه سريع التجهيز لا يحتاج إلى جهد."

"لا بأس! سأجرّب!"

أجهّز لها بسرعة كوبًا من مشروب الكركديه. عند أوّل رشفة تتغيّر ملامح وجهها قليلاً. أرى على وجهها في المرآة المقابلة لمحة استغراب وتساؤل وهي تتأمّل المشروب بعمق. ألوم نفسي على تسرّعي الدائم في تقديم ما أحبّ من طعام أو شراب ظنًّا منّي أن الآخرين مذاقهم مثل مذاقي، ثم أطيِّب خاطري بأنّي أعتبرها تحيّة ومودّة منّي. تتابع الشرب ولا تترك الكوب. يبدو أنها تستحسنه تدريجيًّا مع كلّ رشفة. لكنني لست متأكّدًا. خشخشة أساورها الفضية تبعث في نفسي فرحة طفولية لا أدري مصدرها.

الآن تجلس حكيمة مستكينة في حجرها، كأنها تثبّتها. فترة الصمت القصيرة تقطعها:

"اسمي ساندرا، ما اسمكم؟"

"حمزة."

"همزة؟"

"لا، حمزة!"

"خمسة؟"

"حَمزة.. حَـ حَـ.. حَمزة!"

تضحك وتحاول أن تكرّر. تبدو مليحة غاية الملاحة حين تضحك هكذا. أرى صَفّي أسنانها ناصعين خلف شفتين ورديّتين وبسمة لا تغيب.

وجهها في لون سنابل القمح في أول الخريف. عيناها واسعتان لا أستطيع تحديد لونهما. والفم مبتسم دومًا بهذه الابتسامة الواثقة التي تذكرني بابتسامة فرعونية قديمة؛ ابتسامة الملكة حتسبشوت. حتى العينان فيهما هذا السحر القديم المنسي.

تتواطأ حكيمة معي في استبقاء ساندرا لوقت أطول. تتطلّع ساندرا حولها للحوائط ثم تبتسم. أسألها مستفسرًا:

"لماذا تبتسمون؟"

"أرى كلّ ورق الحوائط لصور نخيل حتى السقف. نسيتم الأرضية!"

تضحك بذات الملاحة وتستدرك ضحكتها باعتذار عن هذه المزحة السريعة. لكن اللفتة والمزحة تروقان لي فأشاركها الضحك. تبادرني:

"أتعشقون النخيل لهذا الحدّ؟"

"حين أتيت إلى هنا كانت الشقة مهجورة والحوائط قديمة وعليها ورق حائط مزعج. كنت كلّما نظرت للحوائط أصِبت بالزكام والبرد. كانت كلّها لجبال بيضاء من الجليد الناصع، حتى السماء كانت باهتة اللون يكاد لونها يميل إلى الأبيض. وكما تشعرون الشقة باردة مثل الثلاجة ولا تتحمّل مزيدًا من البرد. في يوم سبت أثناء مروري على 'الفلوه ماركت'[1] وجدت ورق الحائط هذا. كان رخيصًا. اشتريت كلّ ما عند البائع وغطّيت بنفسي كلّ هذا البرد المعلّق لسنوات على الحيطان. ومن يومها وأنا أشعر ببعض الدفء. أشعر كأنني انتقلت لمكان أقرب إلى الشمس. أوهم نفسي قليلاً، ومع الوقت ربّما أصدّق."

تقول لي وهي تمسّد على ظهر حكيمة المستكينة برأسها على فخذها.

"هل زرتم بيت النخيل Das Palmenhaus من قبل؟"

"لا. أين هو؟ هل هو متحف؟"

"لا. إنه مكان جميل داخل حديقة قصر الشونبرون. بيت من الزجاج لحفظ النباتات الاستوائية، اسمه بيت النخيل. ربما يعجبك هذا المكان."

"إنه مكان جديد بلا شك."

"لا. بيت النخيل[2] أنشئ في عهد القيصر فرانتس يوسف الأول

1- Flohmarkt وترجمتها سوق البراغيث. وهو سوق تباع فيه كل الأشياء القديمة بأسعار زهيدة.

2- Palmenhaus ومعناها "بيت النخيل" أنشئ في عهد القيصر فرانتس يوسف الأول في عام 1882 ويعتبر أضخم بناء باق في هذا الشكل الفولاذي في كلّ أوروبا. وفي بيت النخيل ثلاثة أجنحة كبيرة في ثلاثة أجواء حرارية مختلفة للنباتات والزهور والأشجار المتوسطية والاستوائية والجنوب استوائية.

لحفظ النباتات والزهور والأشجار التي لا تتحمّل الثلوج ودرجة البرودة القارسة."

"عجيب!"

"ما هو العجيب؟"

"كيف لم أعرف هذا المكان؟ على الأقل لأزور أقاربي هناك."

"أقاربكم؟"

أضحك وأنا أقول:

"نعم. إذا كان هناك نخيل ونباتات استوائية فإن أرواح أجدادي تعيش بالتأكيد هناك."

تنظر لي باستغراب واستفسار فأستدرك:

"أنا أمزح، لكن أقول الحق!"

تضحك من كلامي:

"ماذا أصدّق الآن من قولكم؟"

"البعض يصدّق أول الكلام والبعض يفضّل آخر الكلام!"

"وماذا تريدونني أن أصدّق؟"

"كلّ الكلام!"

تضحك. أسألها عن بيت النخيل هذا وكيفية الوصول إليه. تصف الطريق لي. أراها متردّدة قليلاً كأنّي لن أستطيع الوصول إلى هناك.

لكنها تبادر وتسألني:

"هل يمكن أن أشرب كوبًا آخر من هذا المشروب اللذيذ. هذا 'الكاركاتيه'؟"

أغتبط لهذا الطلب السهل الجَامِل. فقد اعتقدت بداية- وخدعتني المرآة أن ساندرا لم تستتسغ هذا الطعم.

"لقد اعتقدت أنكم لم تستسيغوا هذا الطعم. ربما هو لاذع لكم؟"

"بالعكس. إنه رائع. سكّره كثير إلى حدٍّ ما لكن أنا أحبّ الحلو على أيّ حال. قلتم لي إن اسمكم 'همسة'؟"

" 'همسة' اسم جميل أيضًا. لكن اسمي حمزة.. حمزة! الحرف الأول يختلف في النطق ولا يوجد في الألمانية. تعني كلمة همسة كما تنطقونها شيئًا آخر في لغتي."

تضحك الآن بصوت خلاّب.

"ماذا يعني همسة؟"

"يعني Fl}stern"

ورقة تسجيل السكن موضوعة في غلاف من البلاستيك الشفّاف على المائدة القريبة. تراها فتستأذن وتسحبها بأصابعها برفق. تريد أن تتهجّى الاسم. تنتفض فجأة وتقول:

"يا إلهي!"

أنتفض أنا الآخر وأقف في مكاني لا أدري ماذا بها؛ فتكرّر بصوت لا أعرف أهو ابتهاج أم ذعر:

"يا إلهي! هل هذا صحيح؟"

"ماذا؟"

"إن عيد ميلادكم غدا؟"

أقول مرتبكًا مستريحًا كأنّي فعلت ذنبًا يستوجب الاعتراف:

"نعم!"

"وماذا أعددتم للاحتفال بهذا اليوم؟"

"احتفال؟ بِمَ أحتفل؟ أنا لا أحتفل بعيد ميلادي!"

أقولها بصرامة لا تناسب بهجتها. بينما تنتقل حكيمة الآن إلى صفّي كأنها تؤيّدني وتجلس في حجري، مثلما كانت هناك في حجرها. تصمت ساندرا قليلاً ثم تتابع:

"ما رأيكم؟ لنحتفل غدًا بعيد ميلادكم. عندي فكرة!"

أرقبها بتوجّس لأتأكّد أن مفعول الكركديه لم يؤثّر عليها.

"ما رأيكم؟ سأدعوكم في مناسبة عيد ميلادكم إلى بيت النخيل."

أوافق على الفور. تقوم من مكانها خفيفة وتقول:

"سوف آتي غدًا في العاشرة لنذهب معًا."

لا أردّ. كأنّنا يعرف بعضنا البعض من زمن قديم. أنظر لوجهها المختفي

خلف الخصلات وهي منحنية على حكيمة. قبل أن تستأذن بالخروج تمسح على ظهر حكيمة، فتموء بصوت غريب عليّ ومضحك في آنٍ، كأنها تودّعها أو تريد أن تستبقيها. أحمل حكيمة على ساعدي وأرافق ساندرا إلى الباب. لا أعرف ماذا أقرأ في عينيها الآن. حين تغادر الشقة أترك الباب مفتوحًا كعادتي حتى يغيب الزائر عن عينيّ. أبقى عند العتبة وعلى ساعدي حكيمة. تشير ساندرا لنا بيدها عند نهاية الممر الخارجي الطويل وتقول:

"إلى الغد!"

أسمع صوت الأساور وأدخل متباطئًا. أفكر في هذه الزيارة الاستثنائية. أُقبّل حكيمة وأدور بها كطفلة في الهواء. أشعر بمرح كبير وأن جسدي يريد أن يفارقني للحظة ليرقص حرًّا دون تكلُّف أو تدجين. أقول لحكيمة:

"طعامك هو السبب. وأنت السبب في حضور هذا الجمال الساحر الزائر يا أجمل 'هكيمة' في النمسا!"

أنطقها كما تنطقها ساندرا.

ليلتي هذه أنامها قلقًا. ليس بسبب البرد فقط. لكن لأن ساندرا قد تركت عبقًا من خفّة روحها في هذه الشقة. أقوم في الليل أشرب كوبًا من الكركديه على غير عادة. أجد طعمه ألذّ ممّا كان. أنظر إلى ورق الحائط. أنظر للنخيل كأنّني في معرض. أرتاح رغم مقارنتي للنخيل الذي في مخيلتي- والذي رأيته طوال عمري- بهذا الملصوق على الحوائط

والذي لا يهتزّ ولا يرمي تمرًا، إلاّ أنني أشعر بتعويضٍ ما يريحني على الأقلّ في هذا الوقت المتأخّر من الليل. أوهم نفسي بأن الجوّ أصبح أدفأ الآن، فأسحب هذه الفكرة معي إلى السرير.

عند الفجر أنام نومًا عميقًا. أصحو في التاسعة على صوت المنبّه العالي. اخترت هذا المنبه ذا الجرس النحاسي على رأسه كالتاج- أيضًا من' الفلوه ماركت'. أعجبني وذكرني بمنبّه جيراننا في ودّ النار، ناس عبد المالك. ذاك المنبه الذي كنت أصحو على صوته العالي رغم بُعدِه عنّا. أصحو الآن مرهقًا، أشعر بالبرودة في قدميّ وأطراف أصابعي. سرعان ما يصيبني النشاط حين أتذكر زيارة الأمس التي كانت وزيارة اليوم التي تقترب.

آخذ دُشًّا سريعًا آملاً أن يصبر السخان شغالاً لخمس دقائق فقط، لكنه يأبى كعادته. بعد دقيقتين بالتمام يتوقّف ويصبح الماء باردًا كالثلج، فأوحوِح خارجًا. ألبس ملابسي في عجالة ثم أضع الطعام لحكيمة وأشرب شايًا بالحليب وآكل قطعة خبز 'سِمِل' بالزبد والمربّى.

يمرّ الوقت بطيئًا وسمعي عند باب الشقة، وكلّما مرّ أحد إلى دورة المياه الخارجية أعتقد أنها ساندرا.

في تمام العاشرة تدقّ خبطات هادئة على الباب. أعتقد أنني أتخيّل. تتكرّر الخبطات هادئة. أفتح. تدخل ساندرا مشرقة أكثر من الأمس. الوجه بديع مبتسم مع رائحة عطر ياسمين ترافقها وتناسب هذا الصباح الذي يتحوّل حالاً إلى الدفء. ملابسها في ذوقٍ راقٍ. يجذبني

إليها هذه العفوية الطاغية على سلوكها وملبسها وفي بسمتها وخفّة روحها. تغييرٌ ما يتسرّب إليّ، فأرتبك قليلاً. ويضيع الارتباك حين تقترب لتضغط على يدي مهنئة بعيد ميلادي. اقترابها يوحي إليّ كأنها تريد أن تقبّلني أو ربّما أنا واهم بسبب قربها الشديد من وجهي. يرتبك كلانا لوهلة. نبتعد قليلاً، لكن تبقى يدها الدافئة في يدي المحظوظة لوقتٍ أطول. تأتي حكيمة كأنها تعرفها من زمن طويل. وتتكرّر طقوس الأمس نفسها.

"هل تشربون شيئًا؟"

"كركاتيه، من فضلك!"

"اسمه كركديه لكني من اليوم سأغيّر اسمه إلى كركاتيه!"

أكون مستعدًّا للخروج. تخاطب حكيمة بأسى وهي تشرب الكركديه:

"سنتركك وحدك أيتها المسكينة!"

أردّ:

"السبت هو يوم خروج وفسحة حكيمة."

"كيف؟"

"إنها تخرج معي أو بالأصحّ أخرج أنا معها."

"إلى الشارع؟"

“نعم! وفي المواصلات العامّة وإلى السوبر ماركت وإلى كلّ مكان. إنها ترفض أن تفارقني. بل تعرف ڤيينـّا الآن أفضل منّي.”

“ألا يزعجها الضجيج والناس؟ إنها قطة وليست كلبًا!”

“سوف ترون بنفسكم!”

ألبس البالطو وأنادي حكيمة الرابضة بين ساعدي ساندرا وصدرها. تقفز متجهة إليّ. أضعها داخل البالطو عند صدري، فتستكين. تقترب ساندرا مستغربة جدًّا وتنظر إلى داخل صدري لتتأكّد أنه ليس شُغل حواة وأن الأمر جدّ. تقترب غير منتبهة لنظرتي إليها. رائحتها ساحرة مُسكِرة وهي قريبة.

في الشارع يظلّ نظرها معلقًا بصدري وهي تبتسم. ننزل إلى قناة الدانوب من عند ‘أورانيا’ ونسير حتى ‘شڤيدن - پلاتس’. الطريق ليس بعيدًا حتى المحطة، لكن الجو بارد وآثار ثلج مازال يطفو في قناة الدانوب. والناس في معاطفهم الثقيلة يسيرون بسرعة وبخار أفواههم يسبقهم ونحن مثلهم. حين نجلس في المترو رقم ٤. تُبرِز حكيمة رأسها مثل كنغر صغير، تتطلّع للمكان. تضحك ساندرا بسعادة وهي تمسح على رأسها. أفعل الشيء نفسه. والناس كالعادة مستغربون مما نفعل. البعض يبتسم والبعض يهزّ رأسه استياء والبعض لا يبالي.

ننزل مع ساندرا في محطة ‘الهيتسِنْج’. نعبر معها الطريق وندخل هذا القصر، قصر الشونبرون، ونمشي مسافة ليست بعيدة، فيبرز لي هذا المبنى الزجاجي الذي وصفته بالأمس.

أقـول لـهـا:

"أهذا المبنـى الجديد من القـرن الماضـي؟"

"نـعـم. لـكـن تمّ تجديده. دون تـغـيير أيّ شـيء فـي طرازه الأصـلـي."

بالـقـرب مـن باب الـدخـول أحـاول أن أسـبقـهـا لأشـتـري تـذكـرتين، لـكـنـهـا توقـفـنـي فـي حـزم وتـقـول:

"لـقـد اتـفـقـنا بالأمـس أن أدعـوكـم فـي عـيـد مـيلادكـم."

نـدخـل. أوّل مـا أشـعـر بـه هـو هـذا الـدفء الجـمـيـل الـذي يـغـمـرنـي عـنـد البوابة. أشـعـر أنـنـي فـي رحـم يـرحـمـنـي مـن بـرد الـدنيا فـي الخـارج. ألـفـة تـغـطّيـنـي عـلـى الـفـور كـأنـي ألـبـس وشـاحًا مـن الـشـمـس. أرتـاح لـهـذا الـشـعـور؛ لـتـلـك الـرائـحـة الـتـي أعـرفـهـا ولـهـذا الـدفء الـذي أعـرفـه. هـذا الـدفء الـنـادر الـذي افـتـقـدتـه لـسـنـوات. هـا هـو يـعـود الآن مـع سـانـدرا. وسـط زهـور وأشـجـار ونـبـاتـات. أنـخـدع فـي الـبـدايـة بـأصـوات الـطـيـور؛ أصـوات اصـطـنـاعـيـة لـكـن لا بـأس. أبـطـئ الخـطـو وأتـأمّـل.

يـشـرق وجـهـي. وتـنـظـر لـي سـانـدرا بـفـرح طـفـولـي. أقـول لـهـا مُـمـتـنًّـا:

"هـذا مـكـان مـجـنـون! لـي فـي ڤـيـيـنـا خـمـسـة أعـوام وأربـعـة أيـام ولـم آتِ إلـى هـنـا مـرة."

تـصـحّـح لـي وهـي تـضـحـك:

"ثلاثـة أيـام ونـصـف!"

أسير كالمخدَّر، أنظر إلى النباتات. أسأل ساندرا:

"أين النخيل؟"

"في الجناح الأيمن."

نسير معًا. نفتح بابًا ونغلقه خلفنا. تستقبلنا رائحة أعرفها جيدًا؛ رائحة رطوبة استوائية دافئة. أفرح. أجلس معها على أريكة بيضاء أمام نخلة وحيدة. لا أريد أن أنبس بسؤال ألحّ عليّ: "أين بقية النخيل؟" أردت أن أتأمّل تلك النخلة دون أسئلة. نخلة واحدة في كلّ فيينا تكفي. أشعر بارتياح كبير. تنتابني حالة مثيرة من لخبطة الذكريات وتزاحمها. ساندرا تجلس جواري تمامًا. تداعب القطة عند صدري. البعض ينظر لنا بفضول من بعيد لا يريد أن يفسد الخلوة. البعض الآخر يتلصّص من خلف النباتات يريد أن يعرف لماذا تغوص يداها هكذا داخل صدري.

أقضي يومًا من أجمل أيّام حياتي بصحبة ساندرا وحكيمة في هذا البيت؛ بيت النخيل. أتحرّك للمرّة الأولى داخل بيت النخيل لكنني أشعر كأني في مكان عشتُ فيه سنوات. أسير وأدور وأرفع رأسي وأعود للمكان نفسه. تقول لي:

"هل يروق لكم المكان؟ هل أنتم مستريحون هنا؟ أم أُصِبتم بخيبة أمل؟"

"لا أجد الكلمة المناسبة لأعبّر لكم عن امتناني. هذه هديّة رائعة. ومتى إذًا يكون عيد ميلادكم؟"

"لقد مرّ وقت طويل على عيد ميلادي. أنا مولودة في الثاني من مايو عام ١٩٧٩"

أغلق عينيّ وأسرح طويلاً. أخرج حكيمة من البالطو وأضعها في حجرها. تخاف ساندرا أن يصيب حكيمة الذعر فتمسكها بيدها بحرص. أطمئنها بأنها لن تبتعد. وأنها ستبقى إمّا لديها أو لديَّ ولن تفارق المسافة التي بيننا إن كنّا خارج الشقة، بل هي تكاد تفعل ذلك في الشقة أيضًا مثل طفلة صغيرة.

أسرح بذهني بعيدًا وأغلق عينيّ. رائحة الدفء والحرّ وصوت الطيور الخادع جعلني أروح في أغوار حياة أخرى.

أسير في مكان مظلم جدًّا. لا أرى شيئًا حولي، ولا أعرف من أين أتيت ولا إلى أين أذهب. الأرض تحتي كالإسفلت صلبة وباردة. ألبس صندلاً جلديًّا. أخلع الفردة اليسرى وألمس الأرض بباطن قدمي برفق. إنه ثلج بالتأكيد، لأنني أشعر بالبرد يكهرب جسدي. ألبس صندلي من جديد لكن تبقى قدمي اليسرى باردة. أصطدم فجأة بما يشبه حائطًا رخوًا باردًا. أعود بعض الخطوات فأصطدم بحائط آخر أكثر برودة. أشعر بإحساس غير مريح. كأنّي واقع في فخ. أتوقف محاولاً تحديد مكاني. أسمع صوت ريح، سرعان ما أشعر بها باردة كأنّ شخصًا ما يفتح بابًا أو طاقة.

أسمع صوت قطة. يفرحني المواء. صوتها يقترب منّي. أرى في الظلمة عينين تلمعان. تقترب العينان من قدميّ ويدور جسد صغير

ناعم دافئ حول قدمي اليسرى. أقرفص وألمس فروتها بامتنان. أشعر بأول الدفء. تبتعد القطة قليلاً وتموء من جديد. أتبعها. أخشى أن أعود للاصطدام بالحوائط. أرفع يديّ أمامي وأسير في حذر. بَوّصَلتي هي مواء القطة. كلما تنظر للخلف وأرى بريق عينيها أسرع الخطى. فجأة أجد نفسي أسير فيما يشبه الرمل الدافئ. أخلع صندلي. أجده رملاً دافئًا. أضع الصندل تحت إبطي وأتبع القطة بكلّ فرح وامتنان. أسير خلف هذا الفأل الطيب.

الضوء يظهر من بعيد في أفق يشبه الفجر ثم يتحوّل إلى صبح في ثوانٍ معدودات. أجد القطة تركض أمامي. حجمها صغير مقارنة بالعيون الواسعة التي رافقتني في العتمة. أذناها طويلتان. قطة من سلالة فرعونية قديمة. هناك فتاة تقف بعيدًا عنّي. تقف أمام باب دار، أمامه شجرة ليمون وزير فخار كبير ينشع ببلل يلمع. أذهب إليها لأسألها إن كانت هي صاحبة القطة. تختفي داخل الدار. الباب مفتوح. أدخل خلفها. ألمحها من بعيد تختفي خلف بستان الدار. أدخل البستان. أقف وسط أشجار رمان وبرتقال وليمون ومانجو ورائحة لشجر جوافة لا أراه. أرى نخلة واحدة سامقة في وسط البستان. تبدو قريبة، أمشي إليها، لكني لا أصل رغم كلّ هذه الخطوات. كأنّ النخلة أيضًا تسير. أشمّ أريج ليمون وياسمين. بعيدًا أرى النخلة سامقة. أتجه إليها مارًّا عبر جدول صغير. أشعر بدفء ورطوبة وأصوات طيور تصدح كما عند شقشقة الفجر. بينما الشمس تظهر في بطء في قرص أرجواني مذهل. الآن أعرف إلى أين المسير.

أشعر بشيء دافئ يستقر بين فخذيّ. أفتح عينيّ، أجدها حكيمة. تدور دورتها وتستقر في مكانها المفضل؛ في حجري. ساندرا تنظر لي وتقول:

"كنتم تبتسمون بفرح وتتكلمون بصوت هادئ. لكن لم أفهم كلامكم."

أفكر أن أسرد عليها هذا الحلم العجيب. لكنّي أفضّل أن أسألها سؤالاً آخر:

"هل جُعتُم؟"

"نعم، لكني سأدعوكم للأكل في مطعم أحبّه وأتمنّى أن يعجبكم. لا تنسوا، مازلنا نحتفل بعيد ميلادكم!"

"لا، سوف أدعوكم أنا!"

"لقد اتفقنا من الأمس. لا تغضبوني!"

أتذكر أنه ليس معي نقود كافية. أستدرك:

"أنا طباخ ماهر، ألا تريدون أن تأتوا معي؟"

تفكر لحظة ثم تنظر في ساعتها وتقول:

"إذن، هيا بنا!"

نعود إلى شقتي. أريد أن أثبت لها أنه بإمكاني أن أفعل شيئًا مفيدًا. أطبخ بسرعة طباخ خبير وهي تنظر إلى ما أفعل. تسألني أين تعلمت

الطبخ وهل هي مهنتي وعن أسماء التوابل التي لا تعرفها.

العجيب أن أحدًا منّا حتى الآن لم يسأل الآخر عما يمتهن، على غير عادة أهل البلاد هنا. في حوالي نصف ساعة يكون كلّ شيء جاهزًا على المائدة. نأكل ونضحك وتشاركنا حكيمة الطعام ثم تنام في حجرها كعادتها الجديدة. تحكي لي ساندرا مختصرات عن حياتها وأحكي لها القليل وهي صامتة. أراها تريد أن تسمع الكثير لكنها لا تبالغ في فضول أسئلتها وأرتاح لهذا كثيرًا. تقول:

"الشقة باردة."

"نعم قليلاً."

ليست الشقة باردة قليلاً بل في منتهى البرودة. ونحن متدثّران بالمعاطف الثقيلة. كمن يجلس داخل ثلاجة كبيرة. أغيّر الموضوع ببعض الأسئلة عن بيت النخيل. أريد أن أبقى بذهني هناك. أريد أن أطيل هذا اليوم الجميل إلى أقصى ما أستطيع. تصل الساعة إلى الخامسة والربع عصرًا. قبل أن تستأذن بالذهاب تسألني:

"في أي عام ولدتَ يا همزة؟ وأين؟"

"ولدت في قرْية تدعى وَدّ النار في وسط السودان. أنا من مواليد عام ١٩٧٤."

أتوقف عند عام مولدي. تصمت وأصمت والكلام المحبوس بيننا بحر لا آخر له.

عند الباب نقف مرّة أخرى حكيمة وأنا. نودّعها. أقول لها وأنا مازلت أشمّ رائحة الياسمين:

"لقد حفرتم لكم يومًا رائعًا في ذاكرتي يا ساندرا!"

تقبّلني بسرعة في وجنتي وتقول لي:

"عيد ميلاد سعيد يا همزة!"

تقبّل حكيمة أيضًا على رأسها. أقبّلها على رأسها بقبلة خافتة لا أريدها أن تشعر بها الآن. تنظر إلينا بعينيها الواسعتين وتسير بخِفّتها أمامي في الممرّ. تستدرك:

"هل تسمحون لي أن أمرّ كلّ جمعة لأرى هكيمة؟"

أبتسم بسرور. وأضع أذني عند رأس حكيمة كأني أستمع إلى ردّها وأقول:

"حكيمة تقول لكم إنها في انتظاركم كلّ يوم، ليس فقط كلّ جمعة!"

يأتي مساء السبت
ليل السبت
صباح الأحد
ظهر الأحد
عصر الأحد
مساء الأحد
ليل الأحد؛

يمر أسبوع كامل بطيئًا على هذا المنوال، ويصبح يوم الجمعة المنتظَر هو الأهمّ في الأسبوع.

يأتي يوم الجمعة بعد زمن طويل. أصحو مبكرًا جدًّا على غير عادة. أجهّز الشقة طوال الأسبوع في شكل أبهى رغم تواضع المكان. أطبخ مسقعة وأرزًا بالشعرية وسلطة خضار عربية وسلطة طحينة وسلطة بابا غنوج وأشتري خبزًا عربيًّا.

يمرّ الضحى بطيئًا وسمعي عند باب الشقة. كلّ صوت خارج الباب أعتقد أنه وصول ساندرا.

سبع دقائق قبل تمام العاشرة تدقّ خبطات هادئة على الباب. أفتح. تدخل ساندرا، يدخل معها العطر والابتسام ويخرج الانتظار السخيف المملّ. الارتباك المعتاد يتكرّر حتى تخفّف حكيمة من هذا التوتر اللطيف. أنتبه أنها تحمل أصيصًا في يدها بها زَرعة ما مغلّفة بورق أخضر. أحمله عنها فترفع الغلاف. أجدها نخلة صغيرة جدًّا في نهايتها ثلاثة أفرع مستقيمة وسامقة. قبل أن أتكلم تقول:

"وجدتها اليوم في محل الزهور وحيدة. قلت لعلها تفرح بوجودها وسط غابة النخيل التي في شقتكم."

"شكرًا جزيلاً. هذا كثير."

"لقد أنقذت النخلة المسكينة والآن هي في رعايتكم."

"هل تتصوّرون أنني خلال الأسبوع الماضي ذهبت ثلاث مرّات إلى بيت النخيل؟"

وجهها يحمرّ حياءً وتخفي تنهيدة يبوح العطر وخشخشة الأساور بها. تقول:

"يبدو أنه أعجبكم كثيرًا ؟"

"نعم، جدًّا!"

"إذن، ما رأيكم أن نذهب معًا غدًا مرّة أخرى؟"

يدها الآن على ظهر حكيمة ويدي على رأس حكيمة التي يصدر صوت قرقرتها أعلى من المعتاد. فنضحك معًا في صوت واحد.

يمرّ الوقت خفيفًا دافئًا. تستلذّ طعامي كثيرًا وتسألني عن التوابل المستعملة وعن طريقة صنعي للطعام.

تدخل الآن إلى المنطقة التي أبرع في الحديث فيها. أسألها إن كانت تعرف الحبَّهان. تقول لا. فأقفز لأحضر لها الحبَّهان. تتذوّقه وتشمّه وتستحسن رائحته وطعمه. وأسترسل في الأطعمة التي يُستعمَل فيها والتي يُستحَبّ أن يكون فيها. ثم يأتي دور الكمّون ثمّ المِستِكة ثم الزعفران والشَّبَث.. إلى آخر قائمتي المحفوظة. أظلّ متمسّكا بهذه المنطقة؛ منطقة التوابل. وهي سعيدة تسأل وتشمّ وتتذوّق وتأكل بارتياح وشهية. تتذوّق الشطّة الحارّة معتقدة أنها كُركُم فتصرخ بوحوحة لذيذة تثيرني؛ فأنتهز الفرصة لأقول لها:

"الآن نطقت أول حرف من اسمي بطريقة صحيحة. كرّري!"

نرتوي ضحكًا حتى تقترب الدموع وتظهر. وحكيمة تخفّف كلّ توتّر

أو صمت بالتدخل والمواء. فنعود للضحك من جديد. وأنا أفكر في حلم جديد للغد.

في اليوم التالي نذهب إلى هناك؛ إلى بيت النخيل. أكون كالطفل الصغير الذي يندفع إلى ملعبه المحبّب. هذه المرّة أُسرع لدفع قيمة التذكرتين. تتركني أدفع وهي غير مرتاحة. في الداخل أعود إلى المكان نفسه الذي كنت فيه في اليوم الأول والأيام الثلاثة التالية. تستأذن منّي لدقيقة ثم تعود وعلى وجهها بِشْر جميل وحُمرة خفيفة تثير ابتهاجي. تسألني وهي توجّه كلامها إلى حكيمة:

"إن شقتي ليس بعيدة من هنا. ألا تريدين أن تَرَيْ شقتي؟"

أترجم لحكيمة السؤال بصوت واضح. تموء حكيمة بطريقتها الرائعة حين أحادثها بالعربية. تَسعَد ساندرا لهذا الصوت. أقول لها إن هذا يعني: "بكلّ سرورا" ثم أتابع:

"نسيت أن أقول لكم إنكم تشبهون ممثلة نمساوية جميلة لا أعرف اسمها. لكني أراها كثيرًا في الأفلام القديمة بالأبيض والأسود- التي أشاهدها."

تذكر لي بعض الأسماء فأعتذر لجهلي بها. تقول إنها سمعت هذا أيضًا مرارًا. رغم أنها لا تجد شبهًا بينها وبين أيّ ممثلة.

في الثالثة نتحرّك ثلاثتنا إلى شقة ساندرا في الحيّ السابع. نركب

مترو رقم ٤ حتى محطة 'كارلس بلاتس'. نتوجه إلى 'الرِّنج'[1] ونركب ترام رقم واحد عبر الأوبرا والمكتبة القومية ومتحف تاريخ الفنون وننزل عند البرلمان في محطة بلاريا. نأخذ الترام رقم ٤٩ المتجه للحيّ السابع. البيت كأنه متحف من الخارج ومن الداخل. تقول لي ساندرا إنه بيت قديم نجا من خراب الحرب العالمية الأولى ودمار الحرب العالمية الثانية. كان يمتلكه مالك يهودي من أشهر صانعي الساعات في أوروبا في هذا الوقت وقد حوّل البيت إلى ما يشبه المتحف. في الدور الأرضي كانت توجد ورشة التصنيع والتصليح. وفي الدور الأول والثاني مكاتب الموظفين والعمال، وفي الدور الثالث مكتبه الخاص. أمّا الأدوار الرابع والخامس والسطح فكانت مخصصة لسكنه الخاص. أشرف على تأسيس البيت صديق له وهو مهندس معماري شهير اسمه 'سيمپِر' هو الذي قام بتصميم متحف تاريخ الفنون في ڤيينّا ومتحف التاريخ الطبيعي المتشابهيْن تمامًا، كأنّ أحدهما موضوع أمام مرآة. في الساحة التي يتوسّطها تمثال الملكة تيريزيا وحاشيتها.

شقة ساندرا في الدور الثالث. شقة صغيرة من غرفتين ومدخل ومطبخ صغير. رائحة الشقة أول ما يلفت روحي، فيها عطر خفيف. النباتات موضوعة في أركان الشقة في عناية بالغة. الحوائط كلها مدهونة بالأبيض الناصع لكنها دافئة. في ركن منها مدفأة أنيقة من السيراميك المنقوش. في غرفة المعيشة مكتبة عالية حتى السقف

1- Der Ring بمعنى الحلقة أو الخاتم وهو طريق مكتمل الاستدارة يضمّ داخله الحي الأول من ڤيينّا.

مكتظّة بالكتب والمقتنيات الأنيقة. وفي الركن البعيد جهاز الموسيقى والاسطوانات. الحوائط يغلب عليها لوحات پوستر للرسام پول كليه الذي لا أخطئ أبدًا لوحاته الدافئة.

تقدم لي مشروبها المفضّل. تقول إن اسمه «هولوندا صافْت»[1]؛ عصير من

نبات لا أعرفه. أستسيغ الطعم جدًّا. تفرح وتأتي بطبق من الفاكهة وتضع اسطوانة موسيقى. تقول إنه موتسارت. كأنّي أسمع الموسيقى الكلاسيكية للمرّة الأولى. لعله سحر المكان أو سحر ساندرا. حكيمة تتحرّك كأنّها في شقتها. تعجبها النباتات فتتمسح فيها طوال الوقت. يمرّ الوقت الصافي في حديث طويل كأنّه عناوين لتفاصيل كثيرة ستأتي مع الأيام.

الساعة تصل إلى الثانية عشرة مساء دون أن ننتبه. أستأذن للحاق بآخر ترام إلى البيت.

أودّعها أنا هذه المرّة وهي واقفة عند باب شقتها. تتحرّك عند البسطة الكبيرة العريضة لترفع يدها بتحيّة وداع حتى هبوطي إلى الدرجات الأخيرة.

لا أشاء أن أعود إلى الشقة سريعًا. أضع حكيمة في مكانها الآمن عند صدري وأسير في الطريق الطويل عائدًا. الآن في طريقي لا أركّز في أيّ شيء إلا في إشارات المرور. أبرمج ذهني وعينيّ وجسدي للوقوف

Holundersaft مشروب من شجر ينمو في أوروبا طعمه مثل شربات الورد.

عند الإشارات الحمراء وأسرح في حلم جميل. أبطئ من خطواتي رغم البرودة. عند باب البيت تكون الساعة الواحدة والربع صباحًا.

نتعوّد اللقاء كلّ أسبوع ثلاث مرّات. عصر يوم الجمعة في شقتي ثم عصر السبت في بيت النخيل ويوم الأحد في شقتها. أزور معها أمكنة كثيرة لم أتعرّف عليها أبدًا من قبل، رغم قربها منّي وتكرار مروري عليها. وتتغيّر صيغة حديث الجمع التي أستسخفها لنتكلم كما يتكلم البشر العاديون.

تسألني في أحد الأيام ونحن في بيت النخيل:

"أين تكون حين تغيب عنّي وتكاد تروح في إغفاءة طويلة."

أحكي لها الحلم الذي راودني في المرّة الأولى التي كنّا فيها معًا. حلم الظلام والقطة والدار والفتاة والبستان والشمس. تقول:

"إن أحلامك جميلة ومثيرة. وإن كانت الأحلام دائمًا هكذا؛ فاذهب إلى الحلم لكن خذني معك مرّة. أريد أن أرى ما تراه. أو عُد بسرعة واحكِ لي عمّا ترى."

أروح فعلاً في حلم يقظة رائع. أروح هذه المرّة داخل عينيها الواسعتين. أغيب في عالم من ألوان وشموس ساندرا. أجدها تمسك يدي اليسرى الدافئة بيديها معًا وأنا في شبه حلم. يدقّ قلبي بتلك الخلجات النادرة. حكيمة بالقرب من صدري ويدا ساندرا على يديّ. أقول لها:

"الحلم الآن يتبدّل إلى حلم أجمل. الآن أخذكِ معي بالفعل. هل ترين ما أرى؟"

تبتسم الابتسامة التي تأسرني. وتصمت الصمت الذي أحبّه. بعد لحظات صامتة تردّ:

"تبدو في أحلامك مرتاح الوجه وديعًا وفي شكل طفولي ملائكي. إنني أكاد أجزم أنني أعرف الآن كيف كنت تبدو وأنت طفل صغير. أحبّ أن أراك دائمًا هكذا."

تقبّلني قبلتها السريعة الخاطفة بالقرب من طرف شفتي. أبتسم وأنا ما أزال أشعر بآثار شفتيها الناعمتين عند أطراف شاربي وأول لحيتي. تقول:

"أتسمح لي بأن أهديك هديّة؟"

"هداياكِ كثيرة ولا أستطيع أن أردّها أو أردّ عليها."

تضع أصابعها على شفتي:

"لا تقل هذا! إنها هديّة بسيطة."

تفتح شنطتها وتقول إنها اشترت لي تذكرة سنويّة لبيت النخيل، وإنها أرخص بكثير ممّا أتصوّر، وإنها ستكون ممنونة جدًّا لو أنني قبلتها، فهي تحبّ أن تراني سعيدًا هكذا؛ أنا وحكيمة. وإن لم أقبَلها فهي تهديها لحكيمة التي أحبّتها من أوّل يوم. تنظر ساندرا لي طويلاً دون كلمة إضافية. يدها الممدودة أمامي بالبطاقة السنوية تحسم أيّ حجج أو ردّ. أكاد أقبّلها قبلة مجنونة. أتحامل على نفسي ألاّ أفعل ذلك. أخاف أن أفسد بهجة الهديّة. نظرتها الآن كفيلة بإلغاء كلّ لغات الدنيا

من لساني. الحُمرة الخفيفة تغمر وجهها. فأشعر بدفقة دافئة في كلّ جسدي. أتذكر الآن اليوم التالي لزيارتنا الثانية لبيت النخيل، حين استأذنت منّي لدقائق ثم عادت وعلى وجهها هذا البِشْر الوديع وتلك الحُمرة الخفيفة التي ما تزال تثير ابتهاجي.

أظلّ أنظر في عينيها كأنّي أقرأ في كتاب أو أشاهد لوحة بديعة. أبدأ في تحريك عينيّ ببطء من وجهها إلى النخلة الوحيدة التي في مواجهتها ثم إلى حكيمة التي تجلس في حجرها. ساندرا أيضًا تفعل الشيء ذاته؛ من حكيمة إلى النخلة ثم إليّ.

منذ وقت طويل لم أشعر بإحساسي القديم الضائع، إحساس من يرعى الوقت أمامه للحظات. منذ وقت جدّ طويل طويل لم أشعر بإحساس العائلة والدفء وبإحساس العين المريحة التي تحبّ.

{٣}

حين أقرّب يد الشيطان من أنفي، أشمّ رائحة هذا العطر المريح الذي وضعت منه قطرة قبل الخروج على هذه اليد. كأني أسير في غلالة من السحر، يصبح مثل مخدّر يسحبني برفق إلى عوالم بعيدة؛ إلى الماضي. حكيمة تلفّ نفسها عند صدري لتنام مسترخية على الجانب الآخر، أجعل لها فتحة صدري مريحة وأكثر اتساعًا فالمكان هنا دافئ.

مرّة أخرى أنا هنا بعد أيام قليلة. هنا في بيت النخيل.

يبدو أنني سأدمن هذا المكان، وسيصبح مقرّ احتساء سعادتي وذكرياتي. أتخيّل أنني لو متّ في هذه البلاد ودفنوني هنا، ستستطيب روحي هذا الدفء بلا شك، وسيكونون قد قدّموا لي جميلاً ومعروفًا لن أنساه طوال موتي.

ما أجمل هديّتك يا ساندرا! من أيّ عالم أتيت. أيّ آلهة أرسلتك إليَّ هنا في هذا الدور الخامس من الحيّ الثالث في ڤيينتا. أتمنّى أن تكوني جواري الآن، وأشعر في آنٍ بالحرج لأنني أذهب إلى عالمي البعيد دونك. أغوص في حنين أسدّ به شروخ ذكرياتي، كي أحسّ بأنّه كانت لي حياة مثل البشر؛ فيها أمّ وأب وأختان ودار وجيران وجِيران ولغة وشمس وصوت وظلّ.

كأنّي أريد أن أبكي الآن حتى أخفّف من هذا التوتّر الحزين الذي لا أعي مصدره.

أتذكر أنني لم أبكِ في طفولتي مثلما يبكي الأطفال. فقد عشت محرومًا من نعيم هذه الطبيعة والمنحة العظيمة بالانفلات من أسْر الشعور. ثم تعلّمت من أبي حين كان معنا أن البكاء لا يليق بالرجال، وأنه عيب وعار ولم أكن بعد سوى صبي. قيّدني بهذه الفكرة الحمقاء حتى تكلّسَتْ فِيَّ أحاسيسي ولم أستطع لها تغييرًا. ضاع منّي نعيم البكاء صغيرًا ولم أستطع له في الكبر تعويضًا.

لم أعلم بالتحديد متى ماتت حبيبة بِت نور الدين الشيلاني، وهذا هو اسم أمي، ولا متى ماتت كريمة وحليمة أختاي. اعتبرت يوم عودتي من أوروبا إلى قرية وَدّ النار هو يوم غيابهن عن الدنيا. واعتبرت دفني للسوار والدميتين هو دفن من تبقّى لي من أهل في ودّ النار. علّمت مكانهن بحجر كبير وثلاثة أحجار سوداء صغيرة. كان لونها متربًا حينما أخذتها قبل أيام طويلة ووضعتها على المدفن الذي اخترته لهُنَّ. ولولا انهمار هذا العرق الغزير من جبهتي حارًّا، وعلى عينيَّ حارقًا، وعلى شفتيَّ مالحًا، ثم من ذقني ساقطًا دفعة واحدة؛ لما تنبّهت لهذا اللون الأسود اللامع على الأحجار الثلاثة ذات الخدوش والخربشات التي لم أرَهَا آنذاك بسبب احتقان مقلتيّ واستعجالي.

الهدوء الآن يعمّ بيت النخيل وحكيمة تنام قريرة تقرقر على صدري. أشعر بدفئها عند قلبي. يحضرني وجه ساندرا. أتذكر جلستها هنا

جواري تمامًا حين تنتظرني بصبر أمٍّ يلعب طفلها الصغير بالقرب منها. تدعني ساندرا في بيت النخيل لأحلامي وذكرياتي دون ضجر، بل أراها مرتاحة الوجه مبتسمة. لم أرَ منها وجهًا غير هذا الوجه حتى في أحلامي.

أغمض عينيّ مع شعاع الشمس النازف فوق رأسي. أروح في شبه نوم يأخذني ليوم بعيد؛ يوم عيد.

اليوم وافق عيد الضحيّة. كنت مقيمًا في قرية ودّ الكبابيش، أقرب القرى لودّ النار. بينهما صحراء رملية واسعة. اليوم مرّ أربعون يومًا بالتمام على مراسم الدفن التي رسمتها. أخذت طريقي متشنّجًا من بين الحشد الواقف في ظلال الطريق؛ وقفوا كالنخيل المائل على ضفّة نهر في الضحى؛ اصطفّوا كمن ينتظر رحمة اللّٰه أن تُنـزِل كبشًا من السماء لا يَنـزِل. سرتُ بجلابيّتي البيضاء الواسعة في قرية ودّ الكبابيش كصاري مركب في هبّة ريح. تلك القرية الوحيدة التي بقيت من سبع وعشرين قرية حولها. حتى اسمها يثير شجنًا في النفس. يقول المعمّرون والمعمّرات إن هذه القرية كانت مثل واحة كبيرة حدّها الأفق، وأنها كانت تبدو كطبق واسع أخضر وسط صُفرة الصحراء. يقولون إنها كانت تورِّد الكباش والماعز والإبل إلى الشمال والشرق والغرب، ولم يكن لها مثيل في تربية هذا الكمّ الوفير؛ إذ لم يكن هناك مرعىً أوسع من مرعاها، ولم يكن للقرى الأخرى بحيرة أعرض ولا أعذب من بحيرتها. تلمّ في حوضها العميق غضب السيل إن عاث أو غدَرَ وتَهَبُ من مائها طوال

العام كلّ كائن حيّ. كان بهذا الوسع وادي رعي يحفّه وادٍ كبير يُسمّى وادي 'مالكاماني'.

ذات عصر سألني خليفة وَد نفيسة هذا الفنان الجميل ابن ودّ النار، صاحب الحكايات الشيّقة عن البلاد البعيدة والناس البعيدين، الذي قال لي إن حركة الطائرة في السماء أسرع من الصوت، والذي اختفى في سراح الدنيا- سألني حين رافقني في المرّة الوحيدة للمقابر إن كنتُ قد زرتُ مرّة هذا الوادي الذي تتضح أطرافه من بعيد بصعوبة. قلت له لا. قال إن هذا الوادي يسمّونه وادي المالكاماني وإن الاسم الصحيح هو وادي الملكة 'أماني شيختو'. كانت ملكة رائعة فارعة القامة، وكلمة شيختو كانت تطلق فقط على الملوك الرجال، وهي وحدها التي اختصّت بهذا الاسم للمرّة الأولى في تاريخ هذه الأُسَر واسم الشيخة أماني ليس صحيحًا كما اعتاد بعض الناس ذكره. قال لي خليفة إنه يقال إنها كانت ملكة بهيّة الطلعة ساحرة العينين بالغة الحسن، ذات ضفائر طويلة غزيرة وصدر عظيم متناسق، اسمها 'أماني شيختو'. لها بقايا تمثال انبرَى معظمه مع الأيام بسبب التآكل والنحت. نُسِجَت حوله أساطير كثيرة، لكنه ما زال يوجد أعلى صخرة كبيرة ناتئة عند جبل الرُّطَب، وهو جبل عجيب الشكل، في أعلى سفحه مرعى أخضر بعشب وشجيرات وورود وسط كُتَل الصخر وكثبان الرمل، والكلّ يتعجب كيف يخضرّ هذا الصخر وهذا الرمل بهذا المنظر. يقف تمثالها شاهدًا لكلّ من يدخل المكان من أيّ ناحية. قال البعض إن الفراعين نصبوا هناك تمثالاً ضخمًا لها ولأبيها، ويقولون لزوجها،

ويقولون لابنها الملك الذي كان اسمه 'سيرّندوب' وكان اسمه يعني 'الماشي وسط الناس'. وهو الملك الذي كان يرفض أن يركب ركوبة تُعلّيه عن الناس فيصير متعاليًا عليهم أو تجعله أسرع منهم فلا يتكلمون معه.

كانت الملكة غير الملكات النحيفات الأخريات في هذه المملكة التي كان من عاداتها وتقاليدها أن المرأة الممتلئة في غير سمنة هي امرأة عِزّ من دار عِزّ وأن عليها أن تتجنّب النحافة والهزال، وأن تظلّ قويّة الجسد، في شكل يؤهّلها لتحمّل طقوس القبول الإلهية وتشريفات التنصيب، لتمارس بعد ذلك سلطانها. تذكرت أمّ صديقي العزيز عثمان دَرَب سِدرو، كيف كانت تطلّ بقامتها العتيدة وتناديه بصوتها القوي الرنّان، وكيف كانت تتحرّك في قوّة هنا وهناك وتحمل كل هذه الأحمال الثقيلة دون شكوى. صرت أتخيّل أنها ربما تكون من نسل هؤلاء الفراعين، وأن هذا الصديق العزيز عثمان دَرَب سِدرو- الذي مات صغيرًا- ربما كان آخر نسل الملكة أماني.

كان اليوم عيدًا والناس يهنئ بعضهم البعض في وهن وحسرة، وإمام القرية شيخ حمد وَد عطبار هو الوحيد صاحب العنـزة الوحيدة في القرية. كان حائرًا أيذبحها طاعة لله ويفرجها في العيد، أم يبقيها تنـزّ له الحليب الشحيح. كنت أسمع ثغاءها الأسيان أعلى من صوت همهمات الرجال والنساء أو صياح الأطفال. عيون الناس فيها سعار؛ عيون تكاد تلتهمها حية. يبدو أن الناس جميعًا سيمضون عيد الضحيّة

بكِسْرة مُلاحُها[1] 'المَحّ' من ماء وملح. هذا إن وُجِدَت الكِسْرة[2]. إذ لم يعد هناك لا مُلاح الشرموط[3] ولا مُلاح الويكة[4].

كانت المسافة بين ودّ الكبابيش وودّ النار حوالي مسيرة ثلث نهار على الأقدام. كنت قد دلّيت من على كتفي الأيسر قِربة ملأتها بماء من عين بلال التي غارت عميقًا في الأرض وتعكّر ماؤها بالطين. وضعت على ظهري خلف القِربة بعض التمرات المتربات من بقايا الحول الماضي. لم أشعر بجوع أو بعطش ولم أشأ أن أسأل أحدًا لتوصيلي إلى هذا المكان بركوبة أو بهيمة. أردت أن أحجّ إلى المكان سيرًا إليهن وحدي؛ تقليدًا ربّما للملك سيرَندوب الماشي وسط الناس. سعيًا إلى أمي حبيبة بت نور الدين الشيلاني وإلى كريمة وحليمة.

كان الناس يهنئونني بالعيد وأفعل مثلهم دون تركيز. يقولون: "كلّ عام وأنت بخير يا حمزة!" فأردّ: "وأنت بخير يا خال جعفر! أو يا عمّي أيوب! أو يا خالة ثريا!" لم أرَ قرينًا من أقراني، وجدت أطفالاً وعجائز وقلة ضئيلة من شباب ضامر حائر. كلهم في وهن ودِقة عُود وهزال. لاحظت للمرة الأولى اختفاء جملة 'بعودة الأيام!' التي كنت أسمعها دائمًا تتردّد في الأعياد على كلّ الألسن. في البداية توقّع الناس أنني متّجه

1- كلمة المُلاح في السودان تعني الشيء المطبوخ الذي يُضاف غالبًا إلى الكِسرة.

2- الكِسْرة هي رقائق من دقيق الذرة أو الدقيق المخلوط تخبز على (دوكة) وهي سطح معدني ساخن وتُعتبر الأكلة الشعبية المعروفة في السودان.

3- الشّرموط هو اللحم المقدّد الذي يقطع إلى شرائح رقيقة ويجفّف للحفظ ثم يستعمل في الطعام في وقت لاحق.

4- الويكة هي البامية الناشفة المجفّفة وتُطبَخ مصحونة.

لزيارة ناس عنبر باب الخير الواقعة دارهم في نهاية الدرب، لكنّي فتّ الدار بمسافة، فنادَى عليّ عبد الكريم: "يا حمزة! يا حمزة! لوين مارق؟". قلت له: "قبيل المغرب أكون هنا". نظر إليّ مستغربًا ولم يفهم توجّهي إلى هذه الناحية، فقد تشاءم الناس منذ زمن غير بعيد من الاتجاه نحو الشمال. اعتقدوا أن من يذهب إلى هناك تجلب أكارِعه الفقر والنحس، فأرض ودّ النار أرض موت يخافها الصغار من كثرة الأهاويل التي تُحكى عنها، ويترحّم العجائز عليها بكلام يثير في الأفئدة الحسرة والبؤس. صار الصغار قبل الكبار ينسجون الحكايات عن العفاريت التي طلعت لفلان وعلان، وعن البوم خادم جنّ الخراب الذي أتى من الشمال واتخذ من خرائب ودّ النار وأطلالها أعشاشًا له. وإن صادف ووقفَتْ بومة على دار أحدهم يتشاءم الناس أربعين يومًا حتى تحلّ مصيبة، وما أكثر المصائب! كذا غراب الجيفة الذي لم يعرفه أحد في هذا المكان من قبل، حلّ وتكاثَرَ واستكثر واستحلّ الحِلّة بما فيها ومن فيها.

سرتُ مبتعدًا نازلاً بعض الوديان الجرداء صاعدًا بعض الهضبات، وقرية ودّ الكبابيش تلوح لي وتختفي. كان الضحى قد أسفر سخانة كأنّي أقترب من فرن غير مرئي يفحّ صهدًا مرئيًا. رؤيتي مهزوزة ووجهي يُشوَى ببطء وعرقي ينزّ. كنت أسمع صوت خشّي في الرمال والنثر الخفيف الذي يَسِفّه صندلي كالجاروف ثم يرشّه.

بعد مسيرة طويلة بدأت أشعر بعرقي يسحّ وخطوي يغوص ويبطئ وأنفاسي تتصاعد ونظري في الأفق يهتزّ أمام الرمال التي تنعم ويفتح

لونها. لم أكن أشعر بأيّ تعب ولم تفتر عزيمتي. سمعت صوت غراب نوحي ينعق، طار فوقي فنظرت إليه فرحًا بهذا 'الأُنس' المفاجئ. لكم أحببته في زمني القديم ولم أتطيَّر منه أبدًا! تابعتُه فدخل في اتجاه عين الشمس، كسرتُ على عيني اليسرى بعد أن زحّت الشمس نور عيني، فلم أرَ من الدنيا غير دكنة في لون الغراب النوحي الذي حوَّم عليَّ، ثم لم أره كأنّه كان طيفًا. استرحت لهذا الإحساس. داخلتني رجفة خفيفة فنشع من جسدي عرق جعلني أشعر ببرودة مفاجئة أنعشتني.

داخل بيت النخيل لا أزال أحسّ بشعاع الشمس على وجهي. أغسل بِه وجهي. لا أفتح عينيَّ حتى لا أضيع صورة المكان والرمال. تختلط أصوات الطيور المزيّفة هنا بصوت قديم كنت أقلّده ببراعة.

أتذكر الآن صوت غراب آخر وهو الغراب الجيفي الذي رأيته بكثرة في قريتنا بعد عودتي من رحلتي الأولى لودّ النار. شتان بين الغرابين فغرابي القديم الذي كنت أحبّه ونسمّيه بالأسحَم أو بالنوحي كان ينوح عند المقابر حين كنت ألوذ هناك هاربًا وحيدًا، وكنت أضحك من نعيقه الغريب الذي كان يغطّي على أصوات الطيور الأخرى، أضحك على شكله الذي يتقوّس عند النعيق كأنّه سيقذف بما في جوفه. كان نشازه المميّز يلغي الجوقة الرائعة لتغريدات اليمام والكروان وأبو هارون الذي يسمونه العندليب والحسّون. كم كنت أحبّ هذا الغراب النوحي!

كانت الأرض مستوية لا أثر لبشر عليها. داخلني هذا الإحساس الذي يداخل السائر لمرّتِهِ الأولى على ما يعتقد أنه رمال بكر. شعرت أنه

لم يمرّ إنس من هذا المكان أبدًا من قبل، أو بأنني أوّل أنسي ينـزل إلى العالم في هذا الدرب. صندلي هو الذي أعادني للواقع بأنني لم أنـزل من السماء هكذا بصندل. في هذا الصمت كان صوت قربتي يترجرج فوق ضلوع ظهري العرقانة مُصْدِرًا رجرجة شجيّة هادئة مريحة عند القلب.

حكيمة الآن تتقلب بمرح بين البلوفر والبالطو عند صدري؛ عند الجهة اليسرى. أضع يدي برفق عليها.

هذه الرجرجة الشجيّة جعلتني أترنّم بارتجالات مبهمة حتى وجدت نفسي أغنّي بصوت هادئ في ترنيمات بين التلاوة والغناء. لم أتنبّه في البداية إلا حينما علا صوتي وتردّد الصدى حولي. في هذه اللحظات شمَمْتُ رائحة قديمة أعرفها، أعادتني على الفور إلى يوم عيد في زمن بعيد. كنت أصغر سنًّا، في الخامسة أو السادسة. دخل أبي بتيس كبير إلى الدار قبيل عيد الأضحى بأسابيع حاملاً على كتفه زكيبة كبيرة متروسة بالذرة العويجة وحزمة برسيم ضخمة. كان يضحك جذلان لأنه اشترى هذا التيس بمبلغ زهيد من راعٍ حبشي أتى بأفواج من النعاج والماعز ليبيعها للناس قبيل العيد. يوم رأيت هذا التيس ونظر في عينيّ نظرة التحدّي إياها، فرحت بأنني وجدت قرينًا للعب. نسيت أنه سيكون كبش الفداء في العيد. كنت أقدّم له الذرة العويجة وأغيظه كي يحاول نطحي فأهرب منه. تعوّدت على مناوشته من ظهره كلّما مررت به. وفي مرّة غافلني ورماني على الأرض بنطحة واحدة. شعرت بألم حادّ في إليتي وبهدّة طافحة في بطني بعد أن أطاحني في الهواء ثم انهبدت

على بطني مثل ضفدع متألمًا صارخًا. جرى نحوي وكنت مستسلمًا مسلوب الحيل والحيلة. اقترب منّي ووضع أنفه الساخن- عكس أنوف الكلاب- على جبهتي ثم أخرج صوتًا غريبًا مبحوحًا، فاحًا خشمه فشممت رائحة لم أشمّ مثيلها من قبل؛ رائحة غريبة ليست بكريهة ولا بفتّانة؛ رائحة تشبه العسل الأسود. حكّ بقائمتيه الأماميتين خطوطًا واضحة في الأرض ومشى. كأنّه يكتب لي رموزًا لأقرأها أو كأنّه أنذرني بما فعل.

أتتني هذه الرائحة وأنا أقترب من ودّ النار. حاولت الإسراع على الرمال الناعمة فصرت أتقلقل وأهرول كجمل عجول عجوز. رفعت العمامة التي تلفّحت بها في البداية، كوّرتها على رأسي، وجلابيتي مثل شراع تضربه الريح فتحضّني على السير في الاتجاه الذي أردت، وأقدامي داخل الصندل الجلدي مازالت تغوص في الرمال.

كأنها القرية في البعيد ترقص وأرى أهلها. كأنّي أشمّ هذه الرائحة التي أخذتني لهذا الزمن البعيد: رائحة العسل الأسود. أسمع أصوات هرج ومرج، وتأتيني مع الريح تهنئة بالعيد وكلمة: 'بعودة الأيام' تتردّد مرّات. صوت سَرُسَعَة كريمة وهي في الثالثة وهي تتناجَى باسمي بطريقتها: 'أمزا.. أمزا!' ثم تكرّ في الضحك. أتذكر فطام حليمة. هذه المسكينة التي تعلّقت بثدي أمي لحولين كاملين ولم تتركُهُ. أشفقَتْ أمي عليها وصارت تؤجّل فطامها إلى أن نهرتها البتول وزوجة عبد

المالك بأن هذا مضرّ لها وللرضيعة. أحضرت أمي بعد أسبوع صبّارة.
أرضعت حليمة نصف رضعة- رضعتها الأخيرة وفقًا لنصيحة البتول-
ثم كسرت كفّ صبّارة ودهنت بزيتها المرّ حلمتها في قرَف، وتركت
حليمة المبتسمة الملهوفة ترمي بشفتيها وفمها لتكمل رضعتها،
كنت أراقب الحدث عن قرب. دموع أمي كانت تسحّ سريعة حارّة. فجأة
أصدرت حليمة صوتًا مقروفًا ثم صرخت وتقيّأت مرّات وهي تتلوّى
وترتعش كالمسمومة، أحضرتُ فوطة لأمسح حليب أمي الأخير الخارج
غصبًا من بطن حليمة. كانت حليمة تضرب أمي بقبضاتها الصغيرة
ضربات طفولية غير مؤلمة، وتعضّها وتبكي بعلو حسّها الحادّ المسرسع
وبنفَسٍ طويلٍ يتدرّج في الخفوت حتى السكوت التامّ مع ضياع النَّفَس
لتشهق نفسًا جديدًا وتكمل صراخها الأليم ووجهها يلمع من الدموع.
أمي تألّمت لألمها. تركَتْها تفشّ غلّها وغضبها. صارت أمي تقبّلها
وحليمة ترفض وتنتفض من شدّة الصدمة. حملتُها ذاك اليوم للخارج
وحاولتُ أن ألهيها بوضعها على كتفي مرّة وعلى رأسي مرّة وتطويحها
في الهواء مرّة أو أن ألعب معها لعبة الساقية بأن أحملها من يديها
وأدور بها دورات سريعة حتى ترتفع في الهواء، ضحكت في هذا اليوم
ضحكات أسيانة لم أسمعها منها من قبل، تخلّلتها بكاءات متقطعة
قصيرة. احتضنتها بشدّة علّني أخلع عنها هذا الأسى. ألّفتُ لها
حكاية عبثية مضحكة ارتجلتُها عن جِنٍّ بثلاث قوائم وعين واحدة،
كان يكتب بقائمته الكلمة على الأرض ثم يبصق عليها، فيظهر ما
كتب حقيقة للحظات قصيرة ثم يختفي؛ إن كتب جَمَلاً وبصق على

الكلمة ظهر الجمل، وإن كتب شجرة ظهرت شجرة. أحيانًا كان يخطئ في الكتابة، فكان يظهر شيء عجيب لم نعرفه من قبل. كانت حكاية شيّقة لحكيمة؛ فبالغتُ فيها حتى نسيتُ ما بها، ثم صنعتُ لها في عصر هذا اليوم عروسة من قماش قديم من جلابيّة مزركشة لأمي، حشوتها بذُرَة عويجة ورسمتُ لها وجهًا وعينين واستسمحت أمّي أن تقصّ لي بعض خصلات من شعرها الغزير الطويل، ففعلتْ عن طِيب خاطر وضفـّرتُ لي الشعر ضفيرات جميلة بشرائط صغيرة ملونة. ظللتُ أعمل هذه العروس وأغنّي لها وأفهمها أن هذه العروسة لها وأن اسمها سلوى. اخترت لها هذا الاسم لأني أعشق لثغة حليمة فكانت تنطقها: 'ثلوى'.

في المساء كانت تحتضن عروستها وقد نامت بوجه مرهق مبكّرة على غير عادتها. رأيتُ أمي ممتنّة بما فعلْتُ. في الصباح وجدت أمي قد قصّت خصلات جديدة من شعرها وقالت لي: "اعمل أختًا لسلوى لتكون لأختك كريمة. عليك الله!" فعلت ذلك بكل حبور وتركت هذه المرّة كريمة تسمّي عروستها كما تشاء. أسمتها اسمًا عجيبًا. قالت: "سأسميها توتي". لم أعرف من أين أتت بهذا الاسم العجيب. لكننا قبلناه جميعًا حسب مشيئتها وأطلقنا اسم توتي على العروسة الجديدة التي أصبحت أختًا لـ 'ثلوى'.

في أول الليل قلقت حليمة فبخّرتها أمي ببخور مريم. بكت وهي نائمة بكاء لوم ونهنهة جعلتني أشفق عليها حدّ البكاء؛ أنا الذي لا يعرف

كيف يكون البكاء. في صباح اليوم التالي وجدتُ نفسي أستيقظ إلى جوار حليمة التي استيقظت قبلي وبدأت تعبث بشعري.

هياكل البيوت من بعيد بدَتْ متراصّة في انتظام. النخيل يحتضن القرية في منظر يصيب برجفة الإعجاز. خفق قلبي بعنف وأنا أقفز حتى لا أغوص في الرمال أكثر بهذا الصندل الذي انخلع من الخلف وصار مثل الشبشب يطرقع في كعبيّ بإيقاعات منتظمة. اقتربتُ فاهتزّت الصورة في أحجام أكبر. اهتزّت واهتزّت. تسامَق النخيل، ووشوش السعف، وتعانقت البيوت، هسهست العرائش.

كلّما كنت أقترب أكثر كان الصوت يختفي وتختفي القرية والنخيل، تختفي ودّ النار كلها. كان سرابا إذًا. أنا خبير السراب! أنا الذي كنت أحكي عنه لرفاقي الذين كانوا يخشون زياراتي للمقابر ومشيي في الصهد ساعات في عِزّ الصيف دون خوف أو ألم- عبثَ بروحي وخاطري هذا السراب الغادر في مثل هذا اليوم. كنتُ الوحيد من أقراني الذي لم يُصَب طوال عمره بضربة شمس أبدًا، رغم بقائي الساعات الطويلة في عزّ القيالة. كان الشيخ الفكي يتهكّم عليّ قائلاً: "والله يا أعسر أنت.. فيك شيء من روح إبليس!".

كأن ما في رأسي كان هواجس أو أضغاث أحلام؛ كأني كنت عائدًا إلى الدار؛ إلى المزار، كأني كنت أقترب من المكان الذي فيه ولدت، وأدنو من أمي حبيبة ومن حليمة وكريمة. كأني كنت أسمع صوت حليمة تتناغى بكلمات لثغاء منغّمة غير مفهومة.

أفيق في بيت النخيل من غفوتي على صوت طفلة لثغاء في يد أمها تسألها عن اسم الشجرة - النخلة. الطفلة لها هذه اللكنة الطفولية نفسها التي كانت لحليمة. حتى اللثغة مثلها. لكنها تسأل في لغة أخرى.

تبتسم الطفلة لي وأبتسم لها في فرح. فترفع يدها لتحيّتي على طريقة الأطفال. تنهرها أمها وتجذبها. تزجرها معنّفة إيّاها بصوت حازم. أحزن للحظة ينسيني إياها شاب مارّ واضعًا 'هيدفون' له صوت موسيقى 'تكنو' صاخبة تدشدش رأسه. لا أعرف كيف يتحملها هكذا. إلاّ إذا كان بالتأكيد أطرش. لا أسمع الموسيقي بل صوتًا كخبط حِلل وأدوات معدنية بعضها في بعض وهو يسير ويغنّي في صوت قبيح مزعج بأعلى صوته صائحًا عائشًا في دور المغنّي الذي يحبّه.

تعود لي الابتسامة من جديد لطرافة المشهد وأغفو. أترك نفسي لحلم يقظة.

يهدأ المكان وأشمّ رائحة دفء الأرض. أنظر لحكيمة النائمة عند القلب تمامًا. ترتّب لي ضربات قلبي.

كانت المسيرة أطول ممّا توقّعت. عدت للغناء القديم لأطيّب من حالي. رفعت قربتي لأشرب وأخفّف من عطشي. شربت شربة واحدة وتركت بعض الماء عامدًا ليسقط من طرفيْ فمي على عنقي ثم على جلابيّتي. غنّيت الأغاني القديمة نفسها. توالت على ذهني في بساطة. فقط غيّرت اللحن إلى ما يقرب من تلاوة حزينة دون أن أدري من أين نبع كلّ هذا

الشجن، وقلبي يدبّ مثل عجوز منهك أو شاب ولهان بحبيبة لا مبالية. وأنا قد عاهدت نفسي قبل خروجي في الضحى أن أضبط نفسي في مزاري هذا وألاّ يسمعن منّي إلاّ سلامًا.

الصحراء اتسعت الآن وتخلّصت من أعمال البشر وصفَت على أفق بعيد؛ فشعرت بأنني في آخر الدنيا أو في أولها. عرفت طريقي بالسليقة، والشمس حدّدت لي عبر ظلي الجاهي فلم أحِد.

إنه إحساس قديم يغشاني دائمًا وأنا في الصحراء حين أكون وحيدًا. أشعر أنني في أوّل الدنيا أو في منتهاها. كأنّي مولود بريء أو كأنّي سأغادر الدنيا بعد نَفَس.

الأرض الفاحّة الناعمة الرمال اختفت تدريجيًّا.

طَفَت الملامح. لا سراب الآن. الأرض التي أمشي عليها الآن عرفتني. المكان ألفني. أقدامي كأنّها تعرّفت على هذا التراب الذي تغيّر لونه إلى تراب كالح ورمال بألوان ميّتة متدرّجة لا صفاء فيها. الآن سأحدّد المكان؛ المدفن الذي علّمتُه بحجر كبير وسأبحث عن الأحجار الثلاثة السوداء. سأرشّ عليها قليلاً من الماء وأظهرها من غبرتها.

حين توهّمت القرية في السراب، رأيت جنّتنا القديمة، هذا الفردوس الذي كان وأنا صغير. الآن حين اقتربت منها وتأكدت من أنني على مشارفها. استقبلني هيكل حيوان نافق. بياض جمجمته وضلوعه وقوائمه نصفها مردوم في التراب بشكل بشع. لم يبق منه أيّ آثار للحم وعظامه قد ابيضّت تمامًا. تيبّست وجفّت ولم يبق فيها ما يصلح

حتى لنهش الضباع وبنات آوَى، تأكيد مجدد على أنه فارق ودّ النار وهذه الدنيا منذ أمد بعيد.

الحرّ يزداد توهّجًا وكلّ شيء يتراقص أمامي في الصهد. لا ريح، كأنّ الريح أيضًا قد خشيت أن تتقدم إلى هذا المكان حتى لا تختنق وتموت.

الملامح الخارجية لإطار ودّ النار بدت كما كانت، لا تغيير، عادَتْ إليَّ هذه الرؤية التي انطبعت في ذاكرتي من كثرة مروقي من القرية نحو المقابر أيام الهروب من عقاب أبي. الشمس فوق رأسي تمامًا قد ابتلعت ظلّي بالكامل وأكملَتْ هزّ المعالم أمام عينيّ، جعلتها مهترئة ناقصة. لم أستطع أن أميّز شرقًا من غرب ولا شمالاً من جنوب. وكلّما اقتربتُ تاهت منّي ملامحها الداخلية. لم أكَدْ أتعرّف على شيء. صرت في مثل هذه اللخبطة التي تركب الشخص الذي يكون متأكّدًا من شيء ما، وما إن يَرَهُ عن قربٍ حتى يرتبك فيضيع منه أصل الصورة التي في الخيال. صرتُ على هامش اليقين. توجّستُ للحظة أن أكون قد سلكتُ طريقًا خطأ، لكن قدميّ في هذا التراب أكّدتا لي أنني في ودّ النار. رائحة هذا التيس؛ تيس العيد؛ رائحة العسل الأسود التي ما تزال تهفهف على أنفي أكّدت لي أنني في ودّ النار؛ العظام الجافة البيضاء للحيوانات التي نفقت وزاد نثرها وغطّت الأرض في منظر غير معتاد، أكّدت لي أنني هنا في هذه القرية البائسة. تعجّبت من هذا الكمّ الكبير للعظام، فقريتنا لم يكن فيها طيور وماشية وحيوانات بهذه الوفرة في أيامها الأخيرة. حتى الكلاب والقطط ندرت لدينا. ارتجفت حين هزّني شعور بأن تكون

هذه العظام لبشر نفقوا دون دفن بلا إكرام لجسد أو لعظم.

كم كنت مُغرمًا بالحيوانات وأنا صغير! لا سيّما الصغير منها. كنت قديمًا أجمع التمر من تحت النخلات لأذهب به إلى تلك البدوية الرائعة ذات العينين الخلابتين. كانت تسير في رشاقة واعتداد، رافعة عودها في يدها تهشّ به الغنم. تغنّي أحيانًا بلهجة غريبة عليّ وبصوت طرِب عذب. لم أرَ لها رجلاً ولا ابنًا ولا بنتًا ولا أيّ قريب. كانت تمرّ في الصباح المبكّر وتعود قبيل الغروب مع غنمها. يترك غنمها خلفه مهرجانًا من الغبار لا ينقشع لزمن. كنت أحب ذلك الغبار الذي يذكّرني بالضباب النادر الذي كنت أعشقه في هذه القرية. كنت أجمع لها البُسْر من سقط البلح الأخضر الذي كانت تقدمه للعنزات والخراف المريضة أو النعجات التي في حالات الحمل الأخيرة والتي لا تخرج بها. كنت أودّ أن أرى صغار الماعز والحملان عن قرب. أن ألمسها وأداعبها.

كم كنت سعيدًا ذاك اليوم وهي تحمل في يدها هذا العَتود! وتقول إن العنزة ولدتها في الطريق. منذ هذا اليوم توقّفت عن شيطنتي بالجري والركض خلف العنزات ومضايقتها حين تمرّ من بين البيوت. كنا نحن الأطفال نعتقد بأنّ من يسير وسط العنزات يكبر. كنا نقول: "البيمشي وسط المعيز يكبر!" ونظل ندور ونبرجل ونهرجل وسط الماعز والبدوية تصرخ فينا وفي شيطاننا الأخرق.

كان اسمها 'حِلْيَة'. حوراء وجهها خمري اللون بسّام، صوتها جميل ورائحتها زكية، تضحك معي كثيرًا بمرح وتعبث بشعري المنكوش كلّما

رأتني. كانت حلية تعطيني عن كلّ كوز كبير من البُسْر- وكانت عبارة عن علبة سمن صغيرة فارغة قديمة أملؤها- تعطيني في مقابلها كوزًا من الحليب الطازج. كنت أتأمّلها بانبساط وهي تحلب العنزة ويصدر هذا الصوت الرغوي الغريب عن تدفق الحليب في خط طويل أبيض فائرًا، لا يلبث أن يثير زبدًا وتصعد رائحته المميّزة. كنت أشرب على الفور شفطة أو اثنتين مُلتَذًّا لاعقًا من شفتي العليا هذا الشارب الأبيض المتكوّن من رائب اللبن.

في هذا اليوم، بسبب غزوة راعٍ خبيث من حِلّة بعيدة، اتّجه إلى نخلاتنا بعنزاته من ناحية عرب الجندول، فنفّضت عنزاته المكان من البُسْر ولم يبقَ لي إلاّ النّوى وأقلّ القليل من التمرات الصغيرة البائسة الجافة، أرى من خلالها قعر علبة السمن. غضبت وسَبَبْتُ راعي الجندول وعرب الجندول لأنني لن أستطيع اليوم الحصول على حصّتي من اللبن، وربما لن تتركني حلية أجرّب حلب العنزات، الذي صار يحلو لي. في المرّة الأولى التي لمست فيها ضرع العنزة، كان دافئًا أملس رغم الشعر الظاهر به، ولم تنجح محاولاتي إلاّ بعد لأي. كانت تضحك وتعلّمني كيف أضغط على دِرّة الضَّرع بضغطات قويّة منزلقة لأسفل بباطن اليد وبرفق، ثم بالضغط بكفّ اليد والخنصر إلى الأسفل بشدة لينبثق الحليب فائرًا. كانت تضحك من أصابعي الصغيرة. وضعت كفّها على يدي لتعلّمني، خجلتُ قليلاً رغم صغر سنّي لكنّي كنت أشدّ فضولاً للتعلّم والتقليد. كانت حِلْيةُ كريمةً معي ولم تكسر بخاطري. أعطتني حصّتي من الحليب الطازج في ذاك اليوم ورضيت بهذا القليل من بقايا البُسْر.

مازلتُ سارحًا في أحلام يقظتي في هذا الركن البعيد من بيت النخيل. أحسّ بحكيمة تتمدَّد داخلي وتخربشني في صدري كأنّها تذكّرني بنفسها. أو ربما تحلم هي أيضًا بحياة أخرى.

أشعة الشمس تختفي ويهدأ بيت النخيل. أغيّر من وضع جلستي في كسل.

كانت لنا قطَّة عاشت معنا زمنًا طويلاً. كنّا نحبّها ونتعهَّدها جميعًا بالرعاية. نطعمها من أكلنا إلاّ أبي. سميناها 'كَديس' وكنّا نطلق عليها اسمًا آخر هو 'بِسّ'وأحياناً 'بِسّة'. كانت تحبّ اللعب وتبهجنا بحركاتها غير المألوفة. كنّا نمنع أيّ ولد أو بنت في الحِلّة من أن يرميها بحجر أو يؤذيها. حتى سمّاني الناس 'ابن الكَديسة' وكأنّها سُبّة. وأطلقوا على كريمة وحليمة لقب: 'بنات الكَدايس'، لا سيّما بعد أن ولدت لنا خمس قطط صغار كانوا فرحًا لنا في هذا المكان القاحل. كنت دائماً أتمنّى أن يكون لنا كلب، لكن أبي قال إن الكلب نجس أبد الدهر ولا يدخل دارًا إلا وينجّسها وإن الهرر أنظف. هكذا سمع من الشيخ علي الفكي وصدَّقه وأضاف من عنده بأنّ سبعة 'حيوانات' لن تدخل الجنّة: الكلب والخنزير والضبع والبومة والجرذ والحيّة وأصحاب اليد العسراء، ثم يداعبني بخبث مقيت: "سمعت يا بو شولة؟".

ومع ذلك تصاحبت مع جرو شارد فيه شيء من نُبل الذئاب، تعرّفت عليه عند المقابر في هجير أحد الأيام. وقف على مسافة الخشية والحذر وظلّ ينظر لي وأنا أغنّي. هزّ ذيله، خلته استحسن الغناء؛ فغنّيت له

وردّدت كلمة 'سَمِح' وسمّيته بها فيما بعد. كنت أخفي له بقايا العظام أيام الخير الذي مضى وبعض الكِسْرات. كان يفرح بلقائي ويظل قرب الدار ينبح كي أخرج وأرمي له ما يؤكل. الأمر الغريب أنه كلّما لمح الشيخ الفكي- الذي كان يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم كلما رآه- كان ينبح عليه ثم يهرب منه، كأنّ أحدهما يرى شيطانًا في الآخر. لمحني أبي مرّة وأنا ألاعب سَمِح وأربت على رأسه وظهره وهو سعيد. فزّني ونفر الكلب:

"امشِ لعنة الله عليك وعلى أنجاسك وأمثالك!"

وأمسك بحجر أطاحه نحوه، فأصاب جبهته إصابة عميقة فوق عينه اليسرى تمامًا. ثُرْتُ يومها وغضبت وجريت خلف سَمِح. وأبي يأمرني أن أعود. ظلّ سَمِح يركض وأنا أركض خلفه وهو يعوي عواء مريرًا كالبكاء. كان يتجه نحو المقابر وقطرات الدم تتساقط منه وأنا في غاية الغِلّ والحنق من أبي. عند المقابر وقف خاضعًا، خفَض ذَنَبه بين قائمتيه الخلفيتين وتوقّف عن العويل. نظر لي نظرة يأس واستسلام. الدم غطّى عينه اليسرى وصار في بصّة عينه اليمنى مزيجًا من الخِزْي والهوان. ارتعش سَمِح من الألم كأنّنا في عزّ الشتاء. اقتربتُ منه وارتحت قليلاً أن الإصابة كانت فقط تحت أذنه، في جبهته وليس عينه، مسحت جبهته وعينه اليسرى، تركني مستسلمًا لمصيره. ظللت أنفخ في الجرح وأضغط برفق على جبهته التي ينزّ منها الدم، ثم ذهبت إلى مكان كنت أخفي فيه كبريتًا. حملت غصنًا يابسًا من شجرة الزينب

المغروسة عند ضريح مولانا باب الشفيع. قلّدت ما كان يفعله عوف العطار مع المجروحين. حرقت العود ثم وضعت رماده على الجرح، كبسته جيدًا، فبدأ ذَنَبه يتحرّك للمرّة الأولى سعيدًا. غنّيت له كي أخفّف عنه أو ربما عنّي. كان يستمع ويهزّ ذَنَبه وينظر في عينيّ كأنّه ممتنّ بما فعلت.

كانت لي مغامراتٌ مثيرة مع سَمِح. لكنه اختفى أيضًا ذات يوم. بحثتُ عنه أيامًا. لم أجده ولم أجد حتى جثّته لأرتاح. تأكّدت أنها مؤامرة من أبي والشيخ الفكي حين سمعتهما مرّة يتهكّمان بأنّ "النجاسة اختفت من الحِلة، لكنّها مازالت في أمكنة أخرى يجب التخلُّص منها!" وحكى لأبي حكاية السعار الذي يصيب الكلاب إن وصلت إلى سنّ معينة لأنها تأكل العظام وتنبش في الرمّة. كما أفتى له بأنّه حرام أن تنكشف امرأة وتتعرّى أمام الكلب الذكر أو أن يرى عورتها؛ لأنها إمّا ستخلف مسخًا أو ستسقط الأجنّة بعضها خلف بعض، وعاد يؤكّد له عن حالات في القرية ويربط بينها وبين الكلاب، وأنّ الكلب الذي يشمّ رجلاً في عانته فعليه أن يتطهّر سبع مرّات بالاستحمام، منها مرّة بالرمل، وإن فعل ذات الفعل عند المرأة فعليها أن تتطهّر بالماء المنقوع بالشبّة وتتبخر بالصندل ولا تقرب فرجها من دِلّ بعلها لأسبوع على الأقل. بل يؤكّد له أن 'حومة العتيهة' أو المعتوهة تسبّبت في أذى نفسها لأنها تعرّت أمام كلب ذكر كان لها، فَلَطَسها، وأنها كانت في بعض الأيام تحدّثه كأنّه بشر، فتسأله وتردّ على نباحه بكلام بل تزوم أحيانًا، كأنها تفهم له كلامًا. كرهت وقتها الشيخ الفكي لهذا الخطل وبغضت أبي الذي يستمع ويستعيذ بالله ويرشف الشاي بصوته العالي متلذذًا. يضحك

ويُسَفّه في أحوال الآخرين ناعتًا إياها بالمسخرة التي ستؤدي إلى قُرْب قيام القيامة. والشيخ الفكي يبصق فيما حوله كما اعتاد، لا سيّما عند ذكر اسم إبليس أو الشيطان أو الكلب أو حومة العتيهة.

كنت أحب حومة العتيهة فقد كانت تلعب معنا ونحن صغار. كانت أكبر منّا حجمًا. تضحك ضحكتها الشهيرة المسرسعة مثل طفلة صغيرة. كنت أراها طفلة كبيرة طويلة في حجم امرأة. الوحيدة التي كانت تستطيع أن تتهكّم على الشيخ الفكي دون أن يستطيع أن يردّ عليها، وإن ردّ فيومه سيكون أغبَر من غبرة العفريت. لأنها ستتفرّغ له لأيام بل لأسابيع لتقرف عيشته وتنكّد عليه نهاراته ولياليه. كان يتجنبّها مردّدًا استعاذات وأدعية ولعنات خافتة في وجودها، جاهرًا بها في غيابها.

لقد قامت القيامة بالفعل على ودّ النار لكن لم يكن للكلاب دخل فيها. ظللت أترقّب كلّ الكلاب الدخيلة في القرية والكلبات الغريبة لعلّه يتصدّى لهذه أو يظهر لتلك التي تهجّ في مواسم العشار من القرى البعيدة والخلاء، لكن لم أجد أيّ أثر لـسَمِح. حاولت أن أتناسى الأمر، لكنني ما إن كنت أسمع أيّ نباح خارج الدار، إلا وأقفز خارجًا لعلّ سَمِح يكون قد عاد؛ لكنها كانت كلّ الكلاب الضالّة الأخرى إلاّ هو.

في الطريق طالعني نتوءٌ صخري مختلف اللون أملس. وجدت نفسي أتجّه إليه. اقتربت منه وأزحت الرمال من جانب. احتجت وقتًا طويلاً. كان فضولي آسرًا. طالعني هذا المنظر العجيب لوجه أسد

واضح المعالم وفي فمه المفتوح وجه بشري مذعور أو متلذّذ مطموس الملامح. لمّا حفرت أكثر وجدت أجزاء أخرى مكسورة لبقية الكتلة. تذكرت هذا اليوم الذي قام فيه الشيخ الفكي بمعاونة بعض المتعصّبين بهدم هذا التمثال الذي سمّاه صنمًا من أعمال الجاهلية الأولى. ظلّوا نهارًا طويلاً يخبطون ويضربون ويلهثون ليكسروا هذا التمثال بمعاول وفئوس تكسّرت مرّات، مع أن التمثال لم يكن كبير الحجم. بدوا كأنّهم يهدّون جبلاً من الصخر، ثم نثروا ما كسّروه هناك في وسط الصحراء وهم يُعزّمون بالتعاويذ ويبرطمون في غضب ومقت. قالوا إنهم بذلك تخلّصوا من وَثَن قد يؤذي القرية ويمسحها عن الوجود. وإنهم خلّصوا دنيانا من شرّ مستطير لهذه الأصنام. لم نفهم نحن الصغار ما معنى الوَثَن ولا الصنم. استغربت يومها والشيخ الفكي يتقدّمهم مشمّرًا عن ساعديه داعيًا إيّاهم لأخذ المزيد من الثواب وتبوُّأ المكان الأرفع في الجنّة في الدرجة الأولى الممتازة. تعجّبت أن يخشى الناس الذين يدّعون التقوى والورع وقوّة الإيمان من الحجر بهذه الصورة. لعلّ الحجر فعلاً أقوى من إيمانهم؛ وإلاّ لما فعلوا ذلك. لم يفكر أحد في تقدير عمر هذا التمثال لكنه بدا من عهود سحيقة. كسّروه ودفنوه في رمال خارج القرية ولعنوه وانفضوا.

ها هي الرأس تبرز من جديد تتحدّى هذا الخبل. وحدها رابضة بالقرب من عظام الموتى، فكأنّها شاهد على الزمن وشاهد للموتى.

بدأتْ الأرض تحت صندلي الأجرب تمتلئ بالعظام كأنّني أقف على

شاطئ بحر رمى بودعاته على البرّ. أصابتني قشعريرة من جديد، أن تكون هذه العظام لأهل القرية، لمن عشت معهم، بل لأقرب الناس إلى قلبي: فالمدافن كانت مبسوطة في العراء مشيّدة ومحاطة ببعض الحجارة ومعلاّة بكثبان الرمل، ولا ساتر آخر يحمي هذه الجبّانات العارية المفتوحة من ضباع أو بنات آوى أو طيور جارحة قد تعبث بما تبقّى من هياكل البشر ولا تترك منها حتى نثير العظام. صار خطوي أبطأ وأصعب. سرت ناكسًا. بصعوبة كنت أتلافى أن أدوس على الموطئ المغمور بفيض تلك العظام. كانت الدور شبه دون عرائشها ساقطة في قعرها وأبوابها مخلوعة ونوافذها مشوّهة وحوائطها مهدّمة، ومعظم معالمها مطموس.

جلست في ظلّ بقايا حائط دار لم أتعرّف عليها، لم أجد ظلاًّ ولم أتيقّن: أكنت بداخل هذه الدار أم بخارجها. وجدت نفسي مرّة أخرى بعد سنوات وأنا أفكر وأنظر أمامي كالتائه المذهول- وجدت نفسي ماسكاً في يدي عوداً يابساً، إلى طرف منه تسري أفكار كثيرة متزاحمة، وفي طرفه الآخر تعبث يدي بخطوط وحروف غريبة، فأرسم على الأرض حروفاً وأشكالاً ربما تعني ما لا أعني، فقد كنت غارقًا في أفكاري الحزينة. كنت أضغط بالعود اليابس على الأرض الرملية، في غلٍّ وغضب، وثورة عنيفة في داخلي تستقرّ مرارتها في حلقي، فأبصق على الأرض لاعنًا هذا الزمن وهذه الدنيا.

في جلستي هذه وقعتْ عيناي على حائط مقابل، عليه خربشات

عميقة تعرّفت عليها جيدًا. رميت الغصن الذي تكسّر مرّات. بصقت، ثم وقفت منفضًا يديّ من التراب العالق بها واقتربت لأرى هذه الخربشات. كانت حروفًا؛ نعم هذا خطّي وهذه الجملة كتبتها وأنا في الثامنة تقريبًا على جدار دار نسيب جارنا عبد المالك الذي لم يتزوّج. كان يجمعنا أحيانًا في الأماسي ليحكي لنا الأحاجي الشيّقة. كانت الجملة مازالت منحوتة بعمق في طين الجدار: 'السَّمِح يمسح السَّمِج الزرّيط'. والزرّيط كانت تسميتنا السريّة للشيخ علي الفكي بدءًا من اليوم الذي ضرط فيه حين ضربني. بعض الحروف بدت مطموسة غير مقروءة. فظهرت الجملة هكذا:

'الـسـمـ مسح الـزر ـط'

تعجّبت من هذا المعنى فقد كنا نطلق في عاميتنا ولهجتنا كلمة الرجل الزرط أي الرّباجي على الرجل السمِج الضخم الغليظ أو الذي يبالغ في بطولاته وأفعاله وهو أقل من هذا. كم فرحت بهذه الجملة الآن! وقفت وقد أعدت إلى ذهني الصورة الأصلية من هذه الأطلال. استطعت بهذه الجملة أن أحدّد معالم القرية وأن أستعيد الصورة. أغمضت عينيّ ورحت عميقًا في هذا الوهم للحظات. بعدها مددت الخطو بعد أن فتحت عيني متجهًا إلى الجنوب في اتجاه دارنا. عثرت على دارنا مطموسة. بدت لي أصغر مما كانت أو مما في مخيلتي. كانت الحوائط مهدّمة إلى مسافة نصف متر من الأرض على الأكثر وحواف السعف تبدو من تحت الأتربة كأشواك قنفذ. وقفت في حلق الدار.

جلستُ. جثوتُ. وقفتُ. مِلتُ. جلستُ. استقمتُ. مشيتُ خطوة. رجعتُ خطوتين. جلستُ. استقمتُ. انحنيتُ. كنتُ كمن يؤدّي طقوسًا بلا وعي حفرت تقليدها في جوّانيتي دون أن أدريها تمامًا. الآن لاحظت أنني وقفت مباشرة فوق بقايا فروة خروف أبي؛ فوق المصلاة، المردوم معظمها في التراب القديم. حفرت قليلاً، لم أصل إلى شيء سوى البرّاد الصاج الأبيض القديم المبقع بالأخضر والأحمر. كان مخرومًا صدئًا، وإلى جانبه قرعة كنّا نستخدمها كإناء، منحوتة برسوم وألوان جميلة، اهترأت وامّحى معظمها. حملتهما في يدي واتجهت صوب جذع النخلة الذي دفنت عنده السوار والدميتين. اتجهت بإحساسي القديم دون تمييز، في اتجاه بوصلة الشعور التي في دمي.

لم يكن الطريق طويلاً إلى هناك، أو ربما ركضتُ دون أن أدري. استطعت تحديد الملامح في العراء بالتقريب. وضعت القربة وسَبَتُ الخوص بعيدًا عنّي. عند نتوء مستطيل بارز عن الأرض خمّنت أن يكون جذع النخلة مردومًا هناك. شمّرت عن ساعدي وخلعت جلابيّتي عنّي وبدأت أحفر بيدي تارة وبالقرعة تارة. وبدأت أحفر والتراب يصعد إلى وجهي وأنا غير عابئ. مرّت أصابعي بحشوة من سعفات النخيل الحادّة، جرحتني، دسست يدي في التراب لأوقف النزيف وتابعت بحثي، ارتطمت يدي بجسم صلب. فرحت. اعتقدت أنّني وصلت إلى الجذع، لكنه لم يكن سوى الحجر- العلامة. تابعت الحفر عند التبّة الأخرى من نهايتها، لم يمرّ كثير وقت حتى ارتطمَتْ يدي بجذع النخلة، نبشت سريعًا مثل الخُلْد حتى ظهر جزء من حراشف جذع النخلة مترًا، بدا مثل شعر مغمور في

تراب قديم. كان هذا الجزء مغطّى بحصيرة كبيرة، رفعتها مرّة واحدة فبان الجذع واضحًا. أحسست بعرق غزير ينزل من وجهي ويسحّ من عينيّ. توقفت برهة وذهبت إلى القِربة التي كانت قد تترّبت تمامًا وشربت جرعة ماء، ثم عاودت الحفر عند بقية مستطيل الجذع. استعدتُ صورة الدفن والمكان الذي كنت قد اخترته. كان عند رأس الجذع الخالي. حفرت هناك إلى أن اصطدمَتْ يداي بحجرٍ أوّل مُغبَرٍّ ثم ثانٍ ثم ثالث. كانت هي الحجارة الثلاثة التي دفنتها. إذًا يقع تحتها الآن القبر الافتراضي الذي شئت أن يكون لحبيبة بت نور الدين الشيلاني وكريمة وحليمة. كان العرق ما زال يسحّ من كلّ وجهي ومن عينيّ. سقط عرقي على حجر منها فبدا اللون قاتمًا. مسحت عليه لكنه كان مغبرًّا. حككت بأظافري حتى آلمتني، فجئت بطرف القرعة وظللت أحكّ بحرص على هذا التراب المتكلّس ثم أحضرت بعض الماء ومسحت الحجر. وصلت دهشتي إلى منتهاها؛ فالأحجار الثلاثة التي طالعتها دون مبالاة قبل أربعين يومًا بهذه الخربشات، تبدو الآن في خطوط وعلامات منتظمة واضحة على صفحتها، وليست بخربشات عشوائية. بدت الأحجار برسوم قديمة متآكلة في بعض الأطراف. كان الرسم ناقصًا ولمّا مسحت الحجر الثاني والثالث، بدأت الأحجار الثلاثة تكوّن حجرًا واحدًا متكاملاً. انطمست منه بعض الملامح لكنه في حال أكثر من جيّد. وضعت الأحجار الثلاثة على الأرض وضممتها لبعضها البعض. صارت الصورة واضحة. جلست أستريح وأنا أتأمّلها عن قرب بعناية:

الصورة كانت لامرأة مستلقية على ظهرها. يداها وقدماها مرفوعة

لأعلى. كانت تبدو كالسفينة في هذا الوضع الغريب، وحين مسحتُ برفق على ما في باطن هذه السفينة، انتبهت إلى مجموعات من البشر في صفوف لكنهم مقلوبون على رءوسهم. قلبت الأحجار مرّة أخرى؛ فبانت المرأة في قوسها هذا كأنها تحمي هؤلاء البشر. ارتعشت من المنظر وداخلتني أحاسيس كثيرة بنُدرة هذه الأحجار وأن أمامي زمنًا قادمًا لأكتشف لُغزها ومعناها. كان النحت مرسومًا بيد فنان مرهف وبشكل دقيق رقيق وبارع. وجه المرأة وقرطها الكبير المستدير وشعرها الطويل ذكّرني بأمي. من عند وجهها وعند الثغر المفتوح كانت الشمس تنطلق أو تدخل إليه. هذه الشموس تبدو خمس مرّات فوق جسدها وسط نجوم كثيرة. وإلى اليمين عند نهاية رحمها صورة أخرى للشمس داخلة أو خارجة. لم أفهم أكثر من هذا. قلبت كلّ حجر على جوانبه الأخرى كانت كلها ملساء عدا الجزء الخلفي عليه علامات كثيرة في شكل منتظم لجعارين وطيور والكلب 'أنوبيس' والتمساح 'سوبك'.

فكرت لحظات قليلة أن أحفر لأبحث عن السوار والدميتين لأدفنهما في مكان آخر، لكني تألمت أن أعيد مراسم الدفن من جديد. وقفتُ. جلستُ. جثوتُ. ثم دفنت الحفرة التي حفرتها من جديد وحملت الأحجار الثلاثة. كان كلّ واحد على حدة ثقيلاً جدًّا، لكني استغربت حين حملت الثلاثة معًا، كان ثقلها كلّها أقلّ بكثير من ثقل الواحد منها. جرّبت عدة مرّات وكنت أحسّ بالإحساس نفسه. أرجعت هذا لإرهاقي وللقيظ الذي بدأ يهري بدني. جلست في مكاني هذا وأخرجت بعض التمرات. أكلت ثلاثًا ودفنت النوى عند الموضع الذي أخذت منه الأحجار. رششت

بعض الماء عليها وقمت واقفًا مرهقًا أشدّ الإرهاق شاعرًا بظمأ يكويني.

عدت إلى أطلال قرية ودّ النار. حملت معي من الطريق حصيرة مدفونة وبعض الأغصان الطويلة وعدت إلى دارنا أو أطلالها. صنعت خيمة بدائيّة مؤقّتة تقيني من الصهد النازل وجلست. أكلت بقية التمرات التي كانت معي وقطعة الكِسْرة التي خرجتْ معروقة ونديّة. استلقيت أتأمل الأحجار الثلاثة على بقايا العَنْقَريب[1] الذي سقط جزء من قلبه المنسوج من الجلد والحبال وانكسرت قائمة منه. سندته على دمجانة مكسورة. كانت أمي تحفظ فيها حبوب الذرة الشامية والذرة العويجة. غفوت قليلاً وكأنّي رحت في حلم هزّ وجداني وجعلني أتنفّس في لا انتظام. حاولت أن أسترجع خيوط هذا الحلم العجيب لكنه تاه عنّي. كأنّي كنت ألعب بشيء غريب مستدير ومنير. لم أدرِ ما كان. تاه الحلم في أغوار نفسي للتوّ، حتى إنني توقفت في مكاني متخشّبًا صامتًا صارمًا شاخصًا في بقعة رملية ليس عليها شيء وكأنّني أحاول أن أقرأ منها. لم أعد أتذكر حتى ما فعلت منذ قليل. كادت تصيبني لوثة كأنّ ذاكرتي قد مُسِحَتْ كلّها في لحظة. لم أدرِ لِمَ أنا هنا، وإلى أيّ اتّجاه أتّجه، ولماذا.

بعد العصر لململمتُ أشيائي وأخذت طريقي عائدًا إلى قرية ودّ الكبابيش. عدت من الطريق نفسها التي جئت منها. عبر الأرض الملآى بالعظام، عظام أهلي وأهل قريتي. والغراب النوحي رفيقي فوقي كأنه عمدة

1- وتنطق القاف في السودان مثل الجيم في اللهجة المصرية، والعنقريب هو سرير من الخشب المشغول بألياف أو حبال أو خوص متين الصناعة أو منسوج بجلد البقر ويوجد في أحواش وأسطح البيوت، وهو درجات، أرقى أنواعه مخروط الأرجل حسن الصنع، وقوائمه قصيرة جدًا قريبة إلى الأرض، لذا سُميّ 'عن قريب'.

القرية. حثثت في الرمال كمن ينـزع قدميه من كتلة طين. تكرّر طريق الخروج وسط شعوري بإحساس غربَل خاطري، ما بين مرتاح منشرح لمَنْ زرت وبين حزين مكتئب لِمَنْ فقدت. بقيت زمنًا طويلاً في هذه الحال بين مسرع ومبطئ، باسِم وعابس. وأنا أحاول أن أتذكر ملامح أمي، شكلها، صوتها، لونها، رائحتها. أحاول أن أتذكر كريمة وحليمة. كأنه دهر مرّ عليّ. كانت ملامحهن في ذهني هلامية مهزوزة وضبابية. كوّنت لهن في روحي ووجداني صورة ثابتة فارحت. ازداد عرقي وصار ينقط على صدري وعلى الرمال. الحرّ لم يتغيّر منذ صباح هذا اليوم. اليوم أيضًا كأنه لا يتغيّر في وقته. كأنّه وقف بالزمن عند هذه الظهيرة القاسية وهذا القيظ القاتل. فقط ما تغيّر هو كلّ وجداني ومشاعري من هذا المزار ومن تلك الزيارة النادرة التي ربما لن تتكرّر في وقت قريب.

الإرهاق حلّ بي، هزّني وشملني حتى إنني كنت أرى عتمة لثوانٍ في عزّ هذا النهار. مثل فلاش عكسي كأنّ النهار تحوّل إلى ليل. قلبي يدبّ الدبّات الأولى نفسها وكل الروائح قد اختفت والريح سكنتْ. كنتُ متعبًا من حمل الأحجار التي بدأتُ أشعر بثقلها. لم يتبقَّ معي ماء، فشعرت بعطش يحرق حلقي. رأيت من بعيد ملامح القرية، خشيت أن يكون ما أراه سرابًا، لكنّي قد مشيت زمنًا طويلاً ومسافة طويلة ولابد أن تكون قرية ودّ الكبابيش هي ما يهتزّ أمامي في الأفق الآن.

تظهر للحظات في بيت النخيل خصلة من الشمس. تخترق السقف الزجاجي وتنـزل تزورني. تلمسني وتغيّرني في التوّ. أحسّ بدفء أكثر

ونور أسطع على جسدي، يخترقني ويشقّني. لا أستطيع فتح عينيّ معًا مرّة أخرى. أنظر بنصف عين إلى السماء عبر الزجاج المضلّع. الشمس الآن قويّة سافرة في هذه الساعة على غير عادة، مبالغة في خلع حجابها ولو لوهلة. كان هذا كافيًا ليضع في داخلي طاقة هائلة، ستكون قوّتي وزادي في برد بعض الأيام الهاجمة. حكيمة غائبة في صدري في حلم آخر لا أدريه. المكان ساكن؛ فأروح في إغفاءة متقطّعة تنتهي بدخولي إلى الحلم المنسي. ها هو يعود الآن هنا في بيت النخيل، كأنّ كلّ ما مرّ بذاكرتي كان تحضيرًا له:

أرى نفسي طفلاً صغيراً يلعب بالشمس. هي بين يديَّ مثل كرة ذهبية خفيفة صغيرة، أدحرجها أمامي وأضحك. عند ناصية الطريق أجد صبيًّا في مثل عمري، لا ملامح في وجهه، يتأبّط قمرًا ويريد أن يستبدل به شمسي. أرفض. أقول له: "لا، لا أريد أن أستبدل قمرك بشمسي! يمكنك أن تلعب معي إن شئت." يوهمني أنه وافق ويلعب معي. يترك القمر على الأرض ثم يغافلني ويأخذ الشمس ويهرب. يختفي بشمسي. أجد قمرًا فضيًّا جواري والصبي لا أثر له. أرى الغروب في الأفق فأحدّد اتّجاه هروبه: إلى الشمال. لكنه بعيد. أحزن وأكتئب ويظلم الجو وأضطر لحمل هذا القمر الثقيل، يبدو أنه من الرّصاص. تختفي أصوات الطيور الكثيرة التي كنت أسمعها. يسكن المكان عن أي صوت. أشعر برهبة غريبة غير مألوفة. أنظر للقمر، فضّته ليست مشعّة وليست خلاّبة مثلما اعتقدت، لها لون رمادي باهت ميّت. أمسح القمر بكوعي مرّات، يلمع جزء منه. أفرح للاكتشاف وأعتقد أنني إن تابعت المسح هكذا؛

فلربما تتحوّل فضّته إلى ذهب وتعود لي شمسي من جديد. أجلس وأنهمك في المسح، فأسمع صوتًا غريبًا لا أعرف من أين يصدر.

{٤}

أفيقُ من حلمي وقد اختفت الشمس تمامًا. حليمة تبدأ تتقلقل بنشاط في مكانها. أعرف أنها تريد تغيير المكان. أقوم متثاقلاً. الحلم أثقلني في بيت النخيل. نخرج، حكيمة وأنا. عند البوابة الخارجية أتصل من كابينة تليفون بساندرا. تفرح باتصالي فلا أتكلم كثيرًا لأنّني أنا الذي يفرح بصوتها. أوّل أسئلتها- عادة- بعد السؤال عنّي وعن أحوالي يتجه إلى حكيمة. تسألني عمّا تفعل حكيمة في اللحظة الراهنة وعمّا فعلت اليوم، وعمّا إذا كنّا في بيت النخيل اليوم. تسألني إن كنت سأمرّ عليها. أقول لها إنني مرهق قليلاً وسأعود للبيت- رغم أنني في غاية الشوق لرؤيتها. لا أدري لِمَ أردّ عكس ما أرغب. ساندرا لا تلحّ عليَّ كثيرًا، لكنها تحاول استمالتي بذكر وجبة 'طافِل شپتز'[1] التي أعشقها والتي طبختها في هذا اليوم. أعِدُها بأنّني سأمرّ بالتأكيد في اليوم التالي.

في محطة المترو. أداعب حكيمة في انتظار المترو القادم وأنا أفكر في الدعوة التي وجهتها إليّ ساندرا. هل خيّبت ظنّها يا ترى دون أن أدري. أم

1- Tafelspitz أكلة نمساوية من لحم البقر المطبوخ تقدم مع بطاطس مبشورة ومايونيز وصلصة تفاح بالكريم الحار.

كنت أحمق في ردّي. تنشقّ الأرض ويظهر أمامي 'أبو دَرش'. لا يسألني عادة عن حالي وأحوالي وإنما يوجه أسئلة لاحقة على عادته كأنّنا نستكمل حديثًا كنّا نتكلمه من قبل.يتكلّم بسرعة ويغيّر الموضوعات كيفما أراد. البعض يعتقد أنّه لا يسمع ما يقال. لكني لم أجد في ڤيينّا كلّها من هو في رهافة سمعه وتذكّره لكلّ صغيرة. يحمل في يده شنطة بلاستيك ثقيلة عليها علامة سوبر ماركت 'Hofer'. يغيّرها من يد لأخرى. عندما يأتي المترو يبدأ حديثه الشجي فينشرح وجهي.

اسمه خليفة الدرويش. يُطلِق عليه الڤيينّاويون اسم 'هِر كاليف'. لا أعرف منذ متى وهو في هذه البلاد. لكنه أتى قبلي بسنوات. يجيد اللهجة الڤيينّاوية الصعبة بطلاقة. غالبًا ما يظهر فجأة أمام باب شقتي دون موعد. يدخل بسرعة. إن كان جائعًا يفتح باب الثلاجة ويقرفص ليختار ما يأكل دون تكلُّف. يقوم بعدها ليعمل الشاي لنا كأنّه في بيته. يجهّز دائمًا كوبين من الشاي يصنعهما بمهارة يُحسد عليها.

لا أعرف اسمه الكامل. مرّة يقول إن اسمه مصطفى ومرّة يقول إن اسمه جبريل. مرّة يقول إنه مسلم ومرّة يدّعي أن أصوله قبطيّة. ويحكي لي عن أمور دقيقة للشعائر والصلوات الكنسية؛ فلا أعرف هل هو فعلاً مسلم أم قبطي، ولا يهمني ذلك كثيرًا.

يقول إنه وُلِد في السودان في منطقة اسمها 'كوستي' عند النيل الأبيض. ويذكر أن والده مصري وأحيانًا يذكر أنه سوداني وأن أباه

عاش في أسوان ردحًا طويلاً في منطقة غرب سُهيل بعد التهجير إثر الفيضان الكبير بعد مشروع السدّ العالي، ثم انتقلت عائلته فيما بعد للقاهرة، لكنه يصرّ في النهاية على أنّه من أصول إفريقية.

كلّ كلامه يمكن تصديقه. كلّ هذه المهاترات التي يحكيها قابلة للصدق. لم أشأ التحرّي في أيّ منها؛ فلم يكن يهمّني إلاّ هذا الشخص النبيل فعلاً الذي ما إن يسمع بأنّني مريض حتى أجده جواري يخدمني دون لأي، بل يبيت عندي ليلة أو ليلتين أو أكثر وحين تتحسّن حالتي يختفي دون انتظار شكر. لا أعرف أين يسكن بالضبط ولا كيف يعيش ولا من أين.

يطلق عليه من يتكلّمون العربية اسم 'خليفة الضارب'. يقصدون بذلك أن مخّه أو عقله ضرب واختلّ. وهو لا يهتمّ بكلّ هذه التسميات ولا تعنيه أبدًا، إلاّ إذا شعر أن شخصًا ما يريد أن يسخر منه أو يهزأ به؛ هنا يمسح كرامة أصل الساخر بالأرض، فهو يعرف عن الكثيرين أخصّ خصائصهم وقد عايشهم زمنًا قبل أن تتحسّن أحوال بعضهم ممّن يسوقون أمارات الغنى والترفّع على الآخرين وعلى الجدد القادمين. يسخر من كلّ هذا الهراء والكذب والتعالي، ولأنه ربما يعرف عن الكثيرين ما لا يعتقدون أنه يعرفه عنهم. فهم يبهتون حين يسرد تاريخًا حقيرًا لهم أو أفعالاً مشينة ارتكبوها فيما مضى. من يعرفونه سطحيًّا يعتقدون أن به مسًّا من عبط أو خبل، لكنّه دائمًا متّقد الذهن سريع الردّ والحجّة وله قاموس عجيب من شتائم لم تُسمع من قبل، حين يطلقها

على من يستحقّها. يقع المجلس في ضحك صارخ أو مكتوم حسب الأحوال. يخشون لسانه السليط. أو أن تُلحَق بهم كنية مؤذية تلصق بهم. وقد فعلها بكثيرين فصارت كنيتهم التي ألصقها بهم لازمة مقلقة لهم؛ فهذا 'محمد ورِك' وهذا 'سامي أبو لباس' وهذا 'سليمان ماما مبسوطة'. وغيرها من الأسماء والكُنَى. حكايات هذه المسمّيات لا يختلقها هكذا هراء. وإنّما وراءها وقائع حقيقية ساخرة أو مناسبات ومواقف مخجلة لأصحابها. بإمكانه أن يسترسل في أي حكاية منها بكلّ تشويق وإثارة حتى يقع السامع أرضًا من الضحك. أمّا أنا فقد سمّاني منذ زمن طويل: 'أبو هُريرة'.

أبو دَرش يصلّي في المسجد ويصوم أحيانًا. وفي أحيان يزور الكنيسة يوم الأحد. يفعل كلّ هذه الأشياء دون أن يتحدّث فيها أو يجعلها موضع حديث ومناقشة. مثل شخص يتدرّب تدريبًا طويلاً وبهدوء وشكل سرّي ولا يفلح أحد في جرجرته إلى ملعبه بالحديث عن هذا الأمر ولم أرَ شخصًا مثله يعرف أنواع النبيذ بهذه الدقّة ويشرب النبيذ بهذا الهدوء وهذا الانبساط دون أن يبالغ. بل يحكي في سُكْره أمتع الحكايات.

هكذا هو وهكذا يظلّ مصطفي جبريل خليفة الدرويش 'هر كاليف'. صديقًا عزيزًا لي. استثنائيًّا في هذه المدينة.

كسب كثيرًا في هذه البلاد وخسر كثيرًا. عمل في مواقع مهمّة لا يصدّق أحد أنه عمل فيها. كما عمل أيضًا في أحقر الأمكنة. أحبَّ وعشقَ وتزوّجَ وطلّقَ وربّما له أولاد.

في بعض الأحيان حين يراني في الشارع يُحيّيني بحبور شديد ويرافقني لأيّ مكان دون سؤال، وأحيانًا أخرى يلوّح لي بيده سريعًا كأنّه مستعجل أو غاضب من شيء ما. نادرًا ما يفعلها، فلا يحيّيني على الإطلاق بل يتجنّبني كأنّه لا يعرفني. هذه الخصال تسبّبت في قطع صلات كثيرة خصوصًا مع الأشخاص المنظّمين المنضبطين كالساعة، ممّن يكرهون هذه الهرجلة وهذا التسيُّب وهو قد ضرب الدنيا 'صرمة' بصرامة شديدة وسخر منها.

أحببت منه معظم خصاله وتعوّدت عليه. أحسّ هو أيضًا بذلك الإحساس؛ لذا كان كلّما ضجر بالحياة والدنيا، يأتي إليّ في شقتي دون موعد. يجلس ليسترسل معي في حكايات لا أوّل لها ولا آخر. يبالغ بطبعه بتشويق سينمائي أو مسرحيّ مثير، وأنا منصتٌ له على الدوام، سائلاً مستفسرًا متعجّبًا، وهو لا يتوقّف عن الحركة والتدخين وسبّ بعض الأسماء وبعض الشخصيات وسط الحديث.

يقول فجأة دون تمهيد:

"صدّقني! كل هؤلاء الناس- ويقصد أهل فيينّا- تجرّهم ساعات أيديهم مثلما يجرّون هم الكلاب. يهرعون في الشوارع كالمجاذيب. يهرولون إلى مواعيد لا تنتهي. يصيبهم الهلع والصرع إن تأخّروا لدقائق عن مواعيد تافهة. تراهم متخشّبين كالأصنام على محطات الترام والأوتوبيس والمترو ينظرون في اتجاه واحد في انتظار وسيلة المواصلات القادمة، وإن ركبوا المواصلات كأنّ بينهم خصامًا. لا يتكلمون. وهم

أسرع خلق الله في الاعتذار إن مسّ بعضهم بعضًا. يجلسون متباعدين عمدًا. وجوههم عصبية وفيها كآبة شديدة وأعينهم كل دقيقة على الساعة. يقرءون أي شيء حتى يتجنّبوا النظر إلى الآخرين. يعيشون كلّ شيء مخطّطًا ومبرمجًا ولا يتركون رصيدًا للمفاجآت؛ لذا ففرحهم مؤقت ومرحهم محسوب. حتى حزنهم مخطّط. أمّا اكتئابهم فطويل الأمد!". أقول له:

"أنت تبالغ يا 'أبو دَرش'! ربما القليل منهم هكذا."

يصرخ:

"أنا أبالغ؟! أنا أبالغ يا أبو هُريرة يا ساذج؟! طيّب انظر حولك!" يشير بتلويحة رأس لسيدة متأنّقة تجلس بعيدةً وعلى رأسها برنيطة كبيرة وإلى جوارها زوجها الذي يتصبّب عرقًا في بذلة تبدو ضيّقة إلى حدّ ما. كأنهما صعدا ليشرح عليهما نظرّيته. يكمل حديثه:

"هل يمكن أن تشرح لي ما وظيفة هذه البُرنيطة- الأروانة التي على رأسها؟ إنها أكبر من المكان الذي تجلس عليه. وما معنى ربطة العنق- المِشْنَقَة هذه عند زوجها؟ إنه يكاد يختنق، لكنه يتباهى بها. إن الرجال هنا يحترم بعضهم البعض عبر هذه الخنقة الرابطة. تراهم مخنوقين بها لا يستطيعون تحريك أعناقهم، لكنهم مُصرّون عليها ويعتقدون بأنّ لها وقارًا وهَيْبة. إنه زيّ موحّد يا 'أبو هُريرة' ويا ويل من يخرج عنه في عرفهم!" أضحك من وصفه المضحك، فيبتسم.

يستطيع مصطفى أبو دَرش ببسمة واحدة أن يحوّل أيّ جلسة حزينة

إلى انبساط وحبور. له بسمة ساحرة مُعدية وضحكة أجمل وأكثر عدْوى؛ ضحكة تثير الضحك والفضول لدى الآخرين. ما إن يبتسم حتى تتحوّل صرامة وجهه إلى وسامة لطيفة تريح الناظر. ابتسامته هذه مصدر تَخلُّق الحسان حوله وهو لا يدري. بينما الآخرون يجاهدون للفوز ببسمة واحدة من ثغر واحدة منهن لتكون قُوتَهم العاطفي الناعم ليوم بالغ الخشونة.

مصطفى أبو دَرش له وجه في لون طحيني. يغيّر باستمرار من شكل شعره. مرّة في ضفائر إفريقية، مرّة في شعر معتاد متوسط الطول ومرّة يكون حليقًا أقرع. يلبس مرّة طاقية ومرّة 'بيريه' لكنه يكره لبس البُرنيطة وله فيها أحاديث مذهلة. حين يضحك من قلبه ضحكته الصافية القويّة المجلجلة لا يهمّه المكان ولا الناس. يطلقها مجلجلة في صمت المدينة الهادئة. كم اهتزت الرءوس استياء بسبب ضحكاته المجنونة الشاردة هذه!

يومًا وجدته يقف مع ممثلة شهيرة في 'جرابن'[1]، وهي تضحك معه بودٍّ كبير ودون تكلُّف. لما سألته من أين يعرفها. قال لقد كانت حماته في يوم ما. اعتقدت أنه يمزح. نسيت الموضوع حتى هلّ عليَّ ذات يوم وفي يده ألبوم كبير فيه صور لهذه الممثلة وزوجها مع ابنتها وعدد من الممثلين والممثلات ممّن أراهم أحيانًا في التليفزيون ولا أعرف الأسماء. حكى لي يومها حكاية طويلة أيّدها بالصور لا يكاد يصدّقها أحد.

1- Graben أحد أهم شوارع المشاة العريضة الراقية في وسط الحي الأوّل في مدينة ڤيينا.

مصطفى هو الشخص الأوّل الذي أستريح لأسئلته الفضولية عن حياتي

الماضية. يجعلني أتذكر أشياء اعتقدت أنني نسيتها. اثنان فقط في كلّ هذه المدينة نجحا في أن أجيب على أسئلتهما، هو ومن بعده ساندرا.

قال لي يومًا ولا أنسى ذلك:

"أقسم لك يا أبو هُريرة! كلّ ما ستمتلكه في هذه البلاد هو حكاية طويلة، عليك أن تحكيها لهذا 'الشهريار' الرهيب غير المرئي في هذه البلاد، قبل أن يسلبك روحك. حاول أن تخدّره بحكايتك فينسى مؤقتًا شرّه المستأصل الكامن. افعل ما أقول لك وإلاّ ستندم! حياتك هي حكايتك الوحيدة في الحياة، احْكِهَا في حياتك قبل أن تحكيك بعد موتك!"

يرافقني مصطفى إلى شقتي. لا يقول ذلك. إنما يسير ضاحكًا حاكيًا، حتى أجده معي وأجد نفسي أفتح بوّابة البيت. أحاول أن أهدّئ من صياحه العالي عند صعودنا حتى الدور الخامس؛ فالناس في هذه المدينة ينامون مبكرًا جدًّا، وهم حسب الإحصاءات العالمية أوّل من يستيقظ من شعوب العالم. يبطئ مصطفى بسبب ثقل شنطته التي يركنها على السلّم مرّات. يقف ويحكي ويستمرّ في الضحك. وأنا أحثّهُ على الصعود السريع وعلى خفض صوته. أفتح باب شقتي. أوّل ما أفعله أن أطلق سراح حكيمة من أسر صدري. تنزل لتجري إلى ركنها لتريح نفسها في صندوقها المرحاض، ثم تعود لتموء وتلفّ حول قدمي بدخل أبو دَرش ويضع شنطته الثقيلة على مائدة المطبخ.

يعاتبني ‘أبو دَرش’:

“لقد جوّعت القطة يا أبو هُريرة ولابد أنك أيضًا جائع!”

قبل أن أردّ، أجده يُخرج محتويات الشنطة من أطعمة ومعلّبات وخضروات وفواكه. يقدم لحكيمة بعض الجبن، وهو يحادثها:

“يجب أن تأتي لتعيشي معي أيتها المسكينة وتتركي هذا المغفّل، سوف أجعلك سيّدة بيت عربية محجّبة لا تخرج من بيتها، ولن أكون مثل هذا الملعون الأوروبي المتسامح المستهتر؛ عدو الأنثى هذا!”

يطبخ في لحظات ونأكل ونشرب في ضحك. يسألني سؤاله المؤلِم والمكرَّر الذي لا يريد منه إجابة، بقدر ما يُنفِّس به شيئًا من غضبه المكبوت- يسألني عن السودان. وهل تغيّرت أحواله وناسه كثيرًا. وكيف يعيش الناس في ظلّ ثورة الإنقاذ الجيدة. وهل أنقَذَت الناس فعلاً. يبدأ يسبّ أصحاب البدلات العسكرية والنياشين والكروش وينتهي بسبّ أصحاب الجلابيب واللحى. يسميهم ‘الكيزان’. لا أدري من أين علم بهذه التسمية. نتكلم كثيرًا عن أشياء اعتقدت أنني نسيتها. فجأة ينعس منّي على الكنبة الجلدية الحمراء. أحضر له بطانيتين أغطيه بهما فيروح في نوم عميق. تتعدّى الساعة الواحدة صباحًا. أعجّل بنومي، فأمامي فجرًا عمل ظالم ينتظرني.

لا أنام. أسئلة أبو دَرش تثير في مخيلتي شجونًا وذكريات. تأتي حكيمة لتلتفّ عند صدري وتقرقر، فلا أروح في النوم بل أروح في ذكريات بعيدة.

بكلّ بساطة أرجع بضع سنوات بالذاكرة وبما تبقّى فيها وتصلّد. رحت أتذكّر دون إرادة منّي في اختيار الأحداث. وجدتني بالعربة ذاتها التي غادرت بها من القرية المجاورة إلى المدينة في المرّة الأولى منذ سنوات. عربة مُغبرّة مبقعة بالصدأ كالبثور على جسدها المخلّع. من بعيد تبدو كأنها حطام عربة. من يرَهَا واقفة لا يعتقد أبدًا أنها صالحة للسير. أنتقل بها اليوم مرّة أخرى إلى الخرطوم في طريق أبشع ممّا مضى، مع السائق ذاته الذي بدا أكثر وهنًا وشيبًا ووجومًا. ضاعت أسنانه الأمامية ومازال يدخن بالشراهة نفسها وينفث دخانه بطريقة أكثر قرفًا وامتعاضًا. لم يعرفني ومازال يتفوّه بتلك الكلمات القبيحة التي يفكّ بها كربته وضيقه ويبصق من نافذته كل حين. العربة مثله عاشت زمنًا كئيبًا. صوت موتورها المحموم صار أكثر علوًّا، وأصبح على من يريد أن يتكلّم أن يصرخ في محدّثه حتى ولو قال 'الحمد لله!' أو 'كيف الحال؟'. يبدو أن الجميع فضّلوا الصمت. لذت أنا أيضًا بالصمت رغم الأسئلة التي ناوشتني طوال الطريق. الرحلة المضنية تتكرّر: التوقّف مرّات للتعرّف على معالم الطريق؛ كأنّنا نكرّر اللعبة السخيفة القديمة أو كأنّه كابوس كريه جاثم لا ينجلي.

وصلت بالقطار النازل إلى الخرطوم في عربة شبابيكها إطارات خشبية بلا زجاج. تهرّأت هيئتها واكتحل شكلها أكثر وتزاحم الناس على الركوب فيها بلهفة وضيق. الكلّ يتدافع بالأيدي والأرجل والمتاع والقُفف والزنابيل واللعن والسبّ. لم يكن هذا أيضًا ما عهدته من هؤلاء الناس رغم المحن. يبدو أن أمرًا أعظم من طاقة صبرهم قد حدث؛ أنّ هناك

فاجعةً ما مستترة وآثارها في الوجوه والتصرفات بتلك الأنانية المفرطة. وتستمر الرحلة الكئيبة إلى الشمال. معي في حقيبة من الخوص بعض التمر وبضع قطع من الكِسْرة وقربة الماء. كنت قد وضعت في الحقيبة الأحجار السوداء الثلاثة؛ أحجار المقبرة التي وجدتها في ودّ النار.

هذه المرّة لا تبدو لي المدينة كما كانت. أرى اللون الزيتوني يغلب على ملابس الرجال، ملابس عسكرية في كل مكان. التجهُّم يطالعني في كلّ وجه ألتقيه. حياة عسكرية متزمّتة ووجوه جديدة طالت فيها اللحى وصارت تتوجّس من كلّ من يختلف عنها. النساء اللواتي كنّ يلبسن 'التوب' الجميل وتحته شعرهن الساحر، رَبَطْنَ الآن على رءوسهن بأحجبة تحت التوب، فأصبحت رءوسهن مثل خوذات رواد الفضاء وبالغن في أدوات التجميل التي لا تناسب ألوانها ألوان وجوههن.

بشاشة الناس ضاعت. البِشْر والضحك الذي كان يميّز هذه المدينة صار صياحًا وشخطًا ونطرًا، كأنّ الناس لا يحادث بعضهم البعض بل يأمرون.

كان معي عنوان بيت للطلاب، أردت أن أنــزل به، ففي الإجازات يسافر كثير من الطلبة إلى ذويهم وتبقى بعض الغرف فارغة. ذهبتُ إلى هناك، فسألني الرجل عمّا إذا كنت طالبًا في إحدى الجامعات. قلتُ لا، قال إن هذا مكان للطلاب فقط. بعد ذلك لم يردّ على أيّ سؤال آخر منّي. عاد إلى مقعده داخل الغرفة ليتابع مشاهدة مباراة كرة قدم وقد تأفّف من وجودي. كان شخصًا من هذا النوع ممّن يعملون في الدرجات الدنيا في المؤسسات والمصالح، ممّن يبالغون في إبداء أهمية موقعهم لكلّ

من يسأل أو يستفسر بل يعقّدون الأمور أكثر كلّما تدنّت درجتهم في العمل. قال لي:

"رُحْ وعندما يكون لديك كارنيه طلاب يمكن أن تسأل عن مكان، وبعدها يمكن أن أجيبك أو لا، حسب الأحوال والمزاج. نحن مشغولون الآن فيما هو أهمّ."

ثم صرخ صرخة اعتقدت أنها موجّهة لي، لكنها كانت لدخول هدف من فريق في فريق آخر. كنت أسمع من التليفزيون أسماء مثل الهلال والمريخ والمُورَدة ولم أعرف ما هي.

بعد العصر، فكّرت أن أتمشّى قليلاً وفي نفسي هدف غير مُعلَن. كنت عامدًا أن أذهب إلى السوق. مررت في طريقي على السينما التي كانت: سينما 'أوديون'. لم أجد لها أثرًا في أوّل وهلة. رُفِعَتْ اللافتات الموجودة ووضع فوقها عنوان: 'شركة البِرّ للملبوسات الإسلامية'. بعد قليل لمحت في زاوية منها اسم سينما أوديون النيون القديم الكهربي مهترئًا وأسلاكه تشعّثت. عند السوق لم أتعرَّف على أحد ولم يتعرّف عليّ أحد. مررت غريبًا مستغربًا أن يصير الحال في زمن قصير إلى ما صار إليه. لقد اختلفت طباع هؤلاء الناس في زمن البؤس هذا بشكل يثير الحيرة. كنت قد اقتربت من محل الكيّال. أردت أن ألقي نظرة عليه، حينما ناداني شخص يميل إلى السمنة متّكئًا على عنقريب وإلى جواره كمية من الكتب ما زال يقلّب فيها دون أن ينظر إليها. صاح:

"سلام يا شاب!"

الصوت بدا لي مألوفًا، ولو لم ألتفت سريعًا لعرفت صاحب الصوت، لكن لفتتي المنزعجة إلى هذا السمين أربكتني؛ فالصوت لم ينسجم مع الصورة التي كانت في مخيلتي، قال:

"تفضل! اجلس! ألا تعرفني؟"

كان يلبس جلابية بيضاء نظيفة عليها عباءة بنيّة غالية ويضع شالاً أنيقًا حول عنقه ويلبس حذاء أبيض مثل أحذية الحُجّاج. يهرس في فمه سواكًا طَوال الوقت، تفرّست وجهه، وحينما ابتسم ورأيت هذا الناب المختفي وهذه الندبة العميقة التي تستعرض خدّه الأيسر بميل إلى أسفل فمه؛ عندئذ اندمج الصوت مع الشكل القديم الذي في مخّيلتي. إنّه هو؛ تذكرته. تأكّدت عندما قال:

"كيفك يا بو النار؟"

إنه الحوت في هيئة أخرى ومنظر آخر. يجلس في دعة ويبدو عليه تغيّر الحال والمآل. قام من مكانه وحيّاني ببشاشة وأنزل عنّي ثقلي وأراحني إلى جواره، وأنا حائر كالأبله. كان كلّ جسده ينفث عطرًا شديدًا ذكّرني بعطر زيت نفاذ لا أعرف اسمه يباع عند المساجد والأضرحة، وفي يده مسبحة طويلة من خرز الكهرمان. سبّح قليلاً وأمر شابًّا جنوبيًّا أن يحضر لنا مشروبًا باردًا وأن يسرع بتجهيز طعام للشيخ حمزة، هكذا بمنتهى البساطة خلع عليّ لقب الشيخ. ضَحِكْتُ بصوتٍ عالٍ معتبرًا أنه يعبث معي، لكنه تجهّم واستغفر الله ثلاث مرّات بصوت جهوري، وفزع الشابّ من حولنا لتنفيذ طلباته فعرفت أن الأمر حقّ وأن العبث

الآن غير وارد. قلت له:

"الحوت ملك البنزين؟!"

شعرت أنه تأذّى من مناداتي له بهذا الاسم. أخرَج السواك من فمه الذي ظلّ مفتوحًا للحظة ثم قال بطريقة بدت لي تمثيلية:

"أعوذ بالله! تبنا إلى الله وندمنا على ما فعلنا!"

وضع يده البضّة الثقيلة على كتفي، وابتسم ابتسامته القديمة الماكرة حتى ظهر ناب ذهبي لامع محلّ الناب القديم الضائع. بانت فلجة أسنانه الأمامية العريضة واختفت عيناه تمامًا. قال:

"أما زلت لا تعرف اسمي الحقيقي؟ أخوك في الله عبد الغادر الغمّاش."

نطق القافين بهذه الطريقة. قال لي إن الله فتح عليه وإنه اهتدى إلى الله وإلى طريق الحق، وبارك الله عليه فأصبح له محلّ كبير في سوق التوابل ومحلّ آخر في مكان السينما القديمة ومحطة بنزين صغيرة. وهنا استغفر الله ثلاث مرّات أُخَر. قال إن 'شركة البِرّ للملبوسات الإسلامية' هي شركته من نعمة الله عليه وفضله. ثم بادرني:

"أنت ضيفي الليلة. أين تنزل؟"

قلت متلعثمًا:

"كنت أبحث عن محل بيات."

ضحك وقال:

“فرجها الكريم!”

جاءت الكوكا كولا المثلجة ثم طبقان بهما بعض الكِرشة المطبوخة بالحمُّص والصلصة، وسلطة فول سوداني مطحون مع البصل والطماطم، ومشنّة صغيرة بها حزمة من الجرجير وبعض الأرغفة الساخنة. أكلت على غير عادتي، كنت جائعًا وقلقًا في آنٍ، وأربكتني الصدفة والمباغتة وهذا التغيّر الفادح في أحوال الناس. كنت متخوّفًا من هذه الأقدار التي ترتّب دائمًا أشياء لا حول لي بها ولا قوّة. آثرت الصمت فتساؤلاتي لا نهائية وأيّ كلمة منه هي ردّ على أيّ من الألف سؤال التي تدور في خاطري. فضّلت أن أتركه يتحدّث عن أيّ شيء وفي أيّ موضوع حتى أرتّب ذهني بصورة ما سيحدث أو ما يمكن أن يحدث.

استأذن مني لعمل ما، وقبل أن ينصرف كلّف معاونيه برعايتي. كنت في حاجة إلى دورة مياه وإلى أن أغسل على الأقلّ يديّ وقدميّ ووجهي. لمّا سألت عن دورة المياه، ساعدني الشاب الجنوبي اليافع بأن أدخلني عبر قبو داخلي جنب الدكّان، فوجدت نفسي في حوش واسع نظيف مرشوش، أرضيّته الرملية تجمّدت من معاودة الرشّ. عليه بعض الحصر وزيران في ركنه البعيد وبعض الصبّارات عند السور، وفي الناحية الأخرى سوابيط تحتها بعض الغرف. أشار لي الشاب إلى غرفة جانبية وقال لي إن فيها مرحاضًا. وجدت حنفية وكرسيًّا صغيرًا بجانبها. غسلت قدمًا فالأخرى فيديّ فساعديّ. وبينما أنا جالس أمسح تحت لغدي بالماء، رفعت وجهي فاكتشفت وجود دُشّ فوق رأسي. تنحّيت جانبًا وجرّبت إن كان يعمل؛

فكان. خلعت ملابسي وكوّمتها وأنعمت على نفسي بحمّام هنيّ وخرجت مولودًا جديدًا مرتاحًا. وجدت الشاب المسئول عن رعايتي يقترب وفي يده منشفة. قال لي على الفور:

"عليك أن تلحق بصلاة العصر فالمغرب سيحين بعد لحظات."

شكرته ورحت إلى أحد الأركان موهمًا إيّاه أنني سأبدأ في طقوس الصلاة فانصرف. جلست وصرت أحاول أن أتذكّر أحداث رحلتي الأولى منذ سنوات إلى هذا المكان؛ رحت أتخيّل سوق أم درمان والذي تكويني الرغبة لرؤيته: هل تغيّر. هل ما زال موجودًا أصلاً. إن كل شيء يتغيّر ويتبدّل في الوجود ويختلف بعد الغياب. خفتت الأصوات ومرّ نسيم هادئ مسّ الماء السائح على بشرتي فغمرتني رحمة مريحة ودعة طفولية. رحتُ في نوم عميق.

أركض في طريق طويل. حتى أصل إلى شخص جبّار عملاق جالس على عرش ذهبي. وخلفه أشخاص أصغر منه يلبسون أقنعة. سألني: "لماذا أتيت إلينا؟" لم أستطع الكلام. وبينما كان وجه الجالس على العرش يختفي تدريجيًّا. كان أصحاب الأقنعة يصرخون فيَّ بأصوات عالية وهم ينزعون الأقنعة عن وجوههم الممحوّة. أفزعوني.

لم أتنبّه إلاّ على صوت مؤذّن له صوت خارق يؤذّن للصلاة. والحوش قد امتلأ بجمع كبير من شباب صغار السنّ. جلس البعض منهم في صفوف. والبعض عجّل بالذهاب للوضوء. بينما وقفت في مكاني أتفرّج. بعد دقائق دخل الحوت. أعني الشيخ عبد الغادر كما يسمّي نفسه الآن.

فأقام الشابُّ المؤذِّن الصلاة وأشار إليّ الحوت أن أقترب لأكون في الصف الأوّل؛ خلفه تمامًا. لم يكن هناك مناص من الاعتذار أو إبداء أي حجّة عن أداء الصلاة. اقتربتُ واستويتُ في الصف.

كان إمامنا الحوت. بعد سنوات تحوّل زعيم عصابتنا القديم إلى إمام. كنت أسير خلفه في ذاك الزمان واليوم أقف هنا خلفه. أركع بعد ركوعه وأسجد بعد سجوده وأُكبّر بعده وأتشهّد وأحيّي. بعد ختام الصلاة وجدت نفرًا قد التفُّوا حول الحوت يستفسرون منه ويستفتونه في بعض الأمور الدينية.

لقد أصبح الحوت حُجَّة وعلاّمة!

استأذنت من الحوت أن أخرج لأتمشى قليلاً. قال لي ألاّ أتأخّر عن موعد العشاء، قالها بطريقة لم أدرك منها هل كان يقصد الصلاة أم الطعام. ثم هبّ من مكانه تاركًا الخلق من حوله متّجهًا نحوي. أراد أن يضع في يدي بعض الدنانير. رفضت رفضًا قاطعًا لكنّه أصرّ. اضطررت أن أفتح محفظتي مدَّعيًا أن نقودي تكفيني وأنا أنظر في عينيه جادًّا أثبّته عن رأيه. لم يقتنع وحمحم غاضبًا عائدًا إلى مجلسه. لم يكن غضبه هذا مؤذيًا لي بقدر قبولي نقود الشيخ الحوت.

لا أعرف كيف وصلت إلى السوق بهذه السرعة. سرت إليها في خطوات غير منتظمة، مرّة أسرع حين أفكّر في الماضي كمن يهرب ممّا لا يحبّ، ومرّة أبطئ حين أفكّر في الحاضر، وأكاد أتوقّف حين أفكّر في المستقبل. كانت الرائحة كما هي لم تتغيّر. رائحة مزيج التوابل التي

يظهر حريفها أولاً: رائحة الشطّة والفلفل الأسود ثم رائحة الكمّون التي تسيطر بكثافة دائمًا على أغلب الروائح، تليها روائح البخور النفّاذة. اكتشفت بعد قليل روائح جديدة لم أشمّها من قبل في هذه السوق، روائح البلاستيك القابضة. كانت المنتجات الهائلة من البلاستيك تملأ السوق: أكياس وشنط وأوانٍ وأطباق وملاعق ولعب أطفال وأمشاط وأدوات منزلية. كمٌّ رهيبٌ من البلاستيك لم يكن موجودًا أبدًا في زمني. ضاعت المنتجات الخشبية والمعدنية اليدوية من السوق. المحلات القديمة بدَتْ أقدم ممّا كانت عليه أو ربّما دخول المحلات الجديدة قد جعلها أكثر قِدمًا. امتلأت السوق بباعة جدد وأيضًا بشباب يافع من الجنوب والغرب، ونساء عجائز يبعن بضاعة تافهة من منتجات رديئة لا يقبل عليها أحد، وآخرون يبيعون منتجات حديثة مثل المناديل الورقية والأمشاط والأزرار والإبر والولّاعات والصابون ودمى الأطفال البلاستيكية فاقعة الألوان في أشكال غريبة لا تعرف إن كانت لبشر أو لحيوانات أم لمساخيط، إلى جانب أشياء أخرى كثيرة مهرّبة أو مسروقة. إنها وفرة من الهباء الرخيص.

بدأتْ أغلب محلاّت السوق في غلق أبوابها. كانت هناك بعض المحلاّت الدخيلة الساهرة في السوق التي تسيطر بأضوائها النيون الجديدة. تبيع أشياء أخرى غير التوابل والخضر والفاكهة، واحد منها يبيع مسجّلات وراديوهات وشرائط كاسيت وتنبعث من محلّه أصوات خطب مساجد في لهجة بلاد أخرى بعيدة. ومحلّ آخر صغير الحجم يبيع ساعات رخيصة ولعب أطفال من المسدسات والدبابات والبنادق. بقيّة

المحلات فشلتُ في التعرّف على هويّتها. لم أعرف ماذا تبيع بالضبط. يتحلّق الناس في جماعات حول بعض منها، وبعضها خالية يقف أصحابها على أبوابها. وصلت إلى نهاية السوق؛ إلى محلّ له ذكريات. اقتربتُ من محلّ الكيّال. تباطأت كثيرًا حتى وقفت. اليافطة ما زالت موجودة لكنها اهترأت كثيرًا وضاعت نقطة من تحت الياء فصارت تُقرأ: 'الكَبّال'. فكّرت أن أمرّ عائدًا عبر سوق الذهب والفضّة. تراجعت في اللحظة الأخيرة وعدت إلى سوق التوابل من جديد.

سرتُ هناك أتشمّم تلك الروائح المحبّبة إليّ؛ رائحة هذا الخليط من التوابل التي أميّزها دون مجهود: من الزنجبيل والكمّون والقرفة، وروائح الفول السوداني والتمرهندي والسمسم والحلومُرّ. ثم عبق البخور والصندل والحلبي. تذكّرت الزمان وصور المكان بأنفي؛ بحاسّة الشمّ هذه التي لا تخطئ مهما طال الزمن. رُحت إلى مكاني القديم الذي كنت بدأت أبيع فيه التوابل في أيام مضت. كانت تقف تمامًا في محله عربة لبائع يبيع ما يشبه حمص الشام الذي رأيته في مصر. أردت أن أبقى هناك قليلاً. لكن حين اقتربت هبّ البائع واقفًا، فطلبت كوبًا من هذا المشروب. لم يكن له طعم محدّد. أهو حُمُّص الشام أم بليلة أم سحلب أم مديدة. لم أدرِ. تباطأت في الأكل أو الشرب إلى أن وصلت إلى نصف الكوب. الطعم ليس حلوًا ولا مُرًّا؛ طعم عديم الطعم غير مميّز. دفعت الحساب وانصرفت. كأنّني أتجوّل في مدينة أخرى أو كأنّني أحلم بذات المكان في ملامح أخرى كما في الأحلام، لكن الأحلام أرحم، فنحن نستسيغ فيها أيّ تغيير. لا يبدو لنا في الحلم أيّ مشهد غير معتاد إلاّ حينما نصحو ونقارن بالصور الثابتة في أذهاننا.

عدت إلى حوش الحوت. عند الباب سلّمت على هذا الشاب الذي اعتقدت أنه من الجنوب. جلست أتحدّث معه قليلاً. قال لي إنه أتي من الغرب؛ من دارفور، بعد دحر القرية في هجوم من مسلّحين راحت ضحيته كلّ عائلته. كان في ذاك اليوم يحتطب بعيدًا في مكان جديد عليه. ولمّا رأى غزالة على مقربة جرى خلفها طويلاً وابتعد كثيرًا حتى ضلّ الطريق– لحسن حظه. لمّا عاد في المساء شاهد عن بعد فظائع لا يتصوّرها أو يتحمّلها بشر: من سلب بهائم وحرق بيوت وقتل رجال ونساء وأطفال واغتصاب فتيات. هرب بأعجوبة لقريب له هنا في الخرطوم؛ فحاول القريب التخلّص منه بإرساله إلى المؤسسة العسكرية ليكون متطوّعًا أو خادمًا في الجيش. أمّا كيف وصل إلى هذا الحوش؛ فكانت حكاية أطول. قال لي إن اسمه 'أبيل كاركاماني'. دار في ذهني اسم الملكة أماني من جديد. حين سألته عن الاسم. قال لي إنه اسم أحد الملوك القدماء يقال إنه حكم مملكة نباتا قبل ٥٠٠ عام من الميلاد. استرسلنا في حديث طويل. وجدته متشوّقًا للردّ على أسئلتي ومعرفة مَنْ أنا. لكنه كان ينظر بريبة بين الحين والآخر إلى الداخل كأنّه يخشى أن يسمعنا أحد.

كان عمر أبيل كاركاماني سبعة عشر عامًا.

دخلت بعد الحديث مع أبيل إلى الحوش الصاخب والضوء داخله شاحب. وجدت في أقصى ركن الحوش حشدًا من الشباب في ملابس عسكرية كاملة ذات لون زيتوني وألوان مبقعة بالأخضر والأصفر كأوراق شجر

الخريف. كانت الملابس أوسع كثيرًا من أجسادهم النحيلة. التفّوا حول الحوت الجالس في جلابيته البيضاء. يده اليمنى لا تفارق مسبحته الكهرمانية التي تكرّها بانتظام آلي، ويده اليسرى تتحسّس كل حين لحيته الكثّة التي استطالت حتى صدره.

وقفت ملخومًا ملجومًا متبجّمًا. صاح الحوت بالسلام من بعيد مشيرًا بالاقتراب. فاضطررت للاقتراب والسلام على الجميع وجلست بينما صمتوا في انتظار حديث شيخهم الذي فضّهم عنه بهدوء قائلا:

"يا قهّار!"

انصرفوا كالنمل المذعور وبقيت وحدي معه. نادى على أبيل ليجهّز العشاء الذي تأخّر بسببي.

تعشينا وذهبت للنوم. لم تحن فرصة حتى الآن لمعرفة ما يفعل هذا الحوت، وإن كان هاجسي يقلقني بأنّ وراء هذا الحوت مصائب. وأنّه عليّ أن أتخلّى في أسرع فرصة عن كرم هذا المأوى الذي يبدو مسالمًا من الخارج لكن داخله خليّة من النشاط الغريب لا تريحني. لم أشعر براحة حين ذهبت إلى عنقريبي لأنام. إحساس ما في هذا المكان لا يروق لي. تقلّبت مرارًا في قلق. عاودتني أيام سرقات البنزين، حين سمعت صوت الضحكة ذاتها التي لم تتغيّر في شيطان الحوت. ورغم كل هذه التقوى وهذا الورع البادي، إلاّ أنّ رنين ضحكته مازال محتالاً وصوته ما زال مدهونًا بالمكر والدهاء. استطاع الحوت أن يغيّر الكثير من سحنته وشكله وطريقة كلامه؛ عدا نبرة صوته الهمجية، وصوت لعلعة ضحكته

المارقة الماجنة. هذه الضحكة لم تتأثّر بورع أو تقوى. كانت تخرج على طبيعتها القديمة، تمامًا كما كانت. تأتيني ضحكته النـزقة من الحوش ممزوجة بأصوات ضحكات أخرى مشابهة، تقطعها استغفارات وبسملات وتعويذات. لا انسجام في أيّ شيء. غفوت مهزومًا من وطأة الإرهاق ونمت قلقًا في المكان الغريب.

في صباح اليوم التالي وأنا ذاهب إلى دورة المياه لمحت ركنًا كبيرًا يشبه الغرفة بلا حائط رابع، لم يُثر انتباهي من قبل. كان مكتظًّا بكتب في لا نظام. بعد عودتي من دورة المياه، عرجتُ عليها فوجدت بها كتبًا جديدة الطبع مَلازمها لم تُفتَح بعد. أغلبها ذات طباعة رديئة بورق أصفر باهت. بعضها مجلّد بالجلد ومكتوب عليه عناوين بأحبار ذهبية دون مهارة ودون فنّ. كانت الأغلفة تحمل عناوين عجيبة مثل: حُكْم الزواج من الجن، عذاب القبر، السعير الأكبر، جهنم الغرير وبئس المصير، حور الجنة، لهم الدنيا ولنا الآخرة، الفتاوى الكبرى، إلى آخر هذه القائمة. ثم رصّة كبيرة من شرائط الكاسيت عليها عناوين أخرى مشابهة. كانت هذه إذًا المكتبة التي حدّثني عنها الحوت أمس بكل فخر.

هذه الغرفة تؤدّي إلى غرفة أخرى، انهمك فيها بعض الشباب في عمل صامت. دخلت بفضول لأتطلّع على ما يفعلون. في البداية اعتقدت أنهم يجلِّدون بعض الكتب. لكنني رأيتهم يقومون بتلطيخ علامات سوداء داخل ما يشبه المجلات أو الجرائد في انتظام آلي. سألت أقربهم إليّ:

"ماذا تفعلون؟"

قال بكل اعتزاز:

"إن مهمّتنا هي النهي عن المنكر."

"كيف؟"

"بمنع هذا الكفر ومنع هذه الإباحية عن الوصول إلى الناس."

أشار بسبّابته إلى صورة وجه في المجلّة للمغنية الشهيرة أم كلثوم التي بدا أنه لا يعرفها. سألته:

"وهل تستطيعون منع ذلك؟"

"طبعًا بكلّ سهولة. بإمكاننا إخفاء عورات المرأة."

"عورات المرأة؟"

"لا يجب أن يظهر من المرأة سوى وجهها وكفّيها. وصحيح الشرع أنه لا يجب ألاّ يظهر منها شيء على الإطلاق. ألست مسلمًا؟ ألا تفهم هذه البديهيات؟ نحن نقوم بذلك لوجه الله تعالى!"

وقفت أتطلّع للأعاجيب الدينية الجديدة. كانوا قد تلقّوا تعليمات محدّدة. علقوا صفحات من هذه الجرائد والمجلات على الحائط، عليها ترقيم الأجزاء بشكل كبير. وعليها نموذج بمواضع المحو والتسويد والإخفاء. إن كانت صورة لامرأة سافرة أخفوا شعرها وحجّبوها بسواد الأحبار، وإن كانت في ملابس بحر أخفوها كاملة وتركوا النص المكتوب. صفحات الفنّ كانت عدوّهم الأكبر، لطّخوها بتشويه فظّ مُبالَغ فيه.

رأيتهم يتمادون في سلطتهم المسكينة الممنوحة لهم ويتغامزون بإشارات لئيمة وكلمات من قاموسهم السرّي. حتى صفحات الرياضة لم تخلُ من إخفاء سيقان الرياضيين والرياضيات.

في اليوم التالي تركت لأبيل شنطتي عهدة لديه كي يحفظها. خفت قليلاً على الأحجار الثلاثة فيها التي حملتها معي من مدفن عائلتي. خشيت أن يفتح الحوت شنطتي ويتصرف في محتوياتها على طريقته القديمة كحوت أو الجديدة كشيخ. اتخذت طريقي إلى أم درمان أردت القيام بجولة في السوق نهارًا. نويت مشوارًا إلى محلّ الكيّال. اقتربت حتى اضطررت إلى أن أشتري ليمونًا لا أريده من سيّدة مسنّة. أردت أن أقترب من معالم المكان القديم نهارًا. داخل المحلّ كان هناك صبي نحيف يتحرك في نشاط دائب يبيع للناس. تساعده امرأة محجّبة طاعنة في السنّ تتحرك في الخلف في بطء وهدوء. تكرّر طلبات الناس بصوت عالٍ كلما سمعَتْ طلبًا. لكنها لا تبيع. لم أعرف مَنْ هذه المرأة. الناس كانوا في عجلة من أمرهم. أردت أن أسأل الصبي الذي يبيع أيّ سؤال. لكنني استسخفت الأمر وتحرّكت حاملاً الليمون في يدي ثم دسسته في جيب الجلابية. سرت في لسعة شمس صباحية سيّحت أفكاري وذاكرتي.

سرت هناك كأنّني سائح. ثم خرجت إلى طريق طويل بلا هدف. أردت أن أهرب قليلاً من هذا المكان المشحون بالذكريات. ورغم الحرّ تابعت المشي ثم عرجت على الناحية الأخرى من الطريق لأمشي في رحمة الظل. كنت أنظر في طريقي لوجوه العابرين علّني أتعرّف على واحد منهم.

أخيرًا لمحت وجهًا قديمًا لا يمكن أن أنساه؛ أوّل من حادثني في أوّل يوم لي في هذه المدينة قبل سنوات، وجرّني للعمل مع هذه العصابة؛ عصابة الحوت. كان 'الخطّاف' بوجهه المميّز الساخر. لم تختفِ السخرية بعد من وجهه. رأيته منشغلاً بالقرب من محطة بنزين بعيدة عليها يافطة عريضة بكلمة hell، سقط منها حرف S، كان لابسًا عفريتة رثّة قذرة عليها آثار شحوم وزيوت، على ظهرها ماركة شركة البترول إيّاها. شعره عالٍ وملخبط، يضع خلف أذنه قلمًا ويتحرّك إلى الداخل بإطار عربة ضخم إلى ما يشبه ورشة، ويداه مشحّمتان بالسواد. اقتربت منه كثيرًا ثم صحت:

"صباح الخير يا شاب؟"

رفع رأسه

"آاه أبو النار؟ كيفك يا بو النار؟ سلامات! والله زمان!"

لم أعرف كيف أسلّم عليه أو أحتضنه. بادرني بالمزاح بأن أُحاذر من اتساخ ملابسي:

"حاسب. تبيّض لي هدومي!"

وتتابعت الأسئلة والكلام:

"ماذا تفعل هنا يا بو النار؟ أين كنت؟ غيبة طويلة.. عاش من شافك!"

ثم أردف بسرعة بعد سماعه صياحًا من بعيد:

"اسمع! سأنتهي من شغلي بعد ساعة بالضبط.. أمامي مقطورة

عسكرية أغيّر زيتها وإحدى عجلاتها.. أين تنـزل؟"

"في حوش الحوت مؤقتًا (قلت متهكّمًا) عند الشيخ عبد الغادر الغمّاش!"

جّهّم وجهه وصَمَتَ برهة ثم قال:

"لازم نتقابل.. أريد أن أحكي معك في مواضيع مهمة.. أتذكر قهوتنا القديمة؟"

"قهوة العَذاب؟"

"نعم."

"لِها الساعة موجودة؟"

"طبعًا. غيّرنا اسمها القديم إلى 'قهوة العُزّاب'.. صاحبها ما كتب الحرف بوضوح فهو بين الذال والزاي.. عاش من شافك يابو النار!"

فرحت أنني وجدت من أعرفه. لكن تجهّمه عند ذكري اسم الحوت، أثار في نفسي بواعث شكّ. ودّعته وأطرقتُ منصرفًا.

في طريقي رأيت وجهًا آخر أعرفه: الحاج نور البقال. حييته فتعرّف عليّ سريعًا ورحّب بي. أقسم أن أشرب شيئًا عنده، ونادى:

"يا ولد! هاتي كركديه!"

كنت أحب لكنته المميّزة وتأنيثه للمذكر وتذكيره للمؤنث. أقسم أن الأيام القديمة- كان يقصد أيامي- على صعوبتها كانت أيام خير:

"الدنيا يا حمزة كان زمان بخير.. تغيّر الناس والمعاملة الطيّب.. الحال تغيرت.. لكن ربّك كريم يا حمزة.. ربّك رحيم!"

سرحت في قول الحاج نور وأنا أشرب الكركديه البارد؛ فأنا لم أغِب عن المكان دهرًا. هل من المعقول أن تصل الأحوال إلى هذا الحدّ من السوء. تجاذبنا الحديث عن هنا وهناك. كان ترحيبه يتكرّر وشكواه من تغيّر الحال تتكرّر. قمت لأمشي، فقال إنني يجب أن أمرّ عليه من جديد فهو يفرح دومًا برؤيتي. ودّعته ووعَدته.

بكلّ أسف لم ألتقِ بالخطاف. انتظرته لساعتين في مقهى العذاب. ثم توجّهت إلى محطّة البنـزين البعيدة لأسأل عنه. لم يعرف أحد هذا الاسم: الخطّاف. الخطأ خطئي، فأنا لم أتنبّه يومًا لسؤال الخطّاف عن اسمه الحقيقي. لقد كان جادًّا حينما عرض عليّ أن نلتقي. ظننت به خيرًا وأن ظروفًا قد منعته عنّي، حزنت أكثر لفضولي الكبير في سماع حكايته عن الحوت التي لا تضاهيها حكاية.

كل هذه الأحداث الطويلة تمرّ بذاكرتي في هذه الليلة، فلا أنام. لم تكن أسئلة أبو درش غريبة عليّ. لكنّها بعثت الذكرى. ربّما كانت ردودي مختصرة. أو كأنّي احتفظت بالتفاصيل لنفسي. شريط الذكريات سحب نفسه بسهولة مثل فيلم. شعرت بخليط من الشجن والارتياح، سهَّلا عليَّ الغوص في نعاس تمنّيته. كانت حكيمة غارقة في النوم، وصوت تنفس واضح في الصالة يصدر من أبو درش النائم.

لا أدري متى رحت في النوم في هذه الليلة الباردة. كنت أحلم بأن قطتي حكيمة تموء بصوت غريب مريض. الآن، أفزع من نومي لأجد أن هذا الأنين يصدر من المنبّه القديم الذي ضعفت بطاريته، فصار ينوح بهذا الصوت المتحشرّج. أكتشف أن ساعتي تشير إلى فارق أربعين دقيقة عن المنبه.

في أقل من عشر دقائق أدخل الحمام وأغسل وجهي وألبس ملابسي، أطعم حكيمة وأغلق الباب وأغادر الشقة. أبو دَرش غارق في النوم. أكتب له ورقة صغيرة أنني ذهبت للعمل وأن عليه أن يفطر ويبقى إن أراد حتى أعود، أو ليضع المفتاح في مكانه المعتاد: في أصيص الزرعة الموجودة أمام باب الشقة.

الساعة الآن الرابعة وثمانٍ وخمسون دقيقة.

أسرع الخطى في اتجاه 'البراتَرشتيرن'[1]. يجب أن أركب 'أوبان'[2] الساعة الخامسة وعشر دقائق. في العادة أحتاج يوميًّا لربع ساعة بمشية سريعة.

الجو اليوم شديد البرودة. أنفاسي تخرج كالبخار. أبدو مثل تنين يبخّ نارًا. البرودة تصعد من أطراف أصابع قدميّ إلى أصابع يديّ حتى أذنيّ ليزداد الألم.

أقف وحدي أمام الإشارة الحمراء. لا إنس هنا ولا عربة على مَدّ البصر.

1- Praterstern اسم محطة مترو كبيرة في فيينا.

2- U-Bahn اختصار لكلمة مترو الأنفاق في فيينا.

أعبر خطوط المشاة. فجأة، من عند الإشارة العكسية البعيدة، ألاحظ عربة بوليس تزحف مثل تمساح وتتحرّك في اتّجاهي كأنها عثرت على مجرم. أدخل أقرب حارة، فأسمع صوت عربة البوليس وقد أطلقت سرينتها على أعلاها وأنوارها الزرقاء تدوّخ المكان. لحسن حظي يكون بالحارة مدخل للعبور إلى شارع خلفي ضيّق. برغم خطواتي السريعة إلاّ إنّني أسمع العربة تقف عند المدخل الضيق وتغلق أبوابها ويصيح ضابط بصوت جهوري غليظ:

"قف مكانك! قف مكانك يا حيوان!"

في نهاية الممر على الجانب الآخر من الشارع أرتدي جاكيت جريدة الكورونا وأضع طاقية جريدة الكورونا على رأسي.

أسرع الخطى ألهث. أنـزل إلى محطة أوبان رقم واحد المتجه إلى 'الكاجران'. ما إن أنـزل إلى الرصيف حتى أرى الأضواء الحمراء لذيل أوبان الخامسة وعشرة في نهاية النفق. أضطرّ إلى أن أنتظر الأوبان التالي. يأتي فأدخل مرهقًا وأجلس على أقرب مقعد. الدفء يأخذني.

أركض في طريق طويل إلى بيت عالٍ فوق جبل. أدخل على رَجُلٍ وجهُه غير واضح. اسمه مكتوب فوق رأسه في قماشة عريضة أو ما يشبه الجلد بخطّ في حروف عجيبة لم أرَهَا من قبل، لكني أستطيع قراءة اسمه بوضوح: 'باه'. يجلس على عرش ذهبي عظيم له خمس قوائم في شكل أرجل الأسد ثلاث في الخلف واثنتان في الأمام. أميّز خلفه ثلاثة أشخاص في ثلاثة أقنعة: واحد لحيوان الوعل والثاني لرأس

تمساح والأخير لوجه الكلب أنوبيس. يعلم بوصولي، ويبدو أنني لم أدرك طقوس اللقاء، حيث يأتي شخص من الخلف ويهمس في أذني أن أركع على ركبتيّ وأن أحني رأسي. حين أرفض يحاول بصلافة يده فأزجره، لكن تكون يده من القوة حتى أكاد أشعر بأن فيها مسًّا من الكهرباء. لولا 'باه' الذي ينطق في صوت جهوري في هذه اللحظة:

"دعوه!"

ثم ينظر إليّ وهو يرفع ذقنه إلى أعلى ويقول:

"لماذا أتيت إلينا؟"

أردّ:

"أبحث عن أمي وأختيّ."

"هم هنا. لكن يجب أن تجيب عن أسئلتي قبل أن تراهم."

أتلفّت حولي وأردّ:

"نعم تفضل!"

يقول لي وكأنه امتحان عبثي:

"إن مات الإنسان ماذا يبقى منه؟"

أتلعثم قليلاً:

"لا شيء لا شيء.. لا يبقى منه شيء!"

أشعر بصمت لم أشعر به في عمري. حين أنطق أسمع لكلماتي رنينًا

يهزّ كل شيء، حتى تسقط الأقنعة من الوجوه الثلاثة. فلا أرى لهم ملامح.

يتلخبط شكل الحروف المعلّقة خلف باه، ويتوعدونني بقبضاتهم، بينما باه يجزع ويظل يحكّ ذقنه بإبهامه وسبّابته وقد بدا حزينًا قلقًا. الآن أراه بوضوح. يكرّر كلامي:

ثم ينطق بصوت مثل الرعد:

"إذًا دعوه يذهب ليرى بنفسه!"

لا أعرف ماذا يقصد؛ هل سأرى حبيبة وكريمة وحليمة. ولماذا يبدو وجهه هكذا حزينًا بسبب ردّي.

أسمع في نومي عدة أصوات: مواء حكيمة وصوتًا مشروخًا للمنبه وسارينة حادّة لعربة وصوتًا غليظًا لرجل بوليس ثم صوتًا عبر ميكروفون من داخل الأوبان يتلو المحطات وأسماءها. في الوقت نفسه كنت أشعر بشيءٍ ما يحفر في كتفي. أفتح عينيّ. يقف أمامي رجل قاسي الملامح، يرتدي جاكيت من الجلد وتتدلّى من يسار صدره علامة كبيرة. يقول كلامًا لا أفهمه. أنطق بألمانية ضعيفة:

"أوكيه.. لقد عبرت الإشارة الحمراء!"

ينظر باستغراب ثم يكرّر كلامه بحنق:

"بطاقة المواصلات من فضلك!"

أجد الناس يُخرجون ويُدخلون بطاقات المواصلات. أقف لأستخرجها

من جيب بنطلوني الخلفي. أعطي له في عجالة بطاقة جريدة الكورونا التي أعمل فيها. الحنق ذاته ما زال في وجهه، يختلط الآن بشيء من الشماتة. يكرّر مرّة أخري:

"بطاااقة المواصلاااات!"

أحفر جيبي وأقدم له البطاقة الشهرية. ينظر إلى صورتي بشكّ رجل بوليس محترف ويدير رأسه حول وجهي يمينًا ويسارًا. يقلب البطاقة من الخلف ليقرأ الاسم والعنوان ثم يعيدها إليّ بقرف.

يتجه إلى زميله الواقف مع فتاة مذعورة عند الباب يكتب في أوراقه مبادئ غرامتها ويحثّها على النزول في محطة 'ڤييتّا انترناشيونال سنتر'.

أنزل في 'الكاجران'[1] وآخذ 'باكتّة'[2] الجرائد من يوسف، عليها رقم مكاني وعدد الجرائد الخمسين التي أتسلّمها.

يقول لي يوسف بصوت حزين:

"لقد كان الشيف هنا اليوم، وقد قلبت باكتتك على ظهرها حتى لا يرى رقمها، لكنه قلبها وعرف الرقم وسأل عن سبب تأخّرك، وإن كنت تتأخر هكذا دائمًا!".

أقول له:

"اللعنة على الشيف! وعلى الكورونا! وعلى أصحابها!".

1- اسم المحطة الأخيرة لمترو رقم واحد.

2 رزمة الجرائد.

تأتي سيدة متأنّقة في بالطو من الفرو الغالي لتأخذ جريدتها من يوسف. تقول له:

"اليوم الجو بارد جدًّا، درجة الحرارة في الخارج ١٦ تحت الصفر!"

أقول بالعربية:

"أهلاً وسهلاً!"

تنظر المرأة إليّ باستغراب بينما يضحك يوسف بأسى.

أحمل جرائدي وأخرج. أنتظر الترام الذي ينقلني محطتين حتى مكاني الكئيب. يتأخر الترام، فأقرّر أن أسير لمسافة محطة؛ فالحركة بَركة والوقوف في هذا الصقيع وهذا الهواء البارد سيجعلني أتجمّد. ما إن أصل إلى المحطة التالية حتى يصل الترام. أركب بسرعة حتى أدفئ جسدي، قبل ساعات الوقوف في البرد والصقيع.

أصل إلى مكاني. أحاول بأصابعي المتجمّدة أن أحشر الجرائد في الشنطة. ثم أرفع الطاقية على رأسي وأفرك يديّ في بعضهما. أضع الجرائد على عامود قصير وأقف. ألمح شخصًا يتحرّك في سيارته المظلمة في المقابل. أعتقد للوهلة الأولى أنه يريد جريدة. لكنه يكون الشيف 'جولدمان' الجالس في سيارته السوداء 'بي. إم. ڤي' يراقبني. يقف بالتأكيد ليسجل رقم المكان والدقائق التي تأخّرتها والغرامة المعتادة في 'الديكتافون'.

الشارع يلمع من الثلج. أكاد أتزحلق حين أجرّب النزول مرّة من على

هذا الرصيف. لا أكرّرها. السيارات أيضًا تسير في موكب جنائزي بطيء ودون ضجة، أرى مصابيحها مثل عيون حيوانات في غابة، تقترب منّي على مهل.

الجو ما زال مظلمًا. يفضّل البعض- من زبائني القليلين ممّن يشترون الجريدة- ألا يفتحوا زجاج سياراتهم في هذا اليوم. يهزون رءوسهم ويرفعون أكُفّهُم بالاعتذار من خلف زجاج النافذة المعبّق بالبخار والممسوح بالأيدي؛ يشيرون بما معناه: لا.

في لهفتي أثناء الخروج من شقّتي نسيت أن ألبس جوربًا سميكًا ونسيت شالي. البرد الآن فوق الاحتمال. لم أعد أشعر بقدميّ. أمشي محترسًا من الانزلاق. أتحرّك في مكاني هنا وهناك مثل فهد محبوس.

حين يطلب أحدهم الجريدة وهو في أقصى الشارع الذي به أربع حارات، أنزل باحتراس، أو بالأصح أتزحلق إليه وأعطيه الجريدة. الرجل يبحث بعصبية عن عملات حتى تخضرّ الإشارة ولا يجد. تزمّر له عربة من خلفه، فيندفع بسيارته ويبرطم قائلاً لي:

"مورجِن!"[1]

أعرف ملامح وجهه. يشتري الجريدة فقط يوم الجمعة ولا يقول سوى كلمة واحدة هي: 'بايده'[2] ويعني بها الجريدتين معًا الكورونا

1- morgen تعني غدًا.

2- beide تعني الزوج أي الاثنين معاً.

و'الكورير'[1]. أقول له:

"سأنتظرك يا سيد 'بايده' ولو طال الزمن!"

أثناء العودة أتزحلق. أقوم أسبّ 'الشيف'[2] والجريدة وهذا الحال والجو البارد الملعون، وما أكاد أصل إلى مكاني على الجانب الآخر حتى أجد الشيف في سيارته إلى جواري تمامًا كأنّه انشقّ من ثلج الأرض. يُنـزِلُ زجاج النافذة حوالي اثنين سنتيمتر؛ فيخرج منها عطر شديد ودفء أشدّ. يقول بصوت مدخّن وبخليط من التهكّم والكِبْر والساديّة:

"يا سيد موهامّد أنت لا تعمل براڤ.. الطاقية معوجة.. لا شنطة.. الجاكيت مفتوح.. وفضلاً عن ذلك متأخر.. هذا يعني لا فلوس هذا الأسبوع!"

يغلق نافذته وينطلق لفريسة أخرى.

شدّة البرد تتسلّل إلى أعماقي. فأشعر بألم أشدّ في أطرافي. جسدي يصير جامدًا دون إحساس. هذا الصقيع لا يجعل فيَّ أيّ طاقة حتى لِلعنة عابرة. أفرك يدي اليمنى وأضعها في جيبي وأحاول باليد الأخرى أن أغلق هذا الجاكيت الكريه حتى آخر السوستة. ألمس الشلنات الباردة المثلجة القليلة في جيب الجاكيت. أنظر إلى الساعة. لم تصل بعد السادسة. أمامي ثلاث ساعات ونصف أخرى أستكمل فيها الوقوف في هذه الثلاجة الكبيرة دون شال أو جورب سميك ودون نقود في نهاية الأسبوع.

أفكّر في حكيمة: هل نسيت النافذة مفتوحة عليها في برد هذا اليوم.

1- Der Kurier اسم ثاني جريدة شهيرة في النمسا وتعني 'الرسول'.

2- Chef كلمة تطلق على صاحب العمل أو المدير.

{٥}

ينتهي عملي السخيف في بيع الجرائد في الساعة العاشرة. أنزع نفسي من هذا المكان الذي أكاد أتصلّب فيه. أركب الترام القادم محطتين إلى 'الكاجران'. داخل الترام أخلع جاكيت الجريدة البارد وأضعه داخل شنطة أخرى، وأعدّ المرجَع الذي سأعيده للمسئول عن الجرائد في المحطة ونسميه 'شيف الجرائد'. يعدّها من بعدي ويجد أن المرجع أكثر بعشر جرائد. يقول لي إنه يستطيع أن يشتري منّي خمسًا فقط. أنتظر الزملاء العائدين ربّما أجد من كان بيعه أفضل في هذا اليوم البارد، فيشتري بعضًا منها. لكن الكلّ عائد بوجهٍ حزينٍ صارمٍ، يسأل السؤال نفسه:

"هل يمكن أن تشتري مِنّي بعض الجرائد؟"

سأضطّر لدفع قيمة الجرائد الخمس غير المباعة من جيبي كالعادة، فالجريدة

تحدّد لكلّ بائع الحدّ الأقصى لما نسمّيه 'الريتور' أو المرتجع. ما يزيد عن ذلك لا يرتدّ للجريدة أبدًا. يتحمّل البائع وزر يومه السيّئ. وتفتخر الجريدة بنسبة بيعها العالية والمستقرّة صيفًا وشتاءً.

أتصل بساندرا. تقول إنها تودّ أن تقابلني اليوم لكن عليها أن تلحق

بمحاضرة في الجامعة. وسوف تمرّ على المكتبة لإعادة كتب مستعارة. تسألني إن كنت سأزور بيت النخيل اليوم. أؤكد لها ذلك. تقول إنها ستمرُّ عليَّ هناك ما بين الثانية والثالثة لنعود معًا. أعود للبيت مسرعًا. تستقبلني حكيمة كسولة تتثاءب وتتمدّد أمامي. أجد أن 'دَرُش' الرائع قد رتّب الشقة وطبخ 'شَكْشوكة'[1] وترك لي نصيبي واشترى أيضًا زيتًا للتدفئة واختفى. آكل باستمتاع. الدفء يأخذني، فأنعس في مكاني على الكنبة. أستيقظ في الثانية عشرة فزعًا أن أكون قد سهوت عن موعد ساندرا. ألبس حذائي وآخذ حكيمة وأتّجه إلى بيت النخيل.

أذهب لمكاني المفضّل. مازلت أشعر بخمول. لم أنم ليلتي الماضية مستريحًا. أنظر إلى ساعتي. أجدها متوقّفة. المكان هادئ تمامًا. أتطلع للنخلة. ثم أروح في النوم.

أستيقظ على صوت همس بالقرب منّي. أجد مجنّدًا نمساويًا يجلس على الطرف الآخر من أريكتي مستغرقًا مع فتاته في قبلة عميقة. أرى هذا اللون الزيتوني لملابسه العسكرية؛ فيتداعى إلى ذهني هذا اللون في مكان آخر من العالم لمجنّدين آخرين في أحلك حالات البؤس والشقاء، يضيّعون شبابهم القصير وحياتهم من أجل نزوات قادة مجانين اعتقدوا أنهم الحادبون على الوطن الراعون له وأن غيرهم عملاء.

أتذكّر نفسي في هذا اللون الكاكي أو بالأصح الزيتوني. هذا اللون

1- أكلة سهلة التحضير من البيض وصلصة الطماطم والبصل المحمّر والتوابل.

الزيتوني الكريه الذي سلب منّي ألوان الدنيا وبهجتها؛ اللون الذي حُبِستُ فيه شهورًا طويلة باسم الدفاع عن الوطن الأبيّ المقدّس، ومحـاربة المتمرّدين والمعتدين والأعداء وكل التسميات الخرقاء. لم يكن لي أيامها لا مأوى ولا أسرة ولا أقارب ولا مُرتّب ولا حتى إجازة لأخرج مثل هذا الشاب- دون فتاة طبعًا- فأسمى رفاهية وأعظم أمنية كانت الخروج من المعسكر. كنت أتمنّى أن أحصل على ساعتين فقط أذهب فيهما إلى النيل، أن أجلس هناك على ضفّته حتى المغيب، أن أدع نفسي تصفو هناك ولأرمي بعضًا من أحمال هذه الدنيا في وحل قاعه.

حاولت مرّات إزاحة معالم فترة تجنيدي. لم أرغب في أن أستعيدها. الآن أتذكرها تفصيلاً. ففي مرّة من المرّات وأنا في حوش الحوت مستلقٍ في سلام على ظهري، أفكّر في معاودة البحث عن الخطّاف، ثم الخروج من هذا البلد نهائيًّا إلى أيّ مكان في الدنيا، إذا بحملة أو 'كَشّة' شرطة عسكرية تدخل إلى الحوش وتبحث في أوراق الموجودين. وجدوا جواز سفري فحملوني معهم في عربة عسكرية بها بعض الشباب إلى مركزٍ ما. وجدت هناك أعدادًا هائلة من الشباب مقرفصين على الأرض. أجروا معي تحقيقات سريعة عن محلّ إقامتي والأمكنة التي تواجدتُ فيها منذ مولدي. كان من نصيبي استجوابٌ إضافيٌّ عن تلك الأمكنة البعيدة التي زرتها: لماذا زرتها وكيف، وأنا من أبناء قرية نائية لا يعرفها أحد في الدنيا. وقفنا في طابور طويل، كتبوا بياناتنا والتقطوا لنا صورًا. بقينا في هذا المكان الذي يشبه المعسكر، لم أعرف إلى أين سيكون الاتجاه. قال أحد الشباب إنهم بالتأكيد سيجنّدوننا.

نمت ليلتي محشورًا في عنبر وسط عدد هائل من الشباب. لا أدري كيف لمّوا هذا العدد الضخم في تلك الفترة الوجيزة. أدخلونا إلى قاعة مستطيلة واسعة معتمة كحظيرة الحيوانات. جدرانها من الأسمنت تعلوها فتحات صغيرة مستديرة. القاعة مكتظّة بأسِـرّة حديدية من دورين؛ أسرّة صدئة كانت تُحدِث صريرًا مزعجًا عند لمسها. عليها مراتب وبطاطين لها رائحة عطنة قذرة، ومهيّأة لتكون أكبر مرتع للحشرات والأمراض.

في اليوم التالي حملونا كقطيع على ظهر سيارات عسكرية إلى معسكر واسع على الأطراف. هناك نادوا على أسمائنا ووزّعونا في مجموعات يقف على رأس كلّ مجموعة 'صول' بملابس عسكرية في هذا اللون الزيتوني المبقّع. تحرّكنا في طابور إلى أمام غرفة أخرى جلس فيها بعض الأطباء العسكريين متجهّمين متأفّفين. كان الجو متوترًا والأوامر صارمة والجزاءات قاسية. دخلنا إليهم كلّ أربعة في دفعة واحدة. كان الفحص لمعرفة مدى لياقتنا البدنية والذهنية وصلاحيتنا لأداء الخدمة العسكرية. كشفوا على البعض منّا في استسهال وبطء وتكرار ممل. فتحنا أفواهنا أمامهم كالحمقى لينظروا في حلوقنا وألسنتنا وأسناننا. تركوا البعض الآخر في استهتار وكسل واضح. ثم تكررّت أسئلة الأمس كلّها في طريقة استجوابية فظّة؛ إمعانًا في التأكّد. قرّروا بعدها أننا جميعًا صالحون لأداء الخدمة العسكرية. كان معنا زميل مصاب بشلل أطفال واضح وآخر لا يرى دون نظارة سميكة أبعد من شبر أمامه. ضمّوهما معنا بكل بساطة. بعدها جاء 'عرّيف'

بشريطين وسلّم كُلاً منّا كِيًّا به بعض المستلزمات العسكرية وحذاء عسكري وبدلة عسكرية. لم يكن لديهم سوى حجمين فقط للأحذية ومثلهما للملابس. قالوا هذه عهدة سوف نُجازَى عليها في حالة الفقد.

كأنّ حربًا ستقوم. جاء العرفاء برعونة وبأوامر صلفة. طلبوا منّا أن نستبدل الملابس العسكرية بملابسنا المدنية بأسرع ما يمكن. فعَلنا ما أُمِرْنا به فبدَوْنَا في أشكال عبثية مضحكة. شعرت أنني كومبارس في فيلم كوميدي سيتمّ تصويره بعد لحظات. تذكّرت شكلي أيام بورسعيد؛ زمن رحلات التهريب مع الزملاء القدامى في مصر. لكننا أيامها كنّا على الأقلّ نستطيع الضحك. الآن الأمر جدّ والضحك ممنوع. بنطلوني يبدو قصيرًا وواسعًا وحذائي ضيّقًا. غيّرته لِحُسن الحظ في آخر لحظة مع زميلي الذي كان حذاؤه أكبر لكن بنطلوني بقي قصيرًا. حاولت مع أكثر من زميل، لكن لم تكن هناك بنطلونات أطول من هذا. كانوا قد حلقوا لنا شعورنا على 'الزيرو'. طَلبوا منّا بعدها أن نتوجّه إلى الحوش الكبير في الخارج وننتظر. وقفنا زمنًا في طوابير داخل الحوش دون حركة. ثم أعادونا من جديد إلى الحظيرة.

هكذا بكلّ بساطة سرقوا منّا حياتنا وسلّمونا حياة جديدة تموت. لا نعرف ماذا سنفعل بها أو متى ننتهي منها.

مرّت عليّ أربعون يومًا في هذا المكان عدَدتُها بالساعة. نصحو في الخامسة صباحًا على صوت نفير مزعج. نقوم بتدريبات عنيفة للّياقة البدنية لثلاث ساعات. نفطر بعدها إفطارًا عديم اللون والطعم

والرائحة. لا نتعرّف على ما نأكله ولا ما نشربه. نَلْتَهِمُ الطعام كالحيوانات. نعود بعدها في عزّ الحرّ لنتجمّع في طوابير في سخانة الخارج. ويتفنّن العُرفاء القابعون في الظل في تعذيبنا وفي الاستمتاع بتوقيع الجزاءات على الجميع لخطأ أحد الزملاء. يقولون قولهم المكرّر السمج تحت مبدأ: 'الحسنة تخص والسيئة تَعُمّ!' ينهار البعض على الأرض من سوء الطعام واعتلال الصحّة، لكن تستمرّ التدريبات دون تعطيل. يقول العريف:

"هاأها، مثل جديد!"

ثم صار يتهكم فيما بعد ويقول:

"هئ هئ، مثلة جديدة!"

وبدأ يطلق أسماءً لممثلات مصريات ولبنانيات على من يقع أو يتقيّأ من قسوة التدريبات والحرّ؛ فهذا ليلى وهذا نبيلة وهذا هند. بعض الخبثاء فينا انتهز الفرصة فيما بعد ليخفّف من قهره بترديد وتثبيت هذه الأسماء العشوائية على زملائه. كان من نصيبي صفة 'أبو كُراعين' لأن رِجْليَّ طويلتان ويقولون إنّني أسير بهما مثل طائر البَلَشون أو الفلامينجو. كان الاسم بالمقارنة بالأسماء الأخرى هيّنًا ولطيفًا ولم يغضبني، لكن الصفات الأخرى القبيحة والاستهجان المريض من هؤلاء العسكريين كان يسبّب أذى نفسيًّا للكثيرين منّا دون أن يدروا.

أربعون يومًا كاملة مُنِعنا فيها من الخروج من معسكر التدريب أو أن يزورنا زائر. تمّ إعلام أهالينا بإخطاراتٍ عن تجنيدنا لأداء تلك الخدمة

العسكرية. لم يكن لي أهل في ودّ النار أو في غيرها. بل لم تعد هناك ودّ النار. بعد الأربعين يومًا سُمِح لمن له أهل أو أقارب أو معارف بالحضور للزيارة في هذا المعسكر النائي، وكنّا جميعًا بلا استثناء من الفقراء والمعدمين. حضر القليليون للزيارة حاملين بعض الأطعمة التي لم نرها من زمن طويل، وبعض الدخان والسَّعوط التي صرنا نتقاسمها. كانت الزيارات قصيرة، مرّة واحدة كلّ أسبوع ولمدّة ساعة فقط مثل زيارة المساجين. ولمّا لم يكن هناك من يزورني، كنت أخرج في هذه الساعة أدور وحدي داخل حوش المعسكر. في دوراني هذا كالثور في ساقية كنت أفكر في الأحجار الثلاثة وفي شنطتي المركونة في مكانٍ ما عند الحوت؛ عند أبيل. هل يا ترى ما زالت موجودة. هل ما زال أبيل نفسه موجودًا.

بعد نهاية مدّة التأهيل، جاء ضابط برتبة لم أعرفها. بدا مهمًّا جدًّا في سيارته العريضة التي حطّت وسط المعسكر بعلَمين في مقدّمتها. قفز السائق ليفتح له الباب، ثم أدّى له التحية العسكرية، بعدها اصطفّ الضباط والعرفاء لأداء التحيّة العسكرية، ليخرج هذا الضابط الكبير من سيارته كالطاوس يشدّ ملابسه العسكرية عن كرشه العالي ويضرب بعصا قصيرة في يده في نهايتها جلدة في شكل تمساح، يضرب بها كفّ يده اليسرى. بدأتْ على الفور التشريفات والتعظيمات. وقف ضابط عظيم المعسكر يقدِّمه بكلمات مرتعشة فيها الخوف أكثر من الاحترام والتبجيل. شرح لنا سيرته والمعارك التي شارك وحرّر البلاد فيها، وأنّه يُعتبَر من الرعيل الذي حافظ على البلاد من المعتدي الجائم، وأنّه اليوم يسجل بزيارته الجليلة هذه علامة تاريخية

يفتخر بها أبناؤه هؤلاء من الجنود الجدد. بعد ذلك وقفت هذه الرتبة الكبيرة وهي مزيّنة بعلامات فوق الكتف وأوسمة فوق الصدر وكاب كبير الحجم، مثل الكابات العسكرية الروسية. ونظّارة غامقة ضخمة. لم أرَ للرجل رقبة. وقف على منصة ودوّى في الميكروفون بكلمات طويلة عن الوطن والجهاد وأننا أبطال المستقبل وحمَلة شعلة البلاد وأننا كذا وأننا كيت وكيت. في النهاية، وقفنا وقفتنا الانتباه العسكرية الصامدة نصفّق بالأمر ونؤدّي التحيّة العسكرية المعتادة. يمرّ بيننا الضابط في خيلاء واضحة ونحن نرفع رءوسنا عزة وفخرًا بهذا الإنجاز العظيم وهذه المهنة الرائعة التي اختاروها لنا. في حين أنهم يرفعون العلم والسلام الجمهوري يدندن لهم من بعيد.

كان علينا أن نردّد النشيد الوطني الذي حاولوا تحفيظنا إيّاه في الأربعين يومًا التي مضت. ردّدناه في أصوات نشاز متباينة. فالكثير منّا لم يحفظ منه حتى تلك اللحظة إلاّ الجملة الأولى، كرّرها أغلبنا في زعيق دون روح. ثم صرخ أحد الضباط فجأة: "الله أكبر.. الله أكبرا". رفع الرجل عصاه في الهواء مرّات. فتعالت وزادت الهتافات. لا أعرف أكانت دروشة بالحالة أم خوفًا من الجزاءات أم رضوخًا للقهر واقتناعًا بقلة الحيلة والأوامر.

مرّ الوقت مُملاً ثقيلاً حارًّا مُرهِقًا مُزهِقًا حتى انتهت هذه الغمّة.

فيما بعد وزّعونا على وحدات أصغر. تدرّبنا فيها تدريبًا إضافيًّا على طاعة الرؤساء طاعة خرساء عمياء؛ على نظام وصرامة في كلّ شيء؛

في الصحو والنوم؛ في الأكل والشرب؛ في المشي والوقوف؛ في الكلام والصمت. صرنا آلات مأمورة مسيّرة. أصخنا كالدّوابّ نفعل ما نؤمر ولا حيلة لنا في هذا الحبس. رأينا كيف يكون العقاب لأتفهِ الأمور. انكوينا بالوقوف لساعات طويلة والتذنيب في اللهيب القاتل دون ظلّ. جرّبنا الأذى في التدريبات الإضافية المضنية. تجرّعنا قلّة النوم وشحّ الطعام والشراب. تعوّدنا على التهزيء القبيح والأذى النفسي العميق. تعوّدنا على الظلم في أقسى صُوَره المنظّمة في تلك المنظمة العسكرية التي تدفع بنا إلى الهلاك. لم نعرف لِمَ يفعلون بنا كلّ هذا وفي سنّنا هذه. صرنا كعبيد مأجورين. كأنّها ليست أرضنا وبلادنا. كنّا ندافع عن شيء لهم هم؛ لهؤلاء الجالسين في العِزّ بكروشهم المتهدّلة وأصداغهم السمينة وصولجاناتهم الخشبية أو مسبحاتهم الطويلة وقهقهاتهم النزقة.

بعدها تدرّبنا على حمل واستعمال السلاح تدريبًا رديئًا منقوصًا. ثم جاءت على عجل هذه المهمة- المأمورية التي وجدتُ نفسي متورّطًا مأمورًا ماضيًا فيها إلى حتفي أو إلى ما لا أعلم ولا يعلم أحد.

كأنّه كابوس!

وجدت نفسي فجأة في هذا اليوم الهجين واقفًا وحدي وسط الأحراش بلا قائد ولا زميل. رافعًا في يدي هذه البندقية الروسية الصنع وحول زُنّاري وكتفيّ شرائط الرّصاصات وزمزمية الماء الحربية الزيتونية اللون. وعلى ظهري الخلاة الحربية. كنت في أرض مستنقعات و'بيادتي' غارقة

في الوحل. أسمع من آنٍ لآخر صيحات غريبة متقطّعة لحيوان أو لطائر. خشيت أن تكون تلك الأصوات رموزًا للأعداء هنا. أدركت مدى غربتي وبؤسي في هذا المكان؛ فبدل شنطتي الخوص، أحمل مخلاة عسكرية. وبدل يدي الحرة، أكبّلها ببندقية عسكرية. وبدل القِربة الجلدية، أحمل زمزمية من المعدن. وبدل دفتر عناوين لأصدقاء، أحمل بقايا شخبطة لخريطة بائسة. وبدل تميمة أمي، علّقت بعنقي سلسلة معدنية عليها رقم وحدتي وأرقام أخرى تمثّل اسمي وهويّتي. قيل لي إنّها لا تنصهر في درجة حرارة تصل إلى ألف درجة مئوية حتى لو احترقتُ أنا بالكامل.

فقدت وعيي بالمكان. كنت وسط أدغال، خرجت منها أو دخلت فيها؛ لا أدري. وسط أغصان متشابكة لا أعرف لها اسمًا. كنت على أرض طينية تبدو مثل عجينة حناء غائصة في ماء، واقفًا وسط بعوض وحشرات هوّامة لا أعرفها تلدغ في نور النهار. كنت وسط هذا الضياع الكبير ولم أدرِ إلى أيّ اتجاه أذهب. لم أعرف لماذا أنا وحدي هنا. ناديت بأعلى صوتي. لم أسمع ردًّا. سمعت فقط صوت خرفشات في الأحراش تنبئ عن وجود حيوانات أو زواحف وطيور في هذا المكان. وجدت شجرة بعيدة هرعت إليها، من شدة لهفتي وقعت مرّات في هذه المستنقعات القذرة وصارت هيئتي مزرية. لم يكن ذلك يهمّني. إحساسي بالخطر في هذه الوحدة لم يكن له مثيل. وقفت في انتظار موت مؤكّد على أرض لا أعرفها بلا خريطة؛ فالخريطة مع آخر زميل كان معي قبل أن يضلّ الطريق أو أتوه أنا منه. لا لاسلكي معي ولا أيّ وسيلة اتصال بوحدتي. وقفت أدور حول نفسي مع أيّ مصدر صوتٍ حاملاً في يدي هذه البندقية السخيفة

الثقيلة. كتمتُ صوتي وتحسّست خطوي بهدوء أستطلع المكان خاشيًا أيّ ضربة غادرة مباغتة من الخلف أو من الأمام.

كم كان موقفي غبيًّا! رموني إلى هنا لمحاربة المتمرّدين. شقّق لنا البلاد هؤلاء العظماء. أشعلوا فتيل الحروب الأهلية وصرنا نحن وقودها.

كنت في شدّة الغيظ من هؤلاء الرؤساء والقوّاد الذين رموا بنا هنا بلا رحمة؛ إلى حرب لا نعرف من نحارب فيها تحديدًا ولماذا. جمّعونا هكذا كيفما اتفق ودرّبونا لنكون عِصِيًّا طيّعة في أيديهم يضربون بها من لا يحبّون، ثم يقفون هناك يتطلّعون للمجد ويقدّم بعضهم لبعضٍ التهاني ويعلّق بعضهم لبعضٍ الأوسمة والشرائط والميداليات ويضربون السلام الجمهوري ويسمعون التصفيق و'عاش عاش! ويحيا يحيا!'. وتُرفَع لهم الشعارات والصور، وكلّ يرسم طريقه بدقّة ويحفظ مكانه إلاّ نحن؛ وقود الحرب الرخيص، الأجساد التي ستتناثر هباءً والأرواح البخسة. ثم يعتبروننا من شهداء الوطن الفائزين بالفردوس. جنّة لا يريدون هم أن يذهبوا إليها الآن. بل يضحّون بنا من أجل بقائهم في الحياة!

يقولون لنا إن لكلّ منّا في الجنّة أربعين حوريّة تنتظر؛ كأنّنا في لهفة لأربعين حورية في الجنّة. نترك أمهاتنا وشقيقاتنا وزوجاتنا على الأرض لنصعد إلى بيت متعة في السماء.

لكم شعرت بالقهر والفوضى والمرارة في هذا اليوم الذي مررنا فيه بسيارتنا العسكرية من طريق آخر وشاهدت هذه الأفواج! لم أصدّق

عينيّ. عدد كبير من الفتيات والنساء متطوّعات أو مجبورات لا أدري، يلبسن أزياء بيضاء وأحجِبةً تغطّي كلّ الرءوس إلاّ الوجه، يتصايحن بأصوات نسائية حادّة بجُمل وأناشيد، يرفعن الأسلحة في تدريبات بدائية، بَدَوْن فيها في غاية السخف والبؤس. كن يصرخن بأصوات اقشعَرَّ منها بدني، بينما هؤلاء الكبار يحتلّون مقاعدهم الوثيرة في هذا الملعب الواسع وهم يرفعون صولجاناتهم الخشب أو قبضاتهم أو سبّاباتهم. ونحن جميعًا شبابًا وفتيات مسحوبون كالخراف إلى هذا المذبح المقدس العظيم. لم أفهم ما يحدث. نظر بعضنا يومها في وجوه البعض ولم يتجرّأ أحد منّا على السؤال. كان زميلي 'سِرّي' قد أغمض عينيه وهزّ رأسه مرّات في ألم شديد مثل شخص مصاب بالشقيقة. أحسست أنّه يكاد يبكي أو بكى بالفعل. لا أتذكر.

وصلت إلى الشجرة الضخمة العالية، كانت ذات فروع عريضة منبسطة. تسلقت جذعها العريض بصعوبة. رفعت نفسي إلى أعلى الشجرة العملاقة حتى صرت تقريبًا في منتصفها. سمح لي هذا الموقع برؤية أوضح. رأيت براحًا أخضر واسعًا ذا دروب ضيّقة من تراب مثل النحاس الأحمر عليه قطعان ترعى بهدوء، لا إنسي في المكان ولا بيت أو قرية. رأيت من مكاني بعض الحيوانات من الغزلان المرقطة والزرافات وبعض الحُمُر الوحشية والقرود التي تتقافز في دلاّيات الأشجار السامقة. حسدتها وتمنّيت لو كنت حيوانًا مثلها أرعى هكذا في هدوء ودعة. ثم تنهّدت مستريحًا أنها لم تكن أُسُودًا أو ضباعًا. سمعت حركة في أعلى الشجرة، فضربت بكعب بندقيتي على الفرع

الذي فوقي، فانسحب شيء من بين الأغصان. تسحّبت دون حسّ إلى غصن أعْرَض وجلست عليه. أتت بعض طيور الحُبارى فأيقنت أنّ الشجرة خالية من أيّ خطر. نظرت في الأفق، لم أرَ أيّ زميل لي. كأنّني نزلت من السماء إلى هنا وحدي.

كنت مرهَقًا إلى حدّ النوم ولكن لم يكن هذا المكان بمطرح نوم. ولم تكن الأمور تسمح بنومة هكذا على شجرة، مثل فهد أو دب. من شدّة الإنهاك غفوت.

منذ زمن طويل صرت كلّما أشعر بوطأة قهر في هذه الحياة، أروح في نومة تشبه الغيبوبة. أحلم فيها أحلامًا غريبة عجيبة، لم أحكها لأحد ولم أستطع أن أفسّرها حتى لنفسي.

أفيق في بيت النخيل على صوت حركة. أنظر في ساعتي المتوقّفة. ينظر لي الشاب المجنَّد بوجه بشوش مرتاح. صديقته تورّد وجهها وتبدو قد ارتوت من قبلاته. يبادرني الكلام:

"مكان جميل أليس كذلك؟"

"لا."

ينزعج من هذه الإجابة الغريبة، أتابع:

"هذا المكان ليس جميلاً فقط. إنه مكان خرافي."

يبتسم هو وصديقته ويشيران بالتحيّة للانصراف. تكتشف الفتاة حكيمة التي تموء وتخرج معلنة عن وجودها؛ فيعودان. تحملها الفتاة

برفق. سألاني بعض الأسئلة التي اعتدت عليها، قبل أن ينصرفا أسألهما عن الوقت، وأضبط ساعتي، حكيمة تجلس الآن جواري. ثم أنتقل لأجلس في مكانهما الذي خلا.

أستغرب أنّني رحت أتذكّر ببساطة أيامًا بعيدة بمجرد رؤيتي لهذا اللون الزيتوني. ما زلت أشعر بخمول ونعاس، ولا يزال هناك وقت حتى تصل ساندرا. أنعس فعلاً.

أسير مع مجموعة من الشباب في نهاية ليلة عرس. نرافق كالعادة العريس إلى بيته الجديد. نتضاحك ونمزح بأصوات عالية ونحن في حالة من الفرح والانسجام. تنضمّ إلينا وسط الطريق أفواج جديدة من الشباب الذين يظهرون عند النواصي بجلاليبهم البيضاء وعلى وجوههم بِشْر وابتسام. الفتيات والنساء يظهرن بخجل ويشاركن من بعيد بالزغاريد المميّزة ويلوّحن بأيادٍ محنّاة وهنَّ يُظهِرْن جمال شعورهن وضفائرهن المغرية بدراية ودهاء. نسير مسافة طويلة، ويبدو أنّني لا أنتبه إلى أنّ الشباب قد بدءوا يختفون الواحد تلو الآخر. أكون في المقدّمة مع العريس. نصعد إلى جبل عالٍ. ولمّا كنت سريعًا في المشي والصعود كعادتي، أسبقهم إلى القمّة. لكن حين أصل إلى هناك وأتمعّن في هذا المكان الغريب، ألتفت إلى العريس وإلى الصُّحبة فلا أجد أحدًا. أراني مسرعًا مجذوبًا هابطًا راكضًا رغمًا عنّي من قمّة الجبل العالي إلى السفح. حين أصل أقع وسط جماعة من الناس لا أتبيّن ملامحهم من شدّة اندفاعي وارتطامي أمامهم بالأرض. لكنّهم في لمح البصر ودون

كلام أو سلام يخلعون عنّي جلابيّتي وسروالي ومركوبي وأنا شبه مخدّر أو مشلول. فأبدو عاريًا. أستغربُ أن أرى في أيديهم جلابيّتي البيضاء الناصعة؛ جلابية الأعراس والليالي الملاح ولونها قد تحوّل في غمضة عين- وبحيلةٍ مثل طرق الحواة- إلى اللون الزيتوني. وعلى إثر ضجّة في الخلف أعتقد فيها أن خلاّني قادمون، أقف. تخرج امرأة شابة من خيمة، عندما تراني عاريًا تصرخ؛ حين تصرخ المرأة، يختفي كلّ هؤلاء الذين حولي إلا تلك المرأة. أسحب خيمتها بقوّة لأخفي عُريي، لكنّي أكشف عن فتاة أخرى داخلها؛ فتاة عارية تستحمّ وسط الخيمة، أفزع حين تراني الفتاة أمامها عاريًا، فأرمي الخيمة، فإذا بها تسقط على رضيع. لا تصيبه لكنه بجزع فيصرخ هو الأخير في صوتٍ عالٍ، أرى الجمع الذي كان قد اختفى يظهر مرّة أخرى. يقتربون وفي عيونهم شرّ. في أيديهم أسلحة يدوية تلمع وقد قطعوا جلابيتي الزيتونية إلى قطع صغيرة ربطوها كخصلات في شعورهم المتدلية. لا أفهم المغزى. لا يتكلمون. يقتربون وأنا أصرخ بلا صوت ولا أستطيع الحركة. يقبض أحدهم على ذراعي فلا أشعر بخشونة يده بل أحسّ بها ملساء دافئة.

أفيق من هذا الحلم الذي ذكّرني من جديد بيوم أن نمت على الشجرة في هذا الدغل. أبقى صاحيًا ناظرًا للنخلة مخترقًا سقف بيت النخيل مسترجعًا هذا اليوم الذي فزعت فيه لحظة صحوي حينما أحسست بحركة جسم دافئ ناعم يسيل على ساعدي الذي شمّرته. فتحت عينيّ فوجدت أَصَلة كبيرة الحجم تتمدّد في طريقها للنزول وكنت في طريق غصنها. انزعجتُ من هذا الحجم الضخم الذي لم أسمع

عنه إلاّ في الحكايات والأساطير فقط. وقعتُ على ظهري على الأرض المعشوشبة غير الصلبة وارتطمتْ بندقيتي بالأرض. اهتزّ الغصن العريض من سقوطي ووقع فوقي ذيل الحيّة الضخمة. اعتقدت أنها تهاجمني. سحبت بندقيتي وأردت أن أدافع عن عمري. لكنها اختفت بخفّةٍ بين الأحراش وأنا في شدّة الهلع. حاولت إطلاق طلقة في الهواء. لم تخرج. جرّبت مرتين. ثلاثًا. إلى أن انطلقت رصاصة رنّ صداها أعلى ممّا تصوّرت. ندمت على رعونتي. هل كنت سأقتلها فعلاً إن هاجمتني أم كنت سأهرب منها. دارت في ذهني أسطورة قديمة عن عدم التعرّض للحيّات أو قتلها؛ فمن أمات حيّة أماتته حيّة.

جلست مكاني منزعجًا مرتبكًا. أتلفّت حولي على الأرض. من ربكتي وتعلّق نظري بأرض الأحراش لم أتنبّه إلاّ بعد فترة إلى حلقة كبيرة من الناس تطوّقني.

الفترة التي قضيناها في التدريب العسكري لم أتعلّم فيها لا أسماء الأسلحة والمعدات العسكرية ولا ترتيب الجيش. أثبتُّ غباءً عظيمًا بكلّ أنواع الأسلحة. لم أدرك الفرق بين اللواء والكتيبة والسّرية والفصيلة والفيلق والفوج والوحدة والفرقة. كان هناك من ينتشي فرحًا بذكر هذه الفروق وإبراز مهارات الحفظ غيبًا للمصطلحات العسكرية. هؤلاء الجنود الدائمون في الحياة. لم أبالِ أبدًا بتلك الحياة العسكرية برمّتها. كان في داخلي رفض وتبرّم شديد من هذا الخطف. تمرّدت على طريقتي؛ باللامبالاة.

كنا قد خرجنا كسريّة كاملة منذ ثلاثة أيّام. قسّمونا إلى بعض الفرق أو الوحدات أو ما لا أدري. فرقة مشاة آليّة خفيفة وفرقة مُدرّعة نصف جنزير بمعدّات جيش من طراز قديم ذات مدى قصير. انتقل البعض بسيارات مُدرّعة وذخائر وعتاد ثقيل. وانتقلت أنا لحظي العاثر ضمن كتيبة الاقتحام الجوي أو الهجوم الجوي. قالوا إن مهمّتنا هي الاقتراب من العدو؛ أي القوّة المضادّة وتدميرها. نقلونا بطائرة حربية روسية قديمة ذات مراوح، قالوا اسمها 'أنتينوف'. ثمّ بأخرى هليوكوبتَر حيث إن المكان الذي سنتنزل فيه لم يكن مطارًا مناسبًا للهبوط.

كان على رأس كلّ سريّة في كتيبتنا بعض الضبّاط. في هذه الأيام الثلاثة خيّمنا في الطريق الوعر وسط جبال وأحراش وأدغال وتبادلنا حراسة بعضنا بعضًا، في جَوٍّ استوائي شديد الحرارة غزير الأمطار. وبتنا أكثر ليالينا المضنية داخل خِيام مهترئة، لم نعرف كيف ننصبها. بتنا مبلّلين نلعن جهرًا الدنيا والزمن، ونلعن في سرّنا القادة والأبطال الأماجد الذين أوصلونا إلى هذا المكان الكئيب.

كانت خطة القائد الكبير هي الإنزال الجوي لبعض الجنود المظليين إلى جبهة القتال، ونقل بعض الفصائل بأسلحتها إلى مطار قريب من مكان القتال. أرسلوا جنودًا لم يتدرّبوا جيدًا على الهبوط بالمظلاّت. حين التقينا بهم قبل الإرسال في معسكر التجميع، كانوا متبرّمين في تحفّظ ومتخوّفين. ذكروا أن كلّ تدريبهم لم يستمرّ أكثر من ثلاثة أيام، مات فيها اثنان إثر ارتطام حادّ لعدم انفتاح المظلة، وأنهم تلقّوا

معلومات كلّها نظرية بل إنّ معظمهم لم يركب من قبل طائرة في حياته.

كان من المفترض أن يكونوا قبلنا في هذا المكان الذي وصلنا إليه، لكن لم يظهر أيّ جندي طائر ولا زاحف، لا في الجوّ ولا في البرّ.

كنت في النهاية ضمن فرقة تتكوّن من ضابط واحد وأربعة من ضبّاط الصفّ ومائة وثمانية وعشرين جنديًّا. أعطانا قائدنا خريطة شخبطها باليد وحدّد بعض التفصيلات عليها. قال لنا إن المتمرّدين في هذا المكان ليس لديهم ذخيرة أو عتاد مثل ما لدينا وليسوا مدرّبين مثلنا على المعارك الحربية، وإن زملاءنا سيكون إنـزالهم خلف قوات المتمرّدين لنطبق عليهم من الخلف ومن الأمام، ونحتل هذا الموقع في ظرف يوم وليلة إن شاء الله، لتعود هذه القاعدة خاضعة لسلطاتنا إن شاء الله. وحدّد لنا المكان الذي سنلتقي فيه بعد أربع ساعات من الاستكشاف. حدّد لنا شجرة ضخمة وقفت عندها العربة بسائقه، ثم مشى معنا بعض الخطوات وأشار لنا إلى معالم الطريق ثم انزوى عائدًا للسيارة التي فرّت كالريح.

أيقنتُ أنّ نهايتي سوف تكون في هذا المكان. أدركتُ ذلك حينما قسّمنا قائدنا- وهو يتلجلج في قراءة ما سماه بالأوامر العليا- بهذه العشوائية إلى مجموعتين كلّ منهما أربع وستّون جنديًّا واثنان من ضباط الصف. قال إنه كلّما توغّلنا، فعلينا أن نقسّم أنفسنا من جديد إلى النصف. انتشرنا موزّعين في الأحراش بلا هدف ولا دليل ولا أيّ

وسيلة من وسائل الاتصال بيننا. كان معظمنا قد وصل إلى إعياء ما بعده إعياء؛ فلا خطّة واضحة ولا تقسيم وكلّ شيء يجري عشوائيًا. تساءلت: من هو هذا العدو، وأنا ما زلت في بلادي. وما هي هذه البندقية المسكينة التي سأقاتل بها هنا. وأين هم الجنود المعضِّدون، وأين العتاد والذخيرة والتموين والطائرات والناقلات. كأنّها خدعة ومؤامرة مدبّرة. صرنا ننقسم ونقلّ حتى صرنا أربعة دون قائد. كنت أرى الذعر والبؤس والقرف على وجوه زملائي الثلاثة المتبقّين. كنّا جميعًا متعبين سائرين بلا هدف ولا حافز.

بقينا اثنين. لم ننقَسِم بعدها. وسط الطريق نطق 'سِرّي' زميلي ومرافقي الأخير دون تمهيد:

"تعرف يا حمزة.. أنا الغلطان!"

"غلطان؟"

"كنت على وشك التقدّم لخطبة عزة حبيبة القلب بعد أسبوع، قبل حدوث هذه الكَشَّة!"

"كَشَّة؟"

"نعم. لمّونا من بيوتنا وساقونا كالبهائم لأداء هذه الخدمة العسكرية. أنا نادم لأنّي لم أتقدّم لها في وقت مبكّر. جهّزت بيتًا بنفسي طيلة ثلاث سنوات ونصف بالقرب من بيت أهلي. كنت مهمومًا خلال أربع سنوات بتزويج أخواتي."

"وهل تزوجن؟"

"تزوجت اثنتان والثالثة مخطوبة."

"لماذا لم تتقدَّم لعزة؟"

"أمها جزاها الله. تعطّل الخطبة كلّ مرّة. تريد لابنتها زيجة أفضل، ومن شخص ميسور. وأنا مزارع على باب الله! كلّ أملاكي قطعة أرض."

تابع كلامه المتدفّق في حنق:

"عزة رائعة يا حمزة! وفيّة! تَقدَّم لها العشرات وهي باقية على العهد الذي بيننا. كلّ ما أخشاه هو هؤلاء النسور."

"نسور؟"

"نعم النسور! النسور الطائرة! أخشى من هؤلاء المغتربين الميسورين الذين ينقضّون على البلاد كلّ عام بمحافظهم المكتظّة بالدينار والريال والدولار؛ بوعودهم التي تخبل وتسحر عقول أعتَى العائلات؛ فيأخذون أجمل كنوزها من الفتيات. يتزوجونهن في أيام قلائل في أعراس أسرع من البرق، ويسحبونهن معهم ليحبسوهن في بلاد بعيدة في نعيم مخنوق غريب لا طعم له ولا استمتاع به. ويتركون المحبّين القدماء مثلي ممّن لم يجذبهم بريق السفر والاغتراب؛ يتركوننا نحن الشباب الباقين نجرع مرارة الهزيمة وبؤس الحال. لقد صار هؤلاء النسور أمَل الفتياتِ المنتظراتِ هُبوطَ هؤلاء الأمراء من أراضيهم البعيدة بأفراسهم الحديدية وقدراتهم المالية ووعودهم البرّاقة التي لا يقدر عليها من بقوا ولم

يتمكّنوا من السفر أو يرغبوا فيه. الكثير من هؤلاء النسور يلهثون خلفها وأمها تتمنّى واحدًا منهم."

أردت أن أجعله يطيل الحديث عنها ليخفّف عن نفسه وعنّي بحديث كهذا.

"أتحبّ عزة إلى هذه الدرجة؟"

"أحبها؟ أنا أموت من أجلها! أموت فيها! أموت لها! أموت قبلها! أموت أموت وتحيا عزة! أنت لم ترَ عيني عزة ولم تسمع صوتها. عزة سارقة نومي ويومي. إلهة الحنان والمحبّة. نخلتي وزهرتي وأرضي وسمائي. آااخ يا عزة!"

كدت ألحظ ما يشبه الدموع وهو يتكلّم ويرتجف من الانفعال ثم سألني:

"هل أنت متزوّج يا حمزة أم خاطب؟"

"لا متزوّج ولا خاطب!"

"كيف يا حمزة لا خطيبة لك؟ الخطبة يا حمزة أروع فترة في الحياة، والزواج أجمل مصائب الدنيا. خصوصًا إنْ جنّدوك وسحبوك إلى جبهاتهم الملعونة هذه. على الأقل لتحمل معك ذكرى حياة قصيرة عشتها، قبل أن يخلعوك من حلمك وحياتك ويلبسوك هذه الحياة البائسة في غمضة عين، لأنهم إن سرّحوك يومًا فأنت غير صالح لأيّ شيء، تتكهّن وتموت وحيدًا منبوذًا كالكلب الأجرب."

رددت عليه في أسى:

"فقط نخرج من هذه الورطة ولك أن تخطب لي من تشاء يا سِرّي!"

لا أدري كيف انفصلتُ عن سِرّي، ولا أين هو، ولا ما حدث بالضبط. أنا الآن هنا وسط هذه العيون المبحلقة ولا زميل ولا ضابط ولا أسير ولا عدو ولا أيّ شيء سوى هؤلاء الناس. ما أقساه من كابوس! حلقة كبيرة من الأهالي تطوّقني على بعد خمسة أمتار تقريبًا. ينظرون إليّ بحذر من بعيد. أجساد قوية رشيقة ممشوقة. ملابسهم مختلفة وملامحهم مختلفة. لم أستطع في هذه اللحظات القصار أن أفرّق بين الحلم والواقع. بدا أنهم كانوا منشغلين في أعمالهم من رعي وزراعة كما يظهر من أحمالهم؛ فهذه امرأة على صدرها طفل يرضع وفي يدها فأس، وهذه أخرى تمشي وعلى رأسها حزمة كبيرة من القشّ وعلى ظهرها قماط بطفلة تنام في سبات، وهذا يبدو مثل راعٍ من ملابسه وعصاه التي على كتفه. كانوا يتكلمون بلغة لم أفهم منها أيّ كلمة. عرفتُ أنني الآن وقعت أسيرًا في أيدي 'الأعداء'.

رميت بسلاحي على الأرض فورًا خوفًا من أن تنطلق رصاصة طائشة فتصيب أحدًا، وعلامة منّي على السلام أو الاستسلام. فالناس الذين أمامي ليسوا بمحاربين أو متمرّدين كما مَلَئُوا رأسي هناك. ويبدو أن هذا الفعل قد أثار عجوزًا كان يقف في المقدّمة. اقترب منّي وكلمني بلغته. لم أفهم. ذكرت اسمي بالعربية واسم سَرِيَّتي. ابتسم الرجل ابتسامة أراحتني. استرحت أكثر حين نطق في لكنةٍ عربية لكنها

واضحة. فقط كان ينطق حرف الحاء هاء:

"أنت عربي شمالي تَبَع هُكُومَة مجنونة جيتْ هربان.. ولو ما رميت سِلاهَك كانوا دَبَهُوك.. يرسلوكم لنا بالميّات كلّ سنة زيّ الجرادات.. شنو نعمل معَك ها السّاعة؟"

هذه الجملة الأخيرة أخذتُها على محمل شرّ. فوقفت محتميًا بظهري إلى الشجرة التي سقطتُ عندها. بقي الرجل في هدوئه بينما تقدّم بعض شباب ذوي أجساد فتية قوية ممشوقي القامة. بدا عليهم الانزعاج وبان الغضب في عيونهم وهم يقتربون منّي. طقطق الرجل الكبير بصوت غير ذي لغة. توقّفوا مكانهم احترامًا. أشار لي أن آتي معه. كنتُ أقف مهزومًا في نصف وقفة. فانتصبت. كان عليّ أن أنفّذ أوامره. مشيت خلفه بعد أن أشار الكبير إلى عملاقين من الشباب. اقتربا وأمسكاني بإحكام من إبطي بقبضات حديدية. رفع أحدهما سلاحي وحمله في يده اليمنى مثل لعبة. مشيت بينهما خلف الحكيم منتصبًا متوقّعًا لقاء زملائي الآخرين بأيّ شكل: مهاجمين من الأرض؛ هابطين من السماء أو حتى مأسورين. لم يظهر أحد. كأنّي أسيرُ كابوسٍ ثقيلٍ طويل. كنت أشعر بخلاتي تدقّ ظهري برَجّاتٍ منتظمة وأنا في طريقي إلى مجهولٍ جديد ينتظرني. كانت الرَّجّات تصدر مثل دقّات القلب. شعرتُ بشيءٍ دافئ عند وجهي وبشيءٍ ما يمسّ شفتَيّ. كنت في أشد الظمأ.

أستيقظ على وجه ساندرا التي تقبّلني بشفتيها الناعمتين بهدوء. تعتذر لي عن التأخير وتسحب حكيمة النائمة في حِجْرِي والتي تتثاءب كسولة. تقبّلها. أقول لها إنّني رُحْتُ في رحلة طويلة وبعيدة على هذا المقعد الهادئ بسبب اللون الزيتوني. أحكي لها الحكاية الغريبة بتفاصيلها. يتألّم وجهها لسماع الحكاية وهي مبهورة الأنفاس ماسكة بيدي. تقبّلني كلّما سمعت حَدَثًا مؤلمًا لي. إحساس جديد عليّ يهزّني، وهي تنصت بعناية لكلّ كلمة؛ إحساس بنعمة نادرة وهي قريبة منّي هكذا تضغط على كفّي بحنان.

يعلو صوت ضجيج في لغة غير الألمانية. مجموعة من السائحين والسائحات يتفرجون على النَبَاتات والأشجار ويصوّرون بعض المناظر. كانت واحدة منهم تصيح مثل الإوَزّة، يبدو من شكلها أنها معلّمة أو أستاذة أو دليلتهم، فهي تتقدّمهم وتذكر أسماء النباتات بصوت أعلى من المعتاد. كأنّها في قاعة محاضرات كبيرة. ينصت إليها الآخرون والأخريات في صمت مع هزّات رءوس الإعجاب والتعجّب.

أسمع من حديث الأستاذة كلمة تشبه 'طافِل شپتز'. أنتهز الفرصة وأقول لساندرا إنني جائع منذ الأمس في انتظار ' طافِل شپتز'. نخرج وهي ممسكة بيدي كأنني سأفرّ منها. تقبّلني عيناها عشرات المرّات ونحن في الطريق إلى بيتها. نصل إليه بسرعة لم أتخيّلها. فلا أدري ماذا ركبنا في الطريق ولا كيف وصلنا إلى هنا بهذه السرعة. سِرْنا مُتَخَاصِرَيْنِ طَوَال الطريق.

{٦}

في شقة ساندرا يوجد كل ما تحتاجه حكيمة. أستأذنها في أن آخذ حمّامًا سريعًا. تعاتبني على استئذاني؛ بأنّني في بيتي وعليَّ ألاّ أستأذن فيه. حين أخرج من الحمّام تفاجئني بهذه المائدة التي جهّزَتْهَا يد فنانة رهيفة. في منتصف المائدة وردتان في مزهرية صغيرة أشعلت جوارها شمعة زرقاء جميلة. تفتح لنا زجاجة نبيذ أحمر من منطقة كريمس. يبهجني منظر وجهها في هزّة أضواء الشمعة وظلال خصلاتها تغطي جزءًا من وجهها. يفرّ قلبي من صدري ويختلج تنفّسي. تختار أسطوانة موسيقى لموتسارت. فتُغلق بهذا النغم المنساب وبهذا الجوّ السحري كلّ أبواب الذكريات والآلام التي غمرتني طوال هذا اليوم. آكل وجبة 'طافِل شپتز' هنيئًا، وأرشف نبيذ كأسي وأترك لها شفتي بعد كلّ بسمة منها لتغمرني بهذا الحنان الجارف. الموسيقى تسري إلى جسدي مثل مسٍّ كهربيٍّ خفيف. وتحوّلني إلى إنسان آخر؛ أصير خفيفًا رهيفًا طائرًا مسحورًا حالمًا.

تستسلم لي ساندرا بطريقة تتملّكني فيها. أعشق رائحة فمها العطرة. ملابسُنا تقع منّا على الأرض في بساطة كأوراق الخريف. جسدها ناعم ودافئ، طريّ وقوي في آنٍ. تنزلق شفتاي برفق من فمها

إلى وجنتها إلى أذنها. أغوص بوجهي في شعرها. أنفاسُها تكلّمني بأجمل اللغات. أفهم كلّ حرف من هذه الأنفاس. أيدينا تقرأ جسدينا ببطء مثير. نبدأ معًا في الذوبان. المسافة من سرّتها إلى أسفل بطنها تتحرّك مثل موج بطيء. ثم يتسارع موجها. فأغرق في مدّها وجزرها. ويعلو صوتها بأغانيج وصوت كالهديل تصبّه كاملاً في أذني. رنّة صوتها الرائع ممزوجة ببحّة شجن. تعود لتقبّلني وشفتاها منتصبتان في ابتسامة فيض من رضا. تصبحان في لون وردي مثل لون حلمتيها المشدودتين. ينزلق لسانها من أذني إلى صدغي إلى ذقني. يعود إلى فمي ويبقى هناك مرتعشًا متوتّرًا. كفّاها الآن في كفّيَّ. حين أسحبهما إلى رسغها تستسلم فتتملّكني أكثر. أروح بأصابعي أخوض في شعرها العاطر. أرى لون عينيها للحظة. فتداري أهدابُها هذا الخجل المثير. أسير وراء عينيها إلى داخل عالمها. أرى ما ترى. أسير براحة كفّي على طول ذراعها حتى أصل إلى تحت إبطيها فأمسّهما برفق. تثيرها لمستي فتصرخ ببحّة أعمق. تنقلب فوقي فأسير بكفّي على ظهرها برفق ثم على مؤخّرتها الناعمة. نتقلب في هدوء. تروح كفّي إلى سِمّانتيْ رجليها ثم إلى بأطن قدميها الرشيقتين. أضغط هناك ضغطًا خفيفًا على مواضع ستثيرها دومًا في كلّ لقاء. أغوص في دنيا ساندرا عميقًا فتتسارع لهثاتنا في تتابع. جسدها ينشع بعطر مبلّل مثير. أصواتنا تعلو وآهاتنا تتناغم وتتداخل ترتدّ وتردّ. كفّاها الآن يشدّان شعري بين قوّة ورفق. ثم تجزّ كتفي بأسنانها برفق وأظافرها تبدأ في خربشة خفيفة ناعمة على ظهري دون عنف. سيثيرني هذا أيضًا في

كلّ لقاء. أشعر بجسدي يذوب في جسدها. أكون فرحًا ملتذًّا ملهوفًا مأمورًا آمرًا منجذِبًا لامسًا ملموسًا عاطرًا معطورًا هائجًا هادئًا دافئًا ناسيًا ذاهبًا ذاهلاً غائبًا حاضرًا خائرًا شاهقًا زافرًا هانئًا باسمًا ضاحكًا صارخًا سامعًا حاسًّا رائيًا ملتذًّا ملتذًّا ملتذًا.

رغم إرهاقنا الجميل، لا تزال ساندرا متشوّقة لمعرفة المزيد عنّي. لا تزال تحتضنني كأنّني سأفلت منها. يكاد جسدها يُوجّه لي الآن الأسئلة المحبوسة بيننا منذ زمن. أجد نفسي أتحدّث بعفويّة. كأنّي أردّ على أسئلتها. تقرّب لي زجاجة النبيذ. أظلّ أشرب وأحكي. أقف بين الحين والآخر لأتذكّر وأكمل الحديث. ثم تسألني ساندرا سؤالاً واحدًا وينهمر الكلام منّي:

"إلى أين أخذك الشابان والرجل الكبير؟"

"في خفر العملاقين مشيتُ خلف العجوز متشنّجًا مشدودًا، والوجوه تطالعني في استغراب وشيء من الغضب. سِرتُ يومها أسيرًا أتصبّب عرقًا في ذاك الحر وتلك الرطوبة خلف هذا العجوز ولم أعلم إلى أين سيكون المصير.

وصلتُ إلى مجموعة متراصّة من الأكواخ المبنيّة من الطين في شكل دائري لها أسقف من السعف المبروم. بدا كلّ كوخ منها مثل بصلة عملاقة مغروسة في الأرض. دخلت إلى كوخ عَلّت مدخله بيضتا نعامة. وجدت المكان مريحًا نظيفًا كمضيفة لزائر وليس كمكان أسر كما كنت أتوقع.

فتحت الباب من الداخل فوجدت العملاقين مازالا يحرسان. الأطفال تجَمَّعوا بالقرب من الكوخ يتصايحون ويشيرون إليَّ بأصابعهم الدقيقة الطويلة، وبعض النساء يختلسن النظرات من بعيد. بعضهن كن يركبن الثيران، وبعضهن سائرات حاملات بلاليص وقرعات وأواني كبيرة. لاحظت أن النســاء هناك يسرن في رشاقة وخفّة رغم ما يحملن من أثقال ووجوههن باسمة. أغلقت الباب وجلست في كوخي دون سلاح ولا مخلاة. بعد لحظات خبّط أحدهما على الباب ثم دخل وقال لي بلهجته كلامًا لم أفهمه، ثم وضع المخلاة أمامي على الأرض وانصرف. استغربت من هذه المعاملة؛ أن يطرق شخص على الباب قبل الدخول وكأنّي بالفعل قد جئت ضيفًا عليهم. فتحت المخلاة باحتراس. كان كلّ شيء موجودًا بها كما هو.

بعد وقت قصير خبّط العملاق من جديد على الباب، فدخلت فتاتان جميلتان صدرهما عاريان ويتأزّران بإزار جميل حول الوسط. كانتا تبتسمان كطفلتين. وضعت الأولى صُرّة وقرعة كبيرة بها ماء. والأخرى أنزَلت مشنّة كبيرة بها بعض الأطعمة والخبز والفواكه. الفتاة الأولى شعرها جميل طويل مضفور في ضفائر كثيرة بها خرزات ملونة والأخرى لا تقلّ عنها ملاحة في شعر قصير وعيون سوداء واسعة وأسنانهما ناصعة في صفوف منتظمة باسمة. جلد بشرتهما مشدود وناعم ولهما عبق خفيف مميّز.

كان الماء لي كالجنّة، فقد كنت منذ ثلاثة أيام لم أقرب الماء وأشعر

بقرف كبير من رائحتي، لكن همّي العظيم ونكبتي لم يجعلاني أفكّر كالبشر. وجدت بالصرة جلابيّة قديمة نظيفة وملابس داخلية. أردت أوّلاً أن أستحمّ سريعًا في ركن الكوخ البعيد، لكنّي كنت جائعًا، هجمت على الطعام بنهم كبير دون أن أفكر فيما هو. كنت آكل كمن لن يجد طعامًا له بعد ذاك اليوم. كان لذيذًا بشطّة إلى الحدّ الذي أحبه. كنت مازلت مستغربًا؛ فهذه ليست معاملة أسير حرب. بعد أن أكلت شعرت بإرهاق شديد، أردت النوم لكنّي تحاملت على نفسي وقمت لأستحمّ قبل أن تضيع آخر فرصة فردوسية لي، استحممت واقفًا ومتعجلاً بماء قليل وسط طست كبير لكنّه كان حمّامًا رائعًا لن أنساه. كنت مهدودًا والأسئلة تدوّخ ذهني. أحسست أنني لو متّ الآن بعد هذا الحمام الهانئ في هذا الهدوء والإرهاق والنعاس، فسيكون حقًّا موتًا كريمًا. لبست الجلابية ولم أتذكر متى نعست. نمتُ على العنقريب كطفل في حجر أمه.

صحوت على صوت خبطات متلاحقة. دخل على إثرها الرجل الكبير ومعه ثلاثة آخرون مختلفو الملامح: اثنان منهم كبيران في السن والثالث أصغر نسبيًّا ملامحه توحي بأنه محارب قديم. قدّمهم الكبير لي بأسمائهم التي أتذكّرها بوضوح الآن. فقد ترجم الكبير لي معناها؛ الأوّل كان اسمه في لغتي يعني 'حَيدَرة' أو الأسد كان غليظ العنق قوي الساعدين، والثاني كان اسمه يعني شجرة البلوط. أما الثالث فكان ابن الكبير اسمه طهراق وهو اسم لملك قديم ويعني القوي الشديد البأس. أمّا الكبير فكان اسمه ما معناه الشريف. وجدت أن أسماءنا تشبه

أسماءهم في معانيها وصفاتها. منذ ذاك الوقت أصبحت أطلق على الكبير اسم 'الشريف'. سألته إن كان هو عمدة هذه القرية أو زعيم هذه القبيلة. ابتسم حتى ظهرت أسنانه كاملة سليمة وناصعة. قال لي إنه كان 'ميرَم'، أي الشيخ الكبير الزعيم لهذه القبيلة الصغيرة لفترة طويلة، وإنه الآن رجل عادي هنا، لكنه أكبرهم سنًّا وإنهم يأخذون برأيه في الأمور الهامّة، ومع ذلك فهم ليسوا ملتزمين بتنفيذها، وإن والده كان ميرَم هذه القبيلة التي تشتمل على إحدى وعشرين قرية، شهدت لزمن طويل سلامًا وخيرًا ورخاء. قال الكبير إنه تنازل في كبره لمن رآه جديرًا بالقيام بالمهمة من أولاده، واحتفظ لنفسه بمركزه الاستشاري. وإنهم قرّروا منذ ما يقرب من عشر سنوات أن يقوموا في كل خريف باختيار ميرَم جديد مع بقاء الميرَم القديم كمستشار، وإنه ليس من الضروري أن يكون الميرَم كبيرًا في السن، بل من المتّزنين المتّصفين بصفات طيّبة حكيمة تقبلها الجماعة.

قال لي:

"إن الاختيار يجرى بطريقة قديمة سهلة ورثوها أبًا عن جدّ وجدّة؛ ففي اليوم المحدّد للاختيار يذهب الناس صباحًا إلى دور المتنافسين كيفما يرون، فإن رأوا أنّ فلانًا من القوم جدير بالمنصب، يقفون في طابور أمام داره، ويقوم عدّادون بالعدّ والإحصاء، وفي المساء يتمّ التنصيب لمن وقف أمام داره أكبر عدد من الناس في احتفال جميل يشترك فيه جميع المتنافسين."

ولمّا رآني مندهشًا تابعَ حديثه قائلا:

"ربما ستستغرب. فإنّه أمر بديهي لدينا أن تحكم المرأة أيضًا. لقد حكمتْ خلال السنوات العشر الماضية امرأتان. ومع ذلك يا بني فنحن أيضًا بشر ولا يخلو البشر من شرّ. فمكاننا هذا ليس بجنّة. هنا أيضًا الضغائن والمناحرات والخلافات والحروب الخفيفة على الكلأ والمراعي، لكنّها في حدود ضيّقة يحسمها المجلس."

تكلّموا بعدها بلغتهم الخاصة وتشاوروا في هدوء دون لغط. كانوا ينظرون إليّ بين حين وآخر. ثم لخّص لي كبيرهم أنه عليّ أن أبقى لديهم لفترة حتى ينظروا في أمري. قال هذا الكلام، ثم قام خفيفًا كشاب، لبس مركوبه. قال لي وهو واقف أمامي، إنني مدعو في هذا اليوم للعشاء عنده في الدار، وسوف يوصلني أحد الشابّين الواقفيْن أمام الكوخ. نظر إلى الفواكه والأطعمة التي أمامي، قال لي:

"لا تأكل كثيرًا من هذا!"

ضحك وانصرف. ضحكت للمرّة الأولى في هذا المكان. وقفوا للانصراف وأفسحوا المكان للشريف بعد أن كانوا قد وقفوا قبله. اصطفوا في احترام ليخرج هو أوّلاً من الكوخ. ودّعته وودّعت من معه. خرج بجلال في خطوات مستقيمة. تذكّرت أيام المعسكر والتدريبات التي كنّا نقوم بها وسط مدرّبين لا يجيدون سوى الأوامر والشخط العالي، محبوسين في البدلات العسكرية الضيّقة عليهم وهم يعتبرونها نوعًا من الأناقة، وكروشهم قد تدلّت أمامهم، وكلّما قام واحد منهم بتنفيذ جملة

حركيّة- لنكررها خلفه- كاد يتفصّد من بدلته المحزّمة.

ارتميت على هذا العنقريب أفكّر في أحوال هذه الدنيا وهذه الظروف التي ترميني شمالاً وجنوبًا وأنا لا حيلة لي.

كنتُ شغوفًا بلقاء هذا المساء مع الشريف. عند الغروب طرق الشاب بابي فعرفت أنّ موعد الزيارة قد حلّ. لم تكن معي هدية لهذا الرجل. موقفي كان مُربِكًا. هل أنا أسير أم ضيف.

دخلت عليه في داره الكبيرة: حوش واسع دون سقف. مفروش بكامله بفرو خرفان ومعز وحيوانات أخرى. الحوائط منصوبة من عذوق نخيل متراصّة ومزيّنة أيضًا بجلود وفرو حيوانات. أبواب داره من خشب مصنوع بمهارةٍ فنية عالية وجمال بسيطٍ أخّاذ. لم أتوقع أن أرى مثله في هذا المكان. دخلت وكان هناك مجلس كبير من الشباب وكبار السن والنساء. بدا مثل مناسبة عُرس. لكنهم كانوا يجلسون معًا لم يفصلوا النساء والفتيات عن الرجال أو الشباب. أجلسني إلى جواره وقدّم لي مشروبًا حلو المذاق مثل الحليب الفائر لم أعرف ما هو. قال لي إنه نوع من الثمر الذي لا ينبت في الشمال. نادى على أحد الشباب وطلب منه أن يُحضر هذه الثمرة. كان اسمها 'جُواتَابَنا' قال لي إنهم يخلطون حليب البقر الطازج مع منقوع هذه الثمرة وإنها مفيدة لا سيّما للحوامل والمرضعات و مقوّية أيضًا للرجال. ثم أتوا بطعام من مشويّات وأكلات أخرى طيّبة الطعم. كان يشرح لي أنواع الطعام ويعلّمني أسماءها.

كانت ليلة قمراء. بعد أن أطلّ الليل دخل البعض بآلات موسيقية مثل

الطنبورة والدفوف والطبول. ضبطوا الآلات ثم غنّوا في أصوات صافية قوية ورقصوا رقصات إفريقية جميلة. حثّني الشريف أن أشارك. قمت. صرت أقلّد الراقصين. نسيت نفسي معهم. دخلت في حالة من الدروشة. إحساس غريب انتابني وقتها بأنني في مكان آخر غير هذه الدنيا، أو أنني ربّما في غيبوبة الموت اللذيذ وأن هذه الأصلة قد لدغتني فعلاً وأنني أعيش في حمّى هذا الحلم العجيب. ولم أدرِ بعد تلك الليلة كيف وصلت إلى عنقريبي ولا كيف نمت.

في صباح اليوم التالي أخذني الشريف مع مجموعة صغيرة في رحلة طويلة على الأقدام. كان يمشي خفيفًا بخطوات حذّاء في صحراء. وصلنا إلى أطلال وأنقاض وأشجار ساقطة. كلما اقتربنا كانت تزكم أنوفنا روائح جيف واضحة. رأيت قرية مخرّبة عن آخرها. بدت لي مثل ودّ النار في شكل أنقاضها. قال لي الشريف إن هذه القرية الوادعة راحت ضحيّة حرب بين طرفين كانت القرية تقع بينهما. جنود من هنا ومحاربون من هناك. وقعت القرية بين سندان استمالة من هؤلاء ومطرقة ابتزاز من الآخرين.

كان المكان لا يحتاج لمزيد وصف من الشريف. مشينا في صمت بين هذه الدور والأكواخ المهدّمة. كنّا نَلقَى في طريقنا دوابَّ متفسّخة تتنازع عليها بعض النسور مع بنات آوى وضباع تناور من بعيد.

قال لي الشريف:

"لقد دفنّا أغلب الناس بأيدينا، ومن تبقّى من أهلها أسكنّاهم معنا في قريتنا 'سوميت'."

كان اسم القرية يعني الخرز الجامد. عند ناصية من النواصي وقفنا جميعًا فجأة. فقد جاء رجل عجوز نصفه الأعلى عارٍ هرول صارخًا رافعًا رمحًا. أمرني الشريف أن أقف هادئًا وألاّ أجزع أو أركض وأمسك يدي بقوة. جاء الرجل غاضبًا يستفزّنا للقتال ويتفرّس في وجوهنا. بعد لحظات- مُقلقة لي- تركنا ومشى وهو يبرطم بكلمات في صوت عالٍ جدًّا. تابعنا طريقنا.

حكى لي الشريف أن هذا المسكين فقد كلّ عائلته وكلّ ما يملك خلال هذه الحرب العبثية، وبعد أن عذّبوه، صار في هذا الحال من الجنون، منذ هذا الوقت وهو يعتقد أنّ كلَّ غريبٍ في هذا المكان عدوٌّ دخيلٌ.

تابعنا طريقنا نحو ما يشبه أطلال قلعة مهشّمة تمامًا وتبدو عتيقة. دخلناها عبر بابها المكسور. من هناك رأيت منظرًا من أبدع ما رأيت في حياتي. في الناحية الجنوبية من هذا المكان العالي بحيرة كبيرة واسعة وأشجار هائلة الحجم وبعض حيوانات لا أعرف نوعها ولم أرها من قبل، وفي أقصى المكان على مدد الشوف شكل قرى متباعدة.

قال لي الشريف:

"انظر! إن أهل هذا المكان كلهم مسالمون، ليسوا أهل حرب لكنهم شديدو البأس. دخل إلينا أشكال وألوان من الناس. مَنْ أراد أن يعيش في سلام عاش معنا ومَنْ لم يرد نبذناه. جاءنا الجلاّبة في زمن قبيح مثلهم. رغبوا في اغتنام عبيد من أهلنا. لكننا لم نتركهم يأخذون منّا فردًا. استبسلنا. وكانوا في منتهى القسوة والفظاظة والغباء.

مات منّا الكثير ومَنْ وقع في قبضتهم دافع عن نفسه حتى مات، ومَنْ قيّدوه وغلّوه وسلسلوه، امتنع عن تناول أيّ طعام أو شراب حتى مات. لم يفهموا أننا لسنا عبيدًا لأحد، والحكاية طويلة يا ولدي!"

هكذا نعتني الشريف بكلمة ولدي. اعتبرني ولده رغم أنني أتيتهم مسلّحًا غازيًا مقاتلاً.

بقيتُ في هذه القرية ما يقرب من ثمانية أسابيع في ضيافة الشريف الذي لم يتوانَ عن تعريفي بالقبيلة وبالمكان. كنت أذهب إلى مجلسه كلّ ليلة عدا يوم الخميس. يحكي معي بكلّ سرور ويردّ على كلّ أسئلتي. عرفت منه أنه تعلّم العربية عند رجل من الشمال عاش عنده فترة طويلة حينما كان شابًّا. حكى لي حكاية عجيبة عن أَسْرِهِ ذات مرّة في شبابه من مجموعة من العسكر وعن فكّ أَسْرِهِ وبقائه لحسن حظه عند رجل له معرفة بأبيه ميرم القبيلة في ذاك الوقت، وأن هذا الرجل أحسن معاملتهُ خلال ما يقرب من العام والنصف حتى عاد بعد ذلك إلى أهله.

حكى لي الشريف على مدار الأيام أحاديث كثيرة، معظمها يبعث على الأسى والحسرة؛ عن مكان جميل كان يمكن أن يكون أجمل بكثير لو ابتعد عنهم كل هؤلاء الحمقى الرعناء.

قال لي:

"مع الزمن يا ولدي، انقطعت أواصر الشمال مع الجنوب. أتانا الجلاّبة من ناحية والمبشرون من ناحية أخرى وصارت فوضى في البلاد. بقيتُ على

ديني حين كنت في الشمال ورفض الرجل الذي حماني- وكان اسمه حَمَد النيل- أن أدخل في أيّ دين إلاّ باقتناع. كنتُ مقتنعًا بديني الطبيعي الذي ورثته أيضًا عن أجدادي، وكانت علاقتي مع الناس حميدة. قال حَمَد النيل لهؤلاء المتعصّبين وقتها: 'إياكم ومحاولة غصبه على دين!' من يفهم هذا الآن يا ولدي؟ جاء المبشرون بأناجيلهم وبنوا الكنائس هنا. حاولوا تعليم بعض من أهلنا أن يلبسوا ملابس غريبة عنّا وأن يصلّوا لأنبياء بيض ليسوا منّا. وحكى لي أبي عن جمعية نمساوية كانت تسمّى 'ماريا' قد أتت بمساعدة الإمبراطور فرانتس لتنصيرنا وهدايتنا نحن الوثنيين. جاءوا تحت عباءة منع الرقيق، ثم أنشئوا هيئة الصليب المقدّس ما يسمّى الآن بالكنيسة. مات بعض هؤلاء المُبشّرين بسبب الجو والأمراض، وبقي القليل الذين شاركوا في بيع العبيد لخورشيد باشا. أتى بعدها من أجل التبشير عدد كبير من الكسالى المدخّنين السكارى التنابلة طالبي الخدمة. فكّروا لاحقًا في سحب البعض منّا إلى بلادهم لتنصيرنا وتجهيزنا في المدن الأوروبية ثم إعادتنا بعد فترة كدعاة محليين. أنشئوا جمعية سموها 'الرعاة الطيبين' وجعلوا لها فروعًا في أمكنة كثيرة.

أردنا أن نُفهِم هؤلاء المُبشّرين أن لنا أديانًا ومعتقدات أقدم نؤمن بها؛ فاستخفّوا بمعتقداتنا. قالوا إنه ليس هناك إلاّ الدين الحق والانتماء الأزلي ليسوع المسيح. علّقوا صلبانهم في كلّ مكان وحفّظوا أطفالنا أغانيهم الكنسيّة بلغاتهم الأوروبية. جرّوا الناس إلى دين آخر جديد. أغروهم بالمنح والهدايا والملابس والعلاج والجنة الموعودة وكرّهونا في أصحاب الأديان الأخرى.

كان كلّ همّهم أن يعلّمونا طقوس الصلوات الجديدة واللبس الجديد. الآن يحضرون لنا مع الأناجيل فانلات 'تي شيرت' عليها إعلانات ودعاية لشركات لا نعرفها. صرنا نمشي على الأرض كإعلانات رخيصة متحرّكة. أحضروا لنا البنطلونات 'الجينز' والبرانيط والقبعات. وصرنا كما ترى، نلبس الجينز ونصفنا الأعلى عارٍ أو نلبس أحذية أوروبية غريبة على ملابس وجلود من صنعنا.

ثم بنوا لنا أربعًا وعشرين كنيسة في السنوات الثلاثين الماضية. لم يبنوا لنا دارًا واحدة للعبادة كما نريد نحن. يأتي البعض منهم كلّ عام مع مصوّرين وتليفزيونات ويوزّعون بعض الملابس والحلوى وكميّة خرافية من الصلبان. يجمعون حولهم الأطفال ويبتسمون للكاميرات ولا نعرف ماذا يفعلون بالضبط.

يعتقدون بأنّهم يعرفون الدنيا أفضل منّا، ويعرفون أرضنا وتاريخنا وعاداتنا وتقاليدنا، ويعتقدون اعتقادًا جازمًا بأنّهم يفهمون الدين أفضل منّا. يتوهّمون أن بنا نقصًا وأن علينا أن نقلّد حياتهم هم. ونحن لا نرى أهلهم إلا عابسين قانطين كارهين الدنيا شاعرين دائمًا بقلّة ما يملكون وخائفين على حياتهم ومن مماتهم.

وأتانا المخبولون المتعصبون من أهل الشمال راغبين في أن ندخل في دينهم. أردنا من جديد أن نُفهمهم أنّ لنا أديانًا ومعتقدات وآلهة أقدم نؤمن بها. استخفّوا بمعتقداتنا واعتبروها ضربًا من الجاهلية والتخلف، واعتبروا أن ما نعبد من الطبيعة وثن. قالوا ليس هناك إلا الدين الحقّ

والانتماء الأزلي إلى مُحمّد والإسلام. جرّوا الناس إلى دين آخر جديد أغروهم بالمناصب والجنّة الموعودة وكرّهونا في أصحاب الأديان الأخرى.

ما زال هؤلاء يحاولون أسلمة الجنوب والآخرون يحاولون مسحَنة الجنوب؛ فغيّر بعض الناس عندنا ملابسهم وجلودهم ومعتقداتهم. اختلف الناس باختلاف العقائد وتصارعوا على الوصول الأسرع إلى الجنة. أسلمت أخت هنا وتنصّرت أختها ودخلنا في نزاع روحي وعائلي لم ننل منه إلا التمزّق. هذا يريد أن يراها سافرة وذاك يريد أن يراها محجّبة. هذا يتمنى أن يرى في يدها الإنجيل وفي عنقها الصليب وذاك يريد أن يرى في يدها المصحف ويسمع من لسانها الآيات.

وكل ما أتمنّاه يا ولدى ألاّ يظهر النفط عندنا يومًا ما؛ فمعه ستكون حتمًا نهايتنا!

يا ولدي نحن قوم سلم لا حرب. مجانينكم في الشمال يعدّون العدّة للحرب مع المتمرّدين ولا يعرفون بالضبط من هم ولا أين هم. والمجانين في الجنوب يعدّون العدّة للحرب مع الخونة في الشمال ونحن في الرحى. يهجم الشماليون علينا ليبحثوا بيننا عن المتمرّدين المختفين، ويهجم الجنوبيون علينا ليبحثوا بيننا عن أوكار إخفاء الشماليين. هؤلاء يبطشون ويخرجون بغنائم والآخرون يبطشون ويخرجون بقتلى ودماء.

ليس كل من يأتي من الجنوب يأتي بحماية، وليس كل من يأتي من الشمال يأتي بإنقاذ!"

حكى لي الشريف بأسى بالغ أيضًا تفاصيل شاهد عيان عن حكايات

الجلاّبة والرقيق وعن هذا الطمع الذي لم ينصبّ فقط على الذهب والعاج وما ندر من الطيور والحيوانات، بل امتد إلى التجارة بالبشر. كان حديثًا مُحزِنًا لي.

ثم جاء اليوم الذي قرّره الشريف. كان قد أعدّ العدّة كي أغادر هذا المكان بسلام، فهو لا يأمن من غارات تأتي من مكان بعيد ولا من الألسنة الواشية. استشار في يوم خميس جماعته وقرّر أن أتحرّك صباح الأحد. سيسهّل السفر لي من هنا حتى أوّل حدود المعسكرات الشمالية التي توجد على بُعد مسيرة ثلاثة أيام بدواب في طريق طويل صعب. تمنّى ألاّ تكون الطرق قد سُدّت.

قضيت نهارَيْ الجمعة والسبت ألعب مع الأطفال وأحكي بإشارات مع الشباب والشابات وأتعلّم منهم بعض الكلمات. فكّرت جديًّا في البقاء في هذا المكان، فربّما ترميني عودتي مجدّدًا إلى مكان آخر مُجْبَرًا مأمورًا أو إلى المكان نفسه. تذكّرت الأحجار الثلاثة في شنطتي المركونة في مكانٍ ما عند الحوت، عند أبيل. إن هذا هو كلّ ما أملكه في هذه الدنيا. يجبْ أن أعود لهذه الأحجار مهما كان الثمن.

مساء السبت جلست مع الشريف في داره. تعشّيت معه عشائي الأخير. وجه لي جملة نصائح، ثم فتح علبة خشبية بجانبه وأخرج حجرًا أحمرَ قانيًا أملس وضعه في كفّي. كان مفلطحًا في حجم الكفّ ودافئًا جدًّا. قال:

"هذا يا ولدي حجر من هذه البلاد: من 'سوميت' التي وطئت أرضها

وعشت فيها بعض الأيام. هذا ليس حجرًا مقدّسًا. فقط هو حجر نادر من هذا المكان. هذا الحجر عاش هنا آلاف السنين، ربما ملايين السنين. سيرافقك في رحلة عودتك. وكل ما أرجوه منك. أن تعيده بنفسك إلى هذه الأرض يومًا ما؛ في يوم سلام! فأرضه هنا ومكانه هنا. اعتبرها وصيّة منّي أتمنّى أن تنجزها!"

مُجدّدًا تذكّرت الأحجار الثلاثة. شعرت في آنٍ أنني هذا الحجر الرابع الدافئ الذي ما زال به بعض حياة. أحسستُ برغبة عارمة في الاستمرار في الحياة؛ في البحث عن شيء ما لا أعرفه؛ عن شيء ما ينتظرني في مكان ما.

عهد الشريف بمهمة مرافقتي وحمايتي إلى الشابين اللذين كانا يحميانني في اليوم الأول عند الكوخ بالإضافة إلى ابنه طهراق. جلسوا جميعهم أمامي وانتظروا وصول الشريف. حين وصل أعطاني علبة من خشب البلّوط لها رائحة طيّبة. قال لي إن بها هدية لحمد النيل. كانت في يده ورقة فيها العنوان. وعدته بتوصيل أمانته. قال لي إنه من الأفضل لي ألاّ أحتفظ بأيّة أوراق الآن في رحلتي. استصوبت رأيه وحفظت العنوان السهل. كما أنني كنت أعرف هذه الحِلّة جيدًا.

قال لي إنهم سيضطرون لحرق ملابسي الحربية ولن يعطوني سلاحي ولا شنطتي، وإن المطلوب منّي ألا أتكلّم أبدًا طوال الرحلة. أن أدعي أنني أخرس طوال الطريق حتى أسلّم من الأذى وسيتكلم مرافقيَّ الثلاثة نيابة عنّي إن لزم الأمر.

ودّعني وداعًا حارًّا. قام خفيفًا كعادته ولم يُطِل الوداع. ترك المهمة على عاتق الشباب.

ذهبت إلى كوخي ودهنت نفسي بالزيت من البعوض. لم أقدر على النوم، فالغد سيكون يومًا فاصلاً في حياتي. إمّا نجوتُ فيه وإمّا مُتُّ واسترحتُ من كابوس الحياة الكئيب هذا. فكرة حرْق ملابسي العسكرية أراحَتْ نفسي وهدّأتْ من توتّري قليلاً. كأنّني أحرق زمنًا قبيحًا لبسني وكاد أن يزهق روحي.

لا أدري كيف ومتى استسلمت للنوم.

ألبس جلابية ناصعة البياض وأركض وسط كلاب تركض وتنبح وبين ناس تركض وتصيح. لا أذكر هل كنت أركض معهم أم منهم. فبعد زمن طويل أصير وحدي. الأرض تحت قدميّ تتلوّن؛ من رمليّة صفراء حتى تصير كالحة. ثم تتحوّل من جديد إلى خضراء ثم قمحية ثم إلى ذهبية. الألوان تتقلّب بسرعة وأنا أركض سامعًا صوت أنفاسي يتهدّج. أشعر برهبة حين تلحقني الكلاب. لون جلابيّتي يصبح كاكيًّا ثم زيتونيًا ثم لا يتغيّر. أخلعها حتى يسهل عليَّ الركض. أرميها للكلاب على الأرض. تتوقّف الكلاب وتعود لتمزّق في جلبابي بأصوات سعار قبيحة. أجد أمامي ضفّة نهر، أرمي نفسي في الماء. أتذكّر أنني لا أجيد العوم. لكن الماء يحملني فأطفو. أشعر به دافئًا. أكون عاريًا فأشعر بمتعة كبيرة وبطفولتي تعود إليّ. حين أقترب من الضفّة الأخرى أجد نفسي في مَدّ وجزر، كأنّي في بحر لكنّني أفقد قدرتي على الطفو. بصعوبة أجاهد

حتى أصعد إلى الشاطئ. الجوّ يصبح مظلمًا وأرى عيونًا كثيرة تلمع في الظلام ولا أعود أسمع أصواتًا لأحدّد أصحاب هذه العيون اللامعة. تقترب العيون فأرجع إلى الخلف. أرمي نفسي في الماء دون انتظار أو تفكير. أجد نفسي من جديد أعوم في الماء الدافئ نفسه وسط رغوة بيضاء. تمسّني فأشعر بخدر لذيذ. وكلما تمسّني الرغوة تدغدغني فأضحك ويعلو صوتي. أبدو سعيدًا مرتاحًا لما يحدث.

أسترسل في حكايتي الطويلة دون توقّف. حتى الحلم أحكيه تفصيلاً. آتي على كلّ زجاجة النبيذ دون أن أدري وساندرا لا تنطق بكلمة طوال حديثي. عيناها الواسعتان تبدوان أكثر اتساعًا وحكيمة نائمة عند أقدامنا. تقبّلني ساندرا قبلة طويلة عميقة. يداها الاثنتان على وجهي وأنفاسها تختلج. كأنّها تعيد تشكيل كلّ جسدي ونفسي. تقول:

"حمزة!"

للمرّة الأولى تنطق حرف الحاء واضحًا جميلاً مثيرًا. لم أسمع اسمي من قبل بهذه الرقّة وهذه الإثارة.

تتملّكني من جديد. وتروح في الهديل. وتبتعد عنا حكيمة إلى الغرفة الأخرى. أشعر بصحوة جسدي من جديد. أصابعها الآن تشدّ شعري بين قوة ورفق. أسنانها تجزّ برفق في كتفي. أظافرها تعود إلى الخربشة الناعمة على ظهري دون عنف. جسدي يذوب الآن في جسدها. نصير شخصًا واحدًا وتضيع كلّ الحدود. أشعر بارتياح لا يمكنني وصفه. أتمنّى أن أبقى في عالم ساندرا الدافئ هذا. لا أرغب في عودة إلى برد هذا العالم الآخر المنتظِر.

{٧}

أروح في نَوْمَةٍ هنيئةٍ مع أنفاس ساندرا على وجهي. أقرِّب ساندرا إليَّ وأضغطها على جسدي. يبدو أنني أرهقتها بحكايتي. تنام أيضًا بوجهٍ صافٍ أراه قبل أن تنطفئ الشمعة وتذوب بعد أداء أجمل مهامها. أنام هذه الليلة من الإرهاق اللذيذ كما لم أنم أبدًا في عمري. أنام للمرّة الأولى في حياتي عاريًا والأغرب في الأمر أن هذا يحدث في الشتاء. لابد أنّه فيض من دفء ساندرا. رغبتي الآن في النعاس بلا حدود. أسحب بهاء هذه الساعات الهنيئة تحت أجفاني.

أسير في حديقة الشعب. أتأمّل الورود في هدوء. كلّ ما يعجبني أتحوّل إليه في التوّ. أتوقّف أمام وردة حمراء تخلبني. أصير هذه الوردة. أرى بعض النحلات تتوقّف عندي وتستحسن منظري. أسمع منها كلامًا جميلاً. تقف نحلة عليَّ. يعجبني منظرها. أصير هذه النحلة. أطير في الحديقة خفيفًا وأرشف ما أشاء من رحيق. أتأمّل فراشة. أتحول إلى فراشة؛ إلى عصفور؛ إلى شحرور؛ إلى حمامة؛ ثم أخيرًا إلى شجرة. أحاول أن أعود إلى ذاتي، فلا أستطيع. تضيع قدرة رغبتي. يجب عليَّ أن أمرّ بكلّ الأطوار التي عشت في أرواحها. عليَّ أن أعود عكسيًّا من روح الشجرة إلى روح الحمامة نفسها؛ فروح الشحرور؛

حتى روح الوردة. لا أعرف أيّ حمامة وأيّ شحرور وأيّ فراشة كانت. أظلّ في روح الشجرة حائرًا ليوم طويل. تمرّ بي فتاة. كأنّني أعرفها. تقف تتأمل الشجرة. إنها ساندرا. أهتزّ أنا الشجرة دون ريح. أكلّمها، فتسمعني:

"ساندرا! أنا حمزة! أنا الشجرة!"

ترد عليّ بلهفة فرح:

"كنت أعرف أنّك ستفعل ذلك. تعالَ معي يا حبيبي!"

تحتضن الشجرة. تحتضنني، فأتسرّب من روح الشجرة إليها أصير داخلها ومعها. أشعر بنفسي في غاية السعادة. تقول بفرحة:

"ستبقى هكذا معي أبد الدهر!"

أضحك بصوتها نفسه سعيدًا وتسير ساندرا خفيفة باسمة. أشعر بما تشعر به. أتنفّس تنفّسها. ضربات قلبها هي ضربات قلبي.

أستيقظ في الصباح فلا أجد ساندرا إلى جواري. أرى حكيمة ملتفّة حول نفسها عند أقدامي. أسمع صوت الدُّش. أتذكّر حلمي وأستعيد تفاصيله. تدخل ساندرا ملتفّة بفوطة الحمام الكبيرة. تقترب منّي وتقبّلني. تقول:

"استيقظت قبلك بكثير. كنت تبتسم في نومك حتى إنك ضحكت بصوتٍ عالٍ. ظللت أتأمّلك ولم أشأ أن أوقظك!"

"كنت أحلم حلمًا رائعًا"

تقفز من جديدٍ بخفّة إلى السرير. أشمّ رائحة الحمام المنعشة في طراوة جسدها. تقول:

"احْكِ لي هذا الحلم، أرجوك!"

أحكي لها الحلم بتفاصيله. تحتضنني في النهاية بقوّة. أمزح معها:

"احترسي أنا شجرة!"

أنسى أو أتناسى عمدًا ذهابي للعمل هذا اليوم الاستثنائي. لا أريد أن أبتعد عن هذا الزمن الأليف؛ هذا الزمن الدافئ. تقول ساندرا وكأنني بالفعل صرتُ جزءًا منها:

"لن أخرج اليوم من البيت. سنبقى معًا. لدينا ما يكفي من طعام! لكن احكِ لي أرجوك، ماذا حدث بعد أن حرق الشريف زيَّك العسكري؟ ماذا حدث في اليوم التالي؟ كيف استطعت العودة؟"

لا أدع ساندرا تسترسل في أسئلتها الواضحة. أستأذن منها لآخذ حمّامًا سريعًا. أعود في دقائق منتعشًا مثل عريس في يوم 'صباحيته'. أجد كوب شاي بحليب لكلّ منّا وطبقًا فيه إفطار خفيف على السرير. عيناها وجسدها كله في انتظار إجابتي.

"نمت في كوخي حتى الفجر. كان فجر الأحد حينما جاءني الشابان وطهراق ابن الشريف. جاءوا بأربعة خيول وفرس. وضعوا بعض الأمتعة الإضافية على ظهر فرس. حملتُ زِنْبيلاً صغيرًا من السعف فيه الحجر

الهديّة والعلبة الهديّة لحمد النيل. أشار طهـراق إلى الجلابيّة. من إشارته فهمت أنّه عليَّ أن ألبسها حين نقترب من الشمال. وأتوا لي بملابس مثل ملابسهم.

ودّعت القرية بعيوني حزينًا وانطلقتُ معهم إلى مجهول جديد. كانوا يتكلمون بلغتهم وكنت بدأت أفهم بعض الكلمات القليلة. شرح لي الشابان معاني اسميهما بالإشارة والتقليد. كان اسم الأوّل 'كوتو' ويعني الرعد. والآخر لا أذكر الاسم تمامًا. ربما كان 'سَرَف' ومعناه نهر. سرحت بعد ذلك فيما حدث معي طوال الأسابيع الماضية. انتبهت على صياح المجنون الذي هرول برمحه نحونا قبل أسابيع. كرّر ما فعله في المرّة الأولى ثم رجع.

ظهرت من بعيد أوّل قرية. حين اقتربنا منها خرج إلينا ثلاثة على أفراسهم. نزلوا عنها. ثم اقتربوا منّا وحيّوا طهراق ابن الشريف باحترام كبير. رافقونا لأكثر من ساعتين ثم ودّعونا وعادوا.

عند الظهر كنّا اقتربنا من فرع نهر. سرنا بحذائه حتى العصر. ثم أرحنا رَكْبَنا إلى ظلّ شجرة عملاقة. نمتُ من الإرهاق. فقد كانت هذه المرّة الأولى لي التي أركب فيها حصانًا طوال هذا الوقت. أكلنا أكلاً خفيفًا ونهضنا. ركضنا بأفراسنا لمسافة طويلة حتى دخل المساء. نمنا في هذا المكان حتى فجر اليوم التالي.

بدأت الرحلة من جديد. كنّا حين نصل إلى مكان آمن. يذكرون لي أسماء ما أرى بلغتهم. ضحكنا كثيرًا رغم التوتّر البادي علينا جميعًا.

طهراق الوحيد قويّ البأس. لا أرى في وجهه إرهاقًا ولا تعبًا. عيناه متّقِدَتان طوال الوقت. فيه صرامة واضحة لكن دون تعالٍ. جادٌّ يعرف متى يكون المزاح لكنه لا يبالغ.

وصلنا إلى مرج واسع تصطفّ فيه نخلات الدوم بشكل ساحر على ضفّة نهر. هبط فجأة بضعة من الشباب العمالقة من فوق شجرة كبيرة في خفّة ومهارة الفهود. كانوا يحملون نبالاً ورماحًا في أيديهم. داروا حولنا وطوّقونا بسرعة. نظرت لطهراق كان ثابتًا في مكانه يكاد يبتسم في هدوء، بينما صرخ الشابان ورفع كلّ منهما رمحًا في وجه الآخرين ودارا بفرسيهما. استغربت أن يتركهم طهراق هكذا. أردت أن أهبط لأفعل أيّ شيء، سيكون ما أفعله بالتأكيد حماقة، لكن لن أتركهم يضيعون حياتهم هكذا من أجلي؛ فلنمت جميعًا إن جاء الموت. استغربت حين نهَرَني طهراق ألاّ أتحرّك. وبينما كانوا يدورون ويحوّمون حول الاثنين ثم حولنا. فجأة هَدهَدوا في نغمات غريبة وبصوت جهور ثم صرخوا ورشقوا رماحهم على الأرض في دائرة واسعة حولنا. عندها نزل طهراق وضحك. انطلق الجميع في ضحك وتحيّات. كان هؤلاء الشياطين يعرف بعضُهم البعض! كانت هذه المزحة هي أخطر ما حصل لي منذ يوم الأصلة التي تسحّبت على ذراعي.

رغم صعوبة الأيام الثلاثة إلاّ إنها مرّت على خير في رفقة طهراق ورعد ونهر. كان الشباب الذين التقينا بهم في صباح هذا اليوم قد أحضروا قاربين من نوع بدا لي أثريًّا جدًّا. كانا مصنوعين من ورق البردي المربوط

بألياف متينة ومقدمة كل قارب مقوّسة من الأمام إلى أعلى. للحظة أحسست أنني أعيش في زمن الفراعنة.

شرح لي طهراق أنّه حتى هنا ستكون نهاية رحلتهم معي، وأن هؤلاء الشباب الجدد سيقومون بمساعدتي حتى أصل إلى دياري. أشار إلى أحد الشباب وقال لي إن اسمه 'دينج' وإنه يفهم قليلاً من العربية. حملت زنبيلي ونقل طهراق بنفسه بعض المتاع إلى القارب. ودّعني الثلاثة وداعًا حارًّا.

لم أتخيّل أن هذا القارب سوف يتحمّل كلّ هذا الثقل. بعد مسافة في فرع النهر انحرفنا إلى داخل جرف كبير عريض.

كنت قد ارتديت ملابس أخرى مثل الشباب وتركت نصفي الأعلى عاريًا. وعلقت خنجرًا صغيرًا على زندي. طهراق أكّد عليّ قبل أن يمضي ألا أتكلّم وأن أدّعي البَكَم إذا نزل خطر طارئ حتى لا يكتشف أحد هويّتي.

قطعنا مسافة طويلة في النهر. فجأة وجدت أشياء تقبّ من الماء على مسافة ليست بعيدة عنا. ثم ظهر رأسٌ آخر ثم آخر. صرخت فرحًا وأنا أشير إليها كطفل. كانت أفراس نهر في أعداد كبيرة تُخرج رأسها في هدوء وتفتح مناخيرها لتتنفّس ثم تغطس ثانية ثم تقبّ وتغطس وهكذا. رفع دينج كفّه إلى فمه وبرّق لي عينيه؛ ففهمت أن أسكت. صاروا يجدّفون في هدوء شديد. استغربت، فلم يكن هناك أحد قريب منّا، وفرس النهر كما أعتقد هو حيوان وديع. فكّرت أنهم ربما يقدّسونه.

بعد مسافة كبيرة نسبيًّا حدّثني دينج أن أفراس النهر الآن في وقت العشار، وأن أصوات البشر تثيرها وتعتبرها نوعًا من الخطر والعداء، فتنطلق إلى القوارب لتقلبها وتعضّ من فيها. فرس النهر لا يأكل البشر ولكن تكفي قضمة للقارب لينقضم وأخرى لراكبه لينتهي، وعلى التماسيح أن تكمل المهمّة. قال إنْ التماسيح لا تقلب القوارب بل تتجنّبها وإن الأصوات تزعجها فتبتعد.

قبيل المغرب سمعت صوتًا يصرخ عند الضفّة على قاربينا. جدّف الشباب بقوّة وسرعة. ظهر آخرون وتعالت الأصوات. كانت في أيديهم رماح طويلة وعلى ظهورهم النبال. زادوا وهم يركضون على الضفة في موازاتنا. كانوا يشيرون لنا بالخروج من النهر. طلب مني دينج أن أصمت تمامًا وألاّ أتكلّم.

خرجنا للضفّة وأنا أتابع مبتسمًا لتكرار التمثيلية التي حدثت من قبل. قفز شابان من هؤلاء في الماء وجرّا القاربين نحو الضفّة. استمر الشباب في حوار طويل بأصوات عالية. فحصوا القاربين. ثم سمحوا لنا بالابتعاد.

في القارب قال لي دينج إن الوضع كان خطيرًا جدًّا، وإن هذه المنطقة هي منطقة صيّادين وقد قسّموها بينهم بأعراف منذ زمن طويل وإن انتهاك العرف قد يؤدّي إلى عواقب وتكدير. قال إنهم كانوا يفتّشون القاربين بحثًا عن شِباك أو أدوات صيد، وتركونا لأنّهم لم يجدوا شيئًا. شعرت برجفة قويّة؛ فالأمر لم يكن تمثيلية.

فتحت زنبيلي الصغير أبحث عن الحجر والعلبة، وجدتهما، لكنّي لم أجد الجلابية. انـزعجت. أفهمت دينج أن الجلابية سُرِقت. ظلّ صامتًا فترة ثم قال:

"يؤسفني ذلك. فقد تخلّصت منّها حين ضاق الخناق علينا. وإلاّ كنّا سنضيع جميعًا لو عرفوا هويّتك."

في المساء وصلنا إلى مكانٍ ضفّتُه عالية. ركنوا القاربين هناك. ثم صعد أحدهم إلى أعلى شجرة. اطمأن إلى أنّ كلّ شيء على ما يرام. أشار فصعدنا. سرت معهم مسافة طويلة وسط أحراش. وصلنا إلى غابةٍ كثيفة. مرّوا خلالها من طرق يعرفونها جيدًا حتى وجدت نفسي على مسافة ليست بعيدة من معدات عسكرية وما يشبه المعسكر. خفق قلبي بعنف من هذا المنظر.

قال لي دينج وهو يسلّمني الزنبيل:

"حتى هنا تنتهي مهمّتنا. يجب أن نعود الآن بأسرع ما نستطيع. قبل أن يكتشف أحد وجودنا. الطريق خلفنا طويل لكننا نعرفه مثلما نعرف وجوهنا."

اعتذر لي عن إغراق الجلابية. وقال لي إنّه عليَّ أن أحترس في اقترابي منهم، بملابسي هذه.

كان الليل على وشك أن يهبط. اقتربتُ من المعسكر حريصًا

متلصّصًا. خشيت أن يكون معسكرًا لجيش آخر لا علم لي به. سمعت حركة مفاجئة خلفي، قبل أن ألتفت، أحسست بخبطة عنيفة على رأسي. فقدت الوعي.

كانت رأسي توشّ من الضربة. استيقظت في مكان مظلم شاعرًا بأرض صلبة من تحتي. لم أرَ أيّ شيءٍ حتى أصابعي. شعرت بسلاسل في قدميّ. وبعطش ورغبة في القيء. لم أدرِ هل كلّ ما حدث مرّ في ذهني ككابوس، وأنّني لم أغادر معسكري من الأصل.

عند الفجر دخل جنديّان حارسان. رفعاني لأخرج. كنت في حالة إعياء. سمعت استجوابًا من شخص لا أعرفه. سمعت أصواتًا في لغتي وأجبت. ذكرت اسم وحدتي واسمي وقلت إنني لا أعرف أيّ شيء منذ أسابيع؛ وإنّني فقدت زملائي في منطقة لا أعرف اسمها بعد أن نقلونا إليها، وإنني بقيت في قرية اسمها سوميت، وإنهم أحسنوا معاملتي فيها ولم يصبني سوء. قلت إنني عانيت فقط في طريق العودة.

سألوني عن سلاحي الضائع وهدّدوني بمحاكمة عسكرية. سألوني عن ملابسي الغريبة التي ارتديتها وهدّدوني بمحاكمةٍ أخرى بتهمة التهرّب من أداء الخدمة العسكرية. أجبت الأجوبة نفسها عشرات المرّات ردًّا على الأسئلة ذاتها التي تكررت أيضًا عشرات المرّات.

• تكرّر الاستجواب لأيام. زادت فظاظته. كنت مأمورًا خلال

الاستجواب بالوقوف دون رأفة بحالي المُرهَق وحاجتي إلى النوم. رموني في زنـزانةٍ بمفردي في حوش مربّع، ثلاثة جوانب منه زنازين تطلّ مباشرة على هذا الحوش. رأيت هذه الوجوه الفزعة المتورّمة في تلك الملابس الممزّقة: جلاليب قذرة وملابس عسكرية رثّة، لِحى طويلة غير مشذّبة، أظافر طويلة متّسخة، أيدي مجرّحة تتوسّلني كأنني جئت لإنقاذها. سمعت أصواتًا متألمة لم أدرِ من أين تصدر. جوّ خانق رطب شديد السخانة مُتخم بكثير من الصلف واللارحمة. البدل العسكرية المأمورة كانت تتقافز يمينًا ويسارًا حاملة أوراقًا ودوسيهات. سمعت مئاتِ المرّات كلمتيْ: 'انتباه! انصراف!' أبـقَوْني عدّة مرّات مشبوحًا في مكاني مثل تمثال.

ضابط الاستجواب كان في كامل أبّهته العسكرية ملمّعًا حليقًا نظيفًا. كان شكله وديعًا لا يوحي بكلّ هذه القسوة. رتبتة لم أعرفها بالضبط. على صدره نياشين حربٍ لم يخُضها وأوسمة تبرق لامعة. حين أدخلوني إليه في ملابسي الغريبة عليه. تركني وظلّ يأمر عساكره الحرس– استعراضًا منه– بأوامر لا معنى لها. كانوا يرتجفون. أراد أن يُعلِمني أنّه إله هذا المكان. كان يتكلّم كأنّني غير موجود في ركن الغرفة. يشخط وينطر ويكرّر الأمر نفسه لعسكري آخر ويطلب أشياء يتصنّع فيها الأهمية، ثم نظر إليّ فجأة. صرخ الضابط كأنّه رأى جرذًا:

"ما هذا؟"

أجاب العسكري في صوت مرتعش:

"إنه العسكري المجنّد حمزة الهربان، جنابو!"

"وماذا يفعل هنا؟"

أجاب العسكري في صوت أشدّ ارتعاشًا:

"هذه أوامر جنابو!"

تفحّصني بزغرة من عينيه وهو يتصبّب عرقًا. كان كلّما أطلق كلمةً تطايَرَ رذاذ زبد فمه.

ظهر له وجه آخر قبيح غير ذاك الوجه الوديع. صرخ من جديد:

"كلهم لوطيون أولاد كلب. نحن نعرف كيف نتعامل مع هذا الصنف من الخنازير!"

شدّ الجاكيت على بطنه المنتفخ وعدل 'البيريه' فوق رأسه وهزّ عصا في يده ثم صرخ في العساكر الموجودين في الغرفة بصوت مبحوح: انصراف!

خرجوا. كانوا أربعة من العساكر المجنّدين صغار السن. أحدهم سمين بدرجة كبيرة. كان المسكين يلهث في عزّ الحرّ والقيّالة. ويحاول أن ينفّذ الأوامر العشوائية المتلاحقة وهو يهرول هنا وهناك. غطّى العرق صدره ونشع من أسفل إبطيه في بقعتين كبيرتين. البدلة العسكرية كانت ضيّقة جدًّا عليه وأنفاسه تتصاعد كأنّه مُصاب بأزمة تنفس.

تصنّع الضابط الودّ والابتسام وطلب منّي أن أجلس. كان قد فرغ من استعراض قوّته ومركزه وهيبته أمامي. قال:

"أعرف أنكَ تورّطت وهربت من مجموعتك وتصرفت بتخاذل. وأنت تعرف أنّ العقوبة جزاء ذلك- بعد محاكمة عسكرية- ستكون الإعدام رَمْيًا بالرّصاص؛ فنحن في حالة طوارئ. ولن نتهاون مع العملاء والهاربين من أداء خدمة الوطن!"

انتهى من هذه المقدمة التهديديّة وزغر لي بعينيه ليرَى أثر كلماته عليّ. كنت مرهقًا وبطيئًا في كلّ شيء. بدا لي هذا الكابوس مُملاً ولم تكن لي رغبة في أيّ تفكير. تابع وهو يشعر بانتصاره الأوّلي من منظر يأسي وانطلق زاعقًا:

"عليك الآن أن تعترف أنك تعامَلْتَ معهم، وأنك جئتنا كجاسوس. فكيف بالله يتركك هؤلاء المتوحشون لتعود إلينا بهذه البساطة؟ ثم إن المدة التي قضيتها بينهم ليست بالقصيرة، فبالتأكيد عرفوا منك خططنا وربّما أطلعوك على خططٍ لهم. اعترِفْ وأنا سأضمن لكَ محاكمة عادلة، تنتهي بتسريحك من الجيش."

شعر الضابط بخبرته أنني عازف مقدّمًا عن هذا الاعتراف. وأن طريق الترقية أو تلفيق التهمة بدا ميئوسًا منه. صرَخ مجدّدًا وتطاير الزبد في وجهي هذه المرّة. سبّ وقذف في أمي وأبي بأفظع الألفاظ. لعن هذا اليوم الأغبر النحس الذي ولدت فيه أنا ومن هم في شكلي. تغيّرتْ سحنة الرجل إلى لون لا يمكن وصفه. جحظت عيناه كأنّ جبلا قد قبع على صدره. ضربني بغتة بقبضته بكلّ قوته في بطني، فانحنيتُ متألمًا، فأتْبَعَ الضربة برطمة من حذائه العسكري الضخم. جاءت الضربة في

جمجمتي من الخلف. لم أرَ سوى أضواء باهرة مثل النيون. تكرّرت مرّاتٍ في سقف الغرفة التي كانت تدور فيها مروحة دائخة متخاذلة. صرت أدور معها حتى غبتُ عن الوعي.

كان فجرًا أو مغربًا لم أدرِ. وجدت نفسي ملقًى على أرض ساخنة. أسمع أصواتًا متألمة تتعذّب. وأصوات سلاسل وجنازير تصلصل. لوهلة لم أعرف أين أنا. هل الأصلة لدغتني بالفعل. أم هو الشريف الذي انقلب عليَّ فجأة. لقد كان الرجل طيّبًا لأقصى درجة. هل وقعتُ في الفخ وكانت محاولة ماكرة لاستدراجي من هذا الشريف. لماذا تغير الكوخ المريح إلى هذه الأرض الأسمنتية وهذه القضبان. ما هذه الحوائط المتّسخة. وما هذه الكتابات المقهورة. حاولت النهوض فسقطت من الإعياء على صدغي نحو الأرض.

احتجت لوقت طويل حتى أرتب عقلي المهزوز؛ لأنَّ أدرك أنني في مكان آخر. وأنّ هذه ليست مضيفة الشريف. وأنني في زنزانة ضمن زنازين يحكمها هذا الضابط المؤتور. هذا الحوش الذي أمامي وهذه الرائحة العطنة الرطبة الساخنة وهذا السمين المسكين الذي يتدحرج جيئة وذهابًا من غرفة لأخرى بانتظام صارم ملبيًا الأوامر.

ما حدث ليس كابوسًا إذًا.

كنت في زنزانة بحجم مترين في مترين. في ركن منها خيشة مهترئة كسرير. وجردل به ماء قذر. الزنزانة كانت عبارة عن ثلاثة حوائط صمّاء من الأسمنت والرابع من الأسياخ الحديدية به باب مغلق بقفلين ضخمين.

كنت أشعر بآلام في كلّ سنتيمتر من جسدي وتورّمات وسحجات في أماكن عديدة. تذكرت ضربة الغلّ التي رطمني بها هذا الضابط المخبول. لكن يبدو أنه فشّ غلّه في جسدي بكرم أكبر وأنا غائب عن الوعي. استغرق وقوفي وقتًا طويلاً، وحين وقفت وجدت أن قدمي اليمنى مربوطة في قيد وكرة حديدية ثقيلة. جررتها بصعوبة حتى وقفت عند الأسياخ الحديدية. إن من يفكّر في الهرب من هذا المكان بمثل هذا الثقل، لن ينجح في السير أكثر من مائة متر في يوم بأكمله.

تكرّرت سخافة الأيام حتى أنني فقدت القدرة على تمييزها أو عدّها، تكرّرت في استجوابٍ عبثي بلا طائل، ينتهي بالضرب والإعادة إلى الزنزانة. في صباح كلّ يوم كان يأتينا عسكري بقطعة خبز جافّة ويغيّر لنا الجردل كل يومين بماء قذر- هذا إنْ تذكّر. كنّا نشرب كالحيوانات، واضطر كلّ سجين منّا لتحويل ركن من الزنزانة إلى مرحاض.

في يوم اندلق منّي الجردل دون قصد. بقيت يومًا كاملاً دون ماء. كدت أموت عطشًا، فناديت على عسكري مارّ أستعطفه شربة ماء، لكنه لم يلتفت لي كأنّه أطرش. كرَّرت هذا مع الثاني تصرَّف التصرف نفسه. كابوس مستبدّ لا خلاص منه، كأنّني بلا صوت. كرّرت مع العسكري السمين اللاهث. التفت إليّ دون أن يردّ. كم كان هذا مريحًا! أحسست أنني موجود. العسكري السمين وقف فترة ينظر لي من بعيد. أشار لي إشارات عصبية مقتضبة لم أفهمها. لعله أرادني أن أصمت وأهدأ. فعلت. جلست صامتًا منتظرًا. بعد وقت طويل وجدت العسكري

السمين يلهث داخلاً بجردل صدئ فيه ماء عكر ذكّرني بماء الشيخ الفكي المقدس. وضعه ونظر إليّ نظرة غريبة لم أفهم مغزاها. لم يكن هناك كوز أو كوب أو ماعون أو أيّ شيء يمكن أن أشرب به. كنت عطشان ويدي متورّمة لا تطاوعني. شربت من الجردل بفمي مباشرة كالبهيمة. كان أردأ ماء شربته في عمري. جلست وركنت رأسي على الحائط ونظرت بعيني السليمة إلى الحوش. لم يكن الوقت فجرًا كما ظننت. هبطَتْ العتمة بعد لحظات وسربلتْ المكان بالوحشة. والأصوات المتألمة المعذّبة تنازع هنا وهناك. نمتُ في مكاني.

في اليوم التالي صحوت على صوت ضوضاء مزعجة. كان هناك واحد من هؤلاء الحراس المجنّدين يمرّ بقضيب من الحديد ويسحبه على امتداد قضبان الزنازين وهو يسير، مُصدِرًا هذا الصوت المزعج. كنت جالسًا بصعوبة وعجز. وجدت كلّ المحبوسين في الزنازين قد وقفوا خلف القضبان. شاخصين إلى خارج الحوش. جاء العسكري الذي أصدر هذا الإزعاج وطلب منّي أن أقف على حيلي. رأيت وجوه المحبوسين قاتمة متورّمة مجرّحة. لم أتخيّل أن لي وجهًا آخر غير وجوههم. تحاملت على نفسي. وقفت واقتربت من القضبان. قال لي جاري من الزنزانة اليمنى: إنه عرْض. سألته:

"ما معنى عرْض؟"

نظر وضحك ضحكة قصيرة بشيء من الاستهزاء أو اليأس. قال:

"سترى!"

لم يمرّ وقت طويل، حتى خرج الضابط الإله منفوشًا كالطاوس في ملابسه العسكرية لابسًا نظارة غامقة. ركض الحراس ووضعوا له كرسيًّا في الركن في ظلّ جهّزوه له بالبطاطين العسكرية، ووقفوا خلفه كالتماثيل. جلس الضابط على الكرسي وهو يضرب فخذه بعصاه.

شاهدت العرض: كان المشهد عبثيًّا وبلا معنى. ربطوا رقبة أحد السجناء بحبل طويل يمسكه الجندي المكلّف بالتعذيب ويجرّ المسجون مثل حيوان حتى وسط الساحة. أشفقت على تعذيب رجل مسنّ أشيب يركض ويهرول هكذا. نصف أضلاعه بارزة كأنّه من أهل ودّ النار. يقف العسكري برهة ثم يجري ثم يقف.. وهكذا، والعجوز خلفه، والضابط فرحان بهذه اللعبة يضرب نفسه على أعلى فخذه بهذه العصا ويسبّ بكلمات بذيئة، وبقية الجنود يقهقهون بعد ضحكته في جوقة عسكرية منتظمة، ونحن خلف القضبان في نهاية الساحة المربّعة ممنوع علينا الجلوس، والشمس تلفح وجوهنا.

حكاية هذا العذاب طويلة. ردمتُها في ذاكرتي ولا أريد أن أسترجع تفاصيلها.

هربت مع شخص لم يتخيّل أحدٌ أنّني يمكن أن أهرب معه. هربت مع العسكري السمين الذي لم أعرف له اسمًا. تواطأ معي يوم أن علم أنهم سوف يرحّلونني، في أسرع وقت إلى مكان آخر، من أجل محاكمة عسكرية.

هربنا معًا ذات فجر. ساعدني قبل أسبوعين برمي مبْرد حديدي لحلّ سلسلة الكرة الحديدية. سهرت ليالي أنحت هذه السلسلة في صمت. مازالت آثار حزّ القيد في قدمي مثل حلقة بيضاء كالوحمة. لن أنسى هذا الحارس طوال عمري. هربنا في يوم راحة الضابط. اليوم الذي يصحو فيه ظهرًا. ويتأخّر الحراس أيضًا في الصحو. بعد أن تأكّد الحارس من أنني فككت السلسلة وأنني تركتها معلّقة فقط لأوهم من يراني أنها تبدو كما هي، أتى يلهث كعادته وفتح زنزانتي بهدوء. أخرجني وأنا أجرجر الكرة الحديدية. وظلّ يعاملني بصلف حتى لا يلحظ أحد الحرّاس ما نفعل. لما وصلنا خلف الزنازين. فككت السلسلة ورميت الكرة الحديدية. ركضنا معًا أكثر من ساعتين. وصف لي الطريق إلى أقرب مكان آمن. قال إنه علينا أن نفترق الآن. لم يوضّح أو يزيد في الكلام. عانقني بحرارة وهو عرقان مازال يلهث. لم تكن له رائحة عرق رغم كلّ ما يتصبّب منه. شممت رائحة لم تكن غريبة عنّي. ذكّرَتْني على الفور برائحة الكبش الذي كان لنا يومًا في ودّ النار: رائحة العسل الأسود. وقفتُ مبهور الأنفاس أنظر إليه. قبل أن أفيق من استغرابي. ضغط في يدي حجر الشريف. لم أصدّق من سورة انبهاري بما حدث. ثم سلّمني علبة الشيخ حمد النيل بما فيها. وبينما أنا مندهش أنظر لما بين يديّ، كان هو قد ابتعد في لمح البصر. رأيتهٔ يقفز وسط الأحراش بخفّة عجيبة. حين ابتعد بدا لي للحظة مثل كبش. هل عاد إلى الحياة على هذه الصورة. لينقذني. شيء أشبه بالسحر!

كان عليَّ أن أسير في هذه الطريق؛ طريق السحر إلى نهايتها لأرى

كيف ستكون تلك النهاية؛ فأسوأ مما حدث لن يحدث."

أتوقف هنا قليلاً عن الحكي. أرى أن ساندرا لم تفطر ولا أنا، والشاي قد أصبح باردًا. أرى دموعًا غزيرة في عينيها. أقبّلها وأقول:

"لا أحبّ أن أرى عينيك خلف الدموع أبدًا. أعرف أن حكايتي مأساوية بعض الشيء، لكنّي ما زلت أحيا، وما زلت أحاول أن أعيش. أنا هنا الآن، معك. يكفيني هذا. هل تعرفين لماذا لا أحكي حكايتي هذه لأحد؟ لأنني أخشى من الإشفاق. بل أكره الإشفاق."

"لكنّ حياتك مؤلمة حقًّا."

"إذًا لن أحكي لك بقية الحكايات."

"لا، أرجوك. أريد أن أسمع كلّ شيء وبالتفصيل."

"مع وعد منك بعدم البكاء؟"

تصمت فأكرر كلامي:

"مع وعد منك بعدم البكاء؟"

"سأحاول. لكن ماذا حدث بعد ذلك؟ إلى أين وصلت؟ وكيف اختفى زميلك؟"

"هذه حكاية طويلة. سأحكي لك الأهمّ فيها. وهو ما حدث بعد وصولي إلى الخرطوم. لكن ألا نشرب شايًا من جديد؟"

لا أعرف كيف جهّزت ساندرا الشاي بهذه السرعة. تعود كالبرق. لا أحاول أن أبتزّ شغفها. يستمرّ حديثي:

"عدت إلى الخرطوم. بكلّ المواصلات الّتي خلقها الله لنا، والتي صنعها لنا البشر. تجنّبت الشرطة العسكرية. نجحت في الحصول على جلابية. شربت من الأسبلة المتناثرة وأكلت ممّا وجدته في طريقي. احتجت إلى أيام طويلة حتى وصلت إلى الخرطوم. لم يكن في جيبي سوى حجر مفلطح من الشريف هو كلّ ما أملكه في كل هذا البلد الشاسع، وعلبة أمانة، عليّ أن أوصّلها إلى صاحبها.

لم أعرف لمن أذهب في هذه المدينة الكبيرة التي أغلقت قلبها في وجهي. لم أعد أثق في أحدٍ إلا الخطّاف. اقتربت من محطة البنزين متحاشيًا السير في طرق تقرّبني من حوش الشيخ الحوت. رأيت الخطّاف يكرّر عمله الذي رأيته في المرّة السابقة بشكله نفسه وملابسه المزيّتة ويديه المشحمتين. كأنّني لم أتحرك من مكاني أبدًا. وكأنّه يعمل عملاً أبديًّا لا نهاية له.

كانت فرحته لا توصف بلقائي. اعتذر أنه في المرّة السابقة اضطر للركض إلى منزله؛ فزوجته وضعت أوّل طفلة له ولم يعرف ماذا يفعل في ذلك اليوم. فرحت بالخبر وهنّأته. سألته:

"ماذا سمّيتها؟"

"سُميّة!"

"اسم جميل!"

"سُميّة عزّ الدين الصافي."

"ألكَ هذا الاسم الرائع ونسميك الخطاف؟"

"حُكْم الزمن يا حمزة!"

سمع الخطاف حكايتي كاملة ولعن الحوت واليوم الذي عرفنا فيه الحوت. ثم استرسل يحكي لي حكاية طويلة عن تبدّل أحوال الحوت.

أمَّنَ عزّ الدين الصافي لي بياتًا مريحًا في الورشة التي يعمل بها. ولمّا كنت في حاجة إلى مال، قال إنه بإمكاني أن أعمل معه، فالعمل كثير في هذه المحطّة وفي الورشة الإضافية للأعمال العاجلة التي لا تحتاج إلى مهارة كبيرة؛ من فكّ إطارات وتركيبها وتغيير زيوت وتنظيف سيارات. ذكر لي أنه يحتاج لمساعد وصاحب العمل يثق فيه ويتركه يختار من يعملون معه دون سؤال. ولن يهتم الزميلان الآخران بأن يعمل رابع معهم، فالكلّ يأخذ أجره الثابت، بل ربما ييسّر الجديدُ العمل على القدماء ويُشعرهم بالأقدميّة إلى حدٍّ ما. بِتُّ في الورشة. بقيت في غرفة بعيدة ضيّقة داخل غرفة أوسع. كانت نظيفة ولا يدخلها أحد إلاّ نظيفًا. قال لي الخطاف إنه كان ينام فيها أيام العزوبيّة.

كانت رائحة البنزين والزيوت تملأ الغرفة، لكنها كانت جنّة بالنسبة لخِرّيجٍ حديثٍ من زنزانة عسكرية؛ فردوسًا لشبه هارب من حالة إعدام. كان الخطّاف يجعلني أعمل فقط في الورشة الداخلية في لحم الإطارات المخرومة التي علّمني إيّاها وفي تجهيز بعض قطع الغيار أو تنظيف

بعضها. أدركت أنّه لم يشأ أن يثقل عليّ بعمل كثير فهو سيّد العارفين بأنّه عمل مؤقت لي.

أجمل ما فعله الخطاف في الأسبوع الأول، أنّه أهداني أجمل هديّة. كان قد ذهب إلى حوش الحوت وحصل لي بطريقته على شنطتي من عند أبيل. وجدتها ذات صباح في منتصف الحجرة عند استيقاظي. لم يُجِبْنِي على سؤالي أبدًا؛ عن كيفية حصوله عليها. كلّما سألته كان يضحك، ويردّ:

"أنا الخطّاف يا بو النار!"

في صباح أحد الأيام، قلت للخطّاف إنني ذاهب إلى مشوار لتوصيل أمانة لأحد الأشخاص وسوف أعود عند العصر. لم أنسَ العنوان الذي حفظته من الشريف في ذاك اليوم. ذهبت إلى تلك الحِلّة. حاملاً معي العلبة.

وجدت حَمَد النيل. رجل وقور كبير السنّ. استقبلني استقبالاً طيّبًا. حكيت له الحكاية الطويلة. أراد أن يستضيفني، فذكرت له انشغالي بعمل. شكرني على الهدية واحتفى بي احتفاءً حميميًّا وسمح لي أن أعود إليه وقتما أردت إذا ما احتجت لأيّ شيء. شكرته وانصرفت.

عدت مرتاحًا من توصيل الأمانة ومن تعرّفي على رجل ترك لديَّ انطباعًا طيّبًا في هذا الزمن الوحشي.

بقيت هناك أعمل لما يقرب من الثلاثة شهور. أنشأتْ الشرطة العسكرية موقع سيطرة قريبًا من محطّة البنزين. ممّا جعل خروجي

في وقت متأخر من الليل شبه ممنوع. فضّل الخطّاف أن أتحرّك إلى مكان آخر. كنت أدخر القليل من المال، دسسته في إطار قديم في المكان المصنوع كسرير في الركن الذي كنت أنام فيه.

كنت قد عزمت أمرًا أردت تنفيذه. أن أعود إلى ودّ النار. أودّع أمي وحليمة وكريمة للمرّة الأخيرة وأن أبحث عن طريقة لمغادرة هذه البلاد. لم يعد هنا مكاني. لا يمكن أن أتعذّب هكذا في مكان يحبّني. صمّمت على أن أبتعد. لم يعد لي أهل هنا ولا أقارب. وليس هناك من سيبكي على رحيلي ولا من سيفتقدني. أنا هنا لا شيء. موجود أو غير موجود سيان؛ إذًا لأرحل. فربما أستطعت لمّ شتات روحي التي تبعثرت وتطايرت في كل مكان.

حكيت للخطّاف ما نويت. أصرّ على إعطائي مبلغًا من المال. حاول بكلّ الحيل طوال عصر ذاك اليوم. قال إن هذا المبلغ البسيط هو بقية أتعابي عن العمل وليس صدقة. لم أكن مرتاحًا. حلف بالطلاق من زوجته إنْ لم آخذ هذا المال. وافقت على أن آخذ نصف المبلغ، فهو يرهق نفسه في العمل وقد أصبح عائلاً لأسرة في هذا الزمن الشحيح.

ودّعته صباح يوم حارّ حاملاً شنطتي من سعف النخيل فيها الأحجار الثلاثة وحجر الشريف وجلابية أخرى وبعض الملابس الداخلية. ربطت النقود حول وسطي في حزام تحت الجلابية وانطلقت إلى هدفي.

كم كان هذا الحرّ شديدًا وقاسيًا في يوم رحلتي هذه! إنَّ أهل هذه البلاد لابدّ أن يكون من نصيبهم الجنّة في الآخرة بعد أن عاشوا عمرهم

كله صابرين في هذا السعير. لم تفلح كل محاولاتي في ردّ الشمس التي وقفت على رأسي وعيّنتني فريسة لها. الشمس التي تنسى لأيام طويلة أن تذهب إلى مكان آخر على هذه الأرض الواسعة. تبقي هنا فوق رءوسنا ساعات، تتفرّج على عذابنا بكلّ كسل ولا مبالاة. حتى الطُرُق اختفت منها الظلال. كأنّ كلّ جماد وكائن حيّ قد ابتلع ظلّه داخله. هل يمكن لأحد أن يتخيّل مثل هذا السعير؟ مكان لا ظلّ فيه لأحد. يشعر فيه المرء على الأقل بوجوده. الشمس التي يتمنّاها أُناس بعيدون كرحمة لهم هي هنا أشدّ العذاب. ما كان أتعسني هذا اليوم! الوقت لم يزل قبل أو بعد الظهيرة، لا فرق. الناس تتأفّف في مشيها وتسبّ وتزعق لأتفه الأسباب. أصحاب الدكاكين أغلقوا أبوابها إلى منتصفها وهجعوا داخلها أو غفوا.

شممت رائحة نفاذة هبّت من مكان ما. لم يمرّ أحد بجانبي. لكنها كانت الرائحة ذاتها؛ رائحة العسل الأسود التي خرجت من خشم ذلك التيس يوم أن اقترب منّي ووضع أنفه الساخن على جبهتي وأخرج هذا الصوت الغريب المبحوح، يوم فتح خشمه فشممت تلك الرائحة التي أميّزها تمامًا ولا أعرف لها مثيلاً؛ تلك الرائحة التي ذكّرتني للتوّ بودّ النار. ذكّرتني بمن أنقذ حياتي من الإعدام ولم أعرف له اسمًا. هل كان قريبًا من هنا الآن؟ لم أفلح في الهرب إلى ذكرياتي الحنون. لم أفلح في تخدير رأسي بالنسيان. حتى الحَرّ صبّ غضبه على رأسي بلا رحمة. كانت السَّخانة تلهب الأرض وتهزّها. اهتزّ الإسفلت واهتزّت كلّ صور الناس وملامحهم، اهتزّ كلّ ثابت ومتحرّك. زاد من الهزّة هذا الكمّ المتصاعد

من عادم السيارات والعربات البطيئة. كأنّي أقف أمام فرن أو بالأصحّ كأنّي في فرن. جسدي فقط هو الذي ينجح دومًا في البكاء الغزير وتبقى عيناي جافتين.

فجأة، لفَتَ انتباهي على الجانب الآخر من الطريق رجل يسير في خطو متعجّل. خطوته بدت لي مألوفة. إلى جواره امرأة. كانت تحمل شيئًا. تعرّفت على مشية الرجل. كان أبي. صحت:

"أبوي! أبووي! يا أبو حمزة! يا يوسف!"

التفت الرجل بالفعل. كان هو أبي. لماذا لم يردّ. هبطت من الرصيف راكضًا نحوه. لم أشعر إلا بضربة مؤلمة. غبت ببطء عن وعيي وعينايَ على يوسف أبي.

كانت الدنيا غائمة أمام عينيّ. شعرت برجفة أنعشتني. لم أفهم معنى هذا الحلم الطويل أو بالأصحّ هذا الكابوس. رأيت ممرّضة شابّة تقف فوق رأسي. بدا رأسها ضخما كالبالون مقارنة بجسدها. إنها بالتأكيد من زبانية النار. اقتربتْ تنظر في وجهي ثم ابتسمتْ فبرزتْ أسنانها كأسنان الحمار الوحشي. نادت:

"يا دكتور! يا دكتور! المريض ود نيلاوي فتح عيونه!"

كان صوتها هادرًا كأنّها في سوق. هرع الطبيب إليّ، وقف ينظر لي برأس ضخم ونظارة ضخمة. كلّمني:

"ما اسمك؟"

ذكرت له اسمًا آخر خوفًا من أن أكون في ثكنة عسكرية:

"جبريل شال البحر."

"هل لك أقرباء أو أهل يمكن أن نتصل بهم؟"

"لا، أنا من واحة سليمة في الشمال.. ما عندي أقارب في الخرطوم.. ماذا حدث؟ أين أنا؟"

"الله سلّم! فقدنا الأمل في عودتك للحياة. لقد صدمتك سيارة جيش منذ يومين ورُحت في غيبوبة. ونحن ليس لدينا غرفة إنعاش، فأنزلناك للطابق الأسفل بجوار المشرحة حيث درجة الحرارة فيها منخفضة، وصرنا نعالجك بالماء البارد أربعًا وعشرين مرّةً في اليوم."

حاولت أن أقوم من مكاني. لكن الغرفة دارت بي والمروحة الدائخة المعلّقة في السقف دارت بي هي الأخرى. ذكّرتني بمروحة معسكر الزنازين، حيث كانت تدور مثلها بتخاذل شديد. رفعوني إلى الدور العلوي. صرتُ معجزة للأطباء. كشفوا عليّ، ليس من أجل الاطمئنان على صحتي، بل من أجل التأكد من أنّ أعضائي كلها تعمل بالفعل بعد طول هذه الغيبوبة. ضحكوا وتعجّبوا من حالي. كنت هزيلاً؛ كنت حقًّا من أبناء ودّ النار في هذا الجسد الضامر.

كثر الكلام حولي. قالوا لي إنّني كنت أهذي في الساعات الأولى حين وصلت إلى عيادة الطوارئ الخارجية، وإنني لم أنطق إلا بكلمة 'ود نيلاوي.. ود نيلاوي'. فطلب الطبيب المختصّ من الممرضة أن تأتي بمحاليل وشكّوا جسدي بإبر وحقنوني بحقن ومحاليل، وفي كلّ مرّة كنت أتقلب

فيها يروح النور من عيني لحظات. ثم رحت في غيبوبة.

كنت في وهن ما بعده وهن. فكّرت في حقيبتي وفي نقودي التي كانت معي. من المؤكّد أنها تناثرت في الطريق وضاعت. سألتُ الممرضة عن شنطتي ونقودي. قالت:

"إن أشياءك محفوظة في الأمانات. وجدوا أيضًا حزامًا من الجلد حول وسطك به مبلغ من المال وهو أيضًا لدى الأمانات؛ ستأخذ كلّ شيء حين تستردّ عافيتك."

في المساء بين الهذيان والصحو ورائحة الأدوية والخدّر، تذكّرت هذا الحلم الغريب:

فجأة، يلفت انتباهي على الجانب الآخر من الطريق رجل يسير في خطو متعجّل. خُطوتُه بدَتْ لي مألوفة. إلى جواره امرأة بضفائر فاتنة انسابت من تحت 'التوب'. كانت تحمل طفلاً صغيرًا على ذراعها وبينهما تسير طفلة أخرى ذات ضفيرتين سميكتين طويلتين. مشية الرجل هذه أعرفها. إنّه هو. إنّه أبي. الطريق يفصل بيننا والعربات تسير جاعرة وتنفث هذا الهبو السخيف وأنا في عرَقي وذهولي، أنادي؛ أنادي بأعلى ما فيَّ من صوت:

"أبوي! أبووي! أبوووي! يا أبو حمزة يا أبو حمزة! يا أبو كريمة يا أبو حليمة!"

أناديه باسمه للمرة الأولى في حياتي:

"يا يوسف! يا يوسف يا ود نيلاوي! يا يوسف!"

يلتفت الرجل بالفعل. أكاد أميّزه لولا تزاحم العربات ومرور مقطورة ضخمة أخفته عن نظري. لكنه يظهر من جديد. إنه هو أبي. لماذا لا يردّ. لماذا يلتفت إليّ متوترًا هكذا. أنجذب إليه. أهبط مِن الرصيف إلى وسط الطريق راكضًا نحوه. لا أشعر إلا بألم أشدّ من ضربة حذاء الضابط المتعجرف في سجن الزنازين. أغيب ببطء عن وعيي وعيناي على يوسف ود نيلاوي ومن معه. أشمّ رائحة الإسفلت كريهة، وأشمّ رائحة جلدي كأنه يحترق. أرى أقدامًا وأحذية وأسمع أصواتًا. لابد أنني وصلت الآن إلى جهنم التي أفاض الشيخ الفكي في حكاياته عنها. أنا الآن في جهنم.

اشتهرت في هذه المستشفى. صار اسمي "جبريل أبو سبعة أرواح". صرت أتحسّن يومًا بعد يوم. كنت أريد أن أشفي بأسرع ما يمكن، كنت أريد أن أخرج من جهنم هذه المدينة بأسرع ما يكون. وقد حصل ما أردت.

وصلت أخيرًا إلى قرية ودّ الكبابيش. مرّ بي زمن لعينٌ جعلنيْ أظنّ أنني لن أرى هذا المكان مرّة أخرى.

نزلت من العربة. وطئتُ قدماي أقرب رمال إلى ودّ النار. خلعت صندلي وأغمضت عينيّ لزمن. كنت أتحسّس هذه الأرض بباطن قدميّ. كانت الأرض مستوية لا أثر لبشر عليها. داخلني من جديد هذا الإحساس الذي يُداخل السائر للمرّة الأولى فيعتقد أنه رمال بكر. شعرت أنه لم

يمرّ إنسٌ مِنْ قبلُ من هذا المكان أبدًا، أو أنني أوّل إنسيّ ينـزل إلى العالم من درب جهنم إلى هذه الدرب.

فقط صندلي هو الذي أعادني للواقع بأنّني لم أنـزل من السماء هكذا بصندل.

{٨}

تضحك ساندرا على تعبير الصندل هذا النازل من السماء. تضحك حتى تنزل دموعها فأضحك معها. تقفز حكيمة من مكانها البعيد إلينا على السرير كأنها تريد أن تشاركنا الضحك. تموء بصوتها العالي الأليف. تسألني ساندرا:

"لعلها جائعة؟"

"لا، لا أعتقد. لقد اعْتَدتُ على تصرفها هذا كلما ضحكتُ عاليًا."

"وماذا تعتقد أنها تريد؟"

"لعلها تريد أن أطيل ضحكي. أو أن أسكت."

تضحك ساندرا من جديد وتمسح على فروة حكيمة الناعمة. تقرقر حكيمة وتدور على جانبيها لتتمتع بأكبر قدر من التمسيد. تكلّمها ساندرا مباشرة:

"سأحضر لك طعامًا!"

تموء حكيمة مواءات متتابعة طويلة. نضحك كأننا نغطي حديثي الحزين بهذا الضحك. نحاول بعفوية تغيير جو الألم. تقفز ساندرا من

السرير إلى المطبخ لتحضر طعامًا لحكيمة. أشعر في مكاني بجوٍّ لطيفٍ آمنٍ دافئ. أروح في نوم وديع طويل.

حين أستيقظ بعد وقت لا أدريه، أرى ساندرا جالسة على كرسي هزّاز تقرأ في كتاب وحكيمة في حجرها. لا أثير ما يفصح عن صحوي. أتأملها بهدوء. عقلي يريد أن يتأكد هل أنا في نوم أو صحو. قلبي لا يريد. أطاوع قلبي. تنظر لي مرّات، لكنها لا تكتشف صحوي الخادع من مكانها المضيء إلى مكاني المظلم.

حكيمة الماكرة تكتشف على الفور من حركتي البسيطة فتأتي قافزة للسرير. فأضحك. تأتي ساندرا إليّ:

"ألم تَجُعْ بعد؟"

"بل أكاد آكلك أنت وحكيمة معًا الآن."

" سأجهّز طعامًا سريعًا. أريد أن أسمع بقية الحكاية. أريد.."

"وأنا أريد أن آكلك!"

أقطع حديثها بقبلة وأحتضنها.

"سأجهّز مكرونة اسباجتي بأسرع ما يمكن وسأعود فورًا. لا تَنَمْ أرجوك!"

أهزّ بإيماءة موافقًا ثم أُسقِط رأسي على المخدّة في حركة مسرحية وأدّعي الشخير العالي. نضحك من جديد. أقوم أساعدها في المطبخ وأعتذر لها عن استمتاعي بكسلي في هذا اليوم. نجهّز الأكل معًا.

نأكل. تقترح أن نخرج إلى مكان هادئ لنشرب القهوة في الخارج. نذهب إلى مكان اسمه 'أمرلينج هاوس'؛ حديقة صغيرة بها مطعم ومقهى في آنٍ. تقول لي ساندرا إن هذا المكان يقوم بنشاطات أدبية وفنية وإنه كان مسكنًا لرسَّام بذات الاسم: 'أمرلينج'.

نختار مكانًا مريحًا في أحد الأركان. تأتينا القهوة. فنجانان كبيران من القهوة المخففة بالماء والحليب. لا أنتظر سؤالها التالي. أعيد حكاية الصندل كي نضحك قليلاً. وسنظل نمزح مستقبلاً على كلِّ صندل نراه، حتى أنني في بعض الأحيان سألبس صندلي عمدًا حين أتأخّر عليها، وحين تسألني: "أين كنت؟" أشير إلى الصندل أقول لها:

"وصلت حالاً من السماء، كما ترَيْن!"

أتابع حكايتي.

"وصلت إلى قرية ودّ الكبابيش في رحلة مضنية. سلّمت على من يعرفني وحكيت حكايات كثيرة عن غيابي. لم أحكِ حكاية واحدة صحيحة ولم أكرّر حكاية منها مرتين.

تركت شنطتي بما فيها لدى الخالة ثريا التي تعتبرني مثل ابنها الغائب، ثم حملت زنبيلاً صغيرًا به قطعة كسرة وبعض التمر وعلّقت قربة الماء على كتفي: اللوازم الثابتة لرحلاتي. أخذت طريقي متشنِّجًا في الفراغ. سرت من جديد في ذاك اليوم بجلابيتي البيضاء الواسعة في قرية ودّ الكبابيش مثل صاري مركب دون هبّة ريح.

مرة أخرى عُدت لوداع أمي حبيبة بت نور الدين الشيلاني وكريمة وحليمة. الطريق تكرّر بل كلُّ شيء تكرّر كأنّي ألفّ في زمن دائري لا يتغيّر.

وصلتُ إلى ودّ النار. بقيت هناك كل النهار جالسًا وحيدًا أغنّي وأغنّي. نمتُ مرهقًا وتكرّرت أحلام قديمة. ومن شدّة تعلّقي بأمي وأختيَّ تراءين لي في الحلم. سلّمت عليهنَّ سلامًا حميمًا وودّعتهن. أفقت ونفسي مرتاحة وقلقة في آنٍ. الغبار أثار مقلتيَّ فمسحتهما.

عدت في صحبة الغربان وتجنّبت وطء العظام.

نمت في حوش الخالة ثريا لأيام حتى أتت العربة الوحيدة التي تنقل الناس إلى الشمال. ودّعت الخالة ثريا وتمنّيت لها حالاً غير هذا. حملت كل ممتلكاتي: أحجار المدفن الثلاثة وحجر الشريف. وجرجرت معها أعوامًا طويلة ثقيلة.

أردت أن يكون كل شيء خاطفًا. فأنا لا أتحمّل الوداع. لا أتحمّل عينيَّ اللتين تنظران لأحياء ميّتين. ولا أتحمّل فشل محاولات إعادة وجوه المحبين للذاكرة.

وجاء اليوم.

من قرية الكبابيش ركبت العربة إياها مع السائق نفسه مثل المرّة السابقة. مع عدد غير قليل أغلبه من النساء والأطفال. كانوا من الركاب المتجهّمين المضرورين. حشروا معهم زنابيلهم وبقجهم الكبيرة في رحلة الشقاء إلى الشمال. تكدّسنا جميعًا في العربة

كالسمك في علبة سردين. كنت هذه المرة في الخلف مع الركاب وسط الزنابيل والبقج والمتاع والأشياء القديمة المهترئة التي لا قيمة لها؛ إنها لوازم الرحيل لهؤلاء المعدمين النازحين الذين لن يعودوا أبدًا إلى أرضهم التي ولدوا وعاشوا عليها. سيموتون في أرض جديدة دون رغبة حقة في الحياة. سيعيشون بالأمل المؤقت في عودةٍ ما لن تعود.

خفت في رحلتي هذه المرة من أيّ اعتراضات لشرطة عسكرية قد تهجم علينا كالضباع، وأروح مرة أخرى إلى جبٍّ لا يعلم به أحد ولن يسأل عني أحد.

لازَم هذا الصوت المحموم للموتور القديم للعربة صوت آخر يصرخ في إيقاع متوتّر يتعالى ليتوقف، ليئنّ، ليعود مشروخًا مجهَدًا بآخر الأنّات. كانت هناك طفلة رضيعة تبكي طوال الوقت. حاولت أمها أن ترضعها فرفضت. حاولت أن تعطيها جرعة ماء فرفضت. كانت محمومة والطريق كان طويلاً ووعرًا. الأب جلس إلى جوارها مع ثلاث أخريات أكبر منها. كلهن بنات صغيرات على وجوههن هذا الفزع الطفولي الذي سيبقى معهن أبد الدهر. كنت مكلومًا في ركني أرى عَرَقَ العذاب على وجه هذه الرضيعة المسكينة. وأسمع أنينها المؤلم. الأب المسكين حاول أن يطعم البنات الصغيرات. كنَّ يمضغن في بطء وعيونهن على الرضيعة. وما إن يسمعنها تبكي حتى يتوقفن عن المضغ. الأم كانت تخفي دمعاتها حتى لا تثير بكاء الصغيرات. وجدت نفسي أغنّي وأدندن في هذا الموقف الصعب، لم أدرِ لماذا. ربما هي طريقة بكائي دون أن أدري.

غنّيت بصوت أعلى أردت أن أغطّي به على صوت المحرّك المجنون وأن أخفّف من جزع الصغيرات. سكتت الرضيعة وتغيّر الجو المتوتّر تدريجيًّا. صرت أغنّي وأغنّي دون توقّف كأنني أنا المحموم.

الأب كان يتحرك نحو الأم ويهمس في أذنها كل بضع دقائق. يضع راحة يده على جبهة الرضيعة ثم يعود ليحتضن الثلاث الوادعات. بدأ المسافرون في عرض النصائح. كانوا يشعرون بعذابهم في بكاء الرضيعة. وجوه عصبية مشدودة في الفراغ، ووجوه غائمة كأنها نائمة تنظر للمجهول وتنتظر، وأنا مازلت أغنّي وأغنّي. فجأة لاحظت أن الرضيعة نامت. هدأت الأصوات واستعر صوت العربة المحموم. كانت الأم تملّس على رأس الرضيعة المستكينة تمامًا. كانت ترفعها وتضعها مرة في اليمين ومرة في اليسار. شخطت في زوجها أن يتركها والرضيعة في سلام بدلاً من لوعته وقيامه كل دقيقة ليراها. سكن الرجل لكن توتره لم يختفِ. الصغيرات كنّ ينظرن إليّ. أردت أن أُثبت لهنّ أنني أغنّي من أجلهن. في هذه اللحظات وجدت وجه الأم غارقًا في عرَق غزير بشكل لم أره من قبل. لكنه لم يكن عرقًا. كانت دموعًا تنهمر. تغيّرتْ نبرة صوتي وتحشرجتْ، تقلّصتْ وتشنّجتْ، ولم أتوقف عن الغناء. كنت أريد أن يصرخ فيَّ راكب لكي أتوقف أو أن يفتعل أيّ شخص أيّ مشكلة معي أو مع أيّ راكب آخر في العربة. لكنهم كانوا مُغْبَرّين محبطين يائسين بائسين، سائرين جميعًا إلى مصير غير معلوم.

صارت الأم تعدّد على طفلتها. قفز الرجل إليها يحمل الرضيعة.

هزّها كلعبة في يده. هزّها ولم يتوقف عن الهزّ من صدمته. وضع يده على رأسها وترنّم بكلمات غير واضحة ثم احتضنها. وراحت الأم في بكاء عالٍ ونحيب يثير الرجفة في الأبدان. تسحّبتُ إلى الصغيرات محاولاً أن أجذب انتباههن. سألتهن عن أسمائهن: إيناس وبسمة وحليمة. كنّ قريبات في السّنّ كأنهنَّ توائم. سألتهن عن أعمارهن. كنّ في الرابعة والخامسة والسابعة. أسئلتي لهن تكرّرت عن أسمائهن وأعمارهن كشخص غبي لا يفهم أو لا يسمع.

صرخت الأم بصوت صادم:

«زهرة راحت.. يا سَجَمِك يا نور! رَحَمْها الله رَحَمْها الله! ألله ارحمنا يا ألله! ارحمنا كيف ما رَحَمْتْ زهرة يا ألله!»

لم أر رجلاً من قبل يبكي في حياتي بهذا القهر. كان ينتحب انتحابًا شديدًا، شاعرًا بعجزه وقهره. هبّ إليه الرجال يهدّئونه ويذكّرونه بالله: (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!/ إنا لله وإنا إليه راجعون!/ استغفر الله يا رجل!/ الفاتحة على الأحياء والأموات!/ اللهم نطلب رحمتك وعفوك ورضاك!/ اللهم خفّف عنا مصابنا وارحمنا برحمتك الواسعة!/ لا إله إلا الله!/ لا إله إلا الله!) النساء شاركن بمناحتهن في الفقيدة. كل هذا والعربة تسير تترنّح وتخبط في الأرض. خبّط أحد الركاب بعنف للسائق الذي لم يرغب في أن يتوقف. لكن بعد أن زاد الخبط والرزع توقف بعد مسافة ما يقرب من كيلومتر. اعتقدَ أن شخصًا يريد أن يفكّ عن نفسه أزمة الطبيعة. فَرْمَلَ في غضب فهزّ العربة

هزًّا مزعجًا. نـزل يسبّ ويشتم، ولمّا وجد الوجوم والغضب والاستياء في الوجوه ورأى الأم تنتحب بهذا الشكل المفجع، انـزعج وصمت. نـزل الناس من العربة يُبسملون ويستعيذون بالله من الشيطان الرجيم، برطم السـائق بكلمات غير مفهومة وانتحى سائرًا وحده يدخّن.

أرادت الأم أن تحمل الطفلة الميّتة معها. جزع الأب من جنون الفكرة والمسافة المؤذية في هذا القيظ وهم لا يعلمون إلى أين سيحطّ بهم المسير. بدا الأب حائرًا من رغبة زوجته التي تشبّثت بالطفلة. الرجال حاولوا تهدئة المرأة والإسراع بدفن الطفلة. قالوا لها إن إكرام الميت دفنه وإن الرحمة توجب الإسراع. لكنها كانت في حالة من الهذيان، كل قهـرها وغضبها على الدنيا أخرجته في كلمات وسبّ وتشبث متزايد. هدأتْ بعد أكثر من نصف ساعة والناس حيارى والسائق لا يعرف ماذا يفعل سوى أن يتوقف عن التدخين ويسفّ مزيدًا من السعوط ويبصق؛ فهذا هو المخرَج الوحيد الذي يمكنه من خلاله البصق بسبب، دون أن يثير الخلق. الأم رفضت وأقسمَت أن تحمل رضيعتها معها حتى تصل إلى 'أرض الله'. هكذا قالتها. حاولوا إثناءها عن عزمها، لكنها لم تستجب. زاد اللغط وكانت النساء في صف المرأة والرجال في صف تعجيل دفنها.

تركتُ المكان، اتّسعتْ خطواتي. ظللت أسير وأنا أسمع جدالهم يأتيني مشوّشًا حتى انقطع كل صوت. فجأة أتاني صوت تكبيراتهم يعلو مع هفّ الريح، في صدًى أشبه بترنيمات تصدر من مكان سحيق. كانوا قد بدءوا في إقامة صلاة الجنازة. عفرة قامت ورشّت عينيّ فنـزل

ماؤهما حارًّا مُغبَرًّا معفّرًا. كان صوت أنفاسي يتحشرج كأني أختنق. لم أشعر باللهيب الحارّ ولا بسَخانة الوطأة إلا بعد أن عُدت من عالم الفقدان هذا. كانت جملة من الأصوات تناديني. وأنا لا أعلم كم من الزمن مرّ عليّ وأنا في ضيع تلك الصحراء بلا هدف. كنت أسير في هذه الصحراء الواسعة شاعرًا بأن روحي أُخرجتْ منّي وأني خرجتُ من روح العالم في آن.

مرة أخرى وسط هذه الصحراء. وسط انعدام المعالم من على الأرض لأثر أيّ حيوان أو بشر. عندما تكنس الريح الأرض ولا يصير هناك سوى شكلٍ واحدٍ ولونٍ واحدٍ. هنا وسط الصحراء، حين يبحث المرء عن ظلّه فلا يجده. هنا يشعر المرء أنّه خارج الدنيا؛ أنّه في آخرةٍ لا نهاية لها، أو أنّه في أزل يدور وهو يدور فيه بلا نهاية. هنا حيث لا يترك المرء ولو أثرًا شفيفًا لقدميه يذكّره بماضٍ قريب. هنا حيث يبدو كل شيء ممسوحًا تمامًا، ليس بكرًا وإنما مخفيٌّ المعالم. نحن في عدم ما بعده عدم، بل هو أعدم العدم؛ ذاك الذي يُسمّونه لنا حياة.

كانوا ينادونني- حين أفقت من غفوتي- وأنا شبه غائب عن الوعي في هذا الهجير. توقّفت ولويت عنقي للخلف. وجدت كتلة تتحرك وتهتزّ في السراب، ذات لون أغمق قليلاً من لون الصحراء. عدت. لم يكن هناك أثر واحد لقدميّ ولا للعرَق الذي كان يسحّ مني طوال السير، لا أثر لذاك العرَق الحارّ المالح الذي رشّته الريح في عيني. عدت كأنّي أكمل طريقي. لا فرق. أسير في غيمة من عدم، أمامي عدم وخلفي عدم، تحتي عدم وفوقي عدم.

على بعد حوالي مائتي متر اقتربتُ من العربة التي وقف ركّابها صامتين. بعضهم مازال يشير إليَّ ويلوّح كأنني مازلت على بعد كيلومتر. النساء سندن المرأة المنكوبة المنهكة. والأطفال كلهم بدَوْا مثل خيالات ضئيلة والغفار غشى الجميع. أصبح الكل ومعهم العربة في لون واحد؛ على بعد هذه المائتي متر من العربة كانت هناك هُضَيْبة صغيرة مرشوشة توًّا بماء. لونها غير لون هذا العدم. هذا كل ما رأيت من كل هذه الصحراء الشاسعة.

في تلك العربة البائسة كانَ الصمت أعلى الأصوات. عيون هلع مفتوحة على عوالم كآبةٍ وإحباط. والطريق كأنه يبدأ من جديد من هذا المعلَم الميّت المتروك في الصحراء، مكفَّنًا بغبار وماء ومحروسًا بصلاة عاجلة في الهجير. كم كان الطريق طويلاً مضنيًا! إلى أن وصلْنا إلى آخر النهاية.

وصلنا إلى محطة المدينة. نزل الجميع. ودّعتُ حليمة ثم أختيها. ودّعتُ الأب والأم وتمنّيت لهما صبرًا. كأن الأب أراد أن يقول لي شيئًا وتحشرج القول في فمه.

صارت شنطتي أثقل منها قبل وقت خروجي من ودّ النار وأنا لم أضع فيها شيئًا جديدًا.

ذهبت إلى الخطّاف الذي لم يكن في الورشة في هذا الوقت المتأخّر من الليل. خبطت من الناحية الخلفية على شباك الغرفة البعيدة. لم

يفتح أحد. بحثت عن مفتاح طوارئ كنا نخبّئه في ركن خارج الورشة تحت إطارات قديمة. فتحت الباب وأغلقته خلفي ونمت. نمت مرهقًا. حاولت أن أوهم نفسي بأنني لم أغادر هذا المكان من آخر مرّة كنت فيها، وأن ما حدث هو مجرد وهم أو أضغاث أحلام. لم أوفّق. نمت كالميّت، ولم أشعر إلا بيد تهزّني في الصباح. قمت مفزوعًا. لم تكن عادتي أن أصحو هكذا لكن يبدو أنه مع الوقت ستصير هذه لازمتي: الصحو المفزوع في انتظار خبر محزن أو كارثة لا تتحمّلها أعصابي. كان الخطّاف يهزّني برفق ويضحك معي بعد عودتي الليلية هذه. قمت من مكاني سعيدًا، ضغطت صدري بصدره وأنا أسمع تحيّاته بصوته الجهير تدخل صدري مباشرة. سألته عن ابنته سمية. حكى لي بفرحة كبيرة عنها وأراني صورة طفلة جميلة. تمنّيت لها خيرًا في هذا الزمن الشرير. دبّ على كتفي ممنونًا وسألني:

"متى ستفعلها وتتزوّج يا بو النار؟"

ضحكت وقلت له:

"مَن مثلي ليس لهم هذا الترف. أنا إنسان منثور في الدنيا."

ردّ بسرعة:

"في هذا الحال، نحنُ في انتظار إيزيس التي تلملمك."

استغربت من هذا الردّ الذكي. تساءلت: متى قرأ الخطّاف هذه الأسطورة، وكيف يعلم عنها. كنت قرأتها في كتاب عربي قديم حين كنت في فرنسا في هذا البيت العتيق حين كنا نعمل في مزرعة الكروم.

كان كتابًا مترجمًا عن الفرنسية مملوءًا بإشارات وهوامش لاتينية، لعلها كانت فرنسية. لكنّي التهمتُ وقتها هذا الكتاب العربي الوحيد الذي حمل عنوان: 'الملكات الحاكمات، الملوك الحالمون'. كان عنوانًا غريبًا مثيرًا وكتابًا شيّقًا، قرأته مرتين، وودت وقتها لو أخذته معي.

سألت الخطاف عن العمل وعن أخبار الدنيا. تنهّد وقال لي:

"كل شيء لم يتغيّر يا بو النار وتغيّر كل شيء!"

وجدته قد أحضر فطورًا: فولاً بالجبنة وسلطة طحينة وجرجيرًا وطماطم وليمونتين وبعض الأرغفة. كنت جائعًا. قمتُ سريعًا سوّكتُ أسناني وغسلت وجهي وجلست آكل وأحكي له مشاهد الأيام الماضية. حاولت بقدر الإمكان أن أخفّف كآبة الأحداث وأن أخفي المؤلمات، فبدا حديثي قصيرًا مبتورًا.

بقيت يومين فقط في هذا المكان لا أكاد أخرج. أعلمتُ الخطاف برغبتي في المغادرة ووعدني بالمساعدة.

في اليوم الثالث فكّرت في زيارةٍ وعَدتُ بها حَمَد النيل، ذلك الرجل الوقور الطيب الذي أحسن استقبالي في المرّة الأولى واستمع لي حين زرته بهدية الشريف.

سألني إن أردت أن أعمل لديه في مطحنة السمسم. لم يحتَج إلى كثير إقناع بأنني قد وصلتُ إلى حال لا يسمح لي بالبقاء لأنني قرّرت أمرًا وأقسمت بوعد لنفسي. اختفى عني للحظات ثم عاد وأمسك كفّي واضعًا فيها مبلغًا من المال. رفضت وأصررت. رأيت مسحة غريبة مَن

الحزن في وجهه؛ نظرة عتاب وحرجٌ ممزوجة بنظرة جدّ حنون. لم أشأ أن أكون صادمًا. أخذت المبلغ على مضض. أحسست به في يدي كبيرًا جدًّا. كان كبيرًا فعلاً. تلكّأت في وضعه في جيبي، أردت أن أعيد له جزءًا منه. قلت له:

"إن ثلث هذا المبلغ يكفيني للذهاب إلى القمر!"

قال وهو يضحك:

"إذًا اذهب إلى المريخ يا حمزة! اذهب ولا تعد سريعًا!"

ضحكت فتابع حَمَد النيل:

"إن غادرت هذا البلد؛ فغادره من الغرب، عن طريق واحة سليمة، وإن وصلت إلى هناك بالسلامة، فاسأل عن برهان وَد قنديل الجَمّال. سلِّم عليه وقل له إنك من طرفي."

كان لقاء قصيرًا حميمًا مريحًا.

في المساء حدّثت الخطاف بأنني لم أعد أرغب في البقاء؛ بأنني أودّ الخروج من هذه النار بأسرع ما يمكن.

استغربت حين قام من مكانه ورفع صندوقًا قديمًا مُغبَرًّا. فتحه وأخرج- مثل ساحر- جواز سفر لي. بدا لي حقيقيًّا عليه صورة قديمة لي. قصّها من صورة جماعية قديمة لنا. فاجأني للمرّة الثانية بهذه الهدية منه غير المتوقعة. كأنّه كان على علم بنيَّتي وكان ينتظر منّي فقط أن أبوح. قال لي:

"هذا جواز هروب يا حمزة، لا جواز سفر!"

في صباح اليوم التالي، حملت شنطتي السعفية بداخلها الأحجار السوداء الثلاثة وحجر الشريف الذي وعدته بإعادته لمكانه يومًا ما. حملت معي جلابيتين وبعض الملابس الداخلية وصندلاً ومركوبًا. أعطاني الخطاف صورة سُمَيّة ابنته الصغيرة وقال:

"خذها معك حتى لا تنسانا!"

ككل وداع لي في هذه الدنيا كان وداعي. خرجتُ في هذا الصباح الحارّ الضبابي أنظر للدنيا كأنّي أراها للمرّة الأخيرة. خرجت كهارب من الإعدام إلى إعدام آخر مؤجّل في مكان ما.

خير ما فعل الخطاف ترتيبه سفري كما أردت؛ من العاصمة عبر طريق 'شَندي' و'عَطْبَرة'؛ فلن أستطيع أن أعبر الحدود دون شهادة إعفاء من الخدمة العسكرية. رتّب لي الخروج على أن يكون عن طريق بعيد ينحرف عن كوع النيل غربًا عبر 'الدبة' حتى 'دُنقُلة' بسيارة نقل تويوتا صغيرة. ومن هناك كان عليَّ أن أتخذ طريقًا عبر النيل إلى منطقة 'كوشة' ومنها إلى واحة سليمة، تلك الواحة التي ذكرتُ يومًا في المستشفى أنني منها. وكنت لا أعرف أين توجد بالتحديد.

وصلت إلى واحة سليمة بعد رحلة مثل معظم رحلاتي. سألت عن برهان ودّ قنديل الجَمّال. أوصلوني إليه. رجل كبير السن في جسد شاب نشيط الحركة، قصير وبشوش، يحترمه الجميع. تاجر إبل ذو نفوذ كبير. فرح بأنني أتيته من طرف حمد النيل. سألني عنه وعن أحواله، وذكر لي

أنه لم يره منذ ست سنوات.

حكيت له مختصِرًا حكايتي الطويلة. منتهيًا برغبتي في الخروج. قال لي:

"ستتحرّك قافلة من هنا بعد سبعة أيام. وسأجعلك تمضي معهم وسأوصي بك خيرًا."

تكرّرت عليَّ أسئلة مكرّرة: "من أين أتيت؟" و"إلى أين أنت ذاهب؟" لم أكذب. وطّدت علاقتي بكثيرين في هذه الأيام السبعة. اطمأنوا لي وكانوا قد قبلوني أكثر بعد حفاوة وقبول برهان ود قنديل الجمّال. ارتحت كثيرًا في هذا المنأى الذي لم يهجم عليه اللون الزيتوني بعد. انشرحتْ نفسي هناك ببساطة الحياة وثرائها في آنٍ. تمّت تسهيلات الرحيل مع قافلة تُجّار جِمَال تتجه إلى مصر. أوصاهم برهان الجمال بي خيرًا. أعدّوا جمالهم التي سترحل للبيع هناك؛ كشفوا على صحّتها وقدرتها على تحمّل المشوار الطويل. أركبوني جملاً عفيًّا. كان عليَّ أن أقدِّم له العلف والشراب في الأيام الأخيرة حتى يألفني. قالوا لي إن اسمه صابر. أسعدني اسمه. قبلني من المرّة الأولى.

ودّعت الواحة.

كانت رحلتي الأولى مع قافلة في الصحراء. كان الحادي الذي يسوق الإبل بالحُداء له صوت جميل. اسمه 'أصيل'. أعجبني صوته وأحاديه. حفظت منه وصرت أحاكيه حتى تصاحبت معه. قال إن لي صوتًا جميلاً يصلح لحادٍ صحراوي للمسافات الطويلة. تعلّمت الأحادي بعد

يوم سفر طويل في رحلتنا التي استغرقت ثلاثة أيام حتى مشارف واحة 'الخارجة'. قال لي أصيل إننا الآن في الأراضي المصرية، وإننا قطعنا مسافة ما يقرب من مائة وخمسين كيلو مترًا من واحة سليمة.

شعرت براحة، كأنّ بقية الخوف والهمّ الذي ركبني طوال الشهور الماضية قد سقط مع هذه المعلومة: لقد نَجَوْتُ. نزلنا في أول وقفة استرحنا فيها وأرحنا الإبل، ثم تابعنا المسير بعد أن تزوّدنا بماء لنا وسقينا الإبل. دخلنا إلى 'بير أبو الحسين'. وواصلنا السير حتى 'بير النخيلة' ومنها حتى واحة 'باريس'.

لمّا وصلنا إلى 'جَبّانة البجوات' شرح لي أصيل أن اسمها الصحيح 'القبوات' وأن القاف مُحَرَّف 'جيمًا' عند سكان الواحات؛ فيقولون 'الجَبْوات'، لأن المنازل كانت تُغطّى بالقباب والقبوات.

أشار أصيل إلى المرتفعات القائمة في الشمال والشرق وقال لي إن اسمها 'جبل الطير'، لأن الطيور المهاجرة تستريح على قمتها أثناء السفر.

رأيت في طريقي الطويل منحوتات الأحجار عند المداخل وعند مزارات الدفن، عليها أسماء كثيرة ورموز وتصميمات فرعونية قديمة وأغلب هذه المزارات مزيّن بمأثورات وأبيات من الشعر. قال أصيل:

"إن هذه الطريق تسمى 'درب الأربعين'، وهي طريق القوافل القديم، لأن الرحلة كانت تستغرق أربعين يومًا."

فزعت وصحت:

" هل سنحتاج إلى أربعين يومًا حتى نصل إلى العمار؟"

ضحك وقال:

"لا لقد وصلنا الآن إلى قرية 'قريبل'. هل ترى هذا القصر؟ (أشار بيده إلى قصر قديم بسيط يبدو هيكله من بعيد) هذا هو 'قصر دوش'. وهذه الأبراج التي تراها هي لتأمين حركة القوافل ومراقبة الدخلاء."

قلت له:

"لماذا تفتح كل المزارات مداخلها على الجنوب؟"

"هذه حكمة لم نتوصّل لمغزاها حتى اليوم!"

ردّ أصيل على كل أسئلتي وفضولي بحصافة. كان يعرف الكثير. استرحنا هناك عند ينبوع المياه وسقينا الإبل.

بعد يومين وليلة انفصل أصيل وثلاثة آخرون عن الجماعة. اتخذنا طريقنا من 'المحاريق' حتى أسيوط. ودعتهم هناك وتمنّى لي حظًّا أفضل. بقيتُ في أسيوط يومًا واحدًا حتى تيسّرت لي وسيلة انتقال بسيارة نقل كانت ذاهبة إلى أول الفيوم. وافق صاحبها أن يأخذني معه مجّانًا؛ على أن أساعده في تحميل البلاليص التي سينقلها من هنا وعلى مساعدته في إنزالها هناك. كان ينقل الموالح من البرتقال واليوسفي إلى بعض التجار هناك ويحمل هذه البلاليص إلى الفيوم.

وأثناء نقلي للبلاليص معه، شممت رائحة أعرفها. لم أسأله عن محتوياتها. تحرّكنا. كان من النوع الصامت. قدّم لي سيجارة فشكرته

بأنني لا أدخّن. كنت منهكًا. فرُحْتُ في نومة من الإرهاق.

لا أدري إلى أين أنا راحل. ألبس جلابية بيضاء وأحمل معي زنبيلاً من السعف ملأته بكل ما تتوق إليه نفسي. أركب الناقة الباركة وسط الرمال في انتظاري. أودّع وجوهًا كثيرة مألوفة لي. الناقة لا تقف من بَرْكتها. تظلّ تعوم ببطء في الرمال مثل سفينة في بحر. قوائمها مختفية بالكامل. بعد قليل أجدها تحثّ وتُظهر قوائمها رويدًا. أصير عاليًا. تركض الناقة. ثم تتحوّل قوائمها إلى إطارات سيارة. ثم تسير على أسفلت. فجأة تتخلّص من الإطارات وتبدأ في التحليق.

أكون مستغربًا وفرحًا بكل تغيير في حركة الناقة. نصل إلى مكان عالٍ في السماء وكل شيء يصغر تحتنا. أشعر بالبرد. تتوقّف الناقة برهة في السماء. وحين تلوي عنقها إلى الخُرْج. أفهم. أضع يدي داخله وأُخرِج بلاّصًا صغيرًا. توعز لي الناقة أن أشرب. أشمّ في البلاص رائحة أعرفها. أشرب شرابًا كثيفًا لزجًا لذيذ الطعم؛ له طعم العسل الأسود. أشعر بدفء لذيذ وتظلّ الرائحة قوية في أنفي. ثم أرى الناقة تهبط بهدوء. ولون الأرض تحتنا قد تغيّر إلى لون أخضر زاهٍ.

استيقظت ورائحة العسل الأسود عالقة في أنفي. وجّهت سؤالاً ملهوفًا للسائق:

"ماذا تحمل معك في هذه البلاليص؟"

"ظننتك تعرف. إنه عسل أسود! إنهم في بحري يحبّون عسلنا الذي لا مثيل له!"

سرحتُ في كلمة العسل الأسود. وفي الحلم القصير. أحسست أن شيئًا ما يرافقني منذ زمن طويل. كأنّ الكبش ما زال يرافقني ويحميني في رحلة المجهول هذه. تخيّلت أن يكون كبش ودّ النار هو العسكري السمين الذي هرّبني من السجن. وهو أيضًا هذا السائق قليل الكلام الذي ذكر لي اسمه مرّة بطريقة غير واضحة. خجلت طوال الطريق أن أعيد عليه سؤالاً محرجًا لي عن اسمه.

وصلنا بعد ساعات مُرهِقة وصمت طويل. ساعدته في إنـزال البلاليص وودّعته. كان ينظر لي نظرة غريبة. نظرة طيبة ومعرفة قديمة. حين أردت أن أسأله جادًّا عن اسمه كان قد اختفى خلف العربة مع مجموعة تجّار وسائقين وحمّالين. لففت حول العربة مرّتين ولم أجد له أثرًا. أردت أن أسألهم عنه. لكنني لا أعرف اسمه. كانوا منشغلين وفي صخب كبير.

كنا قد نـزلنا معًا عند قرية اسمها 'أم سعيد'.

في أسيوط كان أصيل قد غيّر لي جزءًا من النقود التي ربطتها بحزام حول خصري. تلك النقود الجنوبية التي تقلّ قيمتها كلّما اتجهت شمالاً.

ركبت سيارة بالنَّفَر كانت تنقل بعض العمال إلى منطقة سياحية اسمها وادي 'الرّيّان' قالوا لي إنها مَحميّة طبيعية هنا في هذه الواحة. فلم أعرف ما معنى كلمة 'محميّة'. فهمتها في ذاك الوقت على أنها قلعة. لكنني لم أرَ فيها أيّ أسوار.

نـزلت بزنبيلي وملابسي المعفّرة. شممت رائحة ماء. سرت في اتجاه

وقدماي تتسارعان ركضًا عفرًا كالبغال العطشى حين تشمّ روح الماء. اتسعت خطواتي وانشرح قلبي فالماء كان قريبًا.

شربت كالجمل. ولما لم يكن هناك أحد. وقفت تحت الشلال واستحممت وأردت بعد ذلك أن أقيّل قليلاً في ظلّ شجرة. ما هي إلا لحظات حتى سمعت هديرًا آتيًا من جهة الجنوب الشرقي. سمعت أصوات محرّكات تعنعن في أصوات محمومة. رأيت غبارًا كثيفًا يعلو في السماء. راودني هاجس مجنون أن يكونوا قد أرسلوا دبّابات المعسكر بحثًا عني. اختصرت المسافة عبر هضبة قريبة متجهًا نحو الأصوات لكنني تراجعت على الفور متذكرًا حديث العمال في العربة عن زملائهم المصابين بألغام الألمان المدسوسة منذ أيام حرب العلمين وعن الذين ماتوا أيضًا بسببها، وعن تلك الألغام المنتظرة بائسها ليحلّها من قمقمها. ما هي إلا لحظات مع هذا الدويّ حتى اقتربت عربات مُغبَرّة تشبه تلك التي كنت أراها في الإعلانات وصفحات الرياضة. تتبعها دراجات نارية أكثر غبرة، تمرق في جنون بسائقين مخوّذين في هيئات غريبة. تَجَمَّع الناس في فضول واقتربت معهم. كان في الأمام راكب دراجة نارية يحذر الناس بصوت سرينته ليوسعوا الطريق ويبتعدوا.

قال أحد القريبين منّي:

"إنها عربات 'الرالي' من جديد!"

نظرت ببلاهة البليد وسألته:

"من هو 'الرالي' هذا؟"

نظر إليّ باستغراب وقال:

"الرالي سباق؛ سباق الأجانب الذين يعبرون الصحراء الغربية. آتين من المغرب عبر الجزائر وصحراء تونس وليبيا حتى مصر عبورًا بالفيوم."

"لماذا؟"

"إنه سباق السرعة. من يصل أولاً له جائزة كبرى."

"يصل إلى ماذا؟ إلى أين؟"

"إلى الهدف!"

"وإلى أين يتجهون؟"

"إلى القاهرة."

سألت بحسن نيّة وعبط:

"ألا يأخذني واحد منهم في سيّارته إلى القاهرة وسوف أقوم بتشجيعه والتصفيق له حتى النهاية!"

نظر إليَّ محدّثي مرّة أخرى باستغراب وكأنني نطقت سخفًا؛ فما نطقت بعدها.

كان الغبار الذي غطّاني أكثر من الغبار الذي استحممت بسببه. فكَّرت؛ هل أعود مرّة أخرى للاستحمام، أم أكمل طريقي هكذا بعبلي وغباري وعفار الرالي. في أفكاري المتلاحقة هذه ظهرت من جديد سيارة النَّفَر التي أوصلتني إلى هنا عند العصر. ركبت معهم ونزلت

إلى مدينة الفيوم.

اشتريت ساندوتشيْ فول وفلافل وجلست على المقهى. طلبت شايًا ثم سألت النادل- على عادة السوداني المستجد- مستفسرًا عن سودانيين مقيمين أو موجودين في هذه المدينة. قال لي:

"طبعا! من لا يعرف عم إدريس أبو سبعة السوداني. يعيش هنا من زمان. كان يشتغل كسائق سيارة أجرة يتنقّل بين المحافظات. هو الآن على المعاش. تزوّج من فيّوميّة وأنجب منها أربعة أولاد وثلاث بنات."

أثنى كثيرًا على الرجل فاسترحت. نادى على صبيٍّ جالس على رصيف المقهى يبيع مناديل ورقيّة. طلب منه أن يذهب بي إلى عم إدريس.

كان عم إدريس رجلاً كريمًا مضيافًا. رحّب بي دون أن يعرفني. كان يسكن بيتًا واسعًا مفروشًا بأثاث متواضع ونظيف. له حوش كأحواش السودان وبعض شجرات الموالح ولبلابة ولوفة. أدخلني غرفة المسافرين. تعشيت بهذا البطّ الذي يشتهرون به. وحكيت مقطعًا من حكايتي دون أن أثير شفقته بي أو أزيد من شجوني. ولمّا علم برغبتي في السفر العاجل إلى القاهرة. اصطحبني بعد فطور رائع في الصباح التالي إلى موقف للسيارات. فأوصى بي الأسطى خليل- وهو رجل نوبي مرح الوجه خفيف الظل كثير الدعابة- أوصاه بي خيرًا وطلب منه أن يوصلني ليس إلى الجيزة فقط بل إلى ميدان باب الحديد. لأن لي معارف في عين شمس أرغب في زيارتهم. حمّلني بعضًا من الخير الذي أطعمني منه: من عسل وزبد وموالح. في قفص كبير لقريب له هناك في عين

شمس. ونبّه الأسطى خليل ألا يأخذ منّي أجرة السفر. قال لي:

"اسأل في عين شمس عن الشيخ ركابي وأعطه هذه الأمانة وبلّغه سلامي!"

جلست جوار الأسطى خليل الذي كان أريحيًّا وظريف النكتة. ظلّ يقول لي:

"هل سمعت هذه النكتة؟"

"لا."

"خذ عندك! مرّة واحد سوداني...، مرّة واحد فلاح...، مرّة واحد صعيدي...، مرّة واحد بلديّاتي من أسوان...، مرّة واحد تلياني...، مرّة واحد أمريكاني...، واحد مسلم... واحد مسيحي... واحد يهودي..."

وهكذا، لم يترك محافظة أو دولة إلا وأرسى نكاته اللاذعة عليها.

كان يقهقه قهقهة قصيرة قبل أن يحكي ثم يبتلعها ويتبعها بقهقهة مماثلة. له طريقة في الرواية تجعل المرء يضحك حتى قبل أن يسمع. صار كلامه العادي مبعثًا لضحكي. استطاع الأسطى خليل أن ينتشلني من همومي وعنكبوت كآبتي ببراعة.

وصلنا إلى باب الحديد أو محطة رمسيس وودّعني الأسطى خليل وخرجت بأحمالي إلى الميدان وحيدًا.

وطئت القاهرة من جديد. مدينة الحكايات القديمة على الأرض. كان

الوقت مبكرًا، قلت أذهب لأستعيد أيام زمان. مشيت في نفس الشارع الطويل المقابل للمحطة. مررت على اللوكاندة التي كنت فيها أيام الزملاء القدامى. كانت كما هي: 'لوكاندة الفردوس!' اليافطة القديمة اغبَرّت أكثر ووقع منها ثلاثة حروف فأصبحت 'لوكانـ الفر وس'. المحلات مازالت كما هي. ربما علا الضجيج وازداد الباعة في الطريق عمّا مضى. كان أغلبهم يبيعون أشياء مستوردة لم أرها من قبل. منتجات رخيصة ليست مصرية والناس تتحلّق حولهم جماعات. بحثت عن مطعمنا الدائم لأستعيد ذكرياتي الجميلة مع ساندوتشات الفول والفلافل. ذهبت إلى مطعم المعلّم سلامة. رحّب بي الرجل صاحب الأصبع الزائد في كل يد:

"أهلاً أهلاً بالحبايب! حمد الله على السلامة! عاش من شافك يا راجل يا أمير! "

"كيف الحال يا معلم سلامة؟"

"نحمدوه!"

بدا أنه نسي اسمي مؤقتًا فذكّرته باسمي:

"حمزة!"

قال بلهجة إسكندرانية أصيلة:

"نعرفوك أُمّال! أبو حمزة الأسمراني على سِنّة ورُمح! طلباتك يا أمير؟"

ضحكت من هذا الكلام الجميل، لأنّي أعرف طيبة هذا الرجل الذي كان يحكي لنا دائمًا في كل مساء عن ذكرياته الثورية اليسارية وعن دخوله المعتقل لسنوات. كان يعمل بمصلحة الكهرباء واستغنوا عن خدماته بعد الحبس، فتعب في معاشه. حتى تيسّر حاله بهذا المحلّ المشهور الذي يعرفه الجميع باسم: محل سلامة الإسكندراني.

طلبت ساندوتش فول وساندوتش طعمية مع الطرشي وسلطة الطحينة و الباذنجان المخلل. وضع الصبي الذي يعمل عنده كوب ماء على مائدتي وانهمكت في الأكل. استسمحني المعلم سلامة للحظات حتى ينتهي من تجهيز عجينة الطعمية ثم يأتي ليجالسني. كنت قد انتهيت من أكل الساندوتشين بلذّة كبيرة، لم أكن شديد الجوع بعد الفطور الرائع في الفيوم هذا الصباح، لكن بدا أنني كنت آكل من أجل استحضار الذكرى واستعادة طقوس الزمن القديم؛ أيام الخضر. أردت أن أشعر بألفة المكان.

أتى المعلم سلامة وطلب لنا كوبين من الشاي، وعاد يحكي بفرحة عن أيامه القديمة وثوريته والاعتقالات. ولمّا أحسّ أنه أطال في ثرثرته وأنه نسي أن يسألني عن أحوالي بالتفصيل، قطع كلامه وسألني عن أحوالي، وعمّا فعلت في غيبتي، وأين كنت. ذكرت له القليل، ولم أرغب في مزيد. غيّرت دفّة الحديث وسألته عن ابنه محسن. فرح الرجل لتذكّري إيّاه ثم رأيت أنه يكاد يبكي. انزعجت من ردّ فعله. صمتَ قليلاً ورشف رشفة بصوت عالٍ من الكوب. قال الرجل بيأس:

"دا حال الدنيا.. المسكين أنهى تعليمه ودخل الجيش وخرج من الجيش.. قعد سنتين من غير عمل.. زهق.. هجّ إلى أمريكا."

استرسل الرجل في الحكي عن ابنه، ثم سكت. سألته عن بعض الناس القدامى الذين تذكرتهم، ردّ:

"فيك الخير يا بو حمزة.. عِشَّـرِي وابن حلال.. كلهم بخـير والحمد لله!"

استأذنت من المعلم سلامة وتركت شنطتي والهدايا المحمولة من الفيوم أمانة لديه لساعة زمن. خرجت أتمشّى في الطريق الطويل. وقفت عند بائع حمص الشام، طلبت كوبًا بالدّقة. كلّ هذا لأستعيد طقوس المكان والأيام القديمة. لمّا تعبت من كثرة السير واللف، عدت إلى المحلّ. حملت أحمالي وودّعته حتى لقاء قريب. اتخذت طريقي إلى محطة رمسيس وأخذت القطار المتجه إلى عين شمس. كان القطار هادئًا في هذا الوقت. وضعت مشالي أمام قدميّ وبقيت أتطلّع من النافذة، أبحث عن تغيير في المكان. وصلت إلى محطة عين شمس. ذهبت مباشرة إلى النادي السوداني. طرقت على الباب لم يفتح أحد. تأكدت أن اليافطة موجودة كما هي. استرحت قليلاً وجلست على العتبة لدقائق ثم خبّطت مرّة أخرى. بعد فترة فتح الباب عم فضل الله. عرفني وعانقني. اعتذر أنه كان يؤدّي صلاة العشاء. دخلت وجلست في حوش النادي النظيف المرشوش. أحسست أنني عدت للسودان مرة أخرى. سألني عن أحوالي وأحوال البلد. قال لي إنه سمع أن البترول قد ظهر بوفرة

في السودان في الأيام الأخيرة. وأن البلد خلال أعوام قليلة سيصبح من أكبر الدول المصدِّرة للبترول وينافس دول الخليج. قال أشياء كثيرة عن الحكومة القديمة والجديدة. كنت غائصًا في رائحة الحوش المرشوش أهزّ رأسي للرجل الذي كان يريد أن يتكلّم في حديث ذي شجون عنده وذي ألمٍ عندي. لمّا لاحظ إطراقي وقلّة كلامي غيّر الحديث ببراعة. قام وجهّز لنا كوبين من الشاي السوداني الأصيل. تَقَوْقعتُ بجواره والناس يدخلون تباعًا. وقفت مرّات والناس يدخلون ويسلّمون بمحبّة فتتكرّر السلامات وتتكرّر الأسئلة وتتكرّر الردود وهم جميعًا يستمعون إليَّ كأنهم يستمعون للكلام للمرّة الأولى، وعم فضل الله إلى جواري يعيد ما سبق من كلامي، فكنّا نحن الاثنين نحكي الكلام نفسه. كانت ردودي مقتضبة ولم أشأ أن أثير البلبلة في نفوس هؤلاء الناس الطيبين البعيدين القريبين.

بقيت في النادي أنام هناك في غرفة صغيرة في الدور العلوي، في النهار كنت أساعد في تنظيف الحوش وترتيب ما يحتاج إلى ترتيب، وفي المساء كنت أجلس قليلاً مع الشباب وكثيرًا مع الكبار. بقيت منتظرًا وصول الشيخ ركابي الغائب في واجب عزاء في الإسكندرية كما قيل لي.

أحكي هذه الحكاية الطويلة دون توقّف. دون أيّ سؤال من ساندرا. يدها على يدي ووجهها في وجهي. نشرب قهوة بعد أخرى، ولا ننتبه لمن

حولنا ولا لمن يدخل أو يخرج. تسألني:

"هل ستعود معي إلى البيت؟"

نخرج معًا من الدفء وغزارة الدخان والحكايات الثقيلة البعيدة. أشعر رغم ذلك بأني أخفّ حملاً. حكيمة تُخرِج رأسها فتقبّلها ساندرا. أقبل ساندرا في رأسها قبلة طويلة. أودُّ هذه المرّة أن تشعر بهذه القبلة كما أشعر أنا بها الآن.

{٩}

تقترب الساعة من الحادية عشرة. أخرج مع ساندرا في اتجاه شارع 'بورج - جاسّه' ومعناه 'حارة القلعة' رغم أنه شارع طويل وعريض. ألفّ ذراعي حول خصرها فأشعر بدفئها الشمسي يغمر أطرافي. تضع هي الأخرى ذراعها على خصري. تكرّر سؤالها:

"هل ستعود معي إلى الشقّة؟ شقّتي أقرب!"

"يجب أن أصحو غدًا مبكرًا لعملي الملعون."

"لماذا لا تذهب في الصباح من عندي مباشرة."

"جاكيت الجريدة في البيت وبقية الأشياء."

"نحضرها. هذه ليست مشكلة."

تقبّلني فلا يسعني إلا الموافقة. يأتي أوتوبيس ٤٨A بركابه القليلين متجهًا نحو

بيتي. يقف في المحطة. ننظر له ولا نركب. ندعه يمر. نسير معًا في اتجاه بيت ساندرا. تسألني:

"منذ متى وأنت تعمل في هذه الجريدة؟ لم تقل لي الكثير عن هذا

العمل."

أصمت قليلاً، فتستدرك:

"أعتذر إن كنت أثقلت عليك بفضولي."

"لا، أبدًا. أنا أفكر من أين أبدأ لك الحكاية."

عيناها تلمعان بهذا الفضول الرقيق. لا أنتظر كثيرًا:

"وصلت إلى ڤيينّا في يناير من العام ١٩٩٢. كنت أعتقد أن العمل متوفّر هنا، حكاية وصولي حكاية طويلة، سأسردها عليك تفصيلاً فيما بعد. قيل لي إن العمل الوحيد المتاح هنا هو في جريدة 'الكورونا' أو 'الكورير'. ذهبت إلى العنوان في الحي التاسع عشر كما قيل لي. كان عليَّ أن أسدّد مبلغ خمسة آلاف شلن كتأمين عن المعطف الذي هو بمثابة إعلان أيضًا للجريدة، يقدمونه لنا مع الحقيبة و'الكاب'. كلها إعلانات نلبسها من أجل الترويج للجريدة.

عدتُ وبقيتُ أسبوعًا دون عمل، أحاول تدبير هذا المبلغ حتى استطعت استدانته من شخص استدانه من شخص آخر، بحكم أقدميته في المدينة.

دخلت إلى مكتب الجريدة وسط كَمٍّ من المصريين والهنود والباكستانيين وقليل من الأتراك وأقلّ من جنسيات أخرى. دفعت المبلغ دون الحصول على إيصال. قال لي المترجم إن هذه القطع الثلاث: المعطف والشنطة والكاب، هي عهدة وبإرجاعها يمكنك أن تستردّ التأمين.

أعطونا هذه الأشياء كأنّهم يقدّمون لنا معاطف من ذهب سنهرب بها في أوّل فرصة.

اكتشفت فيما بعد أن مكاني الذي سأبيع فيه الجرائد بائسٌ حقيرٌ عارٍ في منطقة تسمى 'الكاجران'.

قال لي رئيسي الشيف وكان اسمه جولدمان:

"إن كنت 'براف'[1] فسوف تحصل في أقرب فرصة على مكان أفضل!"

بعدها دخلت وسط حشد جديد ومترجمين يترجمون لغاتنا. أدخلونا غرفة الفيديو التحضيرية المتطوّرة. كأننا سندخل غرفة عمليات حربية. جلسنا ننتظر دخول 'الشيف' الذي دخل كالطاوس. كان يتكلم سريعًا بلغة ألمانية. لم أفهم منه أيّ كلمة. ترجم المترجمون خلفه في أربع لغات. ثم أوقف الفيديو ليكرّر أشياء قالها من قبل ويعيد ويزيد كأنّه يشرح لبَقَر. فهمت أنه قائدي الجديد بعد قوادي في السودان وإنْ كان يلبس زيًّا مدنيًّا.

الفيديو كان عبارة عن فيلم تدريبي لباعة قدماء في الجريدة يقومون بتوزيع الجرائد في شوارع وميادين فيينّا. فضلاً عن ذلك، كانت الأمكنة التي نراها هي أمكنة تكتظّ بالمارّة. والتصوير يبدو أنّه في يوم حصل فيه حادثٌ ما أثار فضول الناس. فالبائع لم يكن يلاحق على توزيع الجريدة في جوّ مشمس وبديع.

اكتشفت فيما بعد أنني كنت أقف في كفر مقطوع ليس لأحدٍ فيه

1- brav ومعناها جيد أو نشيط أو ممتاز.

مزاج لشراء الجريدة أو حتى لقول: 'صباح الخير' وأنّ الجوّ غير جوّ الفيديو.

كان الفيديو يعرض علينا هذا البائع الماهر الرشيق الذي يمرق بين العربات في خفّة الفهد، ويركض كالغزال وسط العربات، ويقفز على الأرصفة كالضفدع، وينادي بأعلى صوته: 'كيروووونا! كيروووونا اشّايتون!'[1] أوقفوا العرض عند صورة معينة وسرسع الشيف بلهجته السريعة. ترجموا لنا أنّه علينا أن نرفع الجريدة- كأننا في مظاهرة- إلى أعلى بوضوح كي يقرأها ركاب السيارات والمارّة، وأن ننادي بأصوات عالية لنلفت انتباه المارّة.

أداروا الفيديو فتحوّلت الإشارة إلى اللّوْن الأحمر وتوقّفت السيارات وركض البائع بخفّته إلى الطريق ودار حول السيارات وباع حوالي سبع جرائد فيما لا يزيد عن دقيقة. أوقفوا العرض وترجموا لنا بأن السرعة واجبة وضرورية إن أردنا المكسب الكبير.

أشفقت على زميلي ذي الوزن الثقيل الذي يجلس جواري غارقًا في عرقه في هذا البرد.

عرضوا علينا أخيرًا مكانًا آخر لهنديّ يقف في محطة داخلية لقطار أو مترو؛ يقف في وقار بشاربه الخُطّاف المرفوع إلى شعره. على رأسه العمامة الهنديّة العالية وفوقها الكاب بشكل مضحك. كان يوزّع الجرائد بانبساط وأريحية كأنّه يوزّع هدايا على أطفال في يوم عيد، والناس يتحدّثون إليه ويتكلّم معهم وكأنّهم يمزحون معًا بنِكاتٍ، تخيّلت أنه يعيش هنا منذ قرن ليفهم مثل هذه اللغة التي يتكلمها هذا الشيف.

1- نطق غير صحيح لكلمة 'كورنن - تسايتونغ' Kronenzeitung وهو اسم الجريدة وهي تعني 'جريدة التاج' في الألمانية.

عاد الشيف يصرخ بكلامه الذي وصلتنا ترجمته بأنه إذا أردنا بقشيشًا أكبر؛ فعلينا أن نبتسم دائمًا في وجه الزبون، مثل هذا البائع. أوقفوا الفيديو على صورة وجه الهندي بعرض الشاشة وهو يبتسم ابتسامة أعرض من وجهه. ثم ظهرت علامة 'P' خضراء عريضة على الشاشة وعلى وجه الهندي.

بعدها عرضوا علينا مناظر مختلَسة لباعة متخاذلين عليها علامات 'O' حمراء كبيرة؛ واحدة لبائع قد نام على عامود من الإرهاق، وعلامة 'O' حمراء أخرى لبائع لا ينزل إلى الطريق ليعرض الجريدة على أصحاب السيارات، وعلامة 'O' لوجه عابس من شدّة الإرهاق المميت، باعتباره لا يبتسم في وجه الزبون النمساوي أو الزبونة النمساوية؛ وهم زبائن لا يبتسمون أصلاً. ظهرت علامة 'O' حمراء جديدة على شخص لم نرَ به عيبًا وسألونا سؤال الامتحان ليجيب عليه النجيب فينا. لماذا سيُخصَم 'الفيكسوم' لهذا الشخص. فسألناه:

"وما هو هذا 'الفيكسون'؟"[1]

ترجموا لنا بأنه المبلغ الثابت عن كل يوم عمل وهو يعادل خمسة وأربعين شلنًا؛ أي بمعدّل تسعة شلنات عن ساعة عمل جاد. لم نكن نرى عيبًا في هذا الشخص الذي توقف عليه الفيديو، لكن الزميل النحيف الجالس في الخلف صاح بإنجليزيته المميّزة:

1- نطق غير صحيح أيضًا لكلمة Fixum وتعني (المرتب) الأساس أو الثابت.

"نو كاب شيف! No cap, Chef"[1]

"براف!"

رد عليه الشيف مهنئًا وأخذ اسمه ليعطيه أفضل الأمكنة.

ظهرت علامة 'O' حمراء جديدة على بائع يلبس معطفًا مفتوحًا، وآخر يتحدث مع فتاة وترك شنطة الكورونا المقدسة على الأرض، وآخر يداه في جيبه يمشي هنا وهناك وهو يصفّر ويغنّي. كانت قائمة المخالفات والعلامات الحمراء أكثر من قائمة 'البرافات'. ثم اختُتِم الفيديو بشكل توضيحي إحصائي: وجه الهندي المبتسم مع صوت لعمود من الشلنات يرنّ ويرتفع، ثم وجه المسكين التعيس النائم والشلنات ترنّ وتنخفض. تبدّلت الصور لبائع يتحرك كالزّهوان مقابل آخر نائم كالدبّ ويظهر عمود الشلنات ليرتفع أو ينخفض حسب الأحوال.

خرجنا من غرفة 'العمليّات' ووقفنا طابورًا، كلّ واحد معه ورقة باسمه. كان هناك رجل آخر مسئول عن توزيع الملابس ينادي على الأسماء بصوت جهير كأنّنا جنود ذاهبون إلى الحرب:

"موهامّيد أبديل أزيم.. رسول مامود مامود.. ميهْميت توسون أوجليال.. سنك راجا مورهاريم!"

وهكذا، كنّا نسلمه الورقة، فكان ينظر في وجوهنا وأجسادنا ويسلمنا بالتقريب هذه العهدة: المعطف ذو اللون الأصفر الفاقع والشنطة البلاستيك الصفراء والكاب الأصفر.

1- يقصد أنه بدون 'قبّعة' الجريدة.

كان المعطف الذي حصلت عليه واسعًا جدًّا والكاب صغيرًا جدًّا. بدّلت مع زملائي وبقي الكاب صغيرًا على رأسي، رغم أنه كان أكبر كاب موجود. كنت ما زلت لم أقصّ شعري الطويل خوفًا من برد هذه البلاد.

يومها بعد عودتي إلى الشقة شعرت بسُخرة جديدة وعدم ارتياح. نمت نومًا قلقًا.

أرى رجلاً ذا ملامح قاسية يلبس ملابس رياضية، وفوق هذه الملابس الرياضية مريلة متّسخة. رائحة عرقه نافذة ومنفّرة. يتكلم بلغة ألمانية في كلمات تخرج كنباح كلب. لا أعلم من أين أتيت ولا على أي أرض أقف. أفهم منه الكلمات الألمانية بصعوبة بسبب طريقة نطقه وإخراجه للألفاظ. فجأة يُخرِج هذا الرجل من خلف ظهره ساطورًا حادًّا يلمع ويهمّ بذبح ثور مربوط في شجرة بحبل من الليف الغليظ. إحدى قوائمه مجروحة تنـزف سائلاً لونه غريب؛ لون غير لون الدم. يستعطفه الثور باللغة الألمانية نفسها بنُطقٍ واضح وفي نبرات عالية غير هلعة، يسترحمه بأن يتركه حرًّا، فهو آخر ثور على الأرض؛ وإن ذُبِحَ فسوف تنقرض الثيران من على ظهر الأرض. لكن الرجل يجزّ على أسنانه في انتصار وتشفٍّ، وبحركة مفاجئة يسحب النصل من تحت عنق الثور بطريقة خبيرة مدرَّبة. حينها يُصدِر الثور شخيرًا عاليًا. ينسكب منه سائل في لون لا أعرفه؛ لون كثيف يظلّ يتخثّر حتى يلمع، ثم يتحوّل إلى ذهب سائل لا دم. يظل يسيل دون توقّف. وحين أرغب في الابتعاد أجد قدميّ ثابتتين في مصهور الذهب. أشعر بدغدغة ولذّة في باطن

قدميّ، لذّة لا تضاهيها لذّة. أظل مرتبكًا بسبب ذبح الثور، بينما الرجل يحاول طمأنتي كأنه يفعل خيرًا أو يبعد شرًّا. كنت أحمل في يدي قطة صغيرة تموء، أخاف أن أضعها في مصهور الذهب. أرفعها إلى حضني. بعد أن أشعر بلذة المصهور، أودّ أن أضع القطة لتأخذ نصيبها، لكنها تتشبّث بصدري وتشرع مخالبها لا تريد النزول. بعد وقت قصير أتنبّه إلى أن قدميّ لا تتحركان بعد أن تصلّب مصهور الذهب وأخفى القدمين تمامًا وبدأت لمعة لونه تضيع وصار يتخذ لون الرَّصاص ثم لون الصدأ.

ساندرا صامتة تستمع لحكايتي الطويلة، وأنا أحاول بطريقتي للحكاية أن أضحك معها وأن أجعلها تضحك على هذه الأمور العجيبة. تبدو غير مصدقة. تسألني:

"هل ما تزال تعمل في هذه الجريدة حتى الآن؟"

"نعم."

"ألم تجد عملاً آخر؟"

"لقد عملت في سبع مهن مختلفة. ولم أفلح في واحدة: عملت في توزيع الإعلانات على البيوت وفي غسيل الأطباق في مطعم وكبائع للورود وعملت في تنظيف الشوارع من الزجاج بعد ليلة رأس السنة وفي تنظيفها من الثلوج في الشتاء. لكن أفضَل مكان عملت به، كان في 'الناش ماركت'[1] في بيع التوابل. كدت أن أنجح فيه لكن صاحبة

1- Naschmarkt من أكبر أسواق ڤيينا المفتوحة.

المحل أحبتني وهي متزوّجة. تخبطت حالي وأحوالي فتركت العمل."

نسير الآن بحذاء حديقة المدينة. أحتضنها وأضحك معها قائلاً بصوت عالٍ:

"كيرونا اشّايتون جنيه فراو!"[1]

تضحك ساندرا وتقول:

"هذا عمل يقتل!"

"نعم، ولكن ليس هناك مفرّ يا ساندرا!"

"ماذا تقصد يا حمزة؟"

"هناك من يعمل أيّ عمل في الحياة حتى لا يموت وهناك من يموت أيّ ميتة في الحياة حتى لا يعمل. ويبدو أنني من النوع الأوّل."

"حياتك كلّها عجيبة يا حمزة. لقد أثرت فضولي وأسئلتي. لا أدري هل أسألك الآن ماذا فعلت في مصر وكيف خرجت منها؟ أم أسألك كيف عشت هنا كل هذه السنوات؟"

أحاول أن أغيّر الموضوع، بينما حكيمة تتقلّب داخل صدري وترفع رأسها قليلاً فتأخذها منّي ساندرا لتضعها في صدرها. تموء حكيمة كعادتها فنضحك. أقول لها:

"بل اسأليني عن طعم رضاب شفتيك اللذيذ بلسم الحزين- إن

1- Kronenzeitung, gnädige Frau وتعني: جريدة كورونا أيتها السيدة المبجلة! والنطق هنا قريب من الدارجة الڤيينّاوية.

شئتِ- وعن كفّك التي تحمل دفء كلّ هذا العالم، أو عن صوتك إن أردت. اسأليني عن ساندرا التي لن أستطيع أن أستغني عنها بعد اليوم. لقد وجدت وطني وأهلي وعاد لي عمري الضائع."

نقف الآن عند أول 'أورانيا'. تأتينا ريح باردة من ناحية قناة الدانوب. السيارات القليلة تمرق سريعة. أحتضنها وبيننا حكيمة. أقبّلها قبلة حارّة وأُسرِع إلى شقتي ماسكًا يدها.

في الشقة الباردة أحرّر حكيمة قليلاً ثم أضع المعطف والشنطة والكاب في شنطة بلاستيك كبيرة وأغادر مع ساندرا إلى شقّتها.

نركب هذه المرة المواصلات وهي ممسكة بيدي بقوة. نصل إلى شقتها. لا أشعر بحاجة للنوم ولا هي. أسألها:

"هل تريدين سماع حكاية القاهرة، أم حكاية ڤيينّا؟"

"القاهرة أولاً. ماذا فعلت هناك؟ وكيف استطعت السفر؟ ولماذا ڤيينّا بالتحديد؟"

"بقيت في النادي السوداني في عين شمس منتظرًا وصول العم ركابي من الإسكندرية. لكن في صباح اليوم التالي بدأت البحث عن آدم صديقي الذي ساعدني قبل أكثر من ثلاثة أعوام في الحصول على تأشيرة للسفر إلى إيطاليا. التقيت بكثيرين في هذا اليوم. قالوا لي إنه بخير وتزوّج وأموره تسير على ما يرام.

في وقت متأخر من مساء اليوم ذاته دخل آدم راكضًا مسَلّمًا عليّ بحرارة. جلست وسط مجموعة من الشباب أحكي عن ذكرياتي القديمة في القاهرة. كانت معظم أسئلتهم على عكس أسئلة الكبار. كانوا يستفسرون بشغف عن أوروبا والحياة هناك. كرّرت حكايتي دون أن يملّوا. قال لي آدم إنه تزوّج وله الآن بنت وولد، وإنه سافر إلى دولة خليجية عمل هناك لمدة عام في شركة بترول كسب منها كثيرًا في وقت وجيز، لكن العمل تحت البحر كان شاقًا وفي ظروف صعبة وخطِرة، وإنه شعر بأضرار صحية واضحة بعد عام واحد، فقرّر الرجوع خاصة أنه لاحظ تفشّي بعض الأمراض الصدرية والجلدية للطاقم الأدنى من العمال مثله، بسبب التعامل مع كيماويات سامّة في ظروف صحيّة غير مناسبة في بعض الجزر، ممّا جعله يُسرِع بالعودة، لاسيّما أنه كان متعلّقًا بفتاة يريد أن يخطبها ولم تسعفه ظروفه المادية لأن يتقدّم لها لقراءة الفاتحة على الأقل.

قال لي إن البيات سيكون عنده اليوم ولا مفرّ من ذلك. خجلت أنني لم أحمل هدية له معي من أيّ مكان ولو بعض الموالح من الفيوم. وعَدتُ نفسي بشراء هدية مناسبة لولده وبنته في أقرب فرصة. في الطريق مررنا على بائع الكفتة. اشترى منه آدم نصف كيلو كفتة ونصف كيلو كباب مع السلطة. لمّا وصلنا خبّط على الباب خبطة معينة ودعاني بصوت جهير لتسمع زوجته:

"تفضّل تفضّل يا حمزة!"

دخلت أتنحنح قائلاً الكلمة المعتادة:

"يا ساترا"

سمعت ربكة خفيفة كأنّ أحدًا قد فرّ للداخل. دخلنا كانت الرائحة عبقة؛ رائحة بخور سوداني ذكّرني بأيام بعيدة. كان التليفزيون مفتوحًا وبدأ في عرض فيلم مصري للفنان أحمد زكي بعنوان: 'أنا لا أكذب ولكني أتجمّل'. أعجبني الفيلم كثيرًا. جلست على الكنبة القريبة ودخل هو إلى المطبخ. فجأة ظهرت طفلة صغيرة سلمت عليّ بلهجة مصرية جميلة:

"إزَّيَّك يا عَمّو؟ إنتَ إسمَك إيه؟"

"اسمي حمزة."

"عَمّو حمزة! أنا اسمي يُسرا وأخويا اسمه باسم."

قبل أن أسألها وتسألني، ظهرت أمها في التوب السوداني تحمل باسم. قدمها لي آدم:

"الجماعة.. أمّ الأولاد.. أمّ باسم!"

سلّمتْ عليّ في خَفَر ورحّبت بي وسألتني عن أحوال السودان والأهل. قلت إنه بخير وإن كل شيء على ما يرام. ثم صمتٌ قليلاً. فقال لها آدم أننا جائعان ونريد أن نأكل. استأذنَتْ وقامت لتجهّز لنا العشاء.

جلسنا نأكل جميعًا. وهي لحظات نادرة في حياتي منذ الآن، أن آكل وسط جماعة أو عائلة. هذا الإحساس الذي يجعلني أشعر فورًا بشهية

أكبر من العادة. بعدها جاء الشاي وبدأت المسامرات الطويلة الحميمة. سألت آدم عن عمله الحالي. قال إنه استأجر محلاً صغيرًا بالقرب من البيت للحام السيارات، بعد أن استفاد من خبرته في أعمال اللحام تحت الماء التي تعلّمها هناك في الشركة الأجنبية. قال إن العمل معقول ودخله معقول، وإنّ الأمور تسير والسيارات تسير ولا تتوقّف عن العطب ولا عن الحاجة للّحام أبدًا.

شاهدت التليفزيون معهم بين الأحاديث السلسة التي لم تتوقّف، ثم نمت على هذه الكنبة في الصالة.

استيقظتُ في الصباح. فطرت مع آدم وسارة وباسم. كان باسم عفريتًا صغيرًا، ظلّ يتنقّل ويدور ويقلب الأطباق ثم جاء إليّ كأنه يعرفني نظر في عيني عميقًا ثم جلس على حجري. بعد الإفطار ذهبت مع آدم إلى محلّه. كان المحلّ صغيرًا جدًّا، حين فتحه استغربتُ كيف يعمل في هذا المحلّ الذي لا تزيد مساحته عن مساحة زنزانة ضيقة؛ متران في متر ونصف تقريبًا، مكدّس بعِدد واسطوانات وكابلات وصفائح. أخرج كل هذه الأشياء إلى الشارع ورصّها في نظام. صبَّح الجيران وأصحاب الدكاكين المجاورة عليه وتمنّى بعضهم لبعض يومًا كثير العطاء. أحضر كرسيه واستعار كرسيًّا من بائع القيشاني القريب منه وجلسنا أمام المحلّ. دخلِ ليعمل لنا شايًا في الداخل وظلّ يحكي معي وهو يضحك والناس تمر بنا لتحكي معه ثم يكمل بدوره الحديث معي. كان الناس يتكلمون معي ويمرحون كأنّهم يعرفونني منذ زمن طويل. سألوه أكثر

من مرّة إن كنت قريبًا له وكان دائمًا يقول إنني ابن عمّه. استرحت لهذا اللقب وصرت أيضًا أقول إن آدم ابن عمّي.

لم أشأ أن أنتظر طويلاً وأتمتّع بكسل الضيافة. دخلت رأسًا في موضوعي الذي شغلني طوال الليلة الماضية: إن كان بالإمكان توفير أيّ عمل لي هنا. أراد آدم أن يؤجّل هذا الموضوع، لكنّي ألححت عليه أنني بحاجة إلى عمل بأسرع ما يمكن. استأذنتُ منه حين كبَس عليه الشغل ولم أجد نفسي مُسعِفًا له. قلت له:

"سأذهب إلى النادي السوداني ولنلتقِ هناك في المساء."

تكرّرت الأيام وصرت أمشي كل يوم قليلاً لأكتشف هذه التغييرات التي طرأت على عين شمس عن المرة السابقة. وجدت أنها تغيّرت كثيرًا في هذه الفترة الوجيزة. اختفى العديد من الڤيلات التي تميّزها وزادت السيارات فيها بشكل ملحوظ وعلت العمارات بشكل شاهق. حتى محطة القطار أصبحت محطة مترو أنفاق. كنت في عودتي من ميدان رمسيس قبل أيام قد لاحظت تغييرًا فيها لكنني كنت مهمومًا بالذهاب إلى النادي فلم أشغل بالي بالأمر كثيرًا.

في عصر أحد الأيام جلست في حوش النادي أفكّر فيما يمكن أن أهديه ليُسرا وباسم، حتى دخل عليّ رجل في جلباب أبيض ناصع وعِمّة سودانية ومركوب سوداني. كان يسير في نشاط. سلّم عليّ من بعيد واقترب قائلاً:

"حمزة، مرحبًا بك، حمدًا لله على السلامة!"

"أهلاً وسهلاً! كيف الحال؟"

"الله يبارك فيك! أنا ركابي، ركابي إدريس! حكوا لي عنك بالأمس.. وما كنت موجود."

"أهلا عمي ركابي! كيف الأحوال؟ لعلك بخير؟"

جلسنا نتسامر في حديث طويل. كانت أسئلة هذا الرجل تختلف عن أسئلة الآخرين. كان يصمت بين الحينْ والآخر ولا يكرّر سؤالاً مرّتين. صعدت وأحضرت الأمانة التي حملتها معي من الفيوم وسلّمته إيّاها. شكرني ثم فتحها أمامي وأصرّ على أن نقسّمها على ثلاث: ثلث له وثلث لعم فضل الله وثلث لي.

كان عم ركابي إدريس عجوزًا تعدّى السبعين. عيناه واسعتان في بريق يجعله أصغر سنًّا. تُميّزه أسنانه البيضاء الناصعة. حين يضحك يبدو جذابًا أليف الوجه لطيف الصوت. ويتمتّع بذاكرة متينة وسمع حادّ ونظر أحدّ.

حكى لي أنه وصل إلى هذه المدينة طفلاً صغيرًا في أوائل العشرينيات. حينما نفوا جدّه الذي كانت له سلطة وتأييد في سلطنة دارفور في ذاك الوقت. بعد تعيين 'رودولف سُلاتِن باشا' النمساوي حاكمًا لدارفور من قِبَل 'جوردون باشا'.سُلاتِن باشا الذي ادّعى اعْتناق الإسلام حينما اعتقلته جيوش المهدي. حكى لي جزءًا من الحكاية على أن يكملها في وقتها المناسب.

لاحظ العم ركابي أنني أقول دائمًا 'مدينة عين شمس' وليس 'حيّ'

عين شمس أو 'منطقة' عين شمس. فقال لي:

"من أين لك بهذه الكلمة؟ أنت الوحيد الذي أسمعه يقول مدينة."

"إنني أراها فعلاً مدينة كبيرة. ربما لأنّي نشأت في قرية صغيرة فاعتدت أن أسمّي كل ما هو أكبر من قريتنا بالمدينة."

ضحك وقال:

"يا ابني أنت لم تخطئ. سوف تستغرب إن قلت لك إنّ الاسم الصحيح لهذا المكان هو 'مدينة الشمس' بالفعل. موقع هليوبوليس التي كان يسميها المصريون القدماء 'أون' والعرب عين شمس كانوا يقصدون بالعين: البئر؛ أي 'بئر الشمس'. أقرب الأمكنة لها من الشمال على بعد حوالي كيلو مترين توجد قرية 'المطرية'، التي مازالت توجد بها حتى الآن شجرة الجُمَّيْز العتيقة أو شجرة مريم الشهيرة، التي يقال أن 'ستّنا مريم' قيّلت بطفلها تحت هذه الشجرة المباركة، التي يقال إن عمرها تعدّى الألفي عام، وفي اعتقادي أنه لا يمكن للشجرة القديمة أن تعيش كل هذا العمر لأن شجر الجُمَّيْز لا يعيش أكثر من خمسمائة عام، وأن الناس قد أخذوا منها فرعًا وأعادوا زراعتها للتبرك بها. فالشجرة الموجودة هي الجيل الثالث أو الرابع تقريبًا من الشجرة القديمة. هذه الشجرات عاشت تتشرّب من بئر موسى التي اختفت مع الوقت والتي قيل إن موسى وقع عليها قبل خروجه من مصر. وهي منطقة تشتهر بأن ما يقع فيها ينبت رغم أن طبيعة الأرض فيها أقرب للصحراء منها إلى الأرض الطينية.

وفي هذه المنطقة كان ينمو شجر البَلَسَان- وهذه الشجرة لا تزدهر إلا في بيئة مشابهة لنفس بيئة عين شمس- ويقال إن السبب في ذلك أنها كانت تُرْوَى بماء هذه البئر. وقد زرعوها قديما بالحجاز على سبيل المثال. أما في مصر فهي موجودة في جبل 'إلبة' الذي يظن الناس أن اسمه الصحيح 'علبة' حينما رأوا أن الإنجليز رسموا الخرائط وكتبوا اسمه إلبة. وهو الواقع في جنوب مصر على الحدود مع السودان من ناحية البحر الأحمر. لكن الصرح الوحيد الباقي في هذه المنطقة هو المسلّة الجميلة العالية 'مسلّة الشمس' التي أطلق العرب عليها اسم 'مسلة فرعون'."

قلت له:

"احكِ لي عن هذا المكان. أحبّ أن أعرف تواريخ الأمكنة التي أعيش فيها."

قال لي:

"مدينة الشمس هذه هي أول الخَضار للآتي من صَفار صحراء الشرق من سيناء. وهي أول العَمار للآتي من خَضار حقول ومزارع الدلتا من الشمال. البيوت في هذا المكان كانت قليلة العدد يقطنها بعض الناس الذين نأوا عن العمران من الزهّاد والبدو الذين يرعون على حواف هذا المكان الذي اشتهر بقرب آباره. فكان بالإمكان للشخص في أيّ مكان أن يقيم ويحفر بئرًا فيجد الماء قريبًا مستساغًا. أيضًا بعض الأقباط سكنوا في دير كان يسمي 'دير شهيد الملاك' وهو قريب من هذا المكان

تحوّل فيما بعد على يد الفرنسيين إلى مزرعة للنّعام، لتصدير لحومه وريشه. ودير شهيد الملاك هذا هو غير دير الملاك الموجود الآن في مكان آخر."

سألته:

"هل هي منطقة 'النّعّام' الموجودة الآن؟"

قال:

"نعم، كانت هذه المنطقة أكبر، وممتدّة حتى مدينة عين شمس يُربّى فيها النّعام حتى أطلِق على القائم بالعمل مع النّعام اسم 'النّعّام' ومن ذلك الوقت أطلق اسم النّعّام على هذا المكان. فبجانب ريش النّعام وبيضه فإن أمعاءه ومعدته تصنع منها خيوط الجراحة الدقيقة، وقرنيّة عين النّعامة قريبة من قرنيّة عين الإنسان."

"لكن هذا المكان الآن يبدو بلا ملامح لهذا التاريخ؟"

"لن تصدّق يا حمزة. أشياء كثيرة اندثرت من هذا المكان. هل تصدّق إن قلت لك إن خيول هذا المكان كانت تُصدَّر لكل أقطار العالم واشتهرت باسم 'خيل الزهراء'؟ هذا 'الاصطبل' ما زال يوجد في نهاية هذا الشارع. لا تتصور مدى حزني كلّما تخيّلت هذا الحيوان الجميل الذي يدرّبونه على الرّمح من أجل الحروب؛ تصدّى بصدره أزمانًا للحراب والرماح والسيوف والنار، حمل وشدّ وجرّ. بل أكثر من ذلك فقد أصبح الحيوان ضد الحيوان، ومن كسرت إحدى قوائمه قتلوه حتى لا يتألم أكثر. لم تأخذهم شفقة بهذا الحيوان النبيل. كان دبابتهم في العصر القديم.

بل سأذكر لك شيئًا آخر نسيه الناس: قديمًا كانوا يعتبرون عين شمس من أفضل الأمكنة صحيًّا. قالوا إنه حين مرضت أم المُرتضى الخليفة الثالث- في عهده- بمرض نادر في جلدها اسمه الرقط ومرض آخر في تنفسها وهي حشرجة الاختناق أثناء النوم وهو نوع من أزمات التنفس، نصحه الأطبّاء أن يذهب بها إلى مكان جافّ هواؤه صحّي، وأشاروا عليه بثلاثة أمكنة بالقرب من العاصمة الفسطاط: كانت الأولى مدينة الشمس والثانية مدينة حلوان أو العيون والثالثة هي الفيوم. أخذوا وقتها اللحوم الطازجة من كل نوع من الحيوان والطيور وتركوها معلّقة في الهواء الطلق لأيام، وكرّروا ذلك في عدة مناطق، ولمّا تأخّر تعفُّن وتيبُّس اللحوم في هذه المناطق جعلوها مَصَحّات لأهل الخليفة والأعيان وأصحاب الجاه والسلطان فيما بعد.

ومدينة الشمس هذه مكان يشبه الواحة وهي مرعى طيّب للماشية والبعير وموطئ حسن للخيل، فقد أراح المصريون القدماء رحلهم وركبهم في هذا المكان أثناء ذهابهم للحروب أو عودتهم منها."

سمعت الرجل باهتمام عظيم وتركت نفسي لحكايته، فتابع:

"لقد عشت أجمل أيام عمري في هذا المكان، وبدأتْ بعض العائلات تنزح إلى هذا المكان بالتدريج، خصوصًا من السودانيين الذين استوطنوا في مصر وعمل الكثير منهم في 'الهجّانة'[1] المصرية أو في سلاح

1- قوات الهجّانة هي شرطة مكلفة بحفظ النظام والأمن. كانوا في معظمهم من أهل السودان. ويستخدم الهجّانة الجِمال، وهي جِمال مميّزة عفيّة لها أسماء وأرقام ووشوم خاصة، يُستخدَم بعضها في دوريات النظام وبعضها للفحولة وبعضها نوق للتوالد.

الحدود فيما بعد، والكثير منهم أثبتوا أنهم أهل عِشرة وكرامة فتزوّجوا وتزاوجوا وعمّروا المكان. بعد ذلك جاء الكثير من الغزاويين والفلسطينيين واستقرّوا فيها. عين شمس لم تكن هكذا يا بني كما تراها اليوم. لم تكن تدخلها السيّارات إلا نادرًا. كانت هناك أربع سيارات نعرفها: سيارة المفتش الزراعي بطرس الإسناوي الذي يعمل في عزبة النخل والمرج وسيارة الضابط طاهر بك المنوفي الذي يعمل في سجن الخانكة وسيارة الطبيب البيطري أبو شادي الدنداروي وسيارة الإمام زين الدين الطهطاوي الرجل الذي عمّر طويلاً، والذي منعوه من العمل في القضاء بسبب إفتائه بموضوع تعلّق بصحّة خروج المرأة وسفورها. عاصر قاسم أمين وكان من الندرة المقتنعة بآرائه. كان يكتب باسم مستعار في جريدة الوقائع المصرية التي كان يرأس تحريرها محمد عبده. أغضب الخديوي بمقالة؛ فكان جزاؤه النفي إلى بيروت مع محمد عبده ثم أصدر الخديوي توفيق عفوًا عنه وعاد إلى مصر. عاش هنا في عين شمس مكروبًا زمنًا طويلاً، كان أهلي يزورونه ويزورهم من وقت لآخر. كان عالمًا حكيمًا لكنه ابتأس ممّا جرى له وانزوى وانهمك في القراءة ولم نعرف أنه كان غزير التأليف إلاّ بعد سنوات طويلة.

نعم يا ولدي، عين شمس هذه عاشت أحداثًا عجيبة وكبيرة ولم تكن مدينة مشوّهة، كان الناس يبنون الدور بعضها من بعض قريب. بل قرّروا على عادة أهل السودان ألا ينشئوا طابقًا أعلى حتى لا يكشفوا حُرمة الجيران، فظلت المدينة تتسع أفقيًّا والناس ترشّ الماء صيفًا لتقوّي الأرض وتخذل الغبار وزرعوا أشجار الليمون والموالح والتين والكروم

والنخيل والمانجو والرُّمان والجوافة. كان يعرف بعضهم البعض على طول المسافة من مسلّة الشمس حتى فرع ترعة الإسماعيلية الذي كانوا يسمونه خليج أمير المؤمنين الذي كان يمرّ بهذا المكان؛ فتخيّل يا حمزة هذا المكان الذي جمع البدو والصيادين والمزارعين وسجادي وبر الجمال والعنـز والخراف وحيّاكات الملابس اليدوية من الفلسطينيات والغزاويّات، اللاتي قطَنَّ هذا المكان وتعلمت النساء منهنَّ هذه الحرفة. لم يبقَ من هذا المكان القديم اليوم شيء، عَمَر المكان بنوع آخر من العمار وازدحمت مدينة الشمس واختفت البيوت القديمة الرحبة وضاع الخضار في الصفار وتاه الصفار في الغبار والأسمنت وغارت الآبار بلا رجعة. اختفت الهداهد والبلابل وأنواع الكناري الأصفر والأحمر واليمام الأبيض وأنواع لا تعدّ ولا تحصى من الطيور التي كانت أعشاشها في الأشجار وماؤها قريبًا وخيرها عامرًا.

هذا أيضًا مكان الأعاجيب يا حمزة. في هذا المكان ظهر الدرويش أو الولي ودّ شيرواني أو ودّ شَروَني. هذا الرجل العجيب رأيته بنفسي وما كنت أصدق. هذا الرجل كانت بشرته منقسمة بالتمام إلى اللونين الأبيض والأسود، منقسِم تمامًا من عند جبهته كالفلق من أعلاه إلى أسفله؛ حتى شعر رأسه كان في جانب منه أنعَم من الجانب الآخر. كان هذا الرجل يثير حيرة الناس وكانوا يأتون ليتفرّجوا عليه ويتبرّكوا به. كان يظهر ويختفي ولا يعرف أحد أين يسكن. مَنْ حاول متابعته عاد دومًا عطشان ملسوعًا بضربة شمس كأنّه أتى من حرب؛ فالرجل كان يظهر في الصيف ويندر ظهوره في الشتاء، يأتي قبيل الفجر ويغادر

البلد في عزّ الظهيرة وعزّ القيّالة. يخوض الصحراء تجاه الشرق ناحية طريق البدو- كما كنا نسمّيها- فيتبعه الكبار والصغار لكنه يسير ويسير ثم يتوقّف الناس من التعب ومسافة السير الطويلة وشدّة الحرّ حتى يغيب عن الأنظار. كان هذا يحدث غالبًا في الصيف. أمّا إن ظهر في الشتاءات فكان يبقى حتى المغرب. يتحرّك في الاتجاه نفسه- ناحية طريق البدو- ليغوص عند العشاء. ولا يدري أحد من أين يأتي وأين يختفي؟ كانوا يقولون إن له رائحة عطر لا يخطئها أيّ أنف. فكانوا يدركون بالإحساس أنه بينهم من خلال أنوفهم. يتوقفون عن الكلام ويرفعون أيديهم بالدعاء تبرّكًا بهذا الشيخ الولي. كان الأطفال يخشون أن يؤذوه أو يرموه بالحجارة على عادة شغبهم. خوفًا من توبيخ أهاليهم لهم باللعنة. وبأن يسخطهم الشيخ ليكونوا حيوانات تسعى على أربع. أو زواحف بلا أرجل.

الوحيد الذي رماه مرّة بحجر كان خيري العبيط الذي كان لا يتكلّم كلماتٍ واضحة؛ رماه من وسط الأولاد بحجر. ففرّوا كالطيور من أمامه خوفًا من أن يسخطهم. فالْتَفَتَ الدرويش وقال له:

"امشِ يا ولد الله يهديك!"

فقال خيري لأوّل مرّة في عمره:

"امشِ يا ولد الله يهديك!"

كرّرها بنطق وصوت الدرويش نفسه. تعجّب الناس من أمر خيري العبيط. ففي اليوم التالي كان خيري يردّد بوضوح هذه الجملة نفسها

لكلّ من يقابله، سواء أكان امرأة أم رجلاً، يقول:

"امش يا ولد الله يهديك!"

وكلما سلّم أحد على خيري كان يقول نفس الجملة. لكنه لم ينطق غيرها، فكلّ كلماته الأخرى كان ينطقها معوجّة وبصعوبة ودون مخارج واضحة للألفاظ إلا هذه الجملة. مع الزمن غيّر الناس اسم خيري العبيط إلى 'خيري الله يهديك'.

لما جاء آدم في المساء إلى النادي متأخرًا بعض الشيء، معتذرًا بأنه اضطر لإنجاز بعض الأعمال، جلس معنا وسط الشباب، وأنا مازلت أحكي حكايات البلدان البعيدة وهم ينصتون. حاولوا جرّي لألعب معهم الكوتشينة و'الكونكان'[1] لكني لم أبدِ أيّ مهارة. حاولوا من قبل معي في كرة القدم ففشلت. كانت موهبتي التي ربما اكتشفوها ولم أكن أدركها والتي جلبت لي البلاء فيما بعد هي الغناء. كنت فقط أغنّي لنفسي بين وقت وآخر وقد أجبروني ذات مرّة أن أغنّي في أحد الأفراح، ولم أكن مستعدًّا أن أقف هكذا أمام جمهور كبير من الناس. لكن بسبب إلحاحهم ودفعهم إياي، مشيت خجلان وسط هذا الجمع. وقفت على المسرح. أعطوني ميكرفونًا في يدي وسألني العازف ماذا أحبّ أن أغني، فقلت له سوف أغنّي أغنية لصلاح بن البادية، غنيت الأغنية وسط صمت رهيب. لما انتهيت هلّل الناس وارتفعت الأكفّ بالتصفيق ومنذ ذاك اليوم حاولوا دائمًا أن يجرّوني إلى الأفراح، بل كان البعض يأتي إليّ

1- لعبة بأوراق اللعب يلعبها متباريان أو أكثر.

طالبًا منّي أن أغنّي في أفراحهم ومناسباتهم. لكني لم أكن معتادًا على هذا النوع من الغناء، بل لم أشأ أن أغنّي هكذا وسط جمهور؛ فطبيعتي تختلف. اعتدت دائمًا أن أغنّي في وحدة، أو ربما لأحمي نفسي من شيء لا أعرفه ولا أدركه.

تجنبت حضور الأفراح خشية أن أُجَرّ إلى تلك الساحة.

ذهبت مرّة إلى السفارة عساي أستعيد عملي القديم في بيع الكِسْرة. لمّا اقتربت من هناك وجدت سيّدة سودانية مُسنّة تبيع الكِسْرة في المكان نفسه، فعرفت أنني قد تركت مكاني وقتها دون رجعة وعليّ الآن أن أبحث جادًّا عن عمل آخر.

بعد مرور ستة أسابيع تقريبًا كانت جنيهاتي المصرية القليلة تودّعني. وفي ليلة مقمرة وبعد مشاهدة نصف مباراة كرة قدم مع الشباب والكبار، لم أفهم منها شيئًا، وبعد خلوّ الحوش بقي العم ركابي قليلاً ثم سألني:

"ألم تجد عملاً بعد يا حمزة؟"

"لا للأسف."

"بالأمس التقيت برجل أعرفه منذ زمن بعيد، مازال يعمل في اصطبل الزهراء للخيول، القريب من نادي الشمس. قال إنه يبحث عن مساعد سائس، فقلت له إن عندي شخصًا يصلح لهذا العمل. ولما حدّثته عنك، قال: فليأت لنراه- أوصيته بك خيرًا."

“هذا كلام مفرح يا عم ركابي. كيف أشكرك؟”

“لا تشكرني يا ابني! هذا أقلّ واجب. اذهب إلى هناك وأسأل عن الكابتن شرف. قل له إنك من طرف العم ركابي. هل تعرف مكان اصطبل الزهراء؟”

وصف لي العم ركابي كيف أصل إلى هناك. لم أنم جيدًا بسبب توتّري بهذا العمل الجديد. في اليوم التالي صحوت وتوجّهت إلى المكان الذي وصفه لي. استقبلني الكابتن شرف بشبه تحفُّظ وشيء من البرود فعرفت أنه لا عمل لي هنا. سألني إن كانت لي خبرة مع الخيول، فقلت: لا. ثم أردفت بسرعة لألحق خط الدفاع الأخير: لكن يمكنني أن أتعلّم بسرعة. أنا في حاجة ماسّة لعمل.

دخلت معه إلى الاصطبل. كانت حظيرة كبيرة داخلها حظائر أصغر. رائحة الخيل فيها واضحة. في الخارج شبه ميدان عليه فرسان من الرجال والنساء يركضون بالخيول في دوائر كبيرة وصغيرة. في الداخل كانت الخيول تنظر بعيون لا أعرف لماذا بدت لي حزينة. أحببت الخيل من النظرة الأولى. شرح لي الكابتن شرف عملي بسرعة؛ وبأنّني مسئول عن عدد من الخيول في هذا الجانب وأنّ عليَّ أنْ أعتني بنظافتها وبتنظيف وتلميع سروجها بدهون ذات روائح طيبة. وشرح لي كيف أنظّف الأرضية هناك. أحضر الأدوات وبدأ يعمل بيديه بسرعة. استغربت وهو في هذه الملابس النظيفة ويشرح لي هكذا عمليًّا. أراني مكان الماء والعلف وأوضح لي طريقة تمشيط الخيول وتنظيف حدوات الخيل بقضيب معقوف من

المعدن. وقال لي إنه يجب عليَّ أن أقوم بهذا العمل بحرص. شرح كل شيء بسرعة وهمّة. حفظت كل شيء. طلب منّي أن أقترب لأتفرج على العرض. أحضر لي زجاجة كوكاكولا ووقف إلى جواري. وجدته دمث الأخلاق وطيّب القلب، وإن كان برود استقباله لي في البداية قد أربكني. شاهدت العرض وعشقت الخيول أكثر. قال إنه عليَّ أن آتي في اليوم التالي مبكّرًا، وإنّه يمكنني أن أعمل مبدئيًّا ثلاثة أيام في الأسبوع مع السائس عم دياب. كان عم دياب هذا رجلاً قصير القامة جدًّا ضئيل الجسد لكنه يتحرك كالمكّوك، سريعًا يقظًا محبًّا للدعابة.

عملت لعدّة شهور. كنت سعيدًا جدًّا بهذا العمل. لكن لم يكن أجري مناسبًا. استراح الكابتن شرف لي ولطريقة تعاملي مع الخيول. لكن عم دياب أوضح لي أنه يجب عليَّ أن أقترب من البهوات وأن أكون لطيفًا معهم فهم يدفعون بقشيشًا جيّدًا. خجلت أن أفعل هذا. ظل يحاول معي طوال الوقت ويريني تلك المبالغ الكبيرة التي يحصل عليها لكنني كنت أخجل من هذه الصدقة. كنت أتعامل مع هؤلاء الناس بتحفّظ وحذر شديدين. أمّا عم دياب فكان مولعًا بالنساء مع أنه كان متزوّجًا من امرأتين؛ الأخيرة كانت الرابعة رغم أنه على مشارف الخمسين. كان يحكي لي عن مغامراته النسائية، فكنت أهلك ضحكًا. فقد كان يبالغ في بعض الأحيان ويفرح لسؤالي إياه بلهجتي السودانية: بالله يا عم دياب؟ أنت بالله شيطان كبير!

كان يقرقع بالضحك ويفرغ حكاياته الشيّقة التي لم أكن أملّها أبدًا.

كان أجمل ما فيها تلك المبالغات الخرافية الرائعة التي لا يجاريه فيها أعتى الكذابين والفُجّار. كنت أسمعها بالاستمتاع نفسه الذي كنت أشرب به هذا الشاي المسكّر اللذيذ الذي يغليه على الحطب. استراح عم دياب لي ووجد مستمعًا شغوفًا لا يملّ من حكاياته التي لا تنتهي.

كان الكابتن شرف يمرّ علينا بانتظام. وكنت أنجز عملي بسرعة لأخرج وأشاهد عروض الخيول في رشاقتها واختيالها. فرح العم ركابي بعملي وآدم أيضًا. وكان الأخير يقول لي من وقت لآخر: ألا تفكر في الزواج يا حمزة؟ سنبحث لك عن بنت الحلال وأنت إنسان طيبٌ وشَهْمٌ وألف من تتمنّاك.

كنت أعزف عن الحديث في هذا الموضوع وأتجنّب الدخول في تفصيلاته. ظلّ آدم يلمّح ويقول لي إنّ معجبات سمعن صوتك وإنهنّ متيّمات بك. وإن هناك غيرة لدى بعض الشباب منك وقد أصبحت مثار حسد لهم. بل صاروا يستغربون هدوءك وعدم تدخّلك في الحديث عن هذه الموضوعات كأنك تتحاشاها. لولا بعض تلميحاتك عن بعض أحداث أوروبا لظنّوا بك الظنون.

عشقت الخيل وأحببت العمل مع الأسطى 'دياب الفشّار' كما كنت أسميه سرًّا. كان الكابتن يباشر العمل ويراقبه من بعيد. يُلقي أوامره في تزمّت لكن دون قسوة. أشبه بالصرامة منها إلى القسوة. ارتحت في العمل في هذا المكان واعتقدت أن عملي سوف يدوم. إلى أن جاء يوم انهار فيه حلم بقائي.

كنا في أوائل شهر أكتوبر وكنت قد أتممت عشرة شهور من العمل.

تعلّمت فيها الكثير. لم أقترب من هؤلاء البهوات أو الهوانم إلا فيما ندر. أجيب على الأسئلة في اقتضاب وأسحب خيلي بهدوء إلى الاصطبل وأغنّي لها.

في يوم مشمس جميل كنت سارحًا في مزاج رائق أغنّي للخيل. كان الأسطى دياب في إجازة في هذا اليوم لاستقبال مولوده السابع، ويبدو أن صوتي كان أعلى من المعتاد. رأيت هذه الهانم الصغيرة تقف في ملابس الخيّالة عند الباب خلفها ضوء شمس ساطع فلم أر وجهها بوضوح. سألتني:

"هل تعرف الفنّان محمد منير؟"

"طبعًا. فنان جميل، له صوت عذب جميل."

"هل أنت من النوبة؟"

"تقريبًا، أنا من السودان."

سألتني عن اسمي ومن أين أنا. وقالت إن لي صوتًا جميلاً. كانت حين تأتي وتقترب منّي خطوة أعود إلى الخلف خطوة. تكرّر هذا الأمر على فترات متباعدة وصارت تسأل عم دياب عنّي إن تأخرت. كان يفرح بها وصار يحثّني أن أسترجل. كنت أعانده وأقول له:

"ما معنى أن أسترجل يا عم دياب؟"

"يعني تمسك الزغلول وتطيّر الحمام!"

"زغلول وحمام؟"

“يعني تلجِم الفرس يا حصان! تكون فارس على الفرسة!”

كان عم دياب يتكلّم برموزه المضحكة. كانت الفتاة أو السيدة بالفعل جذّابة وكنت أبالغ في سذاجتي، حتى أستمتع بطريقة كلامه المثيرة. كان اسم الفتاة صافيناز. كان عم دياب يقول لي يومًا بعد يوم إنها مرّت وسألت عنّي. كانت حين تحضر يتركني معها ويلمّح بجملة يرمز بها إلى معانٍ خفيّة تبدو كأنه يتكلم في سياق العمل:

“إسقِ الفرس يا حمزة!

اربط الفرس يا حمزة!

اللجام ساب يا حمزة!

اعلف الفرس يا حمزة!”

إلى آخر كلامه المكشوف لي والمستغلق عليها. كانت صافيناز في منتهى اللطف في تعاملها معي. لم أفكر أبدًا أن تتطور هذه العلاقة العادية لشيء غير عادي، ساعدتني رباطة جأشها. لكن كان في عينيها بريق عجيب مفرِح وفتّان وفي لمساتها العفوية أو المقصودة شيء من الارتعاش كان يربكني.

بدأت المنغّصات في حياتي من جديد في عين شمس. تناثرت الشائعات ورموا بي في متاهات الكلام بأن لي علاقات بفتيات من الحيّ. ولم يكن هذا صحيحًا. الصحيح أنه كانت هناك فتاتان تذهبان إلى مدرسة في منطقة مصر الجديدة وأنني رأيتهما مرّة أولى وسلّمت عليهما

بكل أدب. لكن يبدو أنهما كانتا تختلقان الأعذار لتمرّا على الأقدام من هذا الطريق لترياني، وحين لاحظتُ ذلك كنت أختصر طريقي في نهاية الشارع مُعرِّجًا نحو المقابر. لكن يبدو أن سوء الظنّ قد وصل إلى منتهاه وأصبحت الضغينة أشدّ مما كنت أتخيّل ولم يمكن إيقافها.

دافع عنّي آدم دفاعًا مريرًا وتعقّدت الأمور دون داع. وتربّص بي بعض الشباب وراقبوني جيدًا. استأت من تصرفاتهم الحمقاء. كل هذا بسبب صوتي الحزين الذي جلب لي البلايا والمحن. لم أعد أغنّي في فرح أو مرح. أخرستُ صوتي إن كان سيجلب لي كل هذه الضغائن. لم أعد أسلّم على أيّ فتاة في الطريق حتى لو رفعت صوتها بالسلام، وكان هذا من أشدّ ما أكرهه في حياتي؛ أن أقابل المودّة بإجحاف وصلف. أحسست أن المكان قد ضاق بي، لاسيّما بعد أن أراد آدم أن يزيّن لي فكرة الزواج من جديد. بينما دافع عنّي العم ركابي، صار صوته يعلو في وجه كل من يغتابني.

وقف في صفّي، سمعته مرّات ينبذ الشباب وطريقتهم الجلفة الصلفة في التعامل معي بهذا الأسلوب. حذّرهم من التعرّض لي وأن من يمسّني بسوء يمسّه هو شخصيًا. كنت في أشدّ الحاجة لهذه الحماية.

بدا أن صوتي الحزين الذي كان يلازمني ويخفّف عنّي المحن قد أصبح- منذ ذاك الوقت وفي ذاك المكان- جالبًا لي الأذى ومثيرًا للضغينة والحسد."

أستيقظ على صوت المنبّه في الفجر. أشعر بإرهاق شديد وبأنني لم أنم ما يكفيني. تستيقظ ساندرا معي وتجهّز الفطور. أقول لها:

"لم أتذكّر متى نمت؟ يبدو أنني حكيت كثيرًا!"

"نعم حكيت أشياء تجعلني أكاد أرافقك اليوم لمكان عملك لتحكي لي المزيد."

أفطر سريعًا وأقبّلها ثم أهبط إلى الشارع البارد. أركب الترام ثم المترو وأصل لمكاني شبه نائم. القوة الوحيدة التي تبعث في روحي كلّ هذا الجَلَد هي ساندرا. أحسّ بأن قدرتي على التحمل والصبر تزداد وبأن ضحكي من العالم سيطول.

{١٠}

تمرّ الأيام والأسابيع جميلة هنيئة. نتلاقى نادرًا في بيتي وأكثر في بيت النخيل وأغلب الوقت في بيت ساندرا. أترك في يوم جمعة حكيمة لدى ساندرا على أن نلتقي في بيت النخيل بعد الظهر. أعمل في هذا اليوم- مرّة أخرى بدلاً من زميل لي- في توزيع مواد إعلانية على البيوت. لحظي المبلّل يكون يومًا ماطرًا غائمًا. أجرّ بصعوبة عربة الإعلانات الثقيلة التي غطّيتها بالبلاستيك بسبب المطر الغزير. أوزّع الإعلانات على حيّ سكني كبير. وهو مكان مُحدَّد بخريطة من الشيف. ستحتاج هذه العمارات العالية إلى أكثر من سبع ساعات صعودًا وهبوطًا على الأقدام، وإلى انتظار مملّ ليفتح السكان البوابات المغلقة.

في بداية عملي كنت أختار عشوائيًّا أحد أزرار أجهزة الردّ المنزلية، ثم أنتظر الردّ قائلاً لمن يردّ إنني أوزّع إعلانات للشركة؛ فتبدأ مناقشات ومنغّصات وطول انتظار- أمام تلك البوابات المغلقة- عمّن أكون، ولِمَ أضغط على هذا الجرس بالذات، وما اسم شركتي، ومن طلب هذا الإعلان. هذه الأسئلة لم تكن مهينة مقارنة بالشتائم والسباب الذي كنت أسمعه بسبب تكديري طمأنينة وسكون الناس في بيوتهم في هذه الأوقات. أغلب الناس في هذه المدينة يكرهون موزّعي الإعلانات،

يمقتون هذه المخلوقات المزعجة وهذا النوع التافه من الأعمال الدخيلة، لكن بمجرد أن يختفي الموزع يسحبون الإعلانات إلى داخل شققهم ويفحصون عروضها بعناية. فيما بعد تعوَّدت أن أضغط على عدة أزرار في آنٍ، فتأتيني جملة أصوات وأسئلة متلاحقة ولابد أن يكون بينهم من لا يهتمّ بالسؤال ويفتح مباشرة.

في هذا اليوم أقف طويلاً أمام هذا البيت القديم الذي يبدو مهجورًا. أضغط على كل أزرار اللوحة المندلقة بأسلاكها خارج الحائط ولا يفتح أحد. أحتمي في قوس المدخل من انهمار المطر. فجأة أسمع صوت جرس فتْح البوابة. أترك عربة الإعلانات في الخارج وأدفع البوابة الثقيلة بيد وبيدي الأخرى أحمل رزمة من الإعلانات. أصعد سلمًا متآكلاً. حوائط البيت كلها متهالكة متشققة، ورائحة الرطوبة والعطن واضحة. تبدو معظم الشقق مهجورة والإعلانات محشوة على أبواب شققها كيفما اتُّفِق منذ زمن، مغطّاة بعفار وغبار. في مثل هذه الأمكنة يحلو لي أن أتخلّص من معظم الإعلانات التي أحملها، أخفّف من أحمالي وجرّي الثقيل، رغم علمي بأن الشيف النشيط يختار بعض البيوت ويمرّ عليها ليراقب عملنا في توزيع الإعلانات، بل يسأل أصحاب بعض الشقق إن كان قد تسلّموا إعلانًا من الشركة أم لا؛ كي يثبت لرئيسه الأعلى شطارته ويثبت لنا أن عينه البوليسية واسعة، وأنه قادر على تغريم طاقم العمل المسكين من أمثالي بغرامات مؤذية، لكنّي أخمّن بأنه لن يبقى بالتأكيد أمام مثل هذا البيت طويلاً.

في الدور الأخير من هذا المبنى المتداعي، أسمع موسيقى تنبعث من شقة. موسيقى جذابة مألوفة. أعتقد أن أذني أخطأت وأنني مرهق من آثار جوعي ومن مبادئ صداع، وأنَّ ما أسمعه هو مجرد صدى يتردّد من الذاكرة؛ صدى صوت من حوش النادي السوداني. أقترب من الباب وأنصت. الموسيقى واضحة. موسيقى أعرفها وصوت سمعته بغزارة، ينساب الصوت واضحًا رقيقًا:

ليالي الأنس في ڤيينّا	نسيمها من هوا الجنّة
نغم في الجوَّ له رنّة	سمعها الطير بكى وغنّى
تمّ النعيم للروح والعين	ما تخلّي قلبك يتهنّى
أدي الحبايب عَ الجنبين	إيه اللي فاضل عَ الجنّة
متّع شبابك في ڤيينّا	دي ڤيينّا روضة م الجنّة
وليه تُصبر عَ الأيام	تفوت من غير ما تتهنّى
امرح واطرَب	افرح واطرَب
ابعت قلبك يسبح ويطير	في الدنيا دي يلقى له سمير
تِهنّى بقُربه وتِسعد بهواه	وتهنّي شباب القلب معاه
دي ڤيينّا روضة مِ الجنّة	يسعد لياليك يا ڤيينّا
نغم في الجوَّ له رنّة	سمعها الطير بكى وغنّى

لا أستريح لتلصّصي هذا. لكنّ الجذابي يكون أشدّ من أيّ تفكير عقلاني. أوزّع الإعلان- دون شعور- على شقق هذا الدور خمس مرات.

وعند كلّ مرور بهذا الباب أتباطأ وأتوقف وأنصت. أرغب في أن أخبط على الباب لأسأل أيّ سؤال، لكني أخجل من تصرف كهذا. يبدو لي أن هذه الشقة هي الوحيدة المسكونة في هذا الدور السادس الأخير من هذا المبنى العتيق.

صوت المطر يضرب بعنف وأنا مهزوزٌ بين الفرح الخفيف والارتباك الشديد. أخرج من شنطتي الصغيرة ساندوتش الجبن الذي جهّزته لي ساندرا. أضع ما تبقّى من إعلانات تحتي وأجلس جوار هذه الشقة تمامًا على الدرجة الثالثة من سلم حلزوني من الحديد يصعد إلى سقف البيت. عيناي تذهبان تدريجيًّا لزمن بعيد مع أغنية بعيدة في الذاكرة قريبة للحسّ. أغمض عينيّ بهدوء.

ففي ليلة دافئة مقمرة كنت جالسًا في الحوش الخالي للنادي في عين شمس بعد أن لم يبق أحد منذ الغروب. ذهبوا جميعًا للمشاركة في فرح إحدى العائلات. تلك الأفراح التي صرت أتجنّبها. رنا إلى سمعي في هذا المساء المتأخّر صوت راديو بأغنية يروح ويأتي مع الريح. كان الصوت رائقًا شجيًّا كأنّه يأتي من زمن آخر وله جرس مميّز فيه رنة غير بشرية. نمت يومها مع سحر هذا الصوت:

أبدو في يوم عرسي مُحنًّى مُزيّنًا مُجلببًا راقصًا جذلان. أمي في المنتصف ترقص وتدعو لي بصوت مسموع، تباركني وترقيني بنثر الملح في الوجوه لكسر عين الحساد. أختاي كريمة وحليمة ترقصان من حولي. بدتا فتاتين جميلتين في عمر ناضج، والجمع يغنّي لعروسي ولي في

ترانيم رائقة شجية، وأصدقائي يبشّرون بأيديهم. أرقص بمهارة رقصة الهَدهَد. يستغرب الجميع، يسألونني أين تعلّمت هذه الرقصة العجيبة، ومن أين لي بهذه الحركات. أنا نفسي لا أدري كيف رقصتها، ولا من أين جاءتني فكرتها. أكون تحت تأثير حالة انجذاب، وهم يرغبون في أن يتعلموا الرقصة منّي. أعود إلى المنتصف أعيد رقصتي وهم يقلدونني. ترشّ أمي وفتها كمية أكبر من الملح على رؤوس الجميع وتزغرد. حين أذهب إلى عروسي لأراقصها، أسمعها تغنّي في صوت خلاّب كأنّه ليس صوتها، تسكرني رائحتها و يثيرني صوت رنّات وصلصلة أساورها. تسحبني من يدي ونخرج بعيدًا عن هذه الضوضاء. في ضوء القمر الساطع تتركني ألمس شعرها وضفائرها الطويلة ثم جيدها وخدها. أقبّلها في فمها العاطر وهي تبتسم حتى تلمس شفتاي أسنانها فنرتعش معًا. حين أعود معها لا أجد أحدًا. نجلس ومازال صدى أغنية عروسي يأتيني رائقًا شجيًّا كأنّه يصدر من زمن آخر. جرس مميّز فيه رنّة غير بشرية، لكن لا أراها تغنّي، بل منهمكة في تغيير ملابسها. ننام يومها بعضنا في أحضان البعض يغلفنا هذا الصوت الملائكي.

في الليلة التالية في عين شمس كان الجمع قد غاب في حفل عقيقة[1]. كنت مرهقًا نائمًا داخل غرفتي العلوية بالنادي. عاد إليَّ هذا الصوت السحيق بالأغنية ذاتها واللحن ذاته- يتكرّر، مشيت متمهّلاً حتى وصلت إلى الحوش؛ إلى مصدر هذا الصوت الهادئ. وجدت العم

1- شعر كل مولود من الناس والبهائم ينبت وهو في بطن أمه وهو أيضًا الذبيحة التي تذبح عن المولود يوم سبوعه عند حلق شعره.

ركابي- الذي يستمع غالبًا إلى 'محطة القرآن الكريم'، خصوصًا إلى صوت الشيخ محمد رفعت والشيخ عبد الباسط عبد الصمد وإلى محطة أم كلثوم- وجدته يستمع إلى هذه الأغنية ويترنم معها حافظًا لها مثل حفظه لآيات القرآن، مغمضًا عينيه في حالة من الوله، يكاد يغيب عن الوعي وعن الدنيا. جلست خفيفًا هادئًا قريبًا منه دونما رغبة في إزعاجه؛ فلم يشعر بي. صرت في حال مثل حاله؛ مجذوبًا مأخوذًا مأسورًا بالصوت الساحر والنغم الشفّاف. أغمضت عينيَّ مثله علّني أرى ما يراه.

لمّا انتهت الأغنية تنهّد العم ركابي. حين شعر بوجودي ارتبك قليلاً وهو يضغط بأصابعه لإخراج الشريط ليقلبه من جديد على وجهه الآخر. تمهّل قبل أن يضغط على الزّر ثم حيّاني بلطف وبوجه منشرح مرتاح. نظر إلى وجهي كأنّنا كنّا معًا في مشاهدة طيف بعيد. صمت لحظات، فسألته:

"لمن هذا الصوت الساحر؟"

"إنها أسمهان."

سمعته كأنّه يقول: 'اسمها آن' فسألته متعجّبًا:

"آن! لا أعرفها، ولم أسمع هذا الاسم من قبل."

"اسمها أسمهان، هل تعرف المطرب فريد الأطرش؟"

"نعم، أعرفه من الأفلام."

"هذه هي أخته، وكانت مغنية رائعة ذات صوت شيطاني!"

"تقصد ملائكي؟"

"لا بل شيطاني بالفعل، الملائكة كثيرون يا حمزة، أما الشيطان فهو واحد."

"هل مازالت تعيش؟"

"المسكينة ماتت صغيرة وتركت لنا هذا الصوت الخالد."

"كنت أعتقد بأنك تحبّ أم كلثوم."

"طبعًا أحبّ صوت أم كلثوم لكن يسحرني صوت أسمهان. أم كلثوم صوتها يتلبّسك، يصطادك فلا تستطيع الفرار منه، يكبّلك، لكن بإرادة منك. صوت أسمهان يخترقك ويحلّق بك في سموات صافية، ثم يتركك هناك حرًّا تحلق كيفما تريد."

ضغط العم ركابي على زرّ المسجل من جديد فانساب الصوت ناعمًا، وراح هو في غيبوبته. كنت أنظر إليه مندهشًا. أكاد أجزم أن هناك سرًّا في هذا الطقس وأنتظر بصبر أن أسمع منه شيئًا. عشت على سطح الأنغام مشدودًا إلى الأعماق دون معرفة من أين هذا الانجذاب الخفيّ الذي يجرّني بسلاسة وتؤدة.

مرّت بضع أمسيات، وذات أمسية هادئة وجدت العم ركابي بمفرده متكئًا في حوش النادي يستمع إلى نشرة الأخبار كعادته من إذاعة الـ"بي بي سي BBC"، كان الجمع المعتاد على الحضور قد بدأ يقلّل من

جلوسه في حوش النادي؛ فالخريف قد دخل وبدأت الأماسي تصقع. لكن العم ركابي كان من أولئك الرومانتيكيين القدامى المحبّين للجلوس في هدوء وفي ضوء القمر أو مع ضوء خافت بعيد ومع مثل هذا الصوت الآتي من بعيد. كان يعيش مع هذا الراديو. يدخل إلى عالمه بأذنيه ويعيش في هذه العوالم البعيدة.

اقتربت منه وقدمت له كوبًا من الشاي بالنعناع الأخضر الطازج. فرح لهذه اللفتة ودعا لي بطول العمر. جلست وبقيت أستمع معه إلى النشرة العربية من الـ'بي بي سي BBC'. كانت أغلب تعليقاته على مثل هذه الأخبار هو ضحكات قصيرة تهكميّة. ولمّا كان الصوت القادم من بلاد بعيدة يأتي مشوّشًا، فقد كان مضطرًا لأن يرفع الراديو في الهواء لأعلى ويحرّكه في اتجاهات متنوعة أو يمسك أحيانًا الإيريال بيده حتى يُضعِف هذا التشوّش وينقّي الصوت. سألته:

"هل معك كاسيت هذه المغنية أسمهان؟"

فرح بهذا السؤال حتى رأيت بريق عينيه ولمعة صفّ أسنانه البيضاء وهو يبتسم بحبور في شبه العتمة.

"نعم، هل أدمنت يا حمزة. أراك شغفت بها."

ضحكتُ ولم أردّ. اعتدل في جلسته وأخرج الكاسيت من جيب جلابيته ووضعه في المسجل فانساب الصوت الشيطاني. سرحت في أمكنة بعيدة. لا أدري ما الذي حطّ عليَّ في هذه اللحظة لأتذكر أوروبا: تذكّرت إيطاليا وفرنسا وهولندا؛ تذكّرت أشياء ساحرة فتّانة لم

أستمتع بها في هذه البلاد القاسية التي غيّرتني ورفضتني. سكتت أسمهان. لكن بقي صدى صوتها يرنّ في أعصابي. يفتح لي نوافذ عوالم مجهولة أكاد أرى طيفها، حتى طقّ الجهاز معلنًا إنهاء الشريط؛ ففتحت عينيّ وقلت للعم ركابي:

"سأجهّز شايًا في لحظات."

شكرني وقال إن عليه أن يعود للنوم مبكرًا، فلديه مشوار إلى السفارة في الغد لمساعدة أحد المعارف في تجديد جوازه وإعفائه من ضريبة باهظة. قبل أن يستقيم العم ركابي بخفّته المعهودة قال:

"سأترك المسجل بالكاسيت عندك الليلة. يمكنك أن تستمع إلى أسمهان متى شئت، ومن الأفضل لك أن تستعمل الموصل الكهربائي، إن أردت ألا تشحب منك البطارية فيتلوّث صوت أسمهان الجميل ونغضبها."

"لن أغضِب هذا الصوت الشيطاني."

ضحك العم ركابي. شكرته على لفتته الجميلة هذه؛ تلك الهدية غير المتوقّعة التي لن أستطيع أن أفكّ أسرارها قبل مرور وقت طويل.

في الأماسي التالية وجد العم ركابي أنني شغوف بالإنصات إلى هذه الأغنية بالذات؛ أغنية 'ليالي الأنس في ڤيينّا'. أمسينا نستمع إلى نشرة أخبار الـ'بي بي سي BBC'، وبعدها أسمهان. أصبح يحلو لي الجلوس مع هذا الرجل الذي يحكي لي عن أيام صفيّة هنيّة وعن ذكريات مثيرة ولّت، ثم عن أحداث لم أعرفها عنه وعن آخرين وعن حياة كاملة

حولنا. كان يرتاح لشغفي الحقيقي، لكلّ فضولي وأسئلتي، فيحكي بانشراح. صرنا بعد فترة نستمع معًا إلى أغنية 'ليالي الأنس في ڤيينّا' ولأغنيات أخرى بديعة لها. ويحكي لي كلّ ليلة حكاية جديدة عن حياته الماضية التي اضطرَّ فيها أن يثرثر نتفًا يسيرة منها، بعد أن استدرجَته هذه الأغنية السحرية. لم يَبُح بالكثير، لكن بدا لي أن حياته كانت مثيرة وغنيّة وبئرًا مليئة بأسرار لا يعرفها أحد. كنت أسأله بفضول دون إلحاح. قال لي ذات ليلة:

"هل تصدق يا حمزة أنني مشيت في جنازة أسمهان؟"

"كيف؟"

"للأسف لقد ماتت ميتة مؤسفة هزّت البلاد. اسمها الحقيقي أمال ويقال إن أباها سماها إميلي، وحين غنّت أمام الشيخ داود حسني الفنّان الملحِّن والمغنّي انبهر بها، هو الذي غيّر اسمها إلى أسمهان. حكاية موتها الغريب الغامض مازالت لغزًا."

حكى لي الكثير عن حياتها حتى تصوّرت كأنّي رأيتها بالفعل.

يتوقف صوت أسمهان المنبعث من داخل الشقة. أرتجِفُ قليلاً وأنا أسمع صوت زخّات المطر. مطر يبدو أنّه لن يتوقّف في هذا اليوم. أنزل مرتبكًا متمهّلاً خفيفًا برأس حزين ومُنتَشٍ في آنٍ. أنظر إلى ساعتي. أراها متوقّفة كعادتها. أحاول أن أنهي عملي بسرعة لأذهب إلى بيت النخيل كما وعدت ساندرا، لكن عربة الإعلانات ما زالت مكتظّة بالإعلانات. كأني لم أوزّع شيئًا منها. أسير بها حتى البيت التالي. هناك

أقف زمنًا طويلاً لإقناع أيّ ساكن بفتح البوابة. وحين تنفتح البوابة أدخل بالعربة إلى المتُوَر الخلفي مباشرة. أحمل كل رصّات الإعلانات وأرميها في مزبلة الأوراق والكراتين. أجرّ العربة خلفي خفيفة وأسير ببسمة عريضة غير عابئ بالمطر؛ أرى ساندرا في عينيّ. أعود للبيت في خطوات مسرعة. أركن العربة في مدخل البيت وأربطها بسلسلة وقُفل في سور السلالم. أصعد وأغيّر في عجالة ملابسي المبتلة وأشرب شايًا بجرعات كبيرة. أسحب باكو بسكويت آكله وأنا أقفز درجات السلم طائرًا إلى بيت النخيل.

أفرح بوجود ساندرا وحكيمة في انتظاري داخل بيت النخيل. أفرح بالدفء وبالقبلة الدافئة التي أنتظرها، وبلمس حكيمة. تسألني ساندرا عن يومي في هذا المطر الغزير. أحكي لها عن هذا اليوم العجيب وعن أسمهان والعم ركابي؛ هذا الفنّان الرائع الذي عوّضني كثيرًا ممّا فقدت. تسألني ساندرا:

"إنك تذكر العم ركابي على أنه فنّان. هل كان يغنّي؟"

"إن حكايته طويلة. هل تريدين أن تستمعي إليها؟"

"بالتأكيد!"

تنتقل حكيمة إلى حجري. أشعر بدفئها وتقترب ساندرا لتلتصق بي فأشعر بدفء فخذها وكتفها. وجهها إلى وجهي وعيناها متسعتان تنتظران. في هذه اللحظة أفكر في فكرة أخرى. تفهم من نظرة عيني العميقة وبسمتي الماكرة؛ فتلكزني في صدري لكزة خفيفة:

“هيا هيا احكِ. أرجوك!”

أنظر للنخلة الوحيدة. أحاول أن أجمّع كلمات الرجل في تلك الليلة البعيدة.

“كانت ليلة صافية مقمرة وكنّا في وقت متأخّر من الليل. انفضّ الناس مبكرين. كأنّ الصيف كان يودّعنا فأرسل إلينا آخر مساءاته الدافئة. كنت متشوّقًا لمعرفة المزيد من العم ركابي عن حياته. كأنّه أبي الذي أريد أن أعرف تفاصيل حياته التي أستمدُّ منها حياتي.

استرسل العم ركابي في حكايته في هذه الليلة. قال:

“منذ سنوات طويلة في أوائل الستينيات. وكنت آنذاك أكبر منك بكثير يا حمزة. قرأت في جريدة ‘الأهرام’ خبرًا عن معرض لفنانة أوروبية تعرض أعمالها في صالة الفنون بالقرب من المتحف المصري. كان هذا أمرًا عاديًّا يتكرّر باستمرار ويمكن أن يمرّ بشكل معتاد لولا أنني قرأت أن المعرض يحمل عنوان: ‘بيت النخيل بيت الشمس’. فما إن قرأت العنوان حتى صمّمت أن أشاهد هذا المعرض. فما لم يعرفه أحد عنّي أنني كنت مولعًا بالرسم وأرسم في الخفاء ولم أطلِع أحدًا على لوحاتي أبدًا. مجتمع الفنّ في ذاك الوقت كان يعيش في أبّهة أرستقراطية لم تَرُق لي ولم أجد نفسي من نسيجها. رغم إعجابي بأعمال الكثيرين. كنت أعمل في تنفيذ أغلفة الكتب في مطبعة في منطقة الفجّالة وكان هذا العمل يتيح لي قراءة مجانية لمعظم الكتب. ويجعلني متابعًا لأحوال الكتابة والفنّ وزيارة المعارض الموجودة في وسط البلد. كنت هنا

في عين شمس في منأى جميل بعيد لممارسة هوايتي في الرسم بكلّ هدوء.

الذي حفّزني للذهاب إلى هناك هو أنني كنت قد رسمت حتى ذاك الوقت مجموعة خاصة من إحدى وعشرين لوحة في حجم كبير كانت تحمل عنوان: 'بيوت الشمس بيوت النخيل'.

ذهبت إلى هناك.

كانت لوحات 'ڤاليري[1]'- وهذا اسمها- في غاية الإبهار. شعرت برعشة لن أنساها. كان الحضور عظيمًا من فنانين ومهتمين مصريين وأجانب يتفرّجون على اللوحات وبعض المصورين يلتقطون الصور الفوتوغرافية. كانت لديّ رغبة كبيرة في أن أراها. أن أرى صاحبة هذه اللوحات الباهرة والعنوان المشترك بيننا. لم أعرف من هي الفنانة فقد كانت هناك مجموعة من السيدات الأنيقات يقفن في المنتصف. لم أشأ أن أبحلق فيهن. فضّلت أن تكون بحلقتي في اللوحات التي جئت من أجلها. تفرّجت على لوحاتها في هدوء بعيدًا عن الضجيج. كنت في أقصى القاعة بمفردي أمرّ على اللوحات. عددت لوحاتها, كانت اثنتين وعشرين لوحة. سمعت من خلفي امرأة تكلمني بلغة إنجليزية:

"أراك مهتمًّا باللوحات, تقف في زوايا ومسافات معيّنة وتقترب وتبتعد! هل أنت ناقد فنّي؟"

1- اسم نسائي يعني القوية السليمة ويُكتَب الاسم في الألمانية والانجليزية هكذا Valerie . وفي الفرنسية: Valérie يسمى به الرجال.

"لا. أنا متفرّج عادي أعشق الفن. هل أنتِ الفنانة صاحبة هذه اللوحات؟"

"نعم."

لم تسألني ڤاليري السؤال المعتاد المباشر عن رأيي في لوحاتها كما يفعل الكثيرون. بل حوّلت دفّة الحديث إلى ضفّة أخرى:

"لم أرَ أحدًا هنا يتأمّل لوحاتي بهذه العناية. من أين أنت؟ هل أنت من النوبة؟"

"تقريبًا. أبعد قليلاً إلى الجنوب. أنا من السودان."

"أوه! إنه بلد رائع! لقد زرته ربيع العام الماضي وفرحت بحفاوة الناس ولطف عشرتهم هناك وأتمنّى أن..."

اقترب منّا شخص ما وقاطعها معتذرًا. حيّاني باحترام مُبالَغ فيه وكلّمها بلغة غريبة عليّ. اعتذرت بلطف ووضعَتْ في يدي كتالوج لوحاتها وقالت:

"إن كان لديك وقت في الغد. فمُرّ عليَّ هنا بين الثانية عشرة والثانية بعد الظهر. سأكون بالتأكيد هنا في المعرض."

"جدًّا. سأفعل ذلك."

كانت الشابّة رائعة واثقة من نفسها ومن جمالها الأخّاذ. انبهرتُ بها وبلوحاتها. ضاع حيادي فلم أستطع بعدها أن أتأمّل لوحاتها كما كنت أفعل قبل لحظات. كانت تظهر لي في كلّ لوحة بمجرد أن أقترب منها.

خرجتُ من هناك حاملاً معي كتالوج المعرض الذي أمسكته في يدي بقوة كأنّي أمسك بيدها. مشيت مسافة طويلة في هذا اليوم حتى أعيد ذهني المبعثر لجسدي الحائر.

في اليوم التالي رحت إلى المعرض وبقيت من الثانية عشرة حتى الثالثة بعد الظهر. لم تأتِ. لم أكن غاضبًا بل متحسّرًا لعدم مشاهدتها من جديد. وسعدت لأنّي عشت مع لوحاتها مرّة أخرى في ضجيج أقل. كتبتُ أسماء اللوحات وسجّلت بعض الملاحظات وخرجت.

بعد عصر اليوم نفسه في عين شمس أخرجت لوحاتي المُغبَرَّة وجلست أتفرّج عليها وحدي. شعرت بمزيج من السعادة والإحباط. لم أكن قد اخترت أسماء للوحاتي بعد. قرأت عناوين لوحات ڤاليري الاثنتين والعشرين واخترت مزيجًا مناسبًا من العناوين. وعلى سبيل الذكرى والصدفة الجميلة سجّلت للوحاتي هذه العناوين للمرّة الأولى بعد أكثر من أربعين عامًا من رسمها. أعدتها إلى مكانها ماعدا لوحة امرأة بشعر أزرق كثيف يغطيها. سمّيت اللوحة 'ڤاليري يون' باسم هذه الرسّامة النمساوية التي اعتقدت أنني لن أراها مرّة أخرى.

بعد يومين عدت من جديد مسحورًا إلى قاعة الفنون. أردت أن أشاهد اللوحات مرّة أخيرة. كانت هناك موسيقى رائعة تصدر ذكرتني بليلة افتتاح المعرض. موسيقى لموتسارت:

"هل أنت ناقد فني؟"

الصوت الرقيق نفسه والسؤال نفسه يتكرّر من خلفي، هذه المرّة

متبوعًا بضحكة رائقة جميلة. التفتُّ ضاحكًا. اعتذرَتْ لي لتخلّفها عن الموعد القديم وعن خشيتها ألا تلقاني مرّة أخرى لأنها لم تتعرّف حتى على اسمي. اعتذرَتْ بأن المواعيد هنا في هذه البلاد من الصعب الالتزام بها. بادرتها:

"رغم ذلك فقد استمتعت مرة أخرى برؤية هذه اللوحات النادرة الرهيبة."

"رهيبة؟"

"نعم. إنها حكاية طويلة."

"ما رأيكَ أن نخرج لنجلس في مكان آخر. أحبّ أن أتكلم معكَ. هل عندك مانع؟"

"لا. لكن إلى أين تفضّلين الذهاب؟"

"اختر أنت المكان وأنا أدعوك؟"

"لا. اختاري أنت المكان وأنا أدعوك؟"

"اتفقنا."

"بالمناسبة أنا اسمي إلياس ركابي."

تركنا ناصيتين لنخرج إلى مكان هادئ عند النيل. كازينو صغير رواده قليلون.

تعدّدت الأسئلة الصامتة وعيوننا تتلاقى ثم تصبّ ما لا تبوح به في

النيل القريب. كنّا نبتسم في ارتباك مثل ارتباك المراهقين. حكيت لها عن لوحاتها وعن رأيي فيها وعمّا لم تتوقّع أن تسمعه منّي. كنت أقارن لوحاتها بأمكنة في الطبيعة لا برسوم الآخرين، وأيضًا بالانطباعات العفويّة التي تركتها هذه اللوحات في نفسي. تعجّبتْ ڤاليري من ذِكْرِي كلّ لوحة ليس فقط بتفاصيل ألوانها وخطوطها بل بمكانها في المعرض. جلسنا حتى غابت الشمس. مرّ الوقت معها كنسمة صيف.

تعدّدت اللقاءات وبُحتُ لها للمرّة الأولى بسرّ لوحاتي المركونة. فتشوّقت أن تراها وأن تزور عين شمس. دعوتها وحدّثتُ أختي عن الزائرة لكيلا نكون وحدنا في البيت. جاءت ڤاليري ذات يوم في سيارة بسائق. كان القسم الثقافي بسفارتها قد تعامل معها على أنها سفيرة فنّ لبلدها، فخصص لها هذه السيارة وهذا السائق طوال فترة إقامتها في مصر. كانت أعجوبة في ذاك الوقت أن تدخل امرأة أجنبية إلى عين شمس. اعتقدوا في البداية أنها ممثلة من ممثلات السينما أو أنها أخطأت العنوان أو أنها تستطلع مكانًا ستمثل فيه أو شيئًا من هذا القبيل. هذا ما سمعته في الأيام التالية من الناس. البعض قال إنها تشبه الممثلة النمساوية 'رومي شنايدر'[1]- وهذا صحيح. رحّبت أختي بها ترحيبًا من القلب. تغدّت عندنا في هذا اليوم وبقيت معنا مدّة طويلة وأختي تتأمّلها بعناية. أرادت ڤاليري بعد ذلك أن ترى لوحاتي.

صعدتُ معها إلى مرسمي المستور في الدور العلوي. أخرجتُ لوحاتي من غبارها وسباتها. تلك اللوحات التي لم يرها أحد إلا أختي. أتذكر هذا

1- Romy Schneider ممثلة نمساوية شهيرة (1938-1982).

اليوم التاريخي جيدًا؛ يوم دخول ڤاليري إلى مرسمي وأنا أحاول تنظيف اللوحات مما نسجه العنكبوت وأعتذر لها عن هذا الغبار وهي تنتظر ولا تتكلم. كانت كمن ذهب إلى مكان آخر من الدنيا. دمعت عيناها وهي تتأمّل ولا تتكلّم. كنت أمسح اللوحات برفق وسرعة كأنّي أعيد للتوّ رسمها لوحة بعد لوحة. قالت لي:

"إلياس أنت فنان، فنان كبير! لماذا تُخفي هذه البدائع؟ خسارة أن ترمي بمثل هذا الفن وسط هذا الغبار والظلام! مكان هذه اللوحات ينبغي أن يكون أمام أعين الناس!"

أفرحني كلامها وردّ اعتباري لنفسي واعتبرت شهادتها كافية لأحكي لها شجوني وأستعيد حلو الماضي ومرارته. جلسَتْ ڤاليري في هذا اليوم تحدثني عن المدارس والاتجاهات الأوروبية الحديثة في الرسم. قالت إنها ترى في رسمي ما يتقارب مع فنانين وفنانات لا أعرف أسماءهم. تناقشت معها في رؤيتها وأرائها، واتفقت معها في الكثير. ذكرتُ لها أنني أطّلع على الفنون الأوروبية وأقرأ عنها ما يصل إلينا منها، لكني متأثر أكثر ببيئتي هنا وأكثر بضوء الجنوب ونصاعته وبثراء الألوان هنا في هذا المكان؛ الألوان المختفية تحت الغبار، وأن هذا هو إلهامي الأكبر.

كان من المفترض أن تبقى ڤاليري في مصر لمدّة شهرين. مَدَّتهما إلى أربعة أشهر ثم إلى ستّة. حتى عاشت في مصر عشرة أشهر وستّة أيام. سافرتُ معها مرتين إلى ڤيينّا. هل تصدق يا حمزة؟ أحبّتني وأحببتها وصارت أقرب إليَّ من أنفاسي وروحي. خسرها الكثير من أشباه

الأصدقاء بسبب علاقتنا غير المفهومة لهم، وبسبب تفضيلها تمضية أغلب الوقت معي أينما كنّا. رسمَتْ في مرسمي المتواضع ورسمتُ في مرسمها الرائع في حيّها 'نوي باو'[1] في ڤيينّا.

ربما هي القسمة والقدر والصدفة يا حمزة وأشياء أخرى لا نعلمها ترتب لنا منازل الحياة ومنازل الموت. في الدنيا ننزل مرتين يا حمزة: مرّة إلى الحياة على الأرض ومرّة إلى الموت تحت الأرض.

ثم حلّت عليَّ هذه الوردة البديعة وتبعها ضغوط الأقربين لي من أهلي ومعارفي وأصدقائي. انفضَحَتْ الأسئلة المؤلمة المتكرّرة: هل أسلَمَتْ ڤاليري؟ هل ستصبح ڤاليري مسلمة؟ هل ستغيّر ڤاليري اسمها؟

زاد ثقيل الكلام وسخيفه وكثرت الإشاعات الخبيثة لاسيّما بعد سفري مرّتين إلى ڤيينّا، ثم أصبحوا يلقّبونني بالخواجة. أعجبني الاسم، فأصابهم الغمّ والغيظ لأنّني كنت بعدها البادئ أمامهم بتسمية نفسي بما قالوا: الخواجة ركابي.

في ڤيينّا رأيت دنيا غير هذه الدنيا، رأيت متاحف ومعارض عظيمة: لوحات وتماثيل بلا نهاية. سمعت موسيقاها الحيّة فأصابني السحر. ڤاليري كانت تنقلني من جنّة إلى أخرى بلا رحمة، ومن مدينة إلى أخرى: كريمس، جراتس، سالتسبورج ببحيراتها البديعة، شرق النمسا الجميل الذي راق لي كثيرًا. عرضت لوحاتي هناك في ڤيينّا، في هذه المدينة الخلاّبة وفي غيرها. لوحاتي الإحدى والعشرين كاملةً. عدتُ إلى

1- Neubau اسم الحيّ السابع في ڤيينّا. وڤيينّا بها ثلاثة وعشرون حيًّا وكل حي في المدينة له اسم ورقم تراتبي.

الرسم من جديد في مرسم ڤاليري بتشجيع منها ومن أصدقائها. أنجزت لوحات كثيرة في ڤيينّا.

في عين شمس حاولت أن أرسم مرّة أخرى لكنني لم أستطع. أصابتْني عنّة فنية. كان هناك شيء ما يعوقني عن الرسم لم أدرِ ما هو.

عرضوا عليّ شراء لوحاتي في هذه المعارض التي رتَّبَتْهَا ڤاليري بنفسها، بعنواني القديم نفسه: 'بيوت الشمس بيوت النخيل'. عرضت ڤاليري لوحاتها معي. وأصبنا نجاحًا باهرًا. وعلى طريقة الغربيين قالوا إنّني متأثر بفنان سويسري اسمه 'پول كْليه' وأن الكثير من لوحاتي يُشبه لوحاته؛ هكذا دون أن تطرف لهم عين. قرأت فيما بعد عنه وانبهرت بلوحاته. أعجبني اهتمامه بالشعر والموسيقى وهي اهتماماتي أيضًا. أعجبني أسلوب هذا الفنان الأصيل الحرّ الذي لم يتقيّد بتقنيات تعقيد الفن. شعرت أن تشبيههم لي به فيه نوع من الاحترام. كنت كلّما أرى لوحة لا أعرفها لهذا الفنان أشعر أنني رسمتها من قبل في خيالي. كان ذا حسّ عفوي أخّاذ، لكني أقسمت للجميع إنني لم أعرفه من قبل رغم مطالعاتي الدائمة. كنت حزينًا من أن كل فنّ لدينا مهما كان أصيلاً ينسبون دائمًا أصوله الأولى إلى أوروبا.

بعت كلّ لوحاتي ماعدا لوحتين أهديتهما لڤاليري: اللوحة التي أسميتها 'ڤاليري يون' بعد أول لقاء لنا بمعرضها في القاهرة ولوحة أخرى عْنونتها بـ'ليالي الأنس'.

حصلت على مبلغ كبير لقاء بيع لوحاتي. ولما عدت إلى مصر ازدادت الشائعات. قالوا قولهم الغليظ المعتاد عن هذه السيدة المحترمة ثم أدخلوني في زمرة الجواسيس والمتآمرين مع جهات أجنبية ضد مصلحة الوطن وكلام آخر أسخف وأحطّ. تركتهم للزمن. حزنت من أهلي وأقرب الناس إليّ الذين أحبّوها لا لشخصها وإنّما لتدخل الإسلام. أرادوا منها استسلامها فرفضتُ أنا أولاً. بل لم أفتح معها موضوعًا كهذا من قريب أو بعيد. عشنا في شبه عزلة وفي شرخ مكاني عانينا منه مرارة أليمة.

من قيمة بيع لوحاتي اشتريت هذا البيت الذي أسكن فيه. جعلت له بستانًا ببعض الأشجار والنخيل. جرّبت السفر الجميل إلى الأمكنة البعيدة واستمتعت بحياتي. الآن أعيش حياتي هنا في هدوء. معي ما يكفيني لحياة مستورة.

تخلّصت من رسومي المركونة في الغبار. أعدت لها الحياة. وُضِعَتْ في أمكنة جميلة وحملتُ معي قصاصات الصحف وصور المعارض والأحاديث التي أجريت معي في أوروبا. هنا افتخرَ البعضُ بي زمنًا وذمّني البعض زمنًا. لكن الأمور عادت إلى طبيعتها حين توقّفتُ عن السفر. حين صرتُ مواطنًا عاديًّا يعيش عيشتهم ويقتاتون من مغامرة سفره الغريبة. التي عجزت أن أحكي لهم من خلالها أشياء غير التي أرادوا أن يستمعوا لها. لم يسألني أحد منهم يومًا ما سألتني أنتَ يا حمزة!

عادت ڤاليري إلى ڤيينّا وانتظرتني. وبقيت أنا هنا وحيدًا في عين

شمس. أتصل بها وتتصل بي ونتكاتب. أستمع إلى أسمهان التي صارت هي الأخرى تحبّها بعد أن ذكرت لها أن في صوتها رنّة تشبه رنّتها إلى حدّ كبير. أدمنْتُ صوت أسمهان تعويضًا عن ڤاليري وبحثت عن أفلام رومي شنايدر عشقًا لڤاليري. كاتبتني مرّة أنها تبنّت طفلة اسمها كلارا، والتي صار لديها فيما بعد جاليري معروف في ڤيينّا. كتبَتْ لي عنها مرارًا وأرسلت لي صورتها لكنني لم أسافر بعدها. وهي أيضًا لم تأت لمصر من جديد. ربّما أراد كل منّا في مكان إقامته أن يحتفظ في ذاكرته بمكانة الآخر. محبة كل منا للآخر جعلها البعد أكثر اشتعالاً. ربما كان البقاء الدائم لأحد منّا في أيّ من المكانين سيضيع شيئًا ثمينًا من الآخر. هذا ما أحسسناه وخشيناه.

قلبي انكسر ببطء وروحي احترقت في لحظة، حين انتحرت ڤاليري فجأة. لم أصدّق. سافرتُ وحضرت جنازتها الرهيبة وتعرّفت على كلارا ابنتها. وصلتني فيما بعد رسالة مترجمة من محامٍ في النمسا محتواها يعني أن ڤاليري قد سجّلت في وصيتها بعضًا من لوحاتها باسمي وأنها رغبت في أن أحتفظ بها. شعرت بالأسى البالغ أن علاقتنا تمزّقت بسبب الأفكار القبيحة لمجتمعاتنا سيئة الظن. أحسست بالندم أنني لم ألبِّ طلبها بالسفر إلى ڤيينّا ولو مرّة أخيرة؛ إلى مدينة حبّي الأخير. بدأت أعزف عن الناس وعن أهلي بعد ڤاليري. قديمًا كنت أشعر بالفقد وأنا في ڤيينّا بعيدًا عنهم، والآن أشعر بالفقد وڤاليري بعيدة عنّي ولن تعود. وكم كنت أشعر بالفقد والخسارة وأنا أيضًا هنا بعيد عن ڤاليري! أصابني هذا الصدع الذي لا شفاء منه."

يومها سألت العم ركابي ونحن نستمع إلى أسمهان التي أضاف صوتها بُعدًا عميقًا لحياتي لم أكن أتوقعه وسيظل يلازمني طوال عمري:

"هل أنت حزين ونادم لعدم سفرك إليها؟"

"نعم أشدّ حزنًا مما تتخيّل!"

"لو عادت بك الأيام، هل تسافر إليها؟"

سكت العم ركابي يومها ولم يردّ. في اليوم التالي دعاني إلى بيته الجميل. كانت للبيت رائحة غريبة لكنها مريحة لم أستطع أبدًا أن أميّزها رغم أنفي المدرَّبة. عمل لي كوبًا من الكركديه الساخن بسكر كثير وفتح المسجّل على أغنية أسمهان وأخرج من تحت السرير بضع لوحات تبدو حديثة التلوين لوجه امرأة خارقة الحسن؛ وجه واحد متشابه في مناظر مختلفة، خلف رمال مرّة وخلف ثلوج مرّة، في الليل مرّة وفي النهار مرّة. لم أحتَج إلى كثير وصف لأدرك ما يشعر به. كانت رسومه جدّ رائعة ومميّزة، ورغم أنني لا أفهم في الرسم كثيرًا لكنني شعرت بهذا السحر نفسه الذي يشعّ من صوت أسمهان. نظر في عينيّ بعمق وقال لي:

"هذه اللوحات رسمتها بعد وفاة ڤاليري. احتجت بعد رحيلها إلى زمن طويل كي أعود إلى الفرشاة والألوان. هذه اللوحات غير تامّة كما تلاحظ وستحتاج منّي بقية العمر."

تنهّد عم ركابي بطول عمره كلّه. وقفت أتفرّج على اللوحات بينما

أسمهان تغنّي أغنيتها التي بدأت تتغلغل في دواخلي بشجن فالت. فقد انغمسَتْ حكاية العم ركابي بصوت أسمهان وأغنياتها على نحو لم أكن أتخيّله. ويبدو أنه أباح لي ببعض الأسرار التي سأظل أقتنيها في قمقم ذكرياتي لأعود أتذكرها هنا في هذا المكان الذي أعيش فيه."

"كأنّي الآن هنا أرى طيفه أمامي. سأتذكر العم ركابي الذي ربما مرّ من هذا الحيّ أو ذاك الطريق أو جلس في هذا المقهى. وظهر في تلك الجريدة وفي هذا التليفزيون وربما هنا في بيت النخيل. أكاد أشم رائحته هنا في هذا المكان المغلق. كأنّه يقف في مكان قريب وينظر إلينا في مودّة. أكاد أشم رائحة الكركديه وزيت اللوحات الحديثة ورائحته هو المميزة؛ هذا الرجل الذي تفوح منه على الدوام رائحة أجمل العطور.

ساندرا ما تزال ملتصقة بي. رائحتها تعيد إليَّ توازني. حكيمة على حجرها الآن. أتوقف عن الكلام. أتنهّد بعمق. تتنهّد ساندرا مثلي دون أن تشعر وتقول:

"كأنّك تحكي فيلمًا يا حمزة."

"لا توجد أفلام يمكنها أن تنقل هذه المشاعر التي رأيتها في وجهه يا ساندرا. لا أعتقد بوجود 'ركابي' مثله في تاريخ السينما."

ملامح ساندرا وعيناها الواسعتان توحي بدموع لا أريد أن أراها. أبادرها بنظرة عابثة حتى أخرجها من هذا الجوّ الشجي، ثم أدّعي جوعي الشديد، ونخرج من بيت النخيل.

نخرج صامتين. تضغط على كفّي فأهمس في أذنها:

"هل تعرفين أنني أحبّك بعدد دقات قلبك منذ مولدك؟"

"صحيح؟"

"ألم يقل قلبك لكِ ذلك بعد؟ إذن أقولها لكِ بنفسي."

أقبّلها. ثم أذهب بشفتيَّ عند أذنها وعلى جيدها حتى تقشعرّ بشرتها وهي تترجّاني أن أتوقف. نسير وسط وجوه ناسٍ بعضهم منشرح من رؤية مشاعر جميلة في الطريق، والبعض الآخر مستاء متزمّت يهزّ رأسه ضيقًا والبعض الثالث لا يرى شيئًا في هذا العالم.

{١١}

الجوّ يتحسّن ويبدأ الصيف الجميل الذي أحبه حين أتخفّف من الملابس الثقيلة، وحين أتخفّف من أثقال عمري بالحكاية إلى ساندرا عن حياتي الماضية. يصبح بيت النخيل هو مكاني المفضّل لمعظم ما أحكيه لها. هذا المكان المريح نفسيًّا الذي أعاد لي توازني بعد سنوات طويلة من عدم الثقة بأيّ شيء في هذا العالم. أكون في أزهى أحوالي في وجود ساندرا وحكيمة إلى جواري.

أتعوّد أن أتصل مرّة كل شهر تقريبًا بالعم ركابي. أسأل عن أحواله وأطمئنه على حالي.

في كلّ مرّة من المرّات الأخيرة كنت أدَع ساندرا تحكي معه قليلاً. تعلَّمَتْ منّي بعض كلمات التحيّة العربيّة؛ فكان ينشرح بكلماتها العربية القليلة وطريقة نطقها، كما كانت تفرح بتعبيراته الألمانية القليلة.

"أريد أن أسافر معك إلى مصر يا حمزة!"

تفاجئني ساندرا بهذه الجملة بعد انتهائها من مكالمة العم ركابي. جملة واحدة تفرحني وتربكني في آنٍ. لقد فكّرت طوال سنوات- تعدّت

الستّ ببضع شهور- في الرجوع مرّة إلى مصر. يبدو أن نيّتي لم تكن صادقة. إضافة لصعوبة تدبير قيمة تذكرة سفر وشراء بعض الهدايا القليلة وهو ما لم يتحقّق طوال هذه السنوات. أسألها:

"متى؟"

"ما رأيك في نهاية هذا العام بعد أعياد الميلاد؟"

"نهاية هذا العام؟ في الشتاء؟ لا. من الأفضل في شهر مارس؛ فالجوّ يكون أفضل في أوّل الربيع."

للمرّة الأولى أشعر أنه بإمكاني أن أعود إن أخلصت النيّة. للمرّة الأولى أفكّر جادًّا في ادخار القليل من المال والعودة للعمل لساعات إضافية مساء السبت وفي جرّ بعض الإعلانات للبيوت. كأنّ ساندرا تقرأ أفكاري:

"هل تسمح لي أن أشتري لنا تذكرتيْ سفر للقاهرة؟"

"على مهلك! أنت متعجّلة جدًّا."

أقول لساندرا هذا الكلام وأنا أفكر كيف أدبّر بنفسي ثمن تذكرتين لنا معًا.

في يوم من الأيام ونحن في طريقنا إلى بيت النخيل أفاجئ ساندرا بسؤال جديد:

"يا ساندرا, أنتِ لم تحكي لي عن حياتكِ كثيرًا."

“ماذا تريد أن تعرف؟”

“لا أدري!”

تصمت حتى أظنّ أنّها لا تريد أن تتحدّث في هذا الموضوع. لكن ما إن ندخل إلي بيت النخيل وتربطنا حكيمة بخيوط انتقالاتها بيننا. حتى تبدأ في البحث عن الحِجُر الأكثر دفئًا وراحة. تستقرّ أخيرًا عند ساندرا التي تبدأ مباشرة دون سؤال إضافي منّي:

“ولِدتُ في منطقة كرمس التي تعرفها لأسرة ميسورة الحال. أبي كان عازفًا أساسيًّا للفيولين في ‘الفيلهارمونيكا’[1]. والدتي كانت عازفة ناي. تعارفا في باريس. وكانت رحلة أمي الأولى لباريس آنذاك. كان حلمها أن تصعد مرّة إلى كاتدرائية نوتردام. ذهب أبي معها في صباح اليوم التالي إلى هناك. عاشا وقتًا استثنائيًّا فَنسِيَا الوقت وموعد السفر وتأخّرا في العودة مع الفرقة إلى فيينّا. اضطّرا وقتها للمبيت ليلة لدى صديق لوالدي. ثم مدّا الوقت لليلتين إضافيتين. قضيا معًا في باريس أروع ثلاثة أيام في عمرهما.

تزوّجا في فيينّا بعد قصّة حبّ قويّة لم تستمرّ طويلاً؛ فقط خمس سنوات. والدتي تركتنا أنا وأخي وأبي. كان عمري سنتين. أحبّت ممثلاً وسافرت معه إلى أمريكا. رفض أبي أن تأخذنا أمي معها. بقيت أنا وأخي معه ومع جدتي لأبي. كان لنا نِعم الأب والأم. كنّا كل تِركته وحياته. كان متسامحًا لم يكره أمّي ولم يحفّزنا على كرهها ولم ينطق

1- أوركسترا شهير للموسيقى الكلاسيكية في النمسا.

أمامنا عليها لفظًا مؤذيًا أبدًا رغم ما حدث. وإن أتت لزيارة ڤيينّا في سفراتها القليلة، كان يسمح لها بالمجيء عندنا ويجعلنا نقضي معها الوقت الكافي. صارت هناك جفوة بيني وبين أمي لا يمكن ترميمها. لم أغفر لها إهمالي هكذا صغيرة وسفرها تاركة أبي في صدمة قاسية تحمّلها وتابع حياته وحيدًا ولم يتزوّج بعدها.

لقد تعرّفت يا حمزة بنفسك على أبي وترى كم يحبّك ويحترمك ولا يريد لي إلا كلّ ما أحبّ وترى كيف تحبّك جدتي مثلما تحبّني."

"لم أرَ أفضل من أبيكِ ولا جدّتكِ في هذه البلاد. وعلاقتي بأخيك رائعة، ولكن كيف حال أمك؟"

"نتراسل من وقت لآخر. زرتها مرة في 'نيوجرسي' حيث تعيش، بدت لي غير سعيدة في حياتها. اختارت عيشة عملية سريعة روتينية لكنها تخلو من روح الحياة. لم أشأ أن أسافر إلى هناك مرّة أخرى. زوجها الأمريكي رجل متأنّق يبالغ في رياضة الركض حتى يحتفظ بقوام رشيق. أشعر بعداء تجاهه، فهو السبب في نكبة أبي ولا يمكن أن أغفر له أو لها ما ارتكبا بحقّ أبي."

عند هذا الحدّ حاولت أن أغيّر الحديث إلى السؤال الهامّ الدفين الذي يسأله كل محبّ لحبيب؛ السؤال الغريب المعتاد، مقياس العلاقة والقبول ومفتاح الأحاديث المركونة للأيام التالية:

"ألم يكن هناك شخص ما في حياتك قبلي يا ساندرا؟"

"تقصد رجال؟"

ابتسمتُ صامتًا وأنا أهزّ كتفيّ بمعنى: أيّ أشخاص. ردّت ساندرا بصوت ضاحك:

"رجل واحد فقط يا حمزة! رجال ورجال!"

"صحيح؟"

"أنا أمزح معك يا حمزة!"

"كان في حياتي شخص واحد فقط قبلك يا حمزة. كنت صغيرة في الثامنة عشرة واعتقدت أنه سيكون كلّ حياتي. كنت وقتها أدرس الرسم والتصوير. حين تعارَفنا كان نبيهًا عاشقًا للموسيقى. أنهى دراسته في العلوم القانونية في وقت أسرع من المتوقّع. فجأة تغيّرت حياته بين يوم وليلة وبدأت آراؤه تتغيّر. صار له أعداء وهميون في المجتمع. فانهمك في شنّ حرب الكلام عليهم. ودخل إلى باب الكتابة في بعض الصحف التي تفتح ذراعيها لهذا النوع من حروب الكلام وجد توزيعًا مبالغًا فيه في البلاد. صارت قائمة كراهيته تتزايد يومًا بعد يوم ووجد له أنصارًا ومؤيدين. فوجّه إخلاصه وولاءه إلى الأنشطة السياسية التي تسعى لتصفية المجتمع من الشوائب. انضمّ لقائمة زبّالي السياسة الذين وضعوا على عاتقهم مهمّة كنس البلاد وتلميعها وحرق النفايات البشرية. حتى نظرته للمرأة صارت مقلِقة ومشوَّهة. أصبح من أشدّ المؤمنين بتدني جنس المرأة. رغم أن أمّه هي التي صرفت حياتها من أجله. فجأة اقتنع بآراء حزب سياسي لا أقبله. صار يقيس نجاحه بمدى نجاح هذا الحزب. وصل الآن إلى المركز الذي كان يحلم به ويريده واتسعت بالطبع

الفجوة بيننا، إلى أن وجد من تناسَبَتْ مع أفكاره وتقبّلت ما يؤمن به. وهؤلاء كثيرات يا حمزة لا تهمك مظاهر التحضّر الكاذبة والشكل اللمّاع. تركني واختار واحدة تؤمن بآرائه وأهدافه وتحقّق معه طموحاته. خيبة أملي كانت كبيرة. وعشت فترة بائسة كان أبي وجدتي بجواري يخفّفان عنّي دون أن يتدخلا كثيرًا. تركاني أمارس تجربتي بنفسي. احتجت لشهور طويلة حتى أخرج من هذه التجربة المؤلمة.

الآن عندي حبيب غالٍ متطرف فقط في حبه لي."

أضمّها إلى صدري وأقبّلها بقوّة، وأنا أتخيّل أنني لو أعيش الآن في مجتمعي الذي جئت منه، وتحكي لي الفتاة التي أحبّها مثل هذا الكلام، وأنني بعد ذلك أقبّلها هكذا بكل خواطري؛ لنعتني الجميع بالجنون، ولغادرني أصحابي وخلاّني وصرت مع من أحبّ مضغة للنميمة أو علكة ملوّثة في الأفواه.

تحكي لي ساندرا في هذا اليوم والأيام التالية حكايات كثيرة عن طفولتها وشبابها وحياتها وعن اهتماماتها. تعتبر معظم حكاياتها الأليفة عادية. كان يعجبني فيها هذا الهدوء وقبولها الحياة بما فيها وبما تعطيه. لا يغضبها شيء فيخرجها عن طورها.

لكم هي نبيلة وذكية! لديها من الصفات ما يجعلني أهيم بها؛ هذا الصفاء وهذه الصراحة يجعلاني أتشبث بها أكثر. أسألها مرّة:

"ألا يُغضبك شيء يا ساندرا؟ أراك على الدوام هادئة متوازنة في حياتك."

"طبعًا تغضبني أشياء كثيرة. لكني لن أغيّر الكون بغضب لا يفعل شيئًا. أفضّل أن أفكّر في حلّ لغضبي وليس أن أفكر في غضبي."

"ألم تغضبي أنت يومًا من أحد؟"

"طبعا غضبت من كثيرين. أنا لست ملاكًا. لقد غضبت من أمي فترة طويلة. الآن تغيّرتُ قليلاً. أحاول أن أغفر لها لكني أحتاج لوقت، ولا أريد أن أكذب على نفسي. هناك واحدة فقط لم أستطع أن أغفر لها ما فعلت."

"من هي؟"

"أتذكر أنني قلت لك مرّة إنّ الباليه كان كلّ حياتي في يوم ما؟"

"نعم."

"قدّم لي أبي في الأكاديمية وقبلوني. كنت أستعد لأخوض طريقًا طويلاً في هذا المجال. كنت صغيرة واعتبرني الجميع موهوبة. ثابرت بصبر كبير على تدريبات طويلة مرهِقة لسنوات طويلة. وفي يوم مشئوم كان عندنا أوّل عرض مبتكر لبحيرة البجع في أوبرا فيينّا؛ طالما حلمت به. كنت في منتهى السعادة بتحقيق حلم راودني سنوات. لبست ملابسي قبل العرض بساعة من أجل تدريبات الإحماء. لبست حذاء الباليه وقفزت في أول قفزة، لأصرخ صرخة كادت أن تمزق صدري. كان حذاء البالية ينشع دمًا من أصابع قدمي. من شدّة الألم لم أستطع حتى خلع الحذاء. كانت هناك شظايا زجاجية حادّة في حذائي. نقلوني للمستشفي وأُجريَت لي بعض العمليات بعد أن أصيب عصب في

قدمي فظللت ستة أشهر أتدرب فقط على المشي العادي لا الباليه. هل تتخيّل؟"

"ومن فعل هذا؟"

"دارت الشكوك حول كثيرات. وتحقيقات هنا وتحقيقات هناك. اكتشفوا الفاعلة. طُرِدَتْ من الفريق، لكن النتيجة أنني توقّفت نهائيًا عن لعب الباليه."

تحكي ساندرا وتحكي وتتوالى أسئلتي. تعتقد أن حكاياتي أهمّ من حكاياتها، لكني كنت أفرح دائمًا بأحاديثها وبطريقة حكايتها غير الدرامية لحياة درامية بالفعل.

يأتي عيد الميلاد. أقضيه مع أسرتها في كريمس. تجد ساندرا تحت شجرة عيد الميلاد هديّتها منّي: تذكرتي سفر محجوزتين للسفر إلى القاهرة في أول الربيع كما تمنّت وتمنيت.

نحدّد موعد السفر في نهاية شهر مارس. أتصل بالعم ركابي السعيد بانتظارنا أنا وساندرا، التي لا تتخيّل أنّها ستكون في مصر في غضون أسابيع قليلة.

في أحد الأيام وأنا في شقّتي، أشعر بألم شديد في جنبي الأيمن. أتحامل على نفسي وأعمل كوبًا من 'الحرجَل' معتقدًا بأنّها آلام في البطن، لكن الألم يزيد عليّ حتى لا أستطيع الحركة. أكاد أشعر بالموت

يقترب منّي وحكيمة تموء بجواري لا تدري ماذا يحدث. أصل إلى المطبخ بصعوبة. أتقيّأ هناك. ولحسن حظي تسمعني جارتي في الشقة المجاورة التي تصحو دائمًا مبكرةً جدًّا. تأتي مسرعة تخبط على الباب أفتح وأقول لها إنني أموت. وأرجوها أن تتصل بساندرا. أتذكر كم مرّة حاولتْ ساندرا أن يكون لديّ تليفوني الخاص لكني كنت دومًا أؤجّل هذا الموضوع. وقبل أن أنهي كلامي وأحاول إحضار رقم تليفونها. لا أشعر بشيء.

الزائدة الدودية يستأصلونها في المستشفى في اللحظة الأخيرة بعد انفجارها. تأتيني ساندرا عصرًا ملهوفة وتبقى إلى جواري. تحدث لي مضاعفات تسمّم. فأبقى تحت العناية المركزة ثلاثة أسابيع أخرى بين حُمّى وهذيان. تنتابني فيها أحلام كثيرة ملخبطة. أعتقد من جديد أنني في السودان. لولا هذا الحلم الذي يردني للواقع:

... إلى السرداب الطويل ينزل أمامنا الرجل الأحدب. ذو البالطو الجديد والقبعة القديمة. ونحن خلفه. يحمل في يده اليسرى بطارية ضوء ضخمة وخافتة ولا أرى يده اليمنى. أشمّ رائحة عطن قديم وأكاد لا أرى في العتمة. أسير في المؤخرة حاملاً بين ذراعيّ شنطة ثقيلة بيد مقطوعة ضاغطًا إياها إلى صدري. أضعها بين حين وآخر على الأرض كي أجفّف عرقي في كُمّي. ثم أهرع خلفهم وهم يسيرون في صمت جنائزي. أسمع بحّات وحشرجات كبار السنّ من السائرين وأصوات دقات كعوب أحذية نسائية. أخمّن من وقع الدقات أن عددًا لا بأس به من النساء يسرن معنا في السرداب. يتقدمنا الرجل الأحدب الذي

أرى شبحه من بعيد. ننـزل على درجات من الأسمنت عالية وضيّقة تسمح فقط بوضع كعب الحذاء عند الهبوط، أو نضطر إلى النـزول بأجنابنا ببطء وتكون مشكلتي أكبر في التـزول بهذه الشنطة. كنت قد جمعت في هذه اللهوَجة بعضًا من الكتب والقواميس منها: 'دودِن Duden' معجم اللغة الألمانية الضخم وموسوعة 'كندلَر Kindler' للأدب وكتاب 'تعلُّم اللغة الألمانية في سبع ساعات'. أجد أيضًا بينها- وأنا أفحص الكتب بعد أن تقع الشنطة منّي وتتناثر محتوياتها- كتابًا ضخمًا عن الطبخ لا أعرف لماذا حشرته معها، ربما اعتقدت، من ضخامته وطريقة تجليده وفي لهوجتي ولهفتي، أنه قاموس مهمّ فحشرته في الشنطة بين البلوفرات الصوفية والشالات والقفازات، فاكتظّت الشنطة وبظّت.

أكاد أبكي لضياع الرحلة القادمة. تطمئنني ساندرا بأنّه عليَّ أن أتعافى أولاً وسنسافر للقاهرة مائة مرّة. أطمئن لوجود حكيمة لديها وأشكر جارتي العجوز التي تأتي أيضًا لزيارتي، تلك الجارة التي كنت أحمل عنها دائمًا مشترياتها إن رأيتها في الطريق. أشكرها لأنها أنقذت حياتي في هذا الفجر المزعج.

يزورني أبو درش، يجعلني طوال الوقت أضحك حتى يكاد خيط الجراحة أن يتفتّق. يقول لي إنه طبع منشورًا بالعربية والألمانية يطالب فيه بإغلاق السفارات العربية كلها في النمسا. قال لي:

"يا حمزة إنها سفارات للخراب. لأنها لا تفعل شيئًا أكثر من صرف

أموال الدولة والغلابة، فيما لا طائل منه، لسفير وقنصل وسكرتير أول وثانٍ ومستشار تجاري ومستشار ثقافي لا يعرف ما هي الثقافة بل هو موظف لصرف مستحقات البعثات الدراسية وأيضًا مستشار عسكري، وفي النمسا! هل سنحارب في النمسا؟ كما أن هناك موظفين آخرين وسكرتارية ومكاتب ضخمة فخمة. المفترض أنهم هنا لخدمة جالياتهم لكنهم يعتقدون أنهم هنا لرئاسة جالياتهم. يعيشون أفضل عيشة بأموال الشعوب المسكينة وبمرتبات وحوافز وبدلات خرافية. معظمهم يعيش في قصور لا بيوت تؤجرها أو تمتلكها الدولة. ثم يتنصّلون من أبناء جلدتهم كأنّ بهم جَرَبًا. ومعظم مهامهم دعوات لطعام وشراب ومآدب واحتفالات لبعضهم ببعض حتى تدلّت كروشهم. نساؤهم معهم ملمّعات مذهّبات في اللقاءات والمآدب ولا عمل لخدمة هؤلاء الضائعين في أوروبا. فقط في الأعياد يعملون دعوة طعام أو مأدبة إفطار هنا ولقاء عيد هناك لبيان ورعهم وتقواهم. ويفرح بهذه اللقاءات بعض الأغبياء من الصواميل الذين يلمعون أنفسهم وزوجاتهم في أشكال بائسة ويهرعون إلى هناك ليقدموا فروض الطاعة والولاء. يفرحون فرحًا غامرًا لأن سيادة القنصل سلّم عليهم بيده، تصوَّر بيده! أو أن معالي السفير نظر إليهم أو ابتسم. إنهم أيضًا صامولة من صواميل ماكينة كوارثنا يا حمزة."

"لكن السفارات تقوم أحيانًا بأعمال قد تكون مفيدة."

"أيها الساذج شبه الصامولة! لا بد أنك مَا زلت تعاني من الحُمّى. إنهم

يسمون لقاءاتهم في كافتيريا الأمم المتحدة اجتماعات هامّة. ويتحادثون في التليفونات ببلادهم وبلاد الدنيا لساعات طويلة لأعمالهم الخاصة. وتظل السكرتيرات منتظرات خلو الأحاديث التليفونية لتقول لعبد صغير مثلك, إن السيد يمكنه الآن التفضُّل بالحديث معك لنصف دقيقة على الأكثر. إنهم يلتهمون حقوق مواطنتك الأصلية في هذه البلاد قبل أن يأكل بقيتها أصحاب هذه البلاد. يعيشون باسمك وبأسماء أمثالك هنا لكنهم يعملون لأنفسهم. لا يحلون مشكلة لأحد إلا إذا كانت تمسّ وجودهم. ومن يعمل لديهم من أبناء جلدتهم أو من أبناء وبنات الدول المسكينة؛ فهم يعملون عبيدًا بأبخس مرتبات. لا يدفعون لك إلا أدنى مرتب دون تأمين لا صحي ولا اجتماعي ولا معاش ولا غيره, وإن تبرّمت أو عجزت عن العمل فلك الشارع العريض, وإن كبرت في السن فلك الشارع أيضًا أيها الحصان العجوز!"

في هذا اليوم يظل يحكي لي عن نوادر السفراء والقناصل في ڤيينّا وعن حكايات وفضائح لا أدري مدى صحتها. يؤكّد لي أنه سوف يصدر كتابًا بهذا الصدد. أضحكني حتى أنساني همّي.

مازالت ساندرا تزورني بانتظام وأبو درش بلا انتظام. يبقى حتى تطرده الممرضات. يعابثهن ويضحك معهن ويخرج في كل مرّة بحكاية عجيبة يحكيها لي في المرّات التالية. وحين أتمنّى أن أرى حكيمة التي لا يُسمح بوجودها في المستشفى. تجازف ساندرا بإحضارها مُخفية إيّاها داخل البالطو. سعادتي تصل لمنتهاها في هذا اليوم الذي أرى فيه حكيمة

بعد غياب!

أتحسّن تدريجيًّا وأغادر المستشفى.

ولأنني لا أملِك تأمينًا صحيًّا من عملي في الجريدة ولا أيّ نوع من التأمينات، أضطر لدفع تكاليف المستشفى، وتضيع مدخرات السفر التي أرهقتني في الشهور الأخيرة، وتتكفّل ساندرا بدفع جزءٍ من تلك التكاليف الباهظة.

أتصل بالعم ركابي وأحكي له ما حدث. كنت أكذب عليه باستمرار بأن أحوالي المادية ماشية، فسؤاله دائم بألا أتردّد في طلب نقود وقت الاحتياجِ في هذه المدينة المُبالِغة في الغلاء. أسرد عليه حكاية الزائدة الدودية. يسألني جادًّا إن كنت أودّ أن يحضر إليّ في فيينّا. أكون ممتنًا لفكرته الأبوية، أرتاح نفسيًّا من وجود شخص بعيد يُشعرني بأنه كل أهلي، شخص يجزع لما يصيبني.

تمرّ الأيام وساندرا جواري يعجّل وجودها من شفائي، بينما تفصلني الجريدة للتأخير أسابيع دونِ عذر ويتراكم إيجار الشقّة لشهر إضافي ويشتدّ بردها. تقرّر ساندرا أن أنتقل للسكن معها نهائيًّا وأن أودّع شقّتي إلى الأبد.

بعد أيام قليلة- حين تعود لي قدرتي على المشي البطيء- نذهب ثلاثتنا إلى بيت النخيل في يوم مشمس بارد. أبادر ساندرا ونحن داخل بيت النخيل:

"أرجو أن تغفري لي إفساد رحلتنا لمصر بوعكتي هذه؟"

"لا تقل هذا الكلام. صحتك عندي أغلى من أيّ سفر!"

"يؤسفني أيضًا تعكير فرحة العم ركابي بعدم سفرنا."

"سوف نسافر يا حمزة. سوف نسافر. لا تقلق نفسك الآن."

"أخشى ألا أراه ثانية يا ساندرا!"

تقول ساندرا وقد شعرت بمدى حزني بعد تجربة المستشفى:

"كم أحبّ هذا الرجل الذي أرسلك إليّ! ولكم أتمنى أن أراه! لقد شوّقتني بحكايتك عنه يا حمزة!"

"نعم إنه إنسان رائع لا مثيل له. لكنّ هناك شخص آخر لم أحكِ لك عنه, هو أيضًا من أسباب تسهيل سفري إلى ڤيينّا إلى جانب العم ركابي."

"كيف؟ من؟"

"العم ركابي هو الروح التي أرسلتني إلى هنا. أمّا من دفع لي قيمة سفري لأعجّل بالسفر دون تردد فهو الرجل الذي كاد أن يكون أبي!"

"ما هذا الكلام العجيب."

"ليس عجيبًا. لعلك تذكرين ما حكيته لك منذ فترة عن الشيخ ركابي وجلساتنا الثنائية. ففي أواخر ذاك الخريف قبل ستّ سنوات تقريبًا, وفي إحدى الليالي دخل علينا في حوش النادي رجل في جلباب أبيض ناصع وعِمّة عالية أنيقة. كنت جالسًا مع الكبار أستمع إلى أحاديثهم وأشرب معهم الشاي. كان الضيف الداخل في الخمسينيات تقريبًا,

وقورًا طويل القامة رشيق الجسد دون كرش كأنّه رياضي. كانت له هيبة واحترام على الجالسين حين دخل عليهم، فقد وقفوا جميعًا لتحيّته على غير عادة كأنّه شخصية هامّة جدًّا أو غائب عنهم منذ زمن. كان اسمه الأستاذ هاشم. من حديثهم معه علمت أنه كان مغتربًا في إحدى دول البترول لسنوات. سألوه إن كان قد ودّع حياة العزوبية. نفى. عابثوه بالكلام والمزاح لكن الرجل فضّ الموضوع بوقار. التفت الرجل إليّ وحيّاني وقال إنّه لم يرني هنا من قبل."

"مرحبًا بك. أنت من عين شمس؟"

"لا."

"لكنك سوداني بالتأكيد!"

"نعم."

"من أين في السودان؟"

"أنا من قرية لا يعرفها أحد اسمها ودّ النّار!"

انتفض الرجل مندهشًا وهو يتكلم بصوت بدا أعلى من المعتاد في هذا الصمت:

"ودّ النّار؟ 'ودّ النُّوّار' كيف ما أعرفها؟!"

كان أوّل شخص يذكر هذا الاسم: 'ودّ النُّوّار'. اعتقدت أنه يمزح معي أو أن الأمر اختلط عليه؛ لأنه ذكر اسمًا مشابهًا لكنه تابع:

"أنا أصلاً من ودّ الغزال من قبائل البساتين، وودّ النّار على بعد ستين

كيلومترًا بالضبط إلى الشمال الغربي من قريتنا. لم يكن اسمها قديمًا ودّ النّار."

صَدَق الأستاذ هاشم أنا أعرف هذه القرية وسمعت عنها من أمي بضع مرات. قالت إن لنا بها أهلاً ولا أتذكر تلك الزيارات التي قالت لي أمي إنها تعدّدت وأنا طفل صغير، قبل أن يموت جدي بوقت طويل وتتزوّج خالتي وردة وتذهب إلى الشمال. بادرني الأستاذ هاشم:

"ما اسمك؟"

"حمزة يوسف ود نيلاوي."

"حمزة يوسف ود نيلاوي! ابن يوسف ود نيلاوي؟ أمك من عائلة الجيلاني؟"

ارتجفت رجفة لابد أن البعض لاحظها. صمتَ الأستاذ هاشم بينما ضحك البعض وقالوا:

"ها يا حمزة! أخيرًا طلع من يعرف قريتك!"

سرح الأستاذ هاشم وصمت. كنت أنظر إليه وينظر إليّ. قطعت الصمت بسؤال:

"متى زرت ودّ النّار آخر مرّة يا أستاذ هاشم؟"

"زرتها في منتصف الستينيات. لقد كنت زميلاً لخالك شرحبيل. لم ترَه بالتأكيد. هذا الشاب العظيم شرحبيل الجيلاني؟"

شعرت بأن صدري يثلج وتعودني الرجفة؛ فالقليل الذي بقي في

ذاكرتي من حكايات أمي يتطابق تمامًا مع كلام الأستاذ هاشم. قلت لنفسي:

"إن تاريخي المطوي يوجد الآن في رأس هذا الأستاذ هاشم. يجب ألا أدعه يفلت منّي. لابد أن يحكي لي عمّا يعرفه عن القرية وأهلها وأهلي إن كان يعرفهم."

سألني الأستاذ هاشم:

"كيف حال أهلك؟ وحال ودّ النَّار؟"

"ودّ النَّار انتهت لم يعد هناك ودّ النَّار. وأبي لا أعرف أين هو. وأمي وأختاي قد مُتن جميعًا."

انتفض الأستاذ هاشم من جلسته وقال اسم أمي ولقبها واضحًا:

"حبيبة بت نور الدين الجيلاني ماتت؟ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!"

صرنا كلنا في حالة من الدهشة. كيف يعرف هذا الرجل اسم أمي ولقبها. كرّر:

"لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! إنا لله وإنا إليه راجعون!"

ردّد الناس خلفه:

"إنا لله وإنا إليه راجعون!"

صمت طويلاً ثم قال:

"إني أعرف أهلك يا حمزة تمام المعرفة."

رفع الأستاذ هاشم يديه قارئًا الفاتحة معي بوجه مصدوم حزين غير الوجه الذي دخل به علينا منذ دقائق. شعرت بتلقي العزاء للمرّة الأولى. كانت المرّة الأولى التي يترحّم فيها كل هذا العدد على من مات من أهلي. كانت المرّة الأولى التي تأتيني فيها بعد سنوات صورة ودّ النّار واضحة في مخيلتي كأني أراها أمامي. شعرت بحزن وعزاء في عزوة هذا الجمع الصامت. أراحني هذا الإحساس العائلي النادر؛ الإحساس بأنني لست نكرة وأنه كان لي أهل ومكان حتى ولو غابوا؛ إحساس بأن لي تاريخًا مسطورًا كاد أن يضيع دون ذكر؛ أن هناك من يعرف بالفعل قريتي. بل هناك من يعرف أهلي: أبي وأمي، وأنني لم آتِ من عدم. وأن هذه الأفكار المجنونة التي تهاجمني بلا رحمة في الليل- بأنني مهووس من كوكب آخر وبأن كابوسًا وطئني- ليست صحيحة. ودّ النّار موجودة وأهلي كانوا يعيشون. لقد كدت أجنّ في أوقات ضعفي بأن كل ما أحكيه يكاد يكون وهمًا. فقد قلّ من صدّق حكايتي، ومع الوقت لم تعد بي رغبة لأن أسترسل حاكيًا عن ودّ النّار لا بخير ولا بِشرّ.

الصمت ساد المكان. الكل توقع أن يحكي الأستاذ هاشم عنّي وعن أهلي وعن ودّ النّار. لكنه غيّر الموضوع بلباقة عبر مجموعة مرتّبة من الأسئلة المعتادة التي تناسب مثل هذه اللقاءات. بينما عشرات الأسئلة تحوّم في رأسي والأستاذ هاشم يعاينني من وقت لآخر وأنا مثله. كأنّ كلاًّ منا يخشي أن يفلت أحدنا من الآخر. ظلوا هم أيضًا يسألونه تلك

الأسئلة المعتادة عن العمل وعن أسماء أشخاص كثيرين لا أعرفهم، فيطمئنهم عن هذا ويذكر لهم أنه رأى فلانًا في مدينة كذا منذ فترة، وأن هذا بخير وذاك حيّ يُرزق. ظلوا يتذكّرون الناس ويترحّمون على من مات ويستعيدون ذكريات أيام قديمة. ثم قرّروا عمل كرامة[1] في اليوم التالي في النادي لمناسبة وصول الأستاذ هاشم. قسّموا مهمة تجهيز طقوس الكرامة بسرعة عجيبة، والأستاذ هاشم ما زال ينظر إليّ وأنا أنظر إليه. سألني:

"أين تسكن يا حمزة؟"

"هنا في النادي."

في هذه الليلة كان كل منا يتابع الآخر مثل الطريدة. بعد أن غادر الجميع المكان في بطء وحرج، بعد أن أطال الأستاذ هاشم بقاءه والكلّ لا يريد أن يفارق الجلسة قبله احترامًا وتكريمًا له. قال لي:

"لماذا لا تأتي لنشرب الشاي اليوم معًا عندي؟ فأنا أريد أن أحكي معك عن ودّ النّار."

في ظرف دقائق كنت جاهزًا للخروج.

انصرفنا. سرنا إلى محل سكنه صامتين رغم مئات الأسئلة. أجّل الأستاذ هاشم حديثه وأسئلته. اشترى فاكهة في الطريق. لم أميّز بالتحديد ما اشتراه. قابل بعض الناس فحيّوه بحرارة ودعوه لزيارة

1- الكرامة هي ذبيحة أو وليمة تقام بغرض الحمد والشكر للإبراء من مرض أو على شرف شخص ما تكريما له وفرحة به.

ووليمة جديدة في اليوم التالي أو أيّ يوم آخر يحدّده. لكنه اعتذر في أدب ودعاهم بنفسه للكرامة التي ستقام من أجله في اليوم التالي في النادي. سلمت على بعض ممّن لا أعرفهم. فقدّمني لهم الأستاذ هاشم باعتزاز:

"هذا حمزة يوسف ود نيلاوي، من ودّ النّار من ناس البساتين!"

فوجئ الناس باسمي كاملاً ومكان حلّتي في السودان. رأيت تبجيلهم لي للمرّة الأولى في احترام وسلام مُبالَغ فيه. نظر الأستاذ هاشم لي بفخر وأنا أقف إلى جواره في جلابيتي مشدودًا مبتسمًا هادئًا.

دخلنا بيته وكان يسكن في منطقة اسمها الحلمية قريبة من عين شمس. جلست على الكنبة القريبة ففتح الأستاذ هاشم التليفزيون. بدأت نشرة أخبار اسمها 'أحداث أربع وعشرين ساعة' تحكي عن رؤساء ووفود ولقاءات واجتماعات وقطع علاقات وأخيرًا عن عودة علاقات بين السودان ومصر ثم أخبار رياضية. كنت أشاهد هذه الأخبار بملل. جاءت سهرة قديمة لأم كلثوم بالأبيض والأسود. كانت تغني أغنية مشهورة تقول فيها: 'هذه ليلتي وحلم حياتي.. بين ماضٍ من الزمان وآتِ'. وجدته يدندن معها ببطء فانتبهت للكلمات وحاولت أن أفسّرها لكني كنت قلقًا. أتابعه بعين ثم أعود إلى أم كلثوم الواقفة في فستانها الطويل ماسكة منديلاً كبيرًا بيدها. جهّز لنا الأستاذ هاشم شايًا لكنه لم يشرب معي. ذهب إلى دولاب قريب فتحه وأخرج زجاجة كونياك وأحضر

بعض الثلج، سألني إن كنت أحبّ أن أشرب شيئًا من الكونياك، كدت أقول نعم بسبب القلق الذي غطّاني، لكنّي لم أحبّ- في تلك الليلة بالذات- أن تتخدّر ولو للحظات خاطفة أي حاسّة من حواسي؛ فحديث الرجل الليلة حديث عن حياتي التي اعتقدت أنها ماتت واندفنت؛ حديث على ما يبدو سيكون مثيرًا طويلاً حبسه في نفسه لسنوات.

كان الأستاذ هاشم أشدّ منّي قلقًا. أراد أن يداري هذا القلق البعيد الذي حضر في شكلي وجسدي، وأراد في آنٍ أن يحكي. وأنا أردت أن أستمع. رغبت أن أكون في وعيي وفي كامل قواي العقلية والذهنية لأسجّل تاريخ أهلي الضائع المنسي؛ لأجمع شتات الكلمات التي تفرّقت في الأرض. في كل مرّة كنت أهمّ بالجلوس إلى أمي لتقصّ عليّ تاريخ العائلة، كنت أشفق عليها فأؤجّل الأسئلة المتأججة، لأن شبح أبي كان ماثلاً أمامنا في كل حديث. لم أشأ أن أنغّص عليها بالذكرى، لاسيّما وأنني كنت أشعر بغصّة في حلقها، حين تبدأ الحديث في هذا الموضوع وتغرورق عيناها بدموع سريعة، فأقوم إلى المقابر نهارًا إن كنا في النهار، أو أهيم في اتجاهها ليلاً إن كنّا في ليل عليه قمر. أشد خطاي حتى هناك؛ أصمت أو أدندن أو أغني.

بالتأكيد ما سيقوله الأستاذ هاشم اليوم لم أسمعه من قبل، كم تخيلت مرارًا أن ألتقي بأيّ قريب لي في أيّ مكان في الدنيا، يحكي لي ولو نتفًا يسيرة عن تاريخ عائلتي هذه! سمعت مقتطفات شحيحة عن العائلة وعن جدي وجدتي لأمي وسمعت القليل عن أبي، حكايات

مقتضبة متفرّقة متضاربة. ولم أرَ أحدًا من الجدات أو الأجداد أو الأقارب المذكورين. كنّا وحيدين بعيدين في ودّ النّار؛ الجيران هم الأقارب والأهل والأصدقاء.

بدأ الأستاذ هاشم كمعظم السودانيين بالحديث في السياسة عن غباء السياسات ولخبطة العلاقات بين السودان ومصر بعد تاريخ طويل مستقر. كان يبحث عن مدخل للموضوع. قطع مقدمته ولم يطل، قال:

"ودّ النّار كانت شبه واحة في الزمن القديم، وما كان اسمها ودّ النّار كان اسمها 'ودّ النُّوّار'؛ لأنها كانت أرض الجنائن والزهور. لم تكن أيّ بذرة تسقط في هذا المكان إلاّ وتتحوّل إلى شجرة أو شجيرة. هل تصدق يا حمزة أن هذه القرية كان يتجمّع فيها من المطر بحيرة كل نهاية خريف؟ كنّا نسميها البحر. وكانت 'ودّ النُّوّار' تنتج أفضل التمور من نوع 'القُنديَل' وهو من الأمكنة النادرة التي تنبُت فيها نخلة العرجون التي ربما سمعت بها. من لم يرَ هذا المكان قبل الجفاف لن يصدق كلامي هذا. مثلما لن يصدق أحد أنّ هذا المكان قد أصبح متصحّرًا خاويًا من الحياة الآن.

جدّك والد أمك نور الدين كان رجلاً زين الرجال من قبائل البساتين، وكان من المفترض أن يرث ميراثًا كبيرًا عن أبيه التاجر والعمدة الجيلاني، لكن جدك نور الدين أخطأ خطأ لا يُغتفر في عرف أبيه وفي عادات وتقاليد ذلك الزمان؛ ففي إحدى سفراته التجارية البعيدة عاد بزوجة

جميلة كان اسمها أنسام وكانت أنسام رائعة الحسن فائقة الجمال ذات حسب ونسب، لكن عيبها عند جدك الجيلاني أنها كانت من الشمال. وجدك الأكبر الجيلاني كانت له تجربة مؤذية مع بعض أهل الشمال وساءت علاقته بهم لأنهم تواطئوا مع الجلاّبة في بيع الرقيق، ولم يشأ أن يدخل في تجارة معهم واعتبرهم خوَنة. فما بالك بالمصاهرة! حَنِقَ جدُّكَ الأكبر الجيلاني على جدك نور الدين وحرَمَهُ من الميراث وأبعده عن المكان هو وزوجته أنسام. غادر وقتها ودّ البساتين وأقام في ودّ النُّوار آمِلاً أن يرجع والده عن هذا القرار الظالم. سافر جدُّك نور الدين بعدَها بطول الأرض وعرضها ناجحًا في عمله. أنجبت له أنسام: الطيّب وآسيا وحبيبة وشرحبيل، لكن الجدَّ الأكبر الجيلاني مات بغمِّه ولم يرضَ عن ابنه نور الدين الذي تزوّج أنسام جدتك الشمالية، ولم يرقّ قلبه أبدًا أمام حفيداته وأحفاده.

جدّك نور الدين كان الولد الوحيد للشيلاني من زوجته الأولى بعد ثلاث بنات. وكان لنور الدين أخٌ من أمٍّ أخرى، ولمّا مات جدّك الأكبر الجيلاني، استولى أخوه على معظم الميراث والباقي وُزِّعَ على البنات ولم يخرج جدك نور الدين بشيء من التركة. كانت مأساة كبيرة آلمتنا جميعًا.

أخو جدّك زوّج البنات آسيا وحبيبة زيجات سريعة بعد وفاة جدّك نور الدين. فقد اعتبر نفسه مسئولاً عنهن. هو الذي زوّج أصغرَهُنَّ أمَّك حبيبة الجيلاني لأبيك يوسف ود نيلاوي وبقيت معه في ودّ النُّوار."

قلت له:

"إنني أتذكّر كالحلم البعيد أن أمي حكت لي مرّة عن بلاد شنقيط- وهي بلاد موريتانيا الحالية- وعن سنوات العذاب وزواج أمها من أبيها. أتذكر أنها حكت أشياء لا تبدو مُرتّبة لي الآن في صورة واضحة. كانت معظم أحاديثها في هذا الموضوع شحيحة ومؤلمة لها. لذا لم ألحّ عليها أبدًا رغم عِظَم فضولي."

قال الأستاذ هاشم:

"إن جدك كان يتاجر في أحجار الملح والتمر والدهون في المنطقة ما بين بلاد شنقيط ومالي والسودان. وأيضًا في التوابل من أراضي اليمن وفي الأحجار الكريمة من أثيوبيا. ولمّا رأى جدك نور الدين هذه الحسناء الرائعة في رحلة من رحلات الشمال البعيدة وهي من عائلة من الشمال من منطقة تسمى دمياط. وكان اسمها أنسام. عَقَد عليها. أحبّها وأخذها معه ووافق أبوها الذي كان يعزّ جدّك للغاية ويعتبره من أحزم وأحسن التجار. دفع جدك نور الدين مهرها عددًا من النوق وحمولات من أواني الدهن وجوالات التمر وحملها معه في هودج جميل. يقولون إنه صار يغنّي لها طوال الطريق ليخفّف عنها وحشتها. ويضرب لها أوتاد الخيام في الطريق ويناديها أن تتفرج على جمال الطبيعة وعلى الحيوانات التي ترعى. كانت في الثامنة عشرة حينذاك بعد انقطاع العلاقة مع الجدّ الأكبر. بنى لها بيتًا واسعًا حوله بستان عظيم في وسط 'ودّ النُّوّار'.

كنتُ متعلّقًا بأمّك يا حمزة. كانت بيننا صلة قرابة بعيدة. وكنت قد

رتّبت للزواج منها. لكن جدّك لأمك مات مبكرًا وضاع العهد الذي بيننا، وتزوّجت أمك من أبيك يوسف وهو من عائلة كريمة لكنه كان النشاز الوحيد فيها. هربتُ وتركتُ الأهل جميعًا. لم أتحمّل البقاء. سافرت شابًّا إلى البلاد البعيدة ولم أرجع."

كان الأستاذ هاشم حريصًا- رغم مرارته- طوال حديثه عن أبي ألاّ يؤذي مشاعري. لم يشأ أن يصيبني في أحاسيسي أو يثقل على روحي. وبالرغم من غضبي وحنقي الظاهر والصريح الذي سمعه منّي تجاه أبي لم ينفعل أو يتفوّه بكلام جارح بشأنه.

ظلّ يحكي ويشرب. كان وجهه الهادئ قد تَغطّى بحزن شفيف وعرق خفيف. لمعت عيناه واحتقنتا. قام ليُحضر ثلجًا لشرابه ويجهّز لي شايًا من جديد. كنت أستمع إليه بكلّ جوارحي وأدّعي متابعتي للتليفزيون الذي تركه عمدًا ليغطي على شحنة التوتّر فكنّا نتبادل الهروب بأنظارنا إلى الشاشة دون أن نعي ما عليها. كانت أصواتنا تأتي من قمقم بعيد ترنّ. لم أعد أتذكر أي مشهد بعد أغنية أم كلثوم. جلسنا من قبل منتصف الليل بقليل حتى الخامسة فجرًا. استلقى الأستاذ هاشم مُنهكًا على هذه الكنبة وقد أنهى نصف الزجاجة. وكنت قد شربت كمية كبيرة من الشاي أرّقتني. أغلقت التليفزيون بعد صمت طويل منّا واستلقيت على الكنبة المقابلة. أخذت قبل أن أنام جرعة كبيرة من زجاجة الكونياك علها تُسعف وتعجّل بنومي؛ فرأسي تلك الليلة لم يتحمّل مزيدًا من الوعي. بقيت أنظر إلى السقف لحظات حتى أخذتني

أوّل غيبوبة الشراب. فدار السقف دورات سريعة في دوّامة ذكّرتني بيوم الاستجواب الذي كان في المعتقل من الضابط المجنون. لكني في تلك الليلة وتلك الشقة كنت أنظر إلى مروحة غير موجودة. كنت أستمع إلى شقشقة عصافير وأصوات من بعيد لديوك تُعلِن عن بدء فجر جديد وصوت مؤذّن من بعيد ينادي: 'الصلاةُ خيرٌ مِنَ النّوم! الصلاةُ خيرٌ مِنَ النّوم!' لكنني رحت في صلاة أخرى مع الماضي والذكريات التي كانت. نمتُ لم أدرِ كيف ومتى رحتُ في النعاس، وحين استيقظتُ كانت الساعة قد جاوزت العاشرة بقليل. لم يكن الأستاذ هاشم في الشقّة. صحوت يومها متأخرًا على صوت صليل جرس كنيسة قريبة. كان رأسي مكدّسًا بحكايات الليلة الماضية. في الوقت نفسه كان فارغًا حتى إنني سمعت صليل الجرس يرنّ في أذني لوقت أطول بعد أن توقف. كان ذهني مشوّشًا. فقد خرجت للتوّ من حلم غريب:

رجل ضخم يقف وعلى وجهه قناع يزيده رهبة. يخرج صوته المزعج وكلامه غير المفهوم في شكل أوامر فظة. أمامه طابور طويل من الناس مربوطي الأيدي خلف ظهورهم. الرجل يُلوّن وجوههم بأربعة ألوان: الأحمر والأزرق والأخضر والأسود. فينقسمون إلى عدة طوابير خلفه. هناك يقوم بعض الأقزام بدفع كل مجموعة من هذه المجموعات في حفرة من الحفر. الغريب أن الجميع يسيرون صامتين كأن لا ألسنة لهم. لا أعرف من أيّ مكان أتوا. أستغرب نفسي وحالي وملابسي وأخشى أن يحدث لي مكروه مثلهم. أركض لزمن طويل مبتعدًا حتى أجد نفسي منبطحًا على الأرض ألهث. أنبطح بالضبط أمام هذا الرجل

الضخم صاحب القناع والصوت الأجش الكريه، الذي يأخذ لونًا أبيض مثل الجير ويهمّ بتلوين وجهي. يضيع صوتي فجأة وكأني أسمع صوتًا أعرفه يأتي كالصَّدى من بعيد. أنظر فإذا بي أرى الرجل بجلباب أبيض وعمامة كبيرة يناديني: يا حمزة يا حمزة!

أصحو متأخّرًا على صوت صليل جرس كنيسة قريبة في الحي السابع. أستيقظ ناسيًا متى توقّفت عن حديثي الطويل مع ساندرا. أحاول أن ألملم شتات الساعات الأخيرة دون جدوى. ألمح من مكاني على السرير قصاصة من ساندرا على الطاولة البعيدة. أحاول الوقوف لكنّي أحسّ برأسي ثقيلاً فأنهدّ مكاني على طرف السرير مثل ملاكم ضُرِب من لحظة بلكمة قاضية.

{١٢}

في استلقائي على سريري تدور الأحداث في رأسي في فوضى متناهية. لا أستطيع وقف سيل الأحداث التي تأتي على هواها. حكيمة تبحث إلى جواري في الفراش عن زاوية مريحة لاستكمال نومها. تَتَابع على ذهني أمكنة وأشخاص. تمرّ سيارة إسعاف بسرينتها العالية ووميضها الأزرق يرفرف في سقف الغرفة. أحاول أن أركّز تفكيري للحظة في الفرق بين صوت سرينة سيارة الشرطة وسيارة الإسعاف. أتذكر على الفور موعدًا نسيته لاستلام الفانوس الذي ترِكته للتصليح عند التركي في الحيّ السادس عشر الموجود في سوق 'برونين ماركت'[1]. الفانوس الذي حملته معي من القاهرة مُطفأً في هذه الرحلة الطويلة. ظلّ ضمن مقتنياتي الغالية هو والأحجار الثلاثة وحجر الشيخ الشريف. كنت أودّ أن أهدي ساندرا هذا الفانوس في مناسبة سعيدة انتظرتها لكنّها تأجّلت بسبب حدث سخيف.

لا أدري كم مرّ من الوقت وأنا في سريري هكذا. ساندرا تذهب صباحًا كعادتها للعمل في مكتب الترجمة إلى جانب تحضيرها لأطروحتها في

1- اسم اكبر سوق في الحيّ السادس عشر ومعنى 'برونين ماركت' هو سوق البئر.

الجامعة. ألمح من مكاني على السرير قصاصة ساندرا الموجودة على الطاولة البعيدة. والتي أترنّح وأقع في مكاني حين أجاهد في الوصول إليها.

ينفتح الباب وتدخل ساندرا ببشاشتها المعهودة وضجيجها العذب. حكيمة هي أوّل من يهرع إليها عند سماع دوران المفتاح في الكالون، وربما قبل ذلك. أقوم ببطء نصف قيام من سريري فرحًا خاشيًا من حالة الدوار التي تصيبني منذ خروجي من المستشفى. تسألني عن حالي وتقبّلني ثم ترفع حكيمة وتقبّلها، فتموء مواء شكواها المعتادة أو تحيّتها الخاصة الممدودة. يختفيان معًا في المطبخ قليلاً، ثم تعود ساندرا لتحكي لي باختصار عن يومها.

بعد حمام دافئ أشعر بانتعاشة. نأكل معًا ثم نشرب شايًا بنعناع. تزداد انتعاشتي ويختفي الدوار تدريجيًا. أريها لوحة ڤاليري التي رسمها وأهداني إياها العم ركابي. تراها للمرّة الأولى. أسألها إن كانت تسمح بتعليقها في الحجرة، تسعدها الفكرة كثيرًا. أُخرج الأحجار الثلاثة من الشنطة القديمة وحجر الشيخ الشريف، أضعها بحرص في ركن الغرفة على مائدة بعيدة؛ كأنّي أخاف أن تضيع حياتي في لحظة دون أن أجد مكانًا يليق بهذه الأرواح التي حملتها معي. أقول لها إنني سأحكي لها بقية التفاصيل في الوقت المناسب. تتأمل صورة ڤاليري بفرحة كبيرة وتقول:

"كم هي جميلة ڤاليري! وكم أودّ رؤية هذا الفنان الذي رسمها!"

تشعر من صمتي وتحجّر كل ملامحي أنني صرت حزينًا فتفاجئني بسؤال:

"هل تعرف أبديل كادير ساليم وأبديل أزيز موباراك؟"[1]

ضحكت من نطقها اللذيذ للأسماء وقلت:

"من أين عرفتِ هذه الأسماء؟"

"اشتريت لك اليوم من محل 'زود ڤيند' اسطوانتين سي دي، بشرط!"

"شَرطكِ مُجاب."

"أن تحكي لي بقية الحكاية؛ حكاية سفرك."

تضع اسطوانة المبارك فأطرب للغاية. أصل لحالة نشوة من الأغنيات ولا أدع عينيّ تغيب عن وجهها وهي مستغربة من حالة الانسجام التي طرأت عليّ وأنا أغنّي معه بفرح بالغ. تسألني عن معنى الكلمات. أجاهد في ترجمة بطيئة رديئة، فتفهم قليلاً ثم تُفضّل الاستماع دون ترجمة. أرى في عينيها سعادة أمٍّ أحضرت لعبة أفرحت بها طفلها.

أحكي لها بعد سكوت الأسطوانة للمرّة الثانية:

"في القاهرة كنت قلقًا بشأن العمل في اصطبل الزهراء، فالشتاء على الأبواب ويكاد العمل يتوقف. استيقظت ذات يوم مبكرًا وأردت للمرّة الأولى أن أستعيد ذكريات الزمان القديم؛ أن أذهب إلى خان الخليلي لأمرّ على الحاج أبو فيصل تاجر الذهب والفضة. فمن وقت لآخر كنت

1- تقصد عبد القادر سالم وعبد العزيز المبارك، وهما من مشاهير مطربي السودان.

أستقلّ القطار نازلاً في محطة رمسيس أو باب الحديد- سمّوها الآن محطة حسني مبارك- أدخل في شارع الفجالة وأقطعه حتى نهايته. تسليتي المحبّبة في التطلع إلى هذا العالم المكتظّ في مسافة كيلو متر واحد تقريبًا.

خرجت من النادي عند الفجر. سرتُ فوق نَدى شفيف يريح النفس الحَيْرَى، مغمورًا برائحة الصباح الطرية النديانة التي تشعرني أنني في مكان آخر من الدنيا. سرت في حالة من السحر، ربما صوت أسمهان وموسيقاها قد سحراني سحرًا، وربما حكايات العم ركابي المثيرة قد ألهمتني حياة جديدة، وربما وقائع الأستاذ هاشم قد بعثت فيَّ روحًا جديدة.

كانت الديوك مهمومة في صيحاتها الأزلية في هذا الوقت، والكلاب تنبح من أمكنة غير مرئية ومن حيث لايرى بعضهم البعض ولأيّ صوت صادر. صوت الأذان كان يتردد من مآذن متفرّقة يتبعه شقشقة عصافير الشروق وقد بدأت نشاطها اليومي بالتغريد الجماعي. بعض القطط تعاركت على مخلّفات منثورة من أكياس بلاستيك ملقاة في الطريق، وبائع وحيد كان ينادي في هذا الوقت بصوته المميّز الممدود الهادئ للفول والبليلة، وبائعة تنادي لبيع اللبن والجبن القريش الفلاحي بلهجة شبه بدوية. كنت متجهًا من حارة ضيّقة طويلة إلى الشارع العريض المسفلت. ما إن وصلت إلى الشارع الرئيسي حتى بدأ الضوء يسطع، وبدأت أعداد قليلة من الناس والباعة تظهر وأصوات الطيور

والحيوانات تتداخل مع أصوات البشر، ثم تختفي أصوات الطيور والحيوانات تدريجيًّا لتتّضح التحيّات والسلامات وأدعية الصباحات والاستفتاحات والابتهالات والسعال والبصق والتنفس الحشرج عالي الصوت وهدير محرّكات العربات؛ خليط من الأصوات يندمج حتى تضيع كل التفاصيل الصغيرة ليصبح الصوت غير مميّز؛ صوتًا مكررًا للضجيج اليومي المعتاد. وأنا أسير بخطوات تمسح ما غطّاه الندى وتكتب مصير مسيرتي الأسيرة.

كنّا في أوائل شهر نوفمبر. البرودة في الصباح تدع آثارها على الأرض في طبقة رقيقة من البلل عليها بصمات لنقش طيور وحيوانات ومسح زواحف. كلها عاشت ساعاتها السريعة في عتمة الليل أو شفق الفجر لتكنس الأرض من بقايا الأرزاق المتاحة وتسجّل آثارها الأزلية الممحوّة على الدوام. تمسح ما نكتبه في نهارنا لنمسح نحن ما تكتبه هي في ليلها. كنت أشعر بقشعريرة جلدي في هذا الصباح. فملابسي خفيفة. ولم أكن أتوقّع قبل خروجي من مكمني الدافئ في هذا الوقت أن تكون قرسة البرد بهذه الشدّة.

أسرعت من خطوي وأنا لا أفكر في شيء. سرت حتى الزيتون. من هناك ركبت أول أوتوبيس يذهب إلى العتبة نـزلت في الموسكي. مررت بطيئًا عبر هذا السوق الطويل الذي كان حيًّا صاحيًا في هذا الوقت. اشتريت جريدة وجلست على أحد المقاهي أقرؤها. شربت زنجبيلاً ساخنًا. وطلبت طبق كشري بالدقّة والصلصة الحامية من البائع الواقف أمام

المقهى وأكلت. بعد ذلك اخترقت الطريق من هناك إلى ميدان الحسين. كنت أريد أن ألتقي بوجوه قديمة مررت عليها في زمن ولّى، لاسيّما على أبو فيصل في سوق الصاغة عند خان الخليلي.

دخلت من الساحة الواسعة المربعة أمام مسجد الحسين عبر حارة جانبية إلى زاوية ضيقة. أعجبتني بعض الأشكال والكلمات التي اعتقدت أنها عربية- على بيت عتيق ذي قبوات. جلست أتأمّله من على رصيف عالٍ عند المسجد. الحروف كانت عربية لكن الكلمات كانت غريبة وغير مفهومة مثل الطلاسم. كانت هناك امرأة مليحة جالسة تبيع البخور والمسابح والمساويك. كانت قد أشعلت بعض العيدان وتبحّ في الناس ببحّات ليس فيها من صوت مفهوم. كانت تستعمل يديها بإشارات ووجهها بإيماءات. سحبتني الرائحة الجذابة إليها، فسرت تجاهها بطيئًا، وبالقرب من رصيفها جلست دون أن أثير انتباهها. الرائحة ذكرتني بأيام بعيدة لم أستطع لمّ شتاتها. سرحت هذه الرائحة ودخلت إلى روحي حتى أغمضتُ عينيّ كالمُدمِن المأخوذ من الدنيا.

كان البعض يشتري منها المسابح ويفاصل معها وهي تشير وتساوم. فجأة لحظتني فرفعت إليّ يدها ببعض البخور ولم تصدر هذا البحّة منها، بل ابتسمت بمودّة؛ فاستسلمت لدفع كل ما كان معي من نقود. كنت مُحرجًا مأخوذًا وهي ترفع يدها نحوي بالبخور. كان معي ٧٥ قرشًا بالضبط، هي ثمن تذكرة العودة إلى عين شمس، وكان ثمن باكو البخور ٥٠ قرشًا. لمّا وضعتُ المبلغ في كفّها ورأت حيرتي أعطتني اثنين بـ ٧٥

قرشًا كرمًا منها وأشارت بيدها بأنّ كل شيء على ما يرام. ابتسمتُ في حيرة من هذا المأزق. وقلت في نفسي: سيكون لعودتي ألف حلاّل.

جلست مرّة أخرى عند رصيف المسجد العالي، أنظر لهذا العالم الحيّ من حولي لأهل البلد الذين لم تتغيّر ملامح وجوههم منذ آلاف السنين؛ لهذا الصبر الأزلي، ولهذه البسمة الشفيفة الساخرة التي على وجوههم، وأنظر إلى السياح الذين يتحرّكون هنا وهناك يسير بعضهم سريعًا كالسهم متجهّمًا صارمًا غاضبًا من الدنيا وما فيها، كأنّه يرى فيها ما لا نراه نحن، والبعض الآخر يسير متسكّعًا متعرّجًا هاشًّا باشًّا مُبتسمًا كأنّ الدنيا تضحك في وجوههم وتداعبهم. ظللت أتنقّل بعيوني بين هذا الخليط العجيب من البشر وبين وقت وآخر أنظر خلسة لهذه المرأة المليحة. لم أدرِ لِمَ شعرتُ بأنّ فيها قبسًا من أمي. هل هي بسمتها. أم تلك الرائحة. أم لونها بشرتها. أم حركة يدها بهذه الغوايش الرنّانة. أم ماذا. إنها لا تنطق، لكنّ في روحها شيئًا أعمق من الوصف. ظللت أنظر وأتأمّل ولا أتحرك من هناك زمنًا طويلاً. بدأت المرأة قبل صلاة الجمعة تعيد ترتيب بخورها وأشيائها المعلقة على سور الجامع القريب. جاءت صبيّة صغيرة نظيفة أنيقة في التاسعة أو العاشرة تقريبًا تشبهها تمامًا، وقفت تساعدها بنشاط. كانت الصبية تحادثها أيضًا بالإشارات والإيماءات نفسها. استنتجت لنفسي أن الطفلة أيضًا بكماء.

أشارت لي المرأة بما يعني أنْ أنتظر. اختفت دون أن أعرف أين ذابت هكذا

بهذه السرعة. بقيتُ أراقب ابنتها ذات الضفائر الجميلة التي ذكّرتني بضفائر كريمة. بدا لي الأمر عبثيًّا كأن المرأة البكماء قد تحوّلت في لحظات إلى طفلة بضفائر.

بقيت أتطلع لهذه الكتابات ذات الخط الرشيق التي اكتشفت أنها فارسية. قرأت قليلها بصعوبة، بينما تلك الصغيرة تبيع وترتّب وتعلّق المسابح على السور الحديدي بهمّة وبراعة، وتجذب بصوتها الجميل المارّين والداخلين إلى المسجد من الباب القريب منها. إذًا هي تتكلم.

انشقّت الأرض لتظهر المرأة وتشير من بعيد لي. اقتربتُ منّي ونظرت في عينيّ وكلّمتني بلهجتها هذه غير المفهومة. فتحَتْ كيسًا من الخيش القديم وأخرجت منه فانوسًا قديمًا مُغبَرًّا لكنه في حالة جيدة؛ فانوسًا عتيقًا مثير المنظر. كأنّ وراءه حكاية سحرية. قلت في نفسي لعله مصباح علاء الدين. أردت أن أشرح لها أنّه ليس معي نقود لكنها أشارت بما معناه أنّه هدية لي. لفّته في جريدة ووضعته في شنطة بلاستيك مقطوعة اليدين وقدّمته لي. استغربتُ من هذا التصرف. شكرتها وبينما أنا أنظر إليه هكذا وأمسحه لأتأمّل ألوانه الخلاّبة العتيقة، اختفت كأنّها جنّية. هزمتني كل الأسئلة التي تبدأ بـ 'لماذا'.

وقفت. في يدٍ فانوس وفي يدي الأخرى المعروقة بخور فاحت رائحته ولا مليم واحد في جيبي.

عند قهوة الفيشاوي شممت رائحة خليط شاي بنعناع وقهوة محوّجة ودخان شيشة وأصوات تقليب أكواب وأصوات طلب مشروبات

وأصوات باعة وأوامر ورجاءات وتوسلات. من داخل سوق خان الخليلي ارتفعت أصوات تدليل البضائع والمناداة بكل اللغات وضحك وقهقهات. مرّة أخرى استعَدتُ الأيام القديمة. بدت لي في ذلك اليوم أكثر ازدحامًا وكثافة. تذكّرني البعض، نادوا عليّ وسألوني عن أحوالي وأحوال أصدقائي القدامى ودعَوْني لشرب شاي أو قهوة. تكرّر الطقس مرّات فشربت في حوالي ساعتين أكثر من تسعة مشروبات مختلفة ما بين شاي وقهوة وزنجبيل وكولا وفانتا وسحلب ونعناع وحلبة. كنت سعيدًا بهذه الحفاوة. استعدت أيام بورسعيد. ذهبت إلى محل أبو فيصل، لكنني لم أجده.

تحرّكتُ عائدًا إلى محطة رمسيس. ضحكت من مأزق الفانوس لكنني صمّمت في هذا اليوم أن أحجّ إلى عين شمس من هذا المكان مهما كلّفني ذلك من وقت وجهد. سرت عائدًا من خان الخليلي إلى العتبة عبر الفجالة حتى وصلت إلى باب الحديد. نظرت إلى الساعة كانت الثانية بعد الظهر، وكانت بعض السحابات تحبو أمام الشمس الناعمة هنا وهناك. قرّرت أن أسير بحذاء القطار حتى عين شمس؛ وهذا ما فعلت. سرت من رمسيس إلى غمرة إلى الدمرداش إلى منشية الصدر إلى كوبري القبة إلى حمامات القبة إلى الزيتون إلى الحلمية ثم المطرية وأخيرًا وصلت إلى عين شمس.

في العاشرة والنصف مساء كنت في عين شمس ميتًا من الجوع. لما وصلت إلى النادي كنت في شبه إعياء. سألني العم ركابي أين كنت طوال اليوم. حكيت له حكايتي فقال:

"أنت بالله مجنون كبير!"

ضحكت ودخلت إلى دورة المياه واغتسلت سريعًا ولبست جلابية مريحة وأحضرت خبزًا وحلاوة طحينية في طبق وخرجت. دعوته للأكل معي، شكرني لأنه تعشّى مبكرًا. كان الراديو مشوّشًا وهو يبحث عن محطته الأثيرة ليستمع إلى نشرة الأخبار من الـ"بي بي سي BBC". كان الخبز الجاف لذيذًا والحلاوة الطحينية ألذّ، أكلت بلهفة وشهيّة، ثم عملت شايًا بالنعناع كالعادة، فتذكرت رائحة شاي الفيشاوي. كانت رجلاي مخدّرتين ثقيلتين، لكنّي كنتُ أشعر بدغدغة خفيفة في كلّ جسدي جعلت نومي في تلك الليلة عاجلاً وعميقًا.

انقطع العمل في اصطبل الخيل، على أن أعاود العمل في أوائل فصل الربيع، وكانت تلك فترة طويلة. لم يكن لي عمل آخر في عين شمس وازداد مقت الشباب لي، بسبب توجّساتهم بشأني مع الفتيات. زادت جلساتي مع الكبار، لكن أحاديثهم تكرّرت كثيرًا حتى نكاتهم ومزاحهم صار يتكرّر، أصبح البعض منهم يحكي كل يوم الحكاية نفسها. وصلت إلى درجة قصوى من الملل، قلت في نفسي: ألا توجد حكايات جديدة عند هؤلاء الناس، أمن المعقول أن يكون هذا العم ركابي الذي أمامي هو الوحيد صاحب أكبر وأعمق الحكايات وهم لا يعلمون. ومن المؤكّد أنه ما زال في سريرته عشرات الحكايات التي لم يحكها بعد. رجل مجرّب حكيم هادئ يسخر من الدنيا دون مبالغة. أحببت هذا الرجل وصعُب عليَّ تحديد مكانته لديّ. هل أعتبره كأب أم كصديق. تعامله العفوي

معي يجعله صديقًا حميمًا واهتمامه بي يجعله أبًا حنونًا.

في أحد الأيام أنفضّ الجميع كالعادة ما عدا العم ركابي. وبعد أن انتهت نشرة الأخبار, بادرني دون تمهيد:

"هل تحب القراءة يا حمزة؟"

"نعم, لكن ما وجدته هنا في مكتبة النادي قليل وقد قرأت معظمه. إنها مكتبة فقيرة جافّة معظم ما فيها كتب سياسية عقيمة في مدح للعائش وذمّ للميت, أو عن أحداث سياسية متناقضة أو عن شئون عسكرية ومشروعات وهميّة عملاقة في السودان. لم أقرأ موضوعًا يعرّفني تاريخ السودان بحقّ أو يسرد لي عن حياة هؤلاء الناس العاديين من هذا الشعب الصابر؛ كيف عاشوا؟ أو كيف يعيشون؟ هذه الكتب تحكي عن القائد العظيم الجليل المؤمن الكبير, كأن لا يوجد أحد غيره, إلى أن يأتي قائد جديد فيتكرّر الماضي: يُمدَح الجديد ويُذَمّ القديم, وكل الكتب الموجودة في المكتبة عن السودان فقط. ألا توجد كتب عن هذا البلد الذي يعيشون فيه. ألا يوجد كتاب واحد عن مصر. اشتريت حوالي سبعة كتب في هذه الفترة, ولكن ضيق الحال جعلني أتنازل عن هذا الترف."

سحب العم ركابي كيسًا من البلاستيك من جانبه وأخرج أربعة كتب كبيرة الحجم متماثلة, وضعها أمامي وقال:

"هل تعرف هذا الكتاب؟"

"قرأت: ألف ليلة وليلة: الجزء ١,٢,٣,٤."

"نعم! طبعًا. لكني قرأت قصة أو قصتين متناثرتين وكنت أعتقد أنه كتاب واحد لا أربعة. سألت مرّة في مكتبة في الحسين فنظر البائع لي بغيظ ونهرني بيده أن ابتعد صائحًا:

"نحن لا نبيع مثل هذه الكتب الإباحية!"

ضحك العم ركابي:

"لا أحد يدرك أنه من أهمّ الكتب في فنّ الحكاية الحديثة. في الغرب يقدّرون هذا الكتاب أكثر منّا. يتهكّمون هنا على اهتمام وانبهار الغرب بتراثنا وآثارنا. كثير من التراث المكتوب في فنّ الحكاية ممنوع باسم الأخلاق البعيدة عن الدين. أمّا الآثار المتروكة من الأقدمين فهي مجرّد أصنام ضدّ الدين. ماذا يبقى لنا إذًا؟ إن كانوا يمنعون كتاب أدب بحجّة أنه مخلّ بالأدب. ويخرّبون الآثار ولو قدروا على محوها لفعلوا. الآن الدين من فوقك ومن أمامك ومن خلفك. إلى تحتك فقط يمكنك أن تتجه؛ إلى الاختفاء في الأرض. يعني أن تموت."

"معقول هذا الكلام؟"

"معقول وألف معقول! لقد اكتشف حَمُقَى زماننا الجهلة ممّن لا يقرءون أن بهذا الكتاب قصصًا تخدش الحياء. قرءوا مقتطفات منثورة لا رابط بينها، وعليها فقد قاموا بتنظيفه وتطهيره وأخرجوا طبعة محسّنة معدّلة مؤدّبة لا تتجاوز جزءًا من الأجزاء الأربعة. ثم نشروها في الأسواق حتى يمنعوا الأدب قليل الأدب. هذا الكتاب الذي طُبِع من حوالي ثلاثمائة سنة. ليس هذا فقط بل هناك مئات الكتب الممنوعة من

النشر أو من التداول أصلاً. وعشرات الكتب التي تمّ تعديلها وتنظيفها من الانحلال!"

"هذا يعني أن هذه المجموعة التي أمامي مجموعة نادرة."

"بل هي ممنوعة نادرة. نعم خذها واقرأها على مهلك."

"شكرًا لك يا عم ركابي. لقد فاجأتني!"

"وبالمناسبة، شريط أسمهان هذا أيضًا لك. سوف تحتاجه في درب حياتك الطويل."

ابتسم الرجل كأنّه يفهم حكمة عنده أو يقرأ شيئًا في نفسي لم أدركه بعد. ضغطت على الشريط في جيب صدري عند القلب تمامًا، فشعرت بفرحة طرية رغم صلابة الشريط. فتحت الكتب في العتمة والضوء البعيد. رفعت الكتاب في اتجاه الضوء فلم أستطع إلا تمييز الكلمات الكبيرة: ألف ليلة وليلة، الجزء الرابع. رتبت الأجزاء الأربعة في هذا الضوء الخافت. شممت بها رائحة عنبر. كل شيء من هذا الرجل له رائحة العنبر. أعدت الأجزاء إلى الكيس بينما كان العم ركابي يتأهّب للخروج وأنا متأهب للدخول والشروع في قراءة هذا المتن المثير: كتاب الأدب قليل الأدب والحياء. وافترقنا حتى اليوم التالي.

تسألني ساندرا بتعجب واستغراب:

"لماذا يا حمزة يُمنع هذا الكتاب؟ إنه كتاب ممتع قرأته في المرحلة الثانوية ضمن كتب كثيرة."

"لا أدري يا ساندرا. يبدو أن القراءة عمل شاق لا يقدر عليه سوى أصحاب النيّة القوية. الناس عندنا يسمعون وينقلون ما يسمعون. ومن يسمّون أنفسهم حُماة الأخلاق والدين يوعزون للآخرين أن بعض ما يكتب حرام فيقرِّرون لهم ما يُقرأ وما يُنشر وما يُباع. يعتبرون هذا الكتاب إباحيًّا وذاك فوضويًّا وهذا بعيدًا عن الدين وهذا ضد الأخلاق. ليس هذا فقط بل لا يتورعون عن قتل الكُتّاب والفنانين وملاحقة كل من يخرج عن حارتهم."

"لا أفهم."

"وهل يفهم أحد يا ساندرا!"

"احكِ لي، ماذا حدث بعد ذلك؟"

"نعم، ما حدث بعد ذلك أن البرد دخل، وفي ليلة من هذا الشهر القارس قلت فجأة للعم ركابي: لقد قررت السفر!"

"إلى أين؟"

"إلى ڤيينّا."

"هل أسمهان هي السبب؟"

"ليست وحدها."

ابتسم ربما ليختبرني ويختبر صمودي ومدى ترابط كلامي:

"لكنك جرّبت السفر إلى أوروبا من قبل ولم ترتح فيه."

"سأجرّب من جديد. لا يمكنني أن أبقى هنا هكذا منبوذًا، بلا عمل، بلا يوم ولا غد."

"وهل تعرف أحدًا في ڤيينّا؟"

"ألم تقل أسمهان إنّ ڤيينّا روضة من الجنة؛ وهذا الصوت لا يمكن أن يكذب!"

قلت ذلك وأنا أضحك. فضحك العم ركابي طويلاً:

"عندك حقّ هذا صوت لا يكذب!"

فأكملت:

"أظنّ أنني أخذت نصيبي من النار في ودّ النّار يا عم ركابي؛ ونصيبي من العذاب في أشتات الدنيا؛ فلأذهب إلى الجنّة ولا أعتقد أن ملائكة ڤيينّا سوف تمانع في منحي تأشيرة دخول إلى هذه الجنة."

ضحك العم ركابي ضحكته المميّزة الطويلة التي يظهر فيها صفّا أسنانه البيضاء كاملين. ثم قال:

"وهل فكرت ماذا ستفعل هناك؟"

"سأقول للملائكة عند الاستجواب إنني أتيت مباشرة من النّار في مهمة وإن الشيطان أرسلني جاسوسًا لأقول إن هناك حتمًا وقطعًا فرقًا بين الجنّة والنّار. ربما يصدّقونني وسأكتب تقريرًا للشيطان عن الجنّة حتى يأتي هو الآخر ليرى بنفسه كيف تسير الأحوال."

سرح العم ركابي قليلاً حتى توقّعت أنه يريد أن ينام. كان الراديو

مفتوحًا على تحليل لنشرة الأخبار. أغلق الراديو وقال لي:

"ڤيينّا جميلة يا حمزة لكنها جنّة ونار. نصيبك سيصيبك؛ فلك فيها من الجنّة نصيب ومن النار نصيبان. نصيبك من الجنة أنّك ستصل إلى منأى عن هذا السأم والهوان. وأوّل النار أنك ستكون هناك بلا لغة تحمي تاريخك الطويل، وثاني النار أنك ستضع قدمك في أول الدنيا من جديد برأس قديم وهذه منتهى قسوة الحياة، لكني قد عهدتك صبورًا مثابرًا. لكن بقدر ما ستكون غريبًا وسط أغراب ستصير حميمًا وسط أحِمّاء. أرجو ألا تنهار من نار هذه المدينة. إنها مدينة النّار بحقّ يا حمزة. لسعة بردها نار ولسان كراهيتها نار وقلب محبتها نار وأهلها من نار. أنت تعرف أن الملائكة مخلوقون من نور، لكن إبليس مخلوق من نار فأبى أن يسجد لآدم لأنه من طين!"

وكانت أوّل النّار في السفارة النمساوية. تفنّنت القنصلية في تعذيبي وفي اختلاق المشكلات والصعوبات، باشتراطها وجود تذكرة سفر صادرة باسمي مؤرّخة بالذهاب والإياب. كما اشترطت وجود شيكات سياحية باسمي بالدولار، كافية عن فترة وجودي في النمسا وتأمين صحي وتوافر حساب بنكي خاص بي في أحد بنوك مصر. سألوني أن أثبت أن لي أملاكًا في السودان أو في مصر. وأضافوا معوّقات أخرى عجيبة عن عملي وتصريح عملي. ثلاثة أسابيع وأنا أحجّ للسفارة على الأقلّ ثلاث مرّات في الأسبوع، وفي كلّ مرّة تظهر معضلة جديدة. جاء العم ركابي معي أغلب المرّات الأخيرة. شعر بالمرارة أن لا أحد تعرّف عليه بل عاملوه

بجلافة لا تناسب سنّه ودماثة خلقه.

سهّل لي الأستاذ هاشم مسألة الشيكات السياحية وحساب البنك، ونجح العم ركابي بعد لأي في أن يحصل لي على فيزا سياحية لمدّة أربعة أسابيع.

جهّزت نفسي للسفر في ظرف يومين؛ فالتأشيرة كانت قد سرى مفعولها قبل الحصول عليها بأسبوع. ودّعت آدم وعائلته. الوحيد من الشباب الذي كان يزورني من حين لآخر والذي كرّرت له الزيارة مرّات لألعب بكل شغف مع ابنه وابنته. ودّعت الكابتن شرف في النادي، وعم دياب الفشار الذي قدّم لي نصائحه وعظاته بأن أرفع رأسه في البلاد البعيدة، وألا أكون خائبًا مع الجنس الألطف في العالم. لم تكن أمامي فرصة لزيارة أخيرة لوسط البلد للتمتّع برحلة أخيرة قبل السفر، فقد هلكت ذهابًا إلى السفارة وإيابًا لتخليص إجراءات السفر حتى كدت أكره كل الطرق.

ودّعت الأستاذ هاشم وشكرته كثيرًا على معاونته. أقسم الأستاذ هاشم ألا أردّ له أيًّا من الشيكات التي ساعدتني في الحصول على الفيزا. أصررتُ وأصَرَّ بكلّ حزم وبطيب خاطر. أقنعني بأنها خرجت من ذمّته لي وأن هذا أقلّ واجب تجاهي.

جهّزت شنطة السفر التي أهداني إيّاها الأستاذ هاشم. قدَّم لي العم ركابي شنطة يد أخرى وأعطاني ألف دولار وأقسم هو الآخر ألا أنطق بكلمة، قال:

"لقد عدت أرسم من جديد يا حمزة. منذ وجودك هنا. أنا سعيد الآن ولا أحتاج إلى نقود كثيرة كما ترى."

ثم فاجأني بأن أعطاني مجموعة ألف ليلة وليلة بأجزائها الأربعة هدية, قال لي:

"حافِظْ عليها, فمصيرها هنا الإهمال ثم الحرق لمن يعثر عليها. خذ الليالي إلى ليالي الأنس؛ خذها معك إلى الجنّة."

حمّلني العم ركابي أمانة زيارة قبر ڤاليري. قال لي إنه يوجد في مكان ليس بعيدًا عن ڤيينّا اسمه 'مركز المقابر' ثم أعطاني رقم القبر وقال لي:

"قل لها إلياس يسلّم عليك ويبلغك محبّته الأبديّة من داخل البلاد التعيسة."

أعطاني لوحة جميلة لڤاليري في حجم صغير وقال:

"كلما ذهبت إلى المقابر خذ هذه اللوحة معك, دع روحها تحوّم حولها ثم احتفظ بها في بيتك لتكون صورتها في ڤيينّا."

كان العم ركابي قد جهّز لي ثلاثة عناوين في ڤيينّا قال لي إنه يثق فيهم كامل الثقة وإنّهم من الممكن أن يقوموا بمساعدتي, الأوّل رسام ونحات نمساوي تعرّف عليه في الزمن القديم, والثانية مصوّرة نمساوية كانت صديقة لڤاليري, أمّا الشخص الثالث وهو المهمّ فهي ابنة ڤاليري بالتبنّي: كلارا.

كتب لي العم ركابي في ورقة بخطّ واضح بعض الأمكنة التي يجب أن أزورها نيابةً عنه، وكتب أسماء بعض اللوحات التي يجب أن أراها هناك. ذكر لي منها لوحة آدم وإيڤا أو آدم وحواء ولوحة القُبلة لـ 'جوستاف كليمُت' ولوحات 'إيجون شيلي' الذي يقدّره كثيرًا ولوحات 'رِمْبُرانت' الحزينة ولوحات 'بْرويـجِل'. أسماء لم أكن أدري بها. ذكر لي أسماء الأماكن في قصر 'البِلْفيدير' وفي متحف تاريخ الفنّ. لم يكن يحكي لي فقط عن أعمال الفنّانين بل عن حياتهم والفترة التي عاشوا فيها والمدارس التي انتموا إليها وأشياء أخرى في غاية الإثارة. وعَدتُه بزيارتها.

قال لي العم ركابي وهو يودّعني في الليلة الأخيرة:

"بالله يا حمزة ما تنسى الرسائل! وأمانة عليك ما تنسي روعة ليالي أسمهان! وليالي البي بي سي. سأفتقدك كثيرًا وأفتقد جلستك الحميمة. أتمنّى لك راحة البال."

ثم خلع ساعة يده وقدمّها لي قائلا:

"هذه هدية بسيطة، لا ترفضها. ستحتاج إلى الوقت في بلاد الوقت، وستعرف معنى الوقت هناك. الساعة هنا مجرّد زينة يا حمزة! الوقت عندنا فائض ينبغي تصديره. خذها حتى تَشعُر الساعةُ بقيمتها."

"ثم حان زمن الخروج بعد زوال المصاعب، يا ساندرا! حملت في حقيبة اليد الأولى أحجار ودّ النّار الثلاثة الممزوجة برائحة التراب والرمال وما تبقّى من ودّ النّار وحجر الشيخ الشريف مع وعدي بإعادته لأرضه، ولوحة ڤاليري ومجموعة ألف ليلة وليلة برائحة العنبر وشريط

أسمهان برائحة ذكرى ما تبقّى من عين شمس، وكتبي السبعة التي كنت قد اشتريتها. حشَرتُ في شنطة السفر بعض ملابسي القديمة التي غسلتها على عجل وجفّفتها ولم يكن هناك وقت لكيّها. في الحقيبة الأخرى الصغرى التي استخدمتها كحقيبة يدٍ كدَّستُ بعض الأشياء الأخرى الصغيرة التافهة في قيمتها العظيمة في ذكراها. وضعت معها فانوس امرأة الحسين بعد أن لففته في كرتونة لحمايته. كنت أحشر كل هذه الأشياء على عجل كأنّي لن أعود مطلقًا؛ كأنّها تعويض عن أشخاص لن يسافروا معي أبدًا.

أحضَر لي العم ركابي بالطو شتويًّا سميكًا، قال لي إنّه من فيينّا وإنه لديه واحد آخر وإن هذا البالطو بالذات له حكاية طويلة، وبالتأكيد سيفرح بعودته إلى بلاده بعد طول غياب واغتراب. وأهداني الأستاذ هاشم قميصين جديدين وجاكت بذلة أنيقًا قال لي إنه ضاق عليه. أخذت منهما هذه الهدايا ممتنًا. كان آدم قد جهّز لي بعض البرطمانات التي تحتوي على مأكولات سودانية وأخرى مصرية وأهداني زجاجة عطر.

أتى الثلاثة بسيارة 'بيجو ستيشَن' لوداعي وتوصيلي إلى مطار القاهرة، العم ركابي وآدم والأستاذ هاشم.

في المطار ودّعت الجميع، والكلّ يُفرِج عن كلماته الأخيرة المختلطة بعناق ودعوات ومزاح، بينما عيوننا تفصح عن مشاعر أخرى. تنازلت من جديد عن عائلتي الجديدة وربما الأخيرة في هذه البلاد. لأرحل من جديد إلى دنيا الله الواسعة. إلى جنة الله.

أنهيت الإجـراءات فـي المطار، وحان زمن الخـروج بعد زوال المصاعب التافهة. وزمن جَرّ أحمال الخروج من الأمكنة البعيدة. زمن الوداع والنظر إلى الخلف مرّات لحساب مسافة الأسى، والنظر للأمام لرؤية أفق أمل. الانفصال الذي سيأخذني إلى أبعد من السماء أكثر ممّا تحت هذه السماء؛ هذه الطائرة الربّانيّة المقدسة التي كنت أراها من قريتنا تلوح بعيدًا والتي كنت أتمنّى أن تنـزل أو تقترب؛ وأن أسافر فيها يومًا ما لتأخذني بعيدًا. ها هي الآن في انتظاري هنا في القاهرة، ها هو حلمي المكتوم المكتوب يتحقّق. كم هي كآبة وغمّ أن يتحقّق حلم الغرير بكل هذه البساطة القاسية!

دخلت الطائرة وجلست. لم يتّسع رفّ الطائرة للبالطو السميك والحقيبة يدي المحشور فيها الفانوس معًا. وضعت الحقيبة على حجْري. بقيَتْ عيناي خارج الطائرة معظم الوقت، أنظر إلى الخارج نحو هذا الفراغ الرهيب، بينما الطائرة توشّ بمحركاتها. كنتُ كلّما أعدت نظري لحظة داخل الطائرة، رأيت البعض إمّا منهمكًا في حديث مع جارٍ أو شاخصًا في الفراغ. نشط طاقم المضيفات وأكثرنَ من الحركة والرد على الاستفسارات، بينما فتح البعض المصاحف يقرأ فيها لتهدئة لوعته وخوفه من الطيران.

أعلن الطيّار عن قيام الرحلة بعد تأخير ساعة كاملة جلسناها داخل الطائرة دون تكييف. لم يكن هذا ما عذّبني. كان عذابي أن أكون هكذا على حدّ الرحيل كالواقف على حدّ سيف. تحرّكت الطائرة في

الممرّ أسرعتْ وأسرعتْ حتى اختفى سواد الإسفلت. ثم طارت وحلّقت وكأنّ روحي المسكينة لم تستطع أن تضاهي هذه السرعة. شعرتُ بأنّ قلبي يُسحب منّي عنوة إلى أسفل. بدَوْتُ كالخائف المرتعب مع أنني لم يكن عندي ذرّة خوف من هذا الطيران. كانت روحي بطيئة لم تستسغ الطيران بعد. رغم تجربة السفر الأولى التي كأنّها لم تكن. الآن تتسرَّب روحي إلى مكان ما في الفضاء أو على الأرض. لا أدري. لكنها على أيّ حال في مصر. هكذا تركتُ روحي هناك شبه مطمئن؛ عُهدة للأطياف الخيّرة والأنفاس الطيّبة. حتى ألقاها بعد زمن أتمنّاه ألا يطول. لكن مَن يدري.

لما جاءت الوجبات. لم آكل. كنت متوتّرًا ولم تكن لي رغبة في الأكل. فضلاً عن عدم وجود مكان أضع فيه حقيبتي القابعة على حجري. أخذت من المضيفة الباسمة جريدتي الأهرام والوفد وحاولت أن أقرأهما في وضعي الصعب هذا. فلم أفلح إلا في قراءة عابرة للعناوين العريضة في الصفحات الأولى والأخيرة. كنت بجوار الشباك. ظللت أنظر منه إلى سُحُبٍ وغيوم متخيّلاً المسافة التي تفصلني الآن عن العم ركابي وآدم والأستاذ هاشم. ثم رحت أتخيّل المسافة التي تفصلني عن ودّ النّار. والسنين التي تفصلني عن ود النوّار.

تعبت من أسى التذكّر وأرهقني أزيز الطائرة. دُخت وأنا أشعر بخلو جسدي من روحي. نمت:

أرى نفسي صغيرًا. أنزل خلف خلوة الشيخ علي الفكي إلى أسفل. إلى مُنحدَرٍ يَهدِي إلى قبو. المكان هناك مظلم. أرى بابًا قديمًا مواريًا

مضفورًا بالحبال وسعف النخيل. يجذبني الفضول. أدخل منه إلى حجرة تحت الأرض في هداية شعاع من خطوط مستقيمة يصدر من طاقة علوية بيضاوية الشكل لها زجاج أغبر مشرّخ ومتكسّر وقديم. يصبح المكان غريبًا ومختلفًا وأبقى محترسًا لأنني وحدي. أرتطم بصندوق مغلق في وسط حجرة مكدّسة بكراكيب. يغريني أن أفتحه. أحاول بيديّ وقدميّ وبكل عزمي. لا ينفتح. أحمل مخلاتي التي أجمع فيها بعض الأحجار غريبة الشكل. أجدها ثقيلة. أرميها جواري وأكرّر المحاولة بالخبط والدّقّ والضرب بحَجَرٍ على الصندوق. لكنه لا ينفتح. أبقى زمنًا في محاولاتي اليائسة. وأخيرًا- وأنا على وشك الخروج يائسًا- ينفتح من تلقاء نفسه؛ فيهبّ غبار. أرتعب مناديًا على أمي. أخرج من الباب وأظلّ بعيدًا على المنحدر المعفّر المتّسخ. أعود بعد أن يهبط الغبار لأفتح باب القبو الذي دخلت منه؛ فلا ينفتح.

أتأخر كثيرًا في إيابي المعتاد. تذكر لي أمي- فيما بعد- أن قلبها انخلع بسبب تأخّري هكذا للمرّة الأولى. تهيم المسكينة مرّات في الحِلّة؛ في طريق ذهابي وطرق عودتي. تبحث عنّي وتسأل كل من يقابلها إن كان قد رآني. عند العصر أكون عائدًا إلى الدار متمهّلاً، مفكّرًا في العودة للصندوق ومحاولة اكتشاف السر. يتهيّأ لي شكل أمي يقترب على نحو أسرع من إفاقتي من سرحاني. أراها فوقي مباشرة مخطوفة اللون ملهوفة السحنة. تصفعني وتحتضنني في آنٍ. تمسح بصفعتها هلعها وبحضنها صفعتها. ثم تجرّني إلى الدار وتوبّخني ثم تلومني.

ارتجفت الطائرة رجفة شديدة، فأفقت مذعورًا على صوت بكاء طفلة صغيرة أو طفل. للحظة استغربت من وجودي في هذا المكان. سمعت صوت حليمة. وقفتُ في مكاني وشنطتي في يدي. لوهلة لم أدرِ أين أنا. نظر إليّ الجالسون خلفي في استغراب. بينما كان صوت الطيار يعلن أننا نمرّ بمطبّات هوائية، تبعه صوت المضيفة برجاء الجلوس وربط أحزمة المقاعد. أدركت بعدها أنني في طائرة. جلستُ. تنهّدتُ وأيقنتُ بأنني سأظل طوال عمري أهتزّ هكذا لبكاء الأطفال، وأن بكاء أيّ طفلة أو طفل سيبقى ما حييت يذكّرني بحليمة.

جعلتني الفزعة أنسى الحلم مؤقّتًا. نظرت من النافذة لم أرَ إلا غيمًا وراء غيم، والرجل الجالس بجواري قد فتح مصحفه يقرأ فيه بصوتٍ عالٍ وهو يهتزّ كبندول ساعة.

شعرت بعكرة روح طارئة من صوت وحلم أعرفه؛ ومن واقع أعيشه؛ ومن طيران إلى المجهول؛ ومن فانوس في صدري؛ ومن ذكريات تلد وتتوالد وتتوالى فلا تتوقف؛ ومن فوضى ذهنيّة لا تفرّق بين حلم وواقع. لقد عاودني هذا الحلم المنقوص مرّة أخرى، لكنني رأيت فيه ما غاب عنّي في المرّة الأولى. بدأت أشكّ في أن هذه الأحلام لا يمكن أن تكون مجرد عبث؛ فأنْ أرى نفسي طفلاً وشابًّا؛ وأنْ تضيع منّي أمي؛ وأنْ أرى حليمة وكريمة؛ وأنْ أدخل قصرًا لا روح فيه؛ وألا يكون لي صوت- أليست هذه مقاطع من حياتي الحقيقية. لكن مَنْ هؤلاء الناس الذين يشبهونني وفي أيديهم مقشّات البلح من عراجين النخيل يكنسون المكان بهمّة وصمت ويبدو

عليهم النحول والوهن الشديد. وما لون هذا الليل الغريب الذي لم أره في حياتي بهذه العَتَمَة والبرودة. لقد رأيت الصقيع رَأْيَ العين. هل طيراني هذا هو الحلم وأحلامي هي واقعي.

أنقذني صوت الكابتن في الطائرة يعلن أننا اقتربنا من فيينّا وأنّ درجة الحرارة فيها الآن ٧ تحت الصفر.

وقف البعض ليُخرجوا معاطفَ سميكة ويهيئوا أنفسهم لاستقبال برد منتظر رابض. نظرت من النافذة لأشاهد هذه المربعات والمستطيلات البيضاء على الأرض. كانت الشمس قد غابت في نصف الساعة الأخير رغم أن الساعة لم تجاوز الرابعة بعد، وكلّما هبطت الطائرة وسط غيوم السحاب غامت الدنيا أكثر واكتأب الجو واكتأبت نفسي.

هبطت الطائرة وصفّق المسافرون بحرارة للكابتن من شدة هلعهم ولنجاتهم. لم تهبط روحي معي كما تمنّيت، بل لم تَطِر أصلاً من مصر بقيَتْ هناك في إفريقيا. وقفتُ وأخرجتُ بالطو العم ركابي. أسعدني وجوده معي برائحته التي لم تغادره. هدأت قليلاً من غربتي الآتية.

لم يستقبلني أحد في المطار إلا البرد. كانت معلوماتي عن الألمانية شحيحة لا تتعدّى بضع كلمات أنطقها خطأً. كان البرد في إحساسي أشدّ من السبعة تحت الصفر التي أعلنها الطيار. أحسست به في الترجل لبضعة أمتار من سلّم الطائرة حتى باب أوتوبيس النقل الداخلي. تذكرت برد فرنسا وإيطاليا وهولندا. كانت اللغة المنطوقة عبر لاسلكي الأوتوبيس سريعة وغير مفهومة على الإطلاق، وكانت اليافطات في لغة

لاتينية ذات كلمات طويلة جدًّا عليها بعض النقاط. قبل سفري كان آدم قد أهداني نسخة من كتاب قديم اسمه: 'تعلّم الألمانية في سبعة أيام' أثار ضحكي كثيرًا أثناء قراءته. فتمنّيت أن تكون هذه اللغة وهذه البلاد وأهلها ممّن يبعث على الحبور واللطف.

داخل المبنى اتّجهت إلى شباك الجوازات. وقفت في الطابور. نظر الموظف في وجهي ثم ختم الجواز ببساطة وسمح لي بالمرور. بعدها ذهبت لآخذ حقيبتي من السير الحلزوني. أخذتها وسرت في طريق بوابة الخروج. وجدت أن الكل يخرج ولم أرَ وجوه ضباط ومفتشي الجمارك. تلفّتُّ حولي متوجّسًا. خفتُ أن أمُرّ هكذا بسهولة فأخالف تعليمات ما؛ فربما يكون هذا طريق الطيارين أو الدبلوماسيين والأشخاص المهمّين جدًّا. وقفت أتلفّتّ حائرًا حتى جاءني ضابط أنيق وقف أمامي وسألني بعض الأسئلة:

"فوهير كومِن زِي؟ Woher kommen Sie?"[1]

التي اعتقدت بداية أنها تحية مثل 'فيلكومِن Willkommen'[2] التي مازلت أتذكرها. لكنه قالها كأنّه يسأل. قلت له:

"دانكيه! دانكيو! جود! Danke, dank you, good!"[3]

من الارتباك صرت أخلط بين اللغات معتقدًا أنه سيفهم بالتأكيد. لم

1- من أين أتيتم؟
2- مرحباً.
3- شكراً. بخير. وفي الجملة خلط بين الألمانية والانجليزية.

يفلح كتاب تعليم الألمانية في سبعة أيام في فكّ شفرة أول جملة ولم ينقذني من أول ورطة.

أشار إلى حقيبة السفر وبدأت محادثتي الفعلية معه باستعمال الإشارة. أنا

أستخدم لغتي العربية بخليط من الإنجليزية والفرنسية والإيطالية في ترتيب لا يفهمه أعتى عالِم في اللغات. وهو لغته الألمانية أو الإنجليزية لم أعرف.

كلمة 'كايرو Kairo' فهمتها. أمّا كلمة 'باسّ Pass' فقد اعتقدت أنها تعني 'أوتوبيس'. قال لي ما معناه أن أضع حقيبتي في مكان عالٍ، اعتقدت أنه سيزنها ويكتشف أنني لا أحمل العشرين كيلوجرامًا المسموح بها بل ٢٦ كيلوجرامًا. شعرت بالحَرَج ولم أعرف كيف سيكون الموقف. وكم ستكون الغرامة. لكنه أدار أمامي شاشة تليفزيونية فوجدت صورة أشياء ملخبطة في بطن شنطتي؛ فأدركت أنه الكشّاف. سألني وهو يشير بإصبعه وبالإنجليزية هذه المرة. ففهمت:

"وَط إز ذات؟ وَط إز ذيس؟ What is that? What is this?"[1] جاءت الإنجليزية أسهل بعد أن تجاوزت مصيبة الوزن.

أجبتُ:

"كاسيث."

فرحتُ. فأنا لم أقرأها من قبل لا بالإنجليزية ولا بالألمانية. كررت كاسيت.

1- ما هذا؟ وما ذاك؟

هزّ رأسه فاهمًا وقال خلفي:

"كاسيت. أوكيه! Cassette, ok? وَط إز ذيس هير؟ What is this here?"[1]

"بوك. بوخ. Buch, book"[2]

هزّ رأسه موافقًا:

"أند واط إز ذات. هير؟ And what is that here?"[3]

"صاندال."

"أند ذيس؟ And this?"[4]

"خُلال. مشط إفريقي."

هكذا نطقت بسرعة بالعربية وأشرت إلى شعري. ضحك فضحكت معه، فعاد لصرامته بسرعة سائلاً:

"أند ذيس هير؟ And this here? "

لم أنطق ولم أعرف. شاهدت ما يشبه القنبلة اليدوية تمامًا، محشورًا بين ما يشبه نعلي الحذاء. لم أعرف بالتحديد ما هذا. فالصورة على الجهاز تبدو مثل أشعة على أحشاء مريض. داس على زرّ فاقترب الشكل في حجم أكبر أربكني. نظر في عينيّ، وأدار الشاشة ناحيتي أكثر وقد

1- وما هذا هنا؟
2- كتاب.
3- وما هذا الذي هنا؟
4- وهذا؟

أصبت بربكة مفاجئة. هززت رأسي ولويت فمي بأنني لا أعرف.

قال:

"أوبن بليز! Open please!"[1]

فتحت مرتبكًا مذعورًا كأنّي أفتح شنطة غريبة عليّ. حضر اثنان آخران وتحادثا معه بهذه اللغة العصبية السريعة. لم أعرف أين مكان هذه المصيبة التي حملتها معي ولا ماهي. حشرت يدي أبحث يسارًا ويمينًا. نظر إليّ صارمًا فأربكني أكثر، ثم أشار بسبّابته إلى علبة واضحة في مواجهة الشنطة التي أهداني إيّاها آدم، فتحت وقد نسيت ما كان بها بالتحديد، وبينما أحاول أن أقرأ، تذكرت. قلت وأنا أقرأ وأتهجّى ببطء: هذا 'سيلفستر سافاليس'[2] بارفان. ضحك فلم أضحك معه هذه المرّة. قال لي فجأة:

"جود باي! Good-bye!"[3]

سرتُ خطوات فانفتح باب أوّل تلقائيًّا ولم أعد أرى أحدًا خلفي ولا أمامي، بعدها انفتح باب آخر فوجدت نفسي خارج المطار، وكأنّي دخلت ثلاجة.

خرجت من قيظ ودّ النّار ومن حرّ مصر والآن من دفء الطائرة والمطار إلى صقيع الشارع؛ خرجت ببعض الذكريات وبشنطة ثقيلة سترافقني سنوات.

1- اِفتح، من فضلك!

2- نوع من العطور باسم Parfume Silvester في زجاجة بيضاوية الشكل تبدو بالفعل كقنبلة يدوية.

3- إلى اللقاء!

يؤلمني هذا الخروج الفردي دائمًا أشدّ الألم. إن الخروج الجماعي مهما كان قاسيًا فهناك من يشاركك الألم، هناك من يضع يده عليك أو ينظر في عينيك فتعرف أنه يقول لك: 'اصبر! أو أنا مثلك! أو تجلّد!' أو على الأقل يسبّ نيابة عنك أو يفعل أيّ شيء يريحك مؤقتًا. لكن وأنت وحدك؛ عليك أن تقوم بكلّ هذه الأشياء مع نفسك في صمت؛ أن تواسي نفسك وتعزّيها؛ أن تلمس وجهك لتتأكد أنك لا تحلم؛ أن تلعن الدنيا وما فيها؛ أن تتألم؛ أن

تبكي إن استطعت. عندما تكون وحدك عليك أن تتذكّر كلّ ما مضى وأن تتشبّث بما تبقّى من الذكرى الطيبة فهي العزاء الوحيد في الوحدة؛ فبلا ذكرى لا قوت للنفس، ثم عليك أن تنسى الذكريات السيئة، فبلا نسيان لا راحة للروح.

كانت الأوتوبيسات الواقفة هناك تبدو مثل الأوتوبيسات السياحية، فلم أعرف أنها لعامّة الركاب. تبدو فخمة جدًّا وليس عليها أرقام بل كلمات. كان هناك أوتوبيس عليه فقط كلمة Wien التي تعني 'ڤيـن' وهي ڤيينّا وقد قرأتها 'وين'، ولم أدرِ إلى أين يذهب. وقفت حائرًا بحذائي المصري المسكين الذي خذلني وشعر بالبرودة أيضًا ولم يسعفني بأدنى حماية، بل انكمش في قدميّ كأنه حذاء من النايلون النحيل. بدأت أنقل قدميّ على طريقة البردان أو المتأخر عن دورة مياه. قال لي شخص يلبس ملابس موظف ببذلة وكرافتة:

"تاكسي؟ ڤيينّا؟"

هززت رأسي موافقًا، معتقدًا أنه يريد أن يساعدني بمعلومة فقط، لكنه اقترب وأخذ عنّي شنطتي وسار مسافة بعيدة حتى كدت أشكّ فيه. كان هو سائق التاكسي. كان التاكسي فخمًا جدًّا بالمقارنة بالتاكسيات التي أعرفها في الخرطوم والقاهرة. وضع الحقيبة في الشنطة الخلفية للتاكسي. فتحتُ بابه الأمامي وجلست إلى جواره في الأمام؛ فربما يريد أن يأخذ بعض الزبائن من الطريق. كان يضع إلى جواره على الكرسي كمية كبيرة من الجرائد والمجلات الأجنبية. نقلها على المقعد الخلفي لأنني جلست إلى جواره. طلب منّي أن أربط حزام المقعد عليّ، فلم أفهم فقام بالإشارة. خشيت أن أكون قد ركبت طائرة أخرى سهوًا. أعطيته عنوان كلارا بنت ڤاليري. قرأ العنوان وقال:

"آويس كلور! Oyes Klor!"[1]

لم أفهم ما علاقة الكلور بالعنوان. سار التاكسي والسائق يسألني بالإنجليزية في أدب عن بلادي والجوّ الذي سيصبح لازمة أساسية في بداية كلّ حديث في هذا البلد. كنت أفهمه بصعوبة لأنّ إنجليزيتي رديئة جدًّا. لم أنتبه كثيرًا للنظر إلى وجهه عند الحديث- على غير عادتي- فقد كنت شغوفًا إلى حدٍّ كبير برؤية هذا البلد العجيب، الذي تقف سياراته فعلاً في الإشارات الحمراء. لم تسعفني لغتي في فهم الرجل أو توصيل أيّ معلومات إليه إلا بـ 'Yes' أو 'No'. ففضّل الصمت. وغرقتُ مؤقتًا في صمتي مرتاحًا دون أن أعلم إلى أين سأحطّ. وبينما كنت أنظر للسماء الغائمة وإلى الثلج المتراكم على جنبات الطريق،

1- اللهجة العامية لكلمة alles klar التي تعني أن 'كل شيء على ما يرام!'

سمعت صوت اللاسلكي اللعين للسائق الذي قال كلامًا ما. خشيت من هذا الصوت الذي أعرفه؛ صوت المصائب والحروب، لكني طمأنت نفسي أنني وصلت إلى بلاد الأُنس ولا حرب هنا، بل سأكون بعد قليل في الجنّة؛ جنّة باردة بعض الشيء أيْ نَعَمْ لكن ربما تكون الجنّة هكذا وأنا لم أتعوّد بعد. ألا نقول عندنا عن النار: جهنم واللظي والسعير وكل هذه المترادفات التي تُعبّر عن مكان الشيطان والأشرار والكفار. لابد أن يكون العكس هو الصحيح؛ أن تكون البرودة والثلج والصقيع والجليد هي التي تُعبّر عن الملائكة والخيّرين والمؤمنين.

شعرت بإنهاك ونعاس. لكن أنوار ڤيينّا أعادتني للصحو والسائق مازال يتبع إشارات المرور بكل هدوء، هو وكل السائقين، بل لم يستخدم آلة التنبيه مرّة واحدة طوال الطريق، لا هو ولا غيره. عجيب!

وصلنا إلى العنوان المذكور لكلارا صاحبة الجاليري المشهور في ڤيينّا. وجدت الجاليري مغلقًا. قالت لي صاحبة المقهى أسفل المبنى بالإنجليزية إنها تعرفها جيدًا وقد سافرت كلارا منذ شهور إلى أمريكا.

عرَض عليَّ سائق التاكسي أن يقلّني إلى العنوان التالي للمصوّرة، التي كانت لحسن الحظ تسكن في الحي الثامن القريب. أخذني إلى هناك، لكن أيضًا بلا جدوى. لمّا رأى السائق العنوان الثالث للنحّات، قال بالإشارة ما معناه أن النحات يسكن بعيدًا في أطراف المدينة في منطقة اسمها: Essling وهو حيّ في آخر ڤيينّا من الناحية الأخرى وأن هذا يكلف كثيرًا. فتنازلت فورًا عن الذهاب معه إلى هناك.

لكنّي لم أعرف إلى أين أذهب في ذاك اليوم.

كان هناك شاب يقف عند الناصية. انتقل بالقرب منّا أثناء حديثي مع السائق. شاب يلبس معطفًا أصفر وقبعة صفراء ويحمل شنطة صفراء بها جرائد وينادي عليها. لمّا سمعنا نتكلّم بالإنجليزية. اقترب وسألني إن كنت أتكلم العربية. قلت له: "نعم. أنا من السودان!" وحكيت له موضوعي باختصار. قال إنّه من صعيد مصر من مدينة اسمها إسنا. وإنه يحبّ السودانيين. وإنه عليّ أن أنتظر إلى جواره قليلاً وسيذهب معي إلى سكن مؤقّت قريب. فبعد نصف ساعة سيسلّم هذه الجرائد لزميل له. ويمكنه أن يذهب معي. شكرته ودفعت للسائق الطيّب المبلغ- الذي كان كبيرًا نسبيًّا- وأخذت حقيبتي ووضعتها على جانب الرصيف ووقفت أتأمّل هذا العالم البارد من عند هذا التقاطع.

لم أكن أتوقّع بردًا مثل هذا البرد في هذه المدينة. والناس يسيرون أمامي بلا انتباه للمشاة الآخرين. أو هكذا خُيّل إليّ. أعينهم تسير شاخصة للأمام. لا يلتفتون. فقط ينتبهون بحذر لإشارات المرور. يتوقّفون عند التقاطعات لترتفع أعينهم قليلاً تجاه إشارة المرور المعلّقة في أعلى الشارع. حين تخضرّ يعبرون وحين تحمرّ يتوقّفون. أعجبني هذا النظام. ظللت أنتظر شخصًا واحدًا يعبر الإشارة الحمراء. لم يحدث أبدًا. حتى الكلاب التي كانت تسير مع أصحابها في هذا الوقت. وجدت أنها أيضًا تجري يمينًا ويسارًا على الأرصفة ثم تنتظر صاحبها عند الإشارة. أمام خطوط عبور المشاة ولا تتحرّك حتى يأذن لها صاحبها. بين الحين والآخر

يعود هذا الإسناوي الطيب ليتكلّم معي. ذكر لي أن اسمه عباس الإسناوي، وأنّه هنا منذ سبعة أعوام ويريد أن يعود إلى إسنا لأنّه لم يتوقّع أن تكون الحياة هنا صعبة لهذه الدرجة. شعرت بالبرودة فأخرجت بلوفرًا آخر من حقيبتي. لبسته وكأنّي لم ألبس شيئا. ثم احتجت إلى وقت طويل لأغلق الشنطة من جديد. لم أستطع تحديد الوقت بالنظر إلى السماء؛ إذ لم تكن هناك سماء. نظرت إلى الساعة؛ هدية العم ركابي. لم أرَ الوقت، بل تذكّرت صاحب الساعة والمسافة البعيدة التي تفصلنا الآن.

أنهى عباس عمله، أو بالأصحّ نقَلَ الأشياء التي معه لشخص آخر أتى لا مُباليًا. أخذ الأشياء وسلّم عليَّ في فتور. كان يفعل كل شيء بفتور وملل. ذهبت مع عباس إلى محطة كبيرة اسمها 'ڤيشت بانْهوف'. هناك التقينا چيمي الذي رحّب بنا وقال إن هناك سريرًا فارغًا في الحيّ الثاني في 'نورْدڤيشت بان شْتْراسه'، وإن تكلفة المسكن أو السرير في الشهر ألف شلن. لم يكن أمامي أي بديل. وجدتهم في هذه البلاد يتكلمون بسرعة وينجزون أعمالهم بسرعة ويحسمون أمورهم بسرعة.

اتصل چيمي بصاحب الشقة تليفونيًّا وحصل منه على الموافقة. سمح لي مالك الشقة المصري أن أدفع المبلغ في نهاية الشهر. شعرت بارتياح مؤقّت.

كنت قد بدأت أشعر ببرودة أكثر رغم أننا داخل المحطة المغلقة. ذهبت

مع عباس و چيمي إلى المسكن. حكى لي عباس في الطريق عن قصة مجيئه إلى النمسا وهو في مقتبل العمر وعن زوجتيه. كان صغيرًا على زيجتين وطفلين. زوجته الأولى لم تنجب، ولمّا كانت قريبته، لم يطلقها بل تزوّج عليها بضغط من العائلة ولم يكن يرغب في ذلك. كان يعمل سائقًا لأحد الفنادق ثم تغيّرت إدارة الفندق ففقد عمله، ثم عمل سائقًا لتاكسي. بدّل عمله مرّات: من سائق حنطور لسائق سيارة نقل، لكنه لم يكسب ما يكفي من هذه الأعمال. سافر قريب له إلى النمسا وكتب له رسالة بأن الحياة في هذه البلاد جنّة، وأن عليه أن يترك كل شيء ويأتي فورًا. لمّا أتى وجد أنه وقع في فخّ الكذب السخيف، وأن قريبه لم يشأ أن يكون وحيدًا فاستدعاه بهذه الحيلة الكاذبة حتى يكونا معًا.

حين بدأ يسألني عن سبب حضوري إلى النمسا بالذات، كنّا قد وصلنا. نزلنا من الترام في المحطة وسرنا ثلاثتنا معًا. كدت في كلّ مرّة أعبر الإشارات دون انتباه. كانا ينبّهاني ويوقفاني في كلّ مرّة وكنت أنسى. قال لي چيمي:

"احترس! البوليس سوف يغرّمك وصاحب السيارة سيحصل على التأمين قبل أن ينقلوك للمستشفى."

وصلنا إلى بيت قديم متهالك. لم أتخيّل وجود بيت بهذا الشكل في مثل هذه الجنّة. كان مع چيمي مفتاح للشقّة، ففتح الباب. لم يكن بالشقة أحد في هذا الوقت. دخلنا إلى شقّة لها رائحة عطنة لم تدخلها الشمس في عمرها.

سألت أوّل ما سألت عن دورة المياه. أخذ جيمي مفتاحًا كبيرًا وقال لي إن دورة المياه في الخارج. ذهب معي وفتح الباب. كانت متداعية باردة. جلست على قاعدة أبرد ولم أجد ماء. استأت من هذا الوضع الذي ذكّرني بإيطاليا وفرنسا. أخرجت المناديل الورقية من جيبي واستعملتها كلها.

عدت للشقة لأغسل يديّ بماء بارد. جهّز لي عباس كوب شاي لم يكن له طعم. قال لي إن هذا السرير هو سريري. رفع ما تراكم عليه من ملابس. فوضعت حقيبتي عليه وجلست. ودّعاني وخرجا.

جلست وحيدًا في الشقة الدافئة نسبيًّا. وجدت الشقة ملخبطة. جهّزت مكان نومتي. فتحت الدولاب فوقعت ضلفة على الأرض. بقيت وقتًا طويلاً أحاول إعادتها لمكانها ولما نجحتُ وقعَت الأخرى.

دخلت إلى المطبخ. كنت جائعًا. لم أعرف ماذا آكل في هذا الوقت. كان عباس قد أعطاني مفتاحًا للشقّة. فكّرت فيما يمكن أن أشتري الآن ومن أين. فجأة سمعت صوتًا يفتح الباب. دخل شخص في لوني سلّم عليّ وقال لي إن اسمه محجوب وإنّه أيضًا سوداني وإن أباه سوداني وأمه إسكندرانية.

نزل معي إلى محلّ تركي في منطقة اسمها 'البراتَر'. اشترى لي بعض الأشياء قال لي: "لا تشترِ كثيرًا. اشتر ليوم فقط أو على الأكثر ليومين!" لكني اشتريت لأسبوع كامل. خشية الخروج مرة أخرى في هذا الجليد. نظر إليَّ في إشفاق وسكت.

تحدثنا طويلاً ووعدني أن يذهب معي في اليوم بعد التالي إلى الجريدة

ليسأل لي عن عمل هناك. عُدنا وأكلنا. جاء الثلاثة الآخرون في المساء المتأخّر. كانوا جميعًا يسبّون البلد ويلعنون أحوالهم. في ظهر اليوم التالي بعد أن صحوت متأخرًا من قلق النوم في المكان الجديد والشخير المزعج لجوقة الأوركسترا، نظّفت المطبخ الذي بدا فوضويًّا للغاية، لأنني الوحيد الموجود في الشقّة الذي بلا عمل.

لم أجد بقية طعامي ومشترياتي. فَهِمْتُ إصرار محجوب على ألاّ أشتري إلاّ وجبتي فقط في كلّ مرّة. بعد ساعة واحدة من وصولهم في المساء عاد المطبخ في الصباح إلى سابق عهده، وأنكر الجميع أخذهم أيّ شيء ممّا اشتريت.

المرّة الأولى التي تنام فيها ساندرا وأنا أحكي لها حكايتي. يدها في يدي دافئة. كنت أعرف أنها تريد أن تزور أخاها في هذا اليوم. أحاول أن أنبّهها لتصحو لكنها تبدو مستغرقة في نوم عميق. أشفق عليها وأفرح في آنٍ لبقائها معي. أريد أن أستمع للأسطوانات الجديدة لكني لا أريد أن أوقظها. تبدو مرهقة جدًّا هذا اليوم، حتى حكيمة تنام أيضًا إلى جوارها في سكينة غريبة.

أشعر بشيء من الذنب تجاه ساندرا، فهي تسمع حكايتي دائمًا بكل صبر، وأنا أثرثر أكثر ممّا أستمع إليها.

أسحب كتاب ابن حزم الأندلسي الذي اشتريته في مصر، اسمه 'طوق الحمامة في الإلفة والإلاف'. أقرأ في المقدمة أن الكتاب مترجم إلى

الألمانية بعنوان: Das Halsband der Taube. }ber die Liebc und die Liebenden

فأفرح بهذه المعلومة التي سأنقلها لساندرا فورًا حين تصحو.

أفكر من جديد في الموعد الذي سيفوتني والذي عليّ أن أستلم فيه الفانوس الذي أردتُ أن أهديه إلى ساندرا في مناسبة سعيدة. أفكّر أن أهديه إيّاها الآن، هكذا دون مناسبة. لن أنتظر المناسبة التي كانت في ذهني. أحاول أن أقرأ قليلاً في كتاب ابن حزم لكنني أسرح تدريجيًّا في هذا الحدث السخيف الذي أجّل من تقديم الهدية بل أساء إليها.

ففي يوم كئيب أوقفني رجل بوليس في الشارع ليتأكّد من هويّتي، بعد أن أصبحت هذه عادة جديدة لبوليس ڤيينّا في السنوات الأخيرة لكل من كانت بشرته سوداء. كان على كتفي حقيبة جلدية حملتُ فيها فانوس المرأة البكماء من عند مسجد الحسين في القاهرة والأحجار الثلاثة وحجر الشيخ الشريف. كنت لا أبيت خارج البيت دون أن تكون معي كل مقتنياتي الثمينة هذه. لا أرتاح في نوم دون أن تكون كلها إلى جواري. حتى ساندرا تفهّمت ذلك وكانت تذكّرني بالشنطة إن ذهبتُ إليها، وأحيانًا كانت تحمل الشنطة بنفسها دون كلام فأفهم أنها ترغب في أن أبيت ليلتي عندها.

ذهبت في هذا المساء المتأخّر في يوم طيني ممطر لأبيت عند عباس الإسناوي في 'فاڤوريتن' في الحي العاشر. سمعت بخبر مصرع والديه في حادث قطار. أصابته حالة شديدة من الانهيار ولم يكن هناك من

يقف بجانبه نهارًا. فقلت لأشاركَهُ هذه الليلة القاسية لعلّي أستطيع أن أروّح عنه قليلاً. ولمّا خرجت من محطة المترو الأخيرة من 'رويتَمَنّ بلاتس' واتجهت من خلف الكنيسة عبر حارة ضيقة، مشيت فيها بعض الخطوات محترسًا ألا أنزلق في طين الأرض، وفجأة ظهرت سيارة بوليس في مواجهتي ليخرج منها ضابطان ويطلبا منّي أن أقف ووجهي إلى الحائط وألا أتحرّك. أمسَك أحدهما الحقيبة وفحصاني بعناية. كانا في ذعر شديد وأنا أيضًا. سألني أحدهما عن هويّتي وورقة السكن فأخرجتها فقال لي:

"أنت تسكن في الحيّ الثالث ما الذي جاء بك إلى الحي العاشر؟"

وجّهوا لي أسئلة أخرى متتابعة دون انتظار إجابة. فتح الضابط الحقيبة ونثر محتوياتها على الأرض دفعة واحدة. سمعت صوت زجاج الفانوس ينكسر، ثم رمى المبخرة السودانية على الأرض فوقع البخور وأعواد الصندل التي بداخله. أزاح بقدمه الفانوس جانبًا وأخرج قفازًا من النايلون الأبيض، بينما وقف زميله بحذائه القذر على مقتنياتي المتناثرة. اعتقدا- من وقوع المبخرة وانتثار محتوياتها الغريبة عليهما- أنهما عثرا على مجرم. سألني أحدهما:

"ما هذا؟"

لم تأتِ على ذهني كلمة بخور بالألمانية، فقلت:

"شيء مثل العطر."

ضحك متهكمًا ثم حدجني بعينين ساخرتين وتحدّث برطانته

السريعة في تليفونه اللاسلكي بضع كلمات- ربما طلب تعزيزات أو ذكر أنه اكتشف مجرمًا طال البحث عنه- ثم بادرني بلغة فظّة:

"ستأتي معنا يا 'بِمْبو'[1]!"

جمع محتويات البخور التي تطيّنت ووضعها داخل المبخرة مع ما لمّت يداه معها من بقايا سجائر ومناديل ورقية وأشياء أخرى غير واضحة. رمى الأحجار الثلاثة جانبًا ومعها حجر الشيخ الشريف. لكن زميله نبّهَه إلى أنها كانت في شنطتي فأعادها. أغلق المبخرة ولملم هيكل الفانوس المكسور ورماه في الشنطة. أخرج زميله قيدًا ليدي وسحباني إلى السيارة. جلست في الخلف وانطلقا بي وهما يتندّران بنكات وأشياء أخرى بالعامية الڤيينّاوية الدارجة عن السود والزنوج. لم أفهم منها سوى كلمتين: 'أسود' و'زنجي'.

كانت رائحة عبق البخور قد وصلتني فاستغنيت عن غضبي ورُحت معها بعيدًا في غيبوبة يقظة، والسيارة تقطع حارات وشوارع ڤيينّا، وهذا الضوء الأزرق المتقطّع يبرُق والسيرينة المزعجة تصرخ فاتحةً الطريق ومعلنةً عن القبض على أخطر مجرم في المدينة.

1- كلمة قبيحة يقصد بها قرد أو شيء من هذا القبيل.

{١٣}

أعياد الميلاد ستهلّ بعد أيام قليلة. الاستعدادات للعيد ستغيّر من شكل وحيوية المدينة. سيَبْرُزُ كالعادة- وفجأة- العديد من بازارات أعياد الميلاد، أبخرة 'البونش'[1] ستغمر المكان برائحة قوية. طبائع الناس أيضًا ستتغيّر في هذه الأيام القليلة، سوف يبدون أكثر سماحة في تبادل التهاني، لكنهم سيكونون أكثر عصبية لضيق الوقت. الأحمال ستثقل على الحاملين والحشود ستتزايد وتتوتّر وتبطئ من حركة المواصلات. المحلات ستلمع وتتزيّن وتزهو بالألوان وسوف يأمل الناس في أن تبيَضّ الشوارع بالثلوج خلال فترة الأعياد.

تنشغل ساندرا بتجهيز هداياها لكل أفراد العائلة، لاسيّما ابنة أخيها سوزانّه. حتى حكيمة يصيبها من المحبّة نصيب. سنكون في كريمس في هذا العيد كما تعوّدنا، لوجود كل أفراد العائلة هناك. ساندرا تبدو لي أشدّ تعبًا من أدنى مجهود في هذه الأيام الأخيرة. تنام أكثر من المعتاد. أعتقد بأنّ الأمر مجرد إرهاقات وضغوط آخر العام. أخبرها بصُدفة العمل الجديد الذي وجدته في هذا اليوم: فأثناء وقوفي في الصباح أمام محلّ يبيع الحيوانات، رأيت جروًا خلف نافذة البيع. بدا لي مشابها لكلبي القديم 'سَمِح'. دخلت المحل دون أن

1- 'البونش': Punsch مشروب كحولي ساخن من النبيذ الأحمر والقرفة والبرتقال والسكر.

أدري ماذا سأفعل. كأنّي سوف أنقذه من هذا الحبس. قال صاحب المحل:

"تحت أمركم!"

"هل لديكم عمل لي؟"

نظر الرجل باستغراب وقال:

"هل عملتم من قبل في محل لبيع الحيوانات؟"

"لا. لكنني عملت مرّة في طوال صيف كامل في حديقة حيوان 'الشونبرون'. وقبل سنوات عملت لفترة طويلة في اصطبل خيول. فضلاً عن ذلك فأنا أحبّ الكلاب والقطط وأعرف كيف أتعامل معها."

"وهل لديكم تصريح بالعمل؟"

"نعم."

"نحن لا ندفع كثيرًا!"

"هذا لا يهم!"

"إذن تعالوا في الغد وسوف نجرّبكم لفترة."

تضحك ساندرا على هذه الصدفة النادرة وتستفسر منّي عن مكان المحلّ. تعرفه وترغب في زيارتي في اليوم التالي. في المساء أجلس لأتعلّم بعض دروس الألمانية. تقول لي:

"نطقك أصبح أفضل وذاكرتك قوية. لكنك تخطئ كثيرًا في تركيب الجملة."

"ربما لأنني حاولت وحدي دراسة الألمانية. ليس من كتاب 'تعلم الألمانية في سبعة أيام' بل من كتاب ألماني اسمه 'الألمانية للأجانب'. معظم ما كنت أحتاجه في هذه الفترة كان مجرّد القدرة على التعامل في الأسواق والمحلات. في البداية وجدت صعوبة كبيرة في الحادثة مع البائعين حين كنت أسأل عن بعض الخضروات والفواكه وأنطقها بالألمانية كما تعلّمت من الكتاب مثل: 'بلومِن كول' بدلاً من 'كارفيول' أو 'طوماتن' بدلاً من 'بارادايزَر'[1]؛ كنت أرى الغضب أو السخرية في وجوه البائعين. ظللت لفترة أسمع كلمة لم أفهمها في ذاك الوقت: 'إنه يتكلم مثل الـ'پـيفُكَه'!'[2]. اعتقدت أنّه في طيّ الكلمة شتيمة أو أنّ الـ'پـيفُكَه' هذا شخص أجنبي لا يجيد الألمانية. كانت هناك صعوبة أخرى مع اللغة والناس. لم أستطع أن أحكي معهم كما اعتقدت أنني تعلّمت. كرهت هذه اللغة السوقية العبيطة التي يحدثنا بها أهل البلد نحن الأجانب:

Ich arbeiten, du arbeiten. Woher kommen du? Du kommen»
«?Afrika

أردت أن أتعلّم منهم لكنهم لم يتكلّموا لغة الكتب. صاروا يتكلمون بلغة دارجة صعبة فلم أفهم ما يقولون وصرت أنا 'پـيفُكَه' في نظرهم. لكني أصبحت صديقًا للتليفزيون!"

1- Blumenkohl في اللغةالألمانية أو Karfiol في اللهجة النمساوية وتعني القرنبيط. Tomaten في اللغةالألمانية أو Paradeiser ' في اللهجة النمساوية وتعني الطماطم.

2- Pifke : 'بيفكه' كلمة يطلقها النمساويون على الألمان فيها شيء من السخرية والتهكم من طباعهم.

"للتليفزيون؟"

"نعم! كنت في بداية وصولي باقيًا على عادة العم ركابي. أُشْغِل أذني براديو ذي موجة قصيرة. أستمع من خلاله إلى المحطات العربية البعيدة أو الناطقة بالعربية من داخل أوروبا، لكنها كانت مشوَّشة جدًّا. فكرت أن أشاهد التليفزيون النمساوي؛ فَبِه أتسلّى ومنه أُحسِّن من لغتي الألمانية في آنٍ.

باعني أحد الأشخاص المسافرين تليفزيونه بأربعمائة شلن، ورغم ثِقَل المبلغ عليَّ اشتريته. قبل ذلك كانت السيدة إيريكا تسمح لي من وقت لآخر أن أدخل إلى غرفتها لأشاهد التليفزيون، لكن ما إن تأتِ الساعة السابعة حتى تبدأ في النعاس فأصاب بالحرج وأعتذر وأخرج."

"إيريكا؟ من هي إيريكا؟ لم تحكِ لي عنها؟"

"صحيح؟ إنها حبيبتي النمساوية الأولى؟ سكنّا معًا شهورًا طويلة!"

اتسعت عينا ساندرا، وزمّت شفتيها وضربتني في غيرة في كتفي بدعابة غيظ خفيف:

"أها! أنت لم تذكر لي شيئًا عن صديقتك إيريكا هذه."

"نعم هذا صحيح، كنت أسميها: فراو إيريكا، عاشت طفولتها في 'شتايَرمارك'[1]، نشيطة وقوية وفيها صرامة الجيل القديم، حين تكون حنونة تبالغ في حنانها وهذا نادرا ما يحدث، لأنّها تتغيّر بسرعة إلى

1- Steiermark مقاطعة نمساوية تقع جنوبًا من فيينّا.

طبيعتها كأنّها أذنبت بهذا الحنان. وحين تكون صارمة، وهذا هو المعتاد، تبدو مثل ضابط ألماني من عهد هتلر بل أكثر منه صرامة. كانت تعمل عملاً بسيطًا في مصلحة الضرائب وكان زوجها المتوفى حارس غابة ويهوى الصيد؛ فشقّتها مكدّسة بفرو حيوانات على الأرض وقرون معلقة على الحيطان وطيور وحيوانات محنّطة في فتارين. تقوم يوميًا بتنظيف الفرو وتلميع هذه القرون والفتارين وتتحسّر على ضياع أيامها السعيدة. كان عمرها ٨٢ عامًا. غلاء الحياة هو الذي دفعها لتأجير غرفة في شقّتها."

ضحكت ساندرا حين وصلت إلى ذكر عمرها. سألتني:

"وكيف علمت بهذا السكن؟"

"عن طريق أبو درش، انتقلت من السكن الجماعي إلى غرفة في بيت هذه السيدة بإيجار أكثر قليلاً لكن المكان كان نظيفًا وهادئًا. مشكلتي الجديدة أنني انتقلت إلى ما يشبه الثكنة العسكرية من شدّة انضباط وصرامة فراو إيريكا. من خلالها ومن التليفزيون ومن عملي العبثي في بيع الجرائد، بدأت أتعرّف أكثر إلى الحياة في ڤيينّا، ففراو إيريكا كانت بمثابة معلّمتي في تاريخ النمسا وأوروبا، والتليفزيون كان معلّمي في فهم طقوس هذه الحياة الغريبة، أمّا عملي فكان يسحبني إلى الحقيقة والواقع ثم إلى الإحباط. سرت على هذه العادة لشهور طويلة، أفرح حين أعود لأجلس مع فراو إيريكا التي صارت تستريح لي أكثر وتمدحني على تعلّمي السريع للكلمات الألمانية. كانت تصحّح لي النطق وكنت أتعب

كثيرًا في نطق حرفين من الكلمات الألمانية المنقوطة. حاولَتْ فراو إيريكا أن تُشعِرني بأنّها جدّة لي ونجحت في ذلك، لكنها كانت صارمة في شروط ثلاثة: النظام والنظافة والهدوء؛ فبالغت بدوري في الأمر حتى لا تجد عيبًا. لكنها كانت تشكو من أن ملابسي المغسولة داخل الدولاب غير مرتّبة بالشكل المضبوط، فالقمصان يجب أن توضع في الرفّ الأعلى والجوارب في الرفّ الأسفل وبينهما الملابس الداخلية. أخجلني يومها تطفّلها هذا ولكني غفرت لها، فقد أصبحت مثل جدة لي وهي بالتأكيد لا تفتش في أشيائي، وإنما الطبيعة الصارمة التي تربّت عليها هي التي جعلتها هكذا. صارت كلّما دخلَتْ إلى غرفتي، تُمَرِّر سبّابتها على أيّ مسطّح، سواء مكتب أو كرسي أو دولاب، لتختبر مدى الغبار في الغرفة وتحسب زمن آخر تلميع.

كنت أنا أيضًا أهتمّ بترتيب ونظافة الغرفة، ليس خوفًا منها أو من لائحة تعليماتها ونقدها، لكن لأنني كنت أشعر براحة للرائحة الطيبة وأكره بالتحديد رائحة العَطَن التي لم أحتمّلها في الشقق الفقيرة في هذه البلاد الغنية، مثل تلك الرائحة التي كانت في الشقّة الأولى التي عشت فيها فترة من الزمن. كنت أيضًا أشمّ هذه الرائحة في أشخاص كثيرين، فكنت أعرف أنهم يعيشون في مثل هذه البيوت الحقيرة مهما بدا شكل ملابسهم نظيفًا. صار أنفي يتعرّف على رائحة الأمكنة التي لا تزروها الشمس أبدًا، تلك الأمكنة التي انحبست لسنوات في رطوبة باردة وسوء تهوية."

يبدو أن موضوع إيريكا هذا ومزاحي قد فتحا لدى ساندرا شهية سؤال مؤجّل؛ سألتني:

"احكِ لي عن حبّك الأوّل يا حمزة؟"

تذكرني ساندرا الآن بما لم يطرأ على بالي، فنحن في بلادنا نردم على هذه الأحاسيس، نغلق عليها صناديق ونرمي مفاتيحها لتروح طيّ النسيان؛ إلى أن يأتي مذكّر أو هاتف أو عطر فيعيد طرفًا من هذه الأحاسيس القديمة التي نتذكّرها عادة في وحدة أو حنين قديم بعد عمر طويل ودون أن نشارك أحدًا في البوح بها. قلت لها:

"كنت أعتبرها مثل أختي، تربّينا معًا. اسمها ليلى، كانت الوحيدة من بنات عبد المالك التي كنت كلّما رأيتها ناكفتها وناكشتها بالمزاح. كانت تتحدّاني ولا تستكين. هادئة الطباع لكنها شرسة في الدفاع عن نفسها بكلام قوي معبّر، وكنت أحب ذلك منها. كنّا في السادسة عشرة حين أتى يوم خطبة أختها الكبرى آسيا. جاءت طرف والدتي لتحنّي حليمة وكريمة. كنت متكئًا في ظلّ الغرفة. لمّا دخلت إلى الحوش لم تتنبّه لوجودي. جلسَتْ هناك مع البنتين. كانت تضحك مع الصغيرتين في حنان أمومي أكبر من سنّها وتحكي لهما حكاية 'شجرة الفلوس'. وأمي جالسة في الحوش منهمكة أيضًا في رتق بعض الملابس. بقيتُ أتأمّل ليلى في هدوء. كان 'توبها' قد انحسر عن رأسها وظهرت ضفائرها الطويلة. بدا لي وجهها مختلفًا عن وجه الطريق وصوتها مختلفًا عن صوتها معي. طريقة كلامها وبسمتها وحكاياتها- كل

ذلك جعلني أراها أكبر من سنّها بكثير. بقيتُ مُجَنَّبًا في مكاني لأراها واستمع إلى حكاية شجرة الفلوس بكلّ لهفة الأطفال. كانت حكاية جدّ شيّقة. خرجتُ من الغرفة وحيَّيتُها وجلستُ قبالتها. فرفعت ثوبها إلى رأسها استحياءً. اقتربت لأرى نقشات الحنّاء الدقيقة التي كانت ترسمها لحليمة وكريمة، بينما استمرّت تحكي لهما عن يوم عرسهما في المستقبل، وكيف أنها ستقوم بنفسها بنقش الحنّاء لهما، ودعوات أمي تنهمر عليها في فرحة وامتنان. أمّا أنا فمن لهفتي العفويّة كنت أقترب من كفوف حليمة وكريمة لأشاهد فنّها البديع عن قرب. كنت مستغرقًا في مشاهدة النقش كطفل، مُقتربًا مثل شخص ضعيف النظر. في هذا الاقتراب شممتُ عطر ليلى، رفعتُ وجهي فكانت عيناها في عينيّ من مسافة شبر. هذه المرّة بلا تحدٍّ، بل كان هذا هو أوّل تماسٍّ للعيون. اهتزّت فيه أهدابها الطويلة بحياء، وأخطأت في رسم الوردة. نبهّتها كريمة بأن الوردة مائلة عن الأخرى بكثير وملتصقة بها. اعتذرتْ وقالت إنها ستصحّحها. ارتجفَتْ ليلى وشعرتُ أنا برجفتها وأخفيتُ رجفتي عنها. خرجتُ من الدار مذهولاً، ومنذ هذا اليوم لم أعد أناوشها، بل كنت ألقي عليها التحيّة بمودّة الكبار. كانت هي تحيّيني بهذا الحياء الذي يُنعّس من أهدابها الطويلة فيزيدها حُسنًا على حُسن. اكتشفتُ فجأة كم هو عذب صوتها وثغرها ومشيها وحضورها وانصرافها! شعرتُ في تلك الفترة بأحاسيس لم أميّزها إلا بعد أن غادرونا."

"إلى أين؟"

"العائلة كلها رحلت أيام المجاعة والجدب من ودّ النّار. لا أعرف إلى أين؟ لم أرَهم بعد هذا اليوم رغم سؤالي الدائم عنهم لمن أظنه يعرفهم."

تأتي أعياد الميلاد ونقضي ثلاثة أيام هانئة مع عائلة ساندرا خاصة مع سوزانّه الصغيرة العفريتة ابنة أخيها. تصحبنا حكيمة في هذه الرحلة السنويّة إلى كريمس. تقول لي ساندرا وهي تقود سيارتها إلى هناك، بأنه قد حان الوقت لأدخل مدرسة تعليم قيادة السيارات. في المساء تكون إحدى هداياها تحت شجرة عيد الميلاد مظروفًا فيه بطاقة بتسجيل اسمي في مدرسة لتعلم القيادة في ڤيينّا.

في ضحى اليوم الرابع تتوعّك ساندرا فجأة. نستدعي طبيب العائلة الذي ينصح بالراحة وبإجراء بعض الفحوصات في أسرع وقت. تصارحني بأنها أخفت عنّي أنها تعرّضت منذ أسبوعين لحالة مشابهة من الغثيان والإغماء، وأن هذه الحالة تكرّرت مرّة أخرى، وقد ذهبت إلى مستشفى ڤيينّا العام وخضعت لفحوصات متعدّدة، فتحت الباب إلى مزيد من الفحوصات الإضافية، أجّلتها ساندرا لما بعد أعياد الميلاد.

في تلك الليلة تصيبني حالة أرق في بيت العائلة. ساندرا تغرق في نوم مبكر، وأنا لا أريد أن أنهض من سريري حتى لا أثير بحركتي قلق الآخرين. أظلّ حتى الفجر مُحَنَّطًا في سريري، بينما رأسي يصير مرجًا ترتع فيه الهواجس والأفكار. قبل الفجر بقليل أروح في نعاس قلق:

... إلى السرداب الطويل لا يزال الرجل الأحدب ذو البالطو الجديد

والقبّعة القديمة يسير ونحن خلفه. نعبر حجرة مستطيلة عجيبة، تختلف عن كل ما مررنا عليه، فارغة ونظيفة وحوائطها مغطاة بالكامل بالمرايا. في أقصى الجانب الأيمن من سقفها الأبيض وشاح من قماش أحمر. وفي الجانب الآخر على السقف مباشرة رسم مشابه للوشاح وفي اللون الأحمر ذاته، حتى إنه ليصعب على المرء أن يفرّق بين الأصل والرسم. أتخيّل سقف الحجرة كعلامة كبيرة لـ 'ممنوع الدخول!' هنا نرى أنفسنا في المرايا للمرّة الأولى حين يتكرّر شعاع المصباح الخافت في المرايا فتنعكس الأضواء. نكون مُغبَرّي الشعر والسحنة ويظهر على ملامحنا الإرهاق والخوف واضطراب النفس. هذا الخوف الجماعي يرهبني أكثر ويهزّ روحي حين أراه في العيون. نتسلل بسرعة من هذه الحجرة؛ فسقفها واطئ أكثر من المعتاد، أشعر به يهبط أكثر ويقبض نفسي.

ننزل درجات أخرى في شكل حلزوني حتى نصل إلى أعمق مكان في أسفل السرداب. تتضح الرؤية أكثر من ذي قبل. أرى من بعيد طاقة علوية بيضاوية الشكل لها زجاج أغبر مشرّخ ومتكسّر وقديم. يدخل منها شعاع باهت. هناك، أسمع ما يُشبه صوت خرير الماء. نقف أمام كراكيب وأشياء قديمة. دليلنا لا يتكلم. يدخل الجميع ويُبدءون في تفحّص هذه الأشياء في عجالة السارق. ينفخ البعض في الغبار ويسعل البعض، وأنا ملخوم مع شنطتي ولا أريد أن أضع شيئًا آخر فيها، فقد كسرت ظهري بثقلها وخذلت ذراعي وكتفي. أسمع أصوات أشياء تقع. وأسئلة تتكرر: 'ما هذا؟' ... 'ما هذه؟' ...»

أرى من مكاني رجلاً يسحب كرسيًّا عتيقًا بثلاث أرجل، وامرأة تخفي ستارة كبيرة مُغبَرَّة تحت فستانها، وآخر يحشر علمًا داخل حقيبة دبلوماسية. وامرأة تلمس بيديها ناب فيل أو كركدن البحر وتملس عليه بيدها وهي في حالة دروشة. ألمح الرءوس من بعيد وهي تتغيّر. يبدو أنهم عثروا على كمية من قبّعات تشبه تمامًا قبعة الرجل العجوز الأحدب- دليلنا. يخطف كلّ واحد أو واحدة القبّعة التي تصل إليها يده أو يدها، فتنحشر القبعات في رءوس البعض أو تغطي كلّ الرأس حتى الرقبة.

أسمع صوت رجل يسبّ وامرأة أخرى تنتحب، وتتعدّد الأصوات والصياح وسط أصوات الكراكيب والتفتيش. والرجل الأحدب حامل البطارية، مازلت أرَاهُ بيدٍ واحدة، ينتقل بضوئه لكلّ حركة صادرة أو صوت. أكون الوحيد الذي يدخل ويسكن في أقرب مكان من الدرجات التي نـزلنا عليها. أجلس على شنطتي مستريحًا وأحسّ بالعرق يسيح على بشرتي ويلصق ملابسي بجسدي. أشعر بالبرد، وتأتيني رائحة لم أشمّها من قبل؛ رائحة شيء عتيق لا وصف له...

في ڤيينّا تتحسّن حالة ساندرا، فتؤجّل الفحوصات قليلاً. تأتي ليلة رأس السنة وندعو بعض الأصدقاء والصديقات. يمتلئ البيت بالبهجة ونقضي وقتًا جميلاً مرحًا مع المزاح والطعام والشراب. لا أنسى الاتصال بالعم ركابي في هذه الليلة. يسعد لصوتي وصوت الضجيج من خلفي. أعتذر له بأننا ربما سنؤجّل السفر إلى مصر عن الموعد المرتقب.

أنادي على ساندرا لتحادثه. تتكلم معه طويلاً وتتمنّى له عامًا سعيدًا. يسألني بعدها إن كنت أحتاج لأيّ شيء. أشكره كثيرًا وأقول له إنني أحتاج إلى خطاباته. يؤكّد لي أنه لن يتأخّر. أتصل بعدها بالأستاذ هاشم الذي يفاجأ باتصالي في كلّ مرّة. يفرح جدًّا ويؤكّد لي أنه سوف يأتي بنفسه إلى ڤيينّا في أقرب فرصة ليراني. يتمنّى لي أيامًا سعيدة ويسألني أيضًا إن كنت أحتاج لأيّ شيء. أشكره وأكرّر ما قلته للعم ركابي: "الخطابات."

برفقة إحدى صديقاته يصل أبو درش. بالطبع يجعل صديقته تضحك طوال الوقت بصوت عالٍ، وفي كلّ مرّة يسأله الجميع:

"ماذا تقول لها حتى تنفجر ضاحكة هكذا؟"

فيحكي نادرة من نوادره الشيّقة، يشذّبها بكذباته المثيرة ومبالغاته التي لا أدري من أين يأتي بها، فننقلب جميعًا ضحكًا. أبو درش من ألطف أصدقائي وأظرف كذاب عرفته في حياتي. كان يقول لي دائمًا:

"للكذب سبع فوائد يا حمزة! لكن ليس أي كذب. إن أردت أن تكذب، فعليك أن تكذب الكذب الشفاف الذي لا لون له؛ الكذب المكشوف الذي لا يؤذي أحدًا، كذبا يضيع في التوّ هباء، بشرط أن تكذب لمن يفهم أنك تكذب ويتواطأ معك في مثل هذا المزاح. الكذب فنّ، لكن لا تكذب الكذب الملوّن؛ كذب الأحزاب البغيض، ولا تكذب كذبًا أسود ولا أبيض ككذب السياسيين."

هذا الجوّ الحميم أشتاق إليه. منذ فترة طويلة لم نجتمع في مثل

هذا العدد. حكيمة نائمة في الغرفة الأخرى على عادتها، فهي تمقت الضجيج المبالغ فيه. انزعجَتْ طوال اليوم بما يكفي من أصوات المفرقعات والألعاب النارية العالية، ففضّلتْ أن تنأى بعيدًا عن هذا الاحتفال. ساندرا تبدو في منتهى السعادة في وجود معظم صديقاتها وأصدقائها. أملأ المائدة طوال الوقت بالطعام والشراب وأدعوهم مرارًا للأكل والشرب. تضحك ساندرا من إلحاحي الدائم على الضيوف بالأكل والشرب. تقول لي:

"لماذا تشغل بالك هكذا؟ سيأكلون ويشربون من تلقاء أنفسهم."

إنها عادتي المتأصّلة التي سأحتاج لزمن طويل حتى أتنازل عنها. تسقُط زجاجة على الأرض فتتهشم. تسرع ساندرا قائلة الكلمة المشهورة:

" لا يهمّ! شظايا الزجاج تجلب السعادة!"

صوت تهشُّم هذه الزجاجة يجعلني أتذكر فورًا أوّل عيد رأس سنة حضرته في ڤيينّا. كان هذا في العام ١٩٩٢. وعدني يومها بعض الأصدقاء أن نحتفل به في وسط المدينة وأنني سأرى العجب. كنت متشوّقًا جدًّا لهذه الليلة، لكن حظّي التعس عاكسني. فقد كنت موقّعًا عقدًا مع شركة لتجريف الشوارع من الثلوج في حالة انهمارها الشديد على المدينة. كانوا يتّصلون بنا في حالات الطوارئ لنذهب إلى المكان المحدّد مُرتدين ملابس العمل وننهمك بالجواريف في رفع الثلج إلى عربات تنقله وترميه في الدانوب.

في عصر هذا اليوم من عيد رأس السنة انهمر الثلج بشدّة. كنت نائمًا لأستعد لسهرة احتفالية قريبة. سمعت خبطات قويّة على الباب. كان جاري الألباني الطيّب الذي يسمح لي باستعمال تليفونه في المكالمات الضرورية اتصالاً واستقبالاً. ذهبت لأردّ، وليتني أكملت نومي وما فعلتُ. كان الاتصال من الشركة بأنّ نتجمّع في ساحة 'شتيفان' في وسط المدينة. ظللنا نعمل من الرابعة بعد الظهر وسط هطول ثلج بكرم عظيم من السماء، ومنذ التاسعة بدأ الميدان يحتشد بالناس وصار عملنا يبطئ مع تزايد أصوات الألعاب النارية. كان الناس ينهلون كميات هائلة من الكحول وبدوا في حالة انبساط خرافية. الكلّ يشرب في بساطة دون شعور بذنب أو إثم بل يستمتعون بكل فرح وسعادة. الشباب والفتيات في معاطفهم الثقيلة من سن الرابعة عشرة فما فوق يملئون المكان، وأغلب النساء الأكبر عمرًا يرتدين بلاطي من الفرو الثمين. تفوح منهم جميعًا روائح العطور ورائحة الشراب، بينما يفوح منّا نحن عرق الضنى؛ نحن المجنّدين ضدّ الثلوج.

قبل منتصف الليل بقليل وصلت حالة الهياج إلى ذروتها، وبدأ الناس في العد التنازلي للثواني الأخيرة من العام الذي سينتهي، لترتفع بعدها صيحات وتَهَانٍ وقبلات وألعاب نارية. وفي التوّ كسّر المحتفلون والمحتفلات مئات الزجاجات على أرضية ساحة شتيفان أمام الكاتدرائية، لتجلب لهم الحظ السعيد في العام الجديد. وصلوا إلى حالة من المبالغة الشديدة، فكان البعض لا يكسر الزجاجات الفارغة بل الزجاجات المملوءة بالشراب أيضًا. حالة هياج مسعورة سَرَتْ فيها عدوى التقليد

إلى الجميع. كم كنت أتمنّى أن أكسر الجاروف الذي في يدي احتفالا! هذه الحالة رغم جنونها المؤقت، أخرجتني قليلاً من كآبة الانحناء، فالناس يضحكون في كلّ الوجوه العابرة ويبدون في سعادة لا مثيل لها. فرحة عارمة لم أدرك بالضبط أسبابها الخفية.

جاء رئيسنا المسئول. قال إن الشركة ستصرف لنا الليلة ضعف المبلغ إن أكملنا عملنا بإزالة هشيم الزجاجات والنفايات من الميدان. بدأنا العمل من جديد؛ فمَنْ منّا لا يحتاج لأيّ شلن إضافي. كانت المدينة تحت وطأة صقيع لا يرحم، تعبق برائحة بارود مختلطة بروائح كحول، بينما أغلب الناس قد وصلوا لحالة نادرة من الدروشة، لن تتكرّر بالتأكيد إلاّ بعد عام.

ألملم شظايا الزجاجة المكسورة وأدخل لأطمئن على حكيمة.

نعود ثلاثتنا لبيت النخيل بعد فترة طالت. ساندرا وحكيمة وأنا. عند البوابة يظهر مصطفى أبو درش من تحت الأرض. يعرف وجهتنا فيقول إنه لم يرَ بيت النخيل أبدًا في حياته. وإن لم يزعجنا فسيسرّه أن ينضمّ إلينا.

ما إن نجلس في بيت النخيل حتى يبدأ أبو درش في ضحك مستمر. تسأله ساندرا:

"ماذا يضحكك؟"

"تذكرت توًّا عملاً لي من سنوات طويلة، فقد عملت في بيت من الزجاج يشبه هذا لكنه ليس بهذه الفخامة. كان في منطقة قريبة من فيينّا لا أذكر اسمها. كنّا نـزرع بعض الخضروات والزهور ونراقب مولّدات الحرارة كي تبقى عند درجة معينة. كنّا نسكن أيضًا في هذا المكان. صاحب هذه الدفيئة طلب منّا أن نكون 'براف' وأن نتجنّب المشاكل حتى نجنّب أنفسنا البوليس، حيث كنا نعمل دون تصاريح عمل؛ رغم أنّه هو الذي كان يرتعب من البوليس. حظر علينا الخروج، فكان يأتي لنا بما نريد من سجائر ومشروبات خصمًا من حسابنا ويخصم أيضًا حقّ الخضروات التي نأكلها من مزرعته، مع أنّه كان يسمح لنا بأكل الخضروات التي بها عيوب فقط.

في وقت لاحق وجدناه قد جهّز أوراق تغليف بنّية وكرتونات في لون الأرض ذكرتني بتلك بالقراطيس والورق السميك الذي كنا نشتري فيه اللحم قديمًا في بلادنا. كُتِبَ عليه كلمة: 'بيو Bio' بخطّ عريض وتحته كلمات ووصفات كثيرة بأن هذه المنتجات الزراعية قد طلعت في أرض بيولوجية لا تستعمل أيّ مبيدات حشرية أو أسمدة كيماوية.

لما جاءت فترة الانتخابات وقف هو وأولاده وابنته الوحيدة عندنا في هذه الدفيئة. قال إنهم يجب أن يصوّتوا لذلك الحزب الذي سيخرج هؤلاء الأجانب الملاعين من البلاد بعد أن أفسدوها. قال ذلك وكأننا أصنام. ويبدو أننا كنا في نظره شبه شياطين غير مغضوب عليهم بعد. كان يكرّر حكايته السخيفة المملّة عن جارته التي نعتها بالمخبولة التي

تزوّجت من مصري وأنجبت له زنوجًا- هكذا قالها- يمرحون في القرية، بل ويتفوّقون على الأطفال الأصليين في المدرسة. قال إنها مؤامرة للسيطرة على القرية، فهؤلاء الملاعين الأجانب حصلوا على الجنسية ويشاركوننا في سكننا ونسائنا وطعامنا وشرابنا.

كان لبيت الزجاج هذا رائحة غير محبّبة فالمعروف أنّ هناك وسائل تهوية مقنّنة لمثل هذه النظم. لكن الرجل ذكر أنها مكلّفة ويستعيض عنها بنظام رخيص حصل عليه من جمهورية سلوفاكيا وأنه كان يستعمل حسب زعمه في نظم 'الكولخوزات'[1] الزراعية السوفيتية القديمة. كنّا خمسة أفراد، أضاف إلينا سادسًا بعد فترة لم نعرف جنسيته، كان يتحدّث بلهجة لم نعرفها أبدًا. كان اسمه 'سونبات' وكان هذا الشخص وبالاً علينا، فقد اكتشفنا بعد شهرين أنه يوشي بنا لدى صاحب المزرعة على كل ما يحدث وكل ما نأكل وما نقول. كنّا نأكل في بعض الأحيان الخضروات التي بلا عيوب رغم أنه كان يأكل معنا وينتَهِم. سميّناه فيما بعد 'زُنبات'.

كان معنا أيضًا 'داريوش' الإيراني اليساري الذي كره نظام إيران وتشرّد مع إخوته في دول العالم. وكان معنا بدر العراقي الذي هرب من جنديّة صدام، وكان معنا اثنان باسم سمير الأوّل قبطي والثاني مسلم. كان سمير المسلم ينادي سمير القبطي دائمًا بكلمة 'يا خواجة' وكان الآخر

1- نشأ هذا النظام (الكولخوزه Kolchose) في الإتحاد السوفييتي بعد عام 1917 في شكل ملكية اشتراكية للأراضي الزراعية بشكل خاص، وهو مصطلح مركب من كلمتين تعنيان معًا (اقتصاد التعاونيات). انتقلت هذه الملكية للدولة لتنظيمها بالإجبار بعد عام 1928.

يضحك ويقول له بأنه أيضًا في هذا الملابس النمساوية وهذه البرنيطة: ‘الحاج خواجة’, فكنّا نطلق على الأوّل ‘خواجة’ وعلى الثاني ‘الحاج خواجة’ ونضحك طوال الوقت.

صاحب المزرعة كان مدمنًا الشراب. كان يخبئ زجاجات النبيذ والعرق في قبو تحت الخضروات. يهرب من زوجته إلينا, ليشرب وحده ويلعنها. وفي حالات السُّكْر الشديد يتكرّم علينا بزجاجة لننادمه. يشرب حتى الثمالة وأوّل ما يفتتح به جلسة نميمته بعد وصوله هو زوجته. يقول إنها قبيحة وغبيّة وتعتقد أنها ستصبح مثل القديسة الأم تيريزا من كثرة تردّدها على الكنيسة, فلينفعها البابا في دنياها وآخرتها. قال إنها لم تترك نفسها له إلا من أجل الإنجاب, وأقسم بأنه طوال عمر زواجه منها- منذ أكثر من أربعين عامًا- لم ينَم معها أكثر من أربعين مرة. منها عشر مرات في عام زواجهما الأوّل. يتذكّرها بحذافيرها, ولولا أهلها الأغنياء الأغبياء, ولولا هذا ‘الباوَرْنْهوف’[1] الذي تملكه لانفصل عنها منذ سنوات. قال مرّة إن أمنية حياته كانت أن يْصير عازفًا. استغربنا من هذه المفارقة, لكنه للحقّ أمتعنا مرّة في ليلة رأس سنة بعزف متمكّن على الأكورديون."

يضحك أبو درش وهو يتذكّر هذه الحكاية. ويظل يحكي حكايات متوالية. ولا نكفّ ثلاثتنا عن الضحك. ثم يقول:

1- Bauernhof كلمة تعني الحوش الفلاحي ويقصد به بيوت الفلاحين في النمسا التي تتكون من بيت كبير مبنى على طراز جميل من طابق واحد أو أكثر, تسكن فيه العائلة, له حديقة وجراج. في جانب منه توجد حظائر الحيوانات والطيور وفي جانب آخر المعدات الزراعية.

“إنها بلد الملائكة الشياطين!”

أردّ على أبو درش:

“لاسيّما إن كان الشياطين من موظفي البنك ورجال الأعمال!”

يضحك أبو درش صارخًا على طريقته المجنونة. فأضحك على ضحكته أكثر. تبتسم ساندرا متعجّبة ولا تدري علامَ نضحك. يتدارك أبو درش موجّهًا حديثه لي:

“ألم تحكِ لساندرا أنك التقيت شخصيًّا بالشيطان في البنك؟”

التفتُّ إليها مبتسمًا:

“آسف يا ساندرا! أنا لم أحكِ لك حكاية البنك هذه. لقد تذكّرتها الآن. كنت أحصل غالبًا على عملات صغيرة من الشلنات من بيع الجرائد. وتعوّدت أن أذهب بها مرّة في الأسبوع إلى البنك لتغييرها إلى أوراق بنكنوت لتسهيل دفع الحساب في الجريدة. وفي يوم ثلاثاء ذهبت إلى البنك. كنت أضع النقود في كيس بلاستيك داخل شنطة أكبر. بعد ثلاث خطوات داخل البنك انهمكت في إخراج كيس النقود وتجهيزه للصرّاف. لكن ما إن اعتدلت من انحنائي وأخرجته حتى وجدت نفسي أقف أمام الشيطان مباشرة. عيون زرقاء واسعة مشعّة وأجفان عليها حلقات سوداء مستديرة. وجه أبيض مثل قلب اللّفت وفم بشفتين سوداوين وأسنان بارزة صفراء بأنياب حادّة كأنياب دراكولا. يرتدي معطفًا حريريًّا أسود طويلاً، وحذاءً طويلاً بشعر كثيف على هيئة رجل الماعز. له قرنان أحمران منتصبان أعلى الرأس وأظافر طويلة سوداء. وجدت

نفسي مفزوعًا أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، بينما الشيطان يبتسم في وجهي. كانت لحظه عبثية اعتقدت فيها أنني في حساب الآخرة وأنه سيكون بالشلنات. كان انزعاجي جدّ عظيم، لأنّ الأمر حدث بشكل مفاجئ وسريع، وثانيًا لأنني لم أنم ليلتي الماضية جيدًا بسبب البرد الشديد وانكسار زجاج شباك الغرفة. قال لي الشيطان في لهجة ألمانية واضحة ولكن بصوت امرأة:

"هل لي أن أساعدك؟"

وانفرج الوجه عن نابين طويلين ظهرا أكثر طولاً وشراسة. تردّدتُ لحظة وعدتُ خطوة إلى الخلف. تقدّمتْ الشيطانة خطوتين فصارت فوق رأسي وكانت فارعة. فتحتُ عينيّ عن آخرهما منزعجًا. كان خلفها فتاة على هيئة ملاك بريء، تتحرك وتبتسم لي أيضًا. فاتجهت ناحية الملاك، لكنى سمعت منها صوتًا رجوليًا شابًّا يقول:

"هل لي أن أساعدك؟"

كنا في آخر يوم من هذا الشهر من مناسبة أعياد الكرنفالات في ڤيينّا، التي يلبس فيها الناس هذه الملابس العجيبة ويظهرون في أشكال غريبة كأننا في مشهد من فيلم ضخم، ولم أكن قد رأيت ذلك من قبل. فقط انتبهت في صباح ذاك اليوم إلى أشكال الأطفال الطريفة. كانت وجوههم مصبوغة بالألوان ورُسِمَتْ خطوط على أيديهم، ووُضعَتْ على أكتافهم وظهورهم أجنحة متنوّعة ولبسوا ملابس طريفة. اعتقدت أن هناك عيدًا للأطفال في هذا اليوم يظهرون فيه بهذه الأشكال المبُهجة

لحيوانات وطيور وحشرات وأشكال أخرى أسطورية. لكنّي لم أكن أتوقّع أن يفعل الكبار أفعال الصغار؛ فمدير البنك الذي أعرفه من شكله، احترت فيه وهو في زيّ امرأة. وقد تفنّن في ترفيع حاجبيه وتلوين فمه ووجنتيه ولبس شعرًا مستعارًا وفستانًا قصيرًا وحلق شعر رجليه بالتأكيد. خرجت يومها من البنك بين ضحك وارتباك. وبسبب شدّة إرهاقي في هذا اليوم اعتقدت أنني أحلم بكابوس غريب.

نقضي معًا وقتًا طويلاً مبهجًا في بيت النخيل. حكيمة تبدأ في المبالغة في حركتها وهذا يعني أنها تبدو غير مرتاحة وترغب في العودة. نقوم جميعًا من المكان الذي يتأمّله أبو درش وهو يرفع وجهه إلى السقف ويصيح:

"عجيب. ألا يفكر النمساويون في أن يحتفظوا ببعض منّا أيضًا في بيوت من زجاج قبل أن ننقرض؟"

الجو في الخارج يكون أشدّ برودة. تلتصق بي ساندرا. أدعو أبو درش لشرب قهوة سريعة في المقهى القريب لاستكمال الحديث الطريف معه. لكنّه يعتذر بالرغبة في الذهاب لزيارة صديق منهار عصبيًّا ونفسيًّا. أسأله:

"ماذا به؟"

يقول أبو درش بعد أن يسحب نَفَسًا عميقًا من سيجارته:

"صديقي يعمل في دار لرعاية المسنّين منذ سنوات طويلة وهو عمل شاقّ كما تعرف. أرسلتْ له أمه رسالة بمرضها منذ شهور طويلة، وهو ابنها الوحيد، لكنها لسببٍ ما لم تصله، وكان نادر الاتصال بأهله ولمّا

اتصل بهم أمس، علم بأنها ماتت. لم يحتمل، فهو يرعى هنا كبار السنّ في هذه البلاد منذ سنوات ويعاني من عجرفة الحياة الصعبة. حتى يرسل لأمه وأهله بعض المال القليل كي يعيشوا.

لم يغفر لنفسه أنه يرعى هنا المسنّين والمسنّات ولا يستطيع رعاية أمه المسنّة هناك. أصيب بشرخ مؤذٍ في نفسه؛ إذ لم تعوضه شلنات النمسا الشحيحة- التي تروح قبل أن تأتي- عن العودة يومًا ورؤية أمه.

تتألّم ساندرا كثيرًا لهذه الحكاية. أرى الدموع في عينيها. لا أستطيع أن أقول أيّ كلمة. نودّع أبو درش ونركب المترو. حكيمة تهدأ داخل صدري بينما ساندرا شبه غائبة عنّا على غير عادتها. أخمّن أن تكون حكاية أبو درش الحزينة هي السبب في غمّة صدرها.

في اليوم التالي تزورني ساندرا في محل الحيوانات. تبدو بهية مبتهجة بالحيوانات كأنّها داخل حضانة أطفال. أمازحها كي تشتري قطة أو كلبًا. ثم أستأذن صاحب المحلّ وأخرج في فترة راحتي معها. نجلس معًا في مقهى قريب. يدها في يدي الآن وفي عينيها بريق سؤال. أصمت وأنتظر. تقول ببحّتها المثيرة حين تحاول أن تنطق اسمي صحيحًا:

"حمزة!"

"نعم!"

"حمزة، ما رأيك لو نتزوّج؟"

"نحن؟ نتزوّج؟ "

“هل تراني أحدّث أحدًا غيرك؟”

“هذا أروع خبر! لكن.. كيف..؟ متى..؟”

يصير كلامي متقطّعًا وأسئلتي لا أسئلة. أقترب منها وأقبّلها في الطريق العام وأنا نادرًا ما أفعل هذا الفعل في الأمكنة العامة. في المرّات القليلة التي قبّلتها فيها عفويًّا في الطريق شعرت بأنني شبه عارٍ. أحسست بالخجل رغم أن رؤية هذه القبلات قد أصبح وضعًا عاديًّا لي في هذه البلاد، بل هو عندي أفضَل ألف مرّة من رؤية عراك مسعور وسباب قبيح في الطريق، وهو ما لم أرَه أبدًا منذ أن وطئت قدماي هذه البلاد.

أشعر بفرحة عارمة تنتابني، فهي زوجتي الأزلية. منذ اليوم الأوّل وأنا أحسّ بأنها زوجتي وحبيبتي ورفيقتي وصديقتي وكلّ أهلي. أقبّل أصابع يدها في رفق ويعلو وجهي الحبور. كأنّي أرى وجهها يضيء، كأنّ الأصابع التي أقبّلها من نور. لكنّي أشعر برجفة خفيّة؛ فلم أكن أتخيّل يومًا أنني سأتزوّج من كثرة مَنْ فقدت في هذه الحياة. لكم تمنّيت أن تكون لي أسرة لكنني كنت أخشى في آنٍ أن أفقدها!

أرتبكُ حين أنظر في الساعة. الوقت يمرّ معها كالبرق. أعتذر لها وأقبّلها من جديد على عجل وأهرع إلى المحلّ. أرجع لأضع ثمن القهوة على المائدة وأقبّلها من جديد.

في المساء أعود فرحًا بدفء الشقّة. أعود قبل ساندرا التي ستزور أخاها في مساء هذا اليوم. حكيمة تتشمّمني بطريقة بوليسية، رائحة الحيوانات جديدة عليها. أداعبها قليلاً فتبقى إلى جواري.

أشغّل جهاز التسجيل وأستمع إلى أسمهان، أغنّي معها وأنا في طريقي إلى المطبخ لتجهيز شوربة زبادي على طريقتي، متأكّدًا أنها ستنال إعجاب ساندرا كالعادة. حالة المرح تتغلغل في أوصالي؛ فأفتح زجاجة نبيذ أحمر من منطقة كريمس، أتركها بعض الوقت حتى يستقرّ طعمها. حديث ساندرا معي بعد ظهر اليوم عن رغبة الزواج يجعلني أكثر ارتباكًا. أندم على تلعثمي وعدم حسن ردّي على كلامها. أنتظرها الآن حتى تأتي لأجعل لها المساء رائعًا مثلها.

تأتي وتدخل يسبقها هذا الفيض اللطيف الذي يغمرني. تشمّ رائحة الطعام، تهرع إلى المطبخ وفي لحظات نجهّز معًا مائدة صغيرة في الركن. تحضر شمعة جديدة زرقاء جميلة وتضع وردتين في المزهرية الصغيرة، لا أعرف من أين أتت بهما، وأنا أحضر كأسين وطبقين من شوربة الزبادي. تحدّثني قليلاً عن أخيها وزوجته وعن سوزانّه. وفي هذا الجو الحميم وفي هذا الدفء مع هذا الوجه الفاتن، تعود بحديثها في الوقت المناسب كعادة المحبّين إلى يوم لقائنا الأول على درجات السلم في الحيّ الثالث؛ يوم صعدتُ ساندرا بعلبة طعام حكيمة. وكما هي عادة الحبيب أن يحاول مهما طال الزمن أن يتأكد من هذه الفترة الشفافة الأولى التي لا تُذكَر عادةً. تسألني:

"كيف رأيتني يومها وفيمَ فكرت؟"

أضحك وأتباطأ قليلاً لأسترجع اللحظات، بينما تقفز حكيمة وتجلس على حِجْر ساندرا، فتمهّد لي الحديث دون أن تدري. أردّ:

"يومها حقيقة لم أرَ العلبة التي في يدك. لمحتُ طلّتك بسرعة. وبقيت أنظر ليدك، لأصابعك، لكفّك، لذراعك. كانت يدك المرفوعة أمامي رقيقة ناعمة وشدّني صليل وشكل أساورك الفضيّة. أسرتني يدك من اللحظة الأولى. خَشِيتُ وقتها أن أنظر في وجهك طويلاً، لأني بالتأكيد إن فعلت؛ فلن أتنازل عن ترك وجهي معلّقًا بوجهك وعينيك. لكن في شقّتي- حين كنتِ مع حكيمة- كنتُ لا أدع لحظة تفلت دون أن أنظر لكلّ ما فيك. كنت مفتونًا بك. لم أفكر في أكثر من بقائك هكذا طوال اليوم تداعبين حكيمة وأنا أنظر إليكْما."

"صحيح؟"

"بل أكثر من هذا، لكن قبل أن أقول كل شيء. كيف رأيتني أنت؟ وفيمَ فكرتِ؟"

ملّستْ ساندرا على ظهر حكيمة التي قرقرتْ بصوتها ممتنة. قالت ساندرا:

"لم أفكر كثيرًا في هذه اللحظة. رأيتُك إنسانًا لطيفًا. رنّة صوتك كانت مريحة وفيك جاذبية هادئة. لكنّي كنت فعلاً مهتمّة بالقطة. وفي كل لقاء جديد كنت أرى فيك شيئًا يجذبني، والآن أصبح لحياتي معنى بك وبحبّك. وبعد أن حكَيْتَ لي حكايتك شعرتُ أنني جزء من الحكاية، فصرتُ أنا جزءًا منك وصرتَ أنت جزءًا مني."

كانت ليلة من أجمل الليالي. الآن أفهم معنى أغنية أسمهان، كأنّها ليلة عرسنا دون ضجة وضيوف وهدايا وملابس كاذبة. كانت بالفعل ليلة زفافنا دون أوراق أو مأذون أو شهود.

تتكرّر الليالي وبإحساس أعمق وأبهى. إنها الآن فعلاً ليالي الأنس في ڤيينّا. نسيمها روضة من ساندرا. أرى صفاء وجهها في هزّة أضواء الشمعة، في شعرها، عينيها، حاجبيها، وَجْنَتيها، أنفها، شفتيها، أسنانها، جيدها، صدرها، يدها، ذراعها؛ أتأمّلها كما يتأمل المفتون حبيبته. أسمع أنفاسها، بحّة صوتها ورنّة حليّها. أشمّ عبيرها الخفيف النديّ. أحسّ بها في مسارات دمي وخلجات تنفسي. يبهجني منظرها. يفرّ قلبي من مكانه وأرتبك ربكة عاشق مبتدئ. أضع للمرّة الأولى في مناسبة مثل هذه شريط أسمهان. يخرج الصوت العذب في هذه الليلة النادرة سحريًّا رائقًا. تفتح أسمهان بهذا الصوت العبيري المنساب كل أبواب ونوافذ ذكرياتي الرائعة مع ساندرا. لم أكن أتخيّل أنه سوف يكون لديَّ مكان لذكريات بهيّة بعد كل هذا الركام الثقيل من الذكريات الموجعة. الموسيقى تسري إلى جسدي مثل دفء في صقيع. أتحوّل بعدها إلى إنسان آخر. أكون خفيفًا رهيفًا طائرًا مسحورًا حالمًا، ماسكًا يدها ذاهبًا معها إلى سرّ الجنّة. وتستسلم لي ساندرا بطريقتها التي تتملّكني فيها. نروح خارج هذه الدنيا بأنفاس ليست من هذه الدنيا، ثم بكلامٍ وهمسٍ ومسٍّ ولمسٍ؛ فلهفةٍ وذوبانٍ ولذةٍ ونسيانٍ وتذكّرٍ؛ فهيجانٍ وحضورٍ وغيابٍ وشهيقٍ وزفيرٍ وضحكٍ؛ ثم آهاتِ لذةٍ ومتعةٍ لذةٍ ولذةٍ إلى ما لا نهاية اللّذة.

رغم إرهاقنا الفردوسيّ الممتع، لا تزال ساندرا متشوّقة لمعرفة المزيد

عني. لا تزال تحتضنني بعد الهبوط من الجنّة كأنّني سأفلت منها. كأنّ جسدها يوجه لي الآن الأسئلة المحبوسة بيننا منذ وقت طويل. تتأمّل جسدي العاري الممدّد إلى جوارها مثلما أحبّ أنا أيضًا أن أروي عينيّ بجسدها. فقد تعوّدنا بعد أن نعود من هذا العالم اللذيذ البعيد القريب، أن نظلّ زمنًا طويلاً معًا لا نفترق. نطيل هذا الوقت قدر ما نستطيع، ولو نعسنا على هذه الحال، فهو أجمل نعاس في الدنيا.

أتأمّلها برفق وأتساءل بيني وبين نفسي: كيف لجسدها الرقيق هذا أن يجعلني أشعر بهذه اللّذة الكبرى التي لا تضاهيها لذة؛ كيف لطاقة هذا المخلوق الرائع أن ترسلني إلى عوالم بعيدة ما كنت أتخيل أن أصل إليها؛ وكيف...

يقطع سؤالها مسار تفكيري:

"متى خُتِنتَ يا حمزة؟"

يفاجئني السؤال فأضحك:

"لا أذكر مِنْ ختاني أيّ شيء فقد حدث وأنا ابن أربعين يومًا. هكذا حكت لي أمي بعدها بسنوات طويلة. حكتْ لي كيف أنني بكيت بحرقة حتى بحّ صوتي بعد هذا الختان، وكم تألّمت أمي بعدها أشدّ الألم. وكيف أنّها رفضت خِفاض كريمة، لكنها قوبلت بهجوم شديد من الجميع، على اعتبار أن رفضها هذا هو استحداث لعادات غريبة تضرّ بالبنات. كان أبي أوّل المعارضين والقامعين لفكرة أمي، أرادت أن تستفسر منه عن حكمة هذا الخِفاض وفي أيّ كتاب مقدّس ذُكر هذا الخِفاض. خصوصًا

هذا الخِفاض السوداني البشع. ذكَّرتُه كم تألّمت هي يوم زفافها، وأنها كادت تموت يوم مولدي بسبب هذه العملية المشينة. ثار أبي يومها قائلاً أن الخِفاض مذكور في القرآن وهو وقاية للبنات من الفِتنة، ولمّا أرادت الاستفسار أكثر ونفَثَ أنه في القرآن تَرَكَها على عادته في الهزيمة وانصرف. في اليوم التالي كان قد جاءها بالحجّة المبينة والفتوى المُصيبة من لسان الشيخ الفكي بأن خِفاض البنات يُكثِر من الخَلَف؛ أيّ يجعل المرأة ولودًا ويحميها من الجماع مع الجان، لأنّ الجان كثيرًا ما يطأ النساء غير المخفوضات.

أصيبت كريمة المسكينة بسبب هذه العملية المريعة على طريقتنا السودانية المشينة، باستئصال أكثر الأعضاء حسًّا ثم رتقها بعملية إغلاق وترك فتحة صغيرة للتبوّل. لكن أمي استطاعت أن تحمي حليمة وتؤخّر من هذه العملية التي أرادها أبي في يوم واحد لينتهي همّه. كريمة المسكينة عانت لمدّة عام على الأقلّ من جرّاء هذه المذبحة. أصيبت بنزيف حادّ كادت تموت فيه ثم وُصِفتْ لها كل وصفات وقف النزيف، بالبنّ وبزيت الزيتون وزيت الخروع وعرق البلح، ولم تفلح هذه المحاولات ثم تعهّدتها أمي بمنقوع الشيح والصُّبّار البرّي وبعض الأعشاب البرية التي كانت توجد في منطقتنا حتى برئت، لكنّها أصيبت في هذه الأثناء بالحمّى وأصبحت لا تنام ليلاً ولا نهارًا. كانت تهذي بكلمات غير مفهومة. أمي فهمت منها جملة واحدة ردّدتها كريمة مرّات: "لا أريد أن أتزوّج أبدًا. لا أريد!" ظلّت أمي تغيّر لها كمادات الماء بالخلّ الدافئ وزيت الصُّبّار لتخفّف عنها هذا الألم والحمى التي تهري بدنها. أقسَمَتْ أمي

في ذلك اليوم إنها لن تقوم بخِفاض حليمة حتى لو ظهر الجنّ نفسه.

تسألني ساندرا:

"لكن ما الحكمة من ذلك؟"

"ليست هناك حكمة يا ساندرا. الناس عندنا يعتقدون بأن الختان يزيد متعة الرجل جنسيًّا ويبطله عند المرأة. فالختان أو الخِفاض ثواب وقداسة وطهارة لها، كأنّ الجنس هو النجاسة. مجتمع ذكوري سلطوي متناقض مهووس يبحث عن كل وصفات تقوية الرجال جنسيًّا وعن هوانها في النساء، وحين تنكبت وتقمع هذه المتعة عند الزوجة يفرح الزوج لأن الزوجة أصبحت عفيفة بلا رغبة، لكنه سرعان ما يغضب ويثور لأنّها بلا رغبة ويبحث عن بديلة."

تظلّ ساندرا مهتمّة بموضوع المرأة، تسألني عشرات الأسئلة الذكية وتفتح لي بوابة امتحان. تثور كثيرًا على غير عادتها من أمور ليس لي يد فيها. ألتمس لها العذر فما زلت رغم كل شيء رجلاً من هناك. رغم كل ما لاقيت من هوان من قبل المجتمع الذكوري العسكري المحتال.

تقفز حكيمة إلينا في السرير، فنتخلّص من هذا الحديث المشحون. أعود لمداعبة ساندرا. أحاول أن أترجم لها بعض النكات العربية. أتحمّس وأبالغ في التمثيل، أعتقد أنها تفهم كلّ شيء من كركرة ضحكها العالية التي لا تتوقّف. تقول في النهاية:

"لم أفهم أيّ كلمة!"

“علامَ كنت تضحكين إذًا؟”

“من طريقة إلقائك البارعة وبسبب حكيمة؛ إنها تلعب هناك في أصابع قدمي.”

نضحك معًا من جديد لوقت يطول، في عدوى جميلة تستمرّ لوقت طويل. ولا ندري في صباح الأحد متى رحنا في النوم. أو متى جاء النوم إلينا.

{١٤}

مطار فيينّا الدولي- الاثنين العاشر من مايو عام ١٩٩٩

"هذا هو النداء الأخير: تُعلن شركة الخطوط الجويّة المصرية عن قيام رحلتها رقم ٨٠٢ المتّجهة إلى القاهرة.. على حضرات السادة الركاب التّوجّه إلى باب الخروج A "

الجوّ خارج المطار غائم وممطر في هذا اليوم. صوت النداء الأخير يأتي خافتًا بعيدًا. القطة ترتعش، مبتلة تمامًا، شكلها يثير الإشفاق.

فيينّا، الحيّ السابع- السبت التاسع من يناير عام ١٩٩٩

أفتح باب الشقّة وأدخل. أستغرب من عدم ركض حكيمة كالمعتاد لمقابلتي. أخلع حذائي فأسمع صوت حركة خافتًا خلف باب غرفة المعيشة، المغلق الآن. أظنّ أنني تركته في الصباح مفتوحًا. الساعة الآن الثالثة بعد الظهر وساندرا لن تعود قبل ساعتين من عند أخيها. أفتح باب الغرفة لأفاجأ بجمع غفير مع ساندرا يطلقون كلمة واحدة معًا:

"مفاجأة!"

تكون مفاجأة احتفالية بعيد ميلادي الثاني والثلاثين الذي يحين بعد يومين. تُفضِّل ساندرا أن نحتفل به في يوم إجازة السبت ليتمكّن أكبر عدد من الأصدقاء من الحضور. الآن أفهم سبب تكرار سؤال ساندرا في الصباح عن ساعة عودتي بالضبط من العمل في هذا اليوم. بعد أقل من أسبوعين من احتفالنا بعيد رأس السنة نقضي من جديد احتفالاً رائعًا. لا أتوقّع الحصول على كل هذا الكمّ من الهدايا الجميلة والطريفة. أجملها بالطبع هدية ساندرا: للمرّة الثالثة؛ بطاقة سنويّة لبيت النخيل. نسهر جميعًا حتى الفجر. لا ينقطع الحديث والضحك. لكن ساندرا تبدو مرهقة، حول عينيها حلقات غامقة كأنّها لم تنَمْ من زمن. أراقبها من بعد، أراها تأكل قطعة صغيرة من التورتة ببطء وتترك البقية في الطبق، لكنّها لا تتوقّف عن الإنصات والمشاركة بالحديث والضحك.

بدءًا من الثالثة صباحًا يغادرنا الأصدقاء بالتدريج. يذهب آخرهم في الخامسة وتنضمّ إلينا حكيمة. نجلس قليلاً لنستكمل ما لم يسمعه كلّ منّا من الحكايات الكثيرة التي تناثرت في الغرفة، ثم نعيد الشقّة سريعًا إلى رونقها القديم. أعرف أن ساندرا حتى ولو كانت في أقصى حالات الإعياء لن تنام إن لم تُصبِح على شقّة منظّمة مرتّبة. أطلب منها أن تجلس لتستريح من عناء اليوم لكنها ترفض. نلملم معًا كلّ آثار الاحتفال. تقف معي في المطبخ. أغسل الأطباق والأكواب وهي تقوم بتجفيفها. نضحك كثيرًا على نوادر وحكايات الأصدقاء. ونعيد بعض التساؤلات عن أطراف أحاديث لم تتمّ، ثم نتّجه معًا إلى السرير

مرهقيْن ونور الفجر يبدو من النافذة. قبل أن ننعس تقول لي:

"لا تنسَ! عصر اليوم سنذهب معًا لبيت النخيل للاحتفال وحدنا بعيد ميلادك."

في بيت النخيل أستعيد معها زيارتنا الأولى قبل سنتين. نجلس على ذات المقعد. كل شيء يبدو مثلما كان منذ عامين: الجوّ، الهدوء، الدفء. الذكريات تلوح قريبة كأنّها لحظة مرّت، أو كأننا لم نتحرّك من مكاننا هذا أبدًا طوال العامين. تتنقّل حكيمة بيننا مرّتين فقط طوال فترة جلوسنا الطويل لتستقرّ على حِجْر ساندرا ثم تنام. يستدعي خاطري هذا الحلم القديم الذي راودني هنا قبل عامين؛ أتذكّر أن الحلم كان عن وجودي في مكان غريب. كنت أحلم أنني أسير في مكان مظلم جدًّا. لا أرى شيئًا حولي، ولا أعرف من أين أتيت، ولا إلى أين أذهب. وكنت أسمع صوت قطة، تبعتها حتى أنقذتني من تيهٍ ما.

في الأسابيع الأخيرة يتداعى هذا الحلم مع حلم آخر طويل أحلمه متقطّعًا على حلقات. أجاهد كي أتذكّر مشهدًا لأسرده الآن على ساندرا، لكنه يأبى. فجأة كالحاوي تُبرِز ساندرا ألبوم صور كبيرًا. لا أدري من أين؛ ألبومًا لصورها الذي شاهدتِ بعضًا منه عند جدّتها في كريمس. أفرح كثيرًا لهذه اللفتة؛ فأنا ألحّ عليها دائمًا لأرى صور طفولتها وصباها المتناثرة وسط ألبومات العائلة، ويبدو أنها جمّعت الكثير من صورها في هذا الألبوم أثناء زيارة أعياد الميلاد الأخيرة في كريمس. الصور التي أمامي

ستمنحني منذ الآن فرصة هادئة وطويلة لِبحر من الأسئلة المتعلّقة بحياة ساندرا.

نضحك كثيرًا على الصور الأولى لساندرا وهي رضيعة صغيرة، تبدو في جمالٍ طفوليٍّ فتّان، تذكرني بدميتين اشتريتُهما منذ سنوات بعيدةٍ لكريمة وحليمة. تتوالَى صورها وهي تحبو ثم وهي تخطو خطواتها الأولى، ثم صور المدرسة والمناسبات والرحلات المدرسية والعائلية، ثم صور مع الصديقات والأصدقاء وصور رحلاتها الخاصّة. حين نأتي لصورها في معهد الباليه نصمت، تقلّب الصور في حسرة واضحة وأتوقّف عن الأسئلة. تأتي صورنا مع الأصدقاء وأخيرًا صورنا معًا في أمكنة عديدة: عند الدانوب وداخل ملاهي الپراتر وفي قصري الشونبرون والبِلْڤيدير وفي بعض الحدائق، ثم في البيت وفي بعض المدن التي زرناها معًا. أظهر في شكل يثير ضحكي في الملابس الشتوية، وفي أغلب صورنا تبدو حكيمة إمّا معها أو معي أو بيننا. تراني ساندرا فرحان بتقليب صفحات الألبوم واستعادتها من البداية أكثر من مرّة، مستمتعًا بتَلَكُّئي في التفرّج المتمهِّل. تغلق الألبوم في النهاية وتقول:

"هذا الألبوم هديّتي لك. عندي كفاية من الصور لدى العائلة. كنت أتمنّى من كل قلبي أن أرى صورك أيضًا وأنت طفل صغير."

يصبح بيت النخيل بمثابة بيتنا الآخر. أشعر فيه بإلفة كبيرة. فيه عشتُ وفرحتُ وحلمتُ وتذكرتُ وضحكتُ وحزنتُ، بل فيه أحببتُ. كل هذا في عامين فقط.

أُذكّر ساندرا بأن تعجّل من إجراء التحليلات والفحوصات المطلوبة مؤكّدًا لها بأنني سأرافقها إلى المستشفى. أقول لها:

"بدءًا من الغد سأعمل نصف يوم لأكون معكِ. صاحب العمل رجل طيّب يرتاح لي الآن، وأنا واثق من أنّه لن يرفض لي هذا الطلب."

اليوم للمرّة الأولى في هذا الأسبوع يظهر الجوّ رائقًا مشمسًا. هذا السطوع النادر مع سماء زرقاء في الخارج كأنّها تدعونا للخروج. يعجّل من الفكرة امتلاء بيت النخيل بجماعات صغيرة ممّن تعوّدوا الصراخ في حديثهم العادي. تقول ساندرا ونحن في طريقنا للخروج:

"منذ زَمَن لم أشاهد حديقة حيوان الشونبرون. قرأتُ عن بعض التغييرات الجديدة وعن توسّعات جديدة رحيمة بالحيوانات. ما رأيك لو نذهب إلى هناك؟"

"لا مانع. على الأقل سترى حكيمة أقاربها."

حكيمة لا تزال مستغرقة في نوم هادئ طويل داخل معطفي ونحن في الطريق إلى حديقة حيوان الشونبرون. بعض الحيوانات التي أراها تستدعي من ذاكرتي أيامًا بعيدة. أتذكّر كلبي سَمِح والقطط التي كانت لنا ونحن صغار في ودّ النّار. أتذكّر 'سوميت'- أرض الشيخ الشريف في السودان. أتذكّر خروف العيد؛ أتذكّر زميلي الذي أنقذني من الأَسْر ثم أتذكّر أخيرًا اصطبل الزهراء. أتخيّل درجة حرارة الجوّ في السودان وفي مصر في هذا الوقت من شهر يناير. ونحن هنا لا نرى الشمس إلا نادرًا. لا نزال نرتدي الملابس الشتوية ونستعمل في شققنا

أجهزة التدفئة. أقول لساندرا:

"ليتني أحصل مرّة أخرى على فرصة عمل في هذه الحديقة."

نجلس على مقعد هادئ في دفء الشمس عليه جريدة. تتصفّحها ساندرا بسرعة وتهزّ رأسها في استياء أو تعجّب. قبل أن أسألها تبادرني:

"هل عامَلَكَ أحد في النمسا معاملة سيئة يومًا ما دون سبب؟"

أضحك قائلاً:

" دون سبب؟ لا أعتقد أن هناك معاملة سيئة دون سبب. لكني أتذكّر حدثًا منذ خمس أو ستّ سنوات تقريبًا في أحد الشتاءات؛ ففي يوم كنت أزور صديقًا لي دون موعد ولم أجده. كان الجو في منتهى البرودة، دخلت إلى مقهى وأردت أن أشرب أيّ شيء يحرّك الدفء في أوصالي المجمّدة. خلعت معطفي وعلقته وجلست. كان صاحب المقهى مشغولاً مع من يبدو أنهم زبائنه الدائمون وهم منهمكون في لعبةٍ ما. ورغم أنّه رآني وأنا أدخل وأجلس في مكان واضح، إلا إنّه لم يأتِ إليَّ، وكلّما رفعت يدي تجاهلني. اعتقدت أنّه ضعيف النظر ناديت عليه، لم يردّ. اعتقدت أنّه ضعيف السمع، فوقفت وذهبت إليه وطلبت مشروبًا. نظر لي باستهتار وقال بحدّة كأني طلبت طلبًا غريبًا:

"أنا لا أخدم الأجانب!"

ضحكتُ وظننته يمزح، لكنه كرّر كلامه بإصرار:

"في هذا المقهى لا نخدم الأجانب!"

بينما نظر لي اللاعبون ببلاهة عجيبة وقالوا كلامًا بعامية صعُبَ على فهم ألغازها، قلت له:

"لكن هذا مقهى عام!"

"فليكن!"

هزّ كتفيه بلا مبالاة وعاد يثرثر مع أصدقائه كأنّي غير موجود. بدا لي أن الموقف سيكون أكثر سخافة لو أصررت على خدمتي. عدت إلى معطفي. لبسته وخرجت.

صاحت ساندرا:

"ألم تذهب إلى قسم البوليس؟"

"لماذا؟"

"لتسجّل محضرًا بالواقعة. القانون لا يعطي الحق لصاحب أيّ محلّ في الامتناع- دون سبب وجيه- عن تقديم الخدمة المعتادة والمتوقّعة تجاه العملاء."

"لقد قالها الرجل بوضوح وسينكرها بالتأكيد أمام المُحقّق. أو ربما في أحسن الأحوال سيقدّم لي المشروب تحت ضغط القانون، وسأجلس لأشربه كأنّي أتجرّع سُمًّا. هل تتوقّعين حقًّا أن تتغيّر أخلاق هذا الرجل وأحكامه المُسبَقة بقوّة القانون؟"

"لكن الحقّ..."

"يا ساندرا هذه ليست المشكلة، فأمثاله موجودون بما فيه الكفاية في كلّ مكان، وأغلبهم يُظهرون غير ما يُبطنون. الأحكام المسبقة لا يمكن منعها بقانون."

"لكن كان من الممكن أن تأخذ حقّك!"

"الأحكام المسبقة ليست مرضًا قابلاً للعلاج. الأحكام المسبقة أغلبها فولاذ لا يقبل الصهر."

يستمرّ حديثنا الطويل بين جدّ ومزاح، فلا ندري كيف سرنا ولا ماذا ركبنا، إلا حين نقف أمام البوّابة لتبحث ساندرا عن المفتاح. حكيمة لا تتقلّب كثيرًا على عكس عادتها، حتى هناك في حديقة الحيوان لم تثر الرائحة فضولها. أخشى أن تكون مريضة. لا أوفّق في إبعاد هواجس المرض عن ذهني؛ ففي الأيام الأخيرة أتعذّب بين خشيتين: مرض ساندرا ومرض حكيمة.

في الشقّة تسألني ساندرا سؤالاً من أسئلتها المفاجئة:

"لم تحكِ لي يا حمزة عن الفتيات اللاتي تعرّفت عليهنّ في ڤيينّا. ألم تكن لك مغامرات؟"

"في سنواتي الخمس هنا في ڤيينّا- قبل أن أرى حبيبة عمري ساندرا- تعرّفت على فتاتين. المرّة الأولى كانت بالطبع عن طريق 'أبو درش'، الذي كان يلحّ عليَّ ويحثّني دائمًا للتعرف على فتاة. كنت ما أزال خجولاً بسبب ضعف لغتي الألمانية، لكن في وجودي معه كنت أستريح، لأنّه مهرّج ومزّاح غير عادي ويجعل أيّ جلسة حيوية وخفيفة الظلّ. عرّفني

'أبو درش' على فتاة اسمها 'إيفا' من عائلة ميسورة. كانت طالبة في الثانوية العامة ورشيقة جدًّا. تختار أكلها البسيط بعناية كبيرة. كنت ألاحظ اختفاءها الفوري بعد تناول الأكل. في البداية لم أهتمّ، لكنّي سمعتها مرتين في شقّتها تتقيّأ بعد تناول الطعام. خفتُ عليها وعرضت أن نذهب لطبيب، لكنّها طمأنتني أن هذا أمر معتاد. عرفت فيما بعد أنها مصابة بوسواس البدانة أو النحافة. تعبتُ في نصحها وصدّتني- حين صرت جادًّا في رأيي- بأنَّ هذا من أمورها الشخصيّة ولا يجب أن يتدخّل فيه أحدٌ أيًّا كان. صبرت فترة طويلة، وعندما بقيَتْ أحاديثنا لا تخرج عن موضوعات البدانة والنحافة والصحة والمرض، ولم أهنأ معها بطعام ولا بشراب. افترقنا."

"وهل تعرّفت على غيرها؟"

"المرّة الثانية حفّزتني فيها فراو إيريكا. سألتني مرّة لماذا لا يكون لي صديقة مثل كل الشباب في سنّي تجعل وقتي مبهجًا وحياتي مثيرة. مدَحَتْ وسامتي وقدرتي على التحدّث بالألمانية بشكل أفضل، وأنه يجب عليَّ أن أخرج في المساء وأرى المدينة والناس، لا أن أجلس هكذا طوال الوقت أمام هذا الصندوق الأبله لأشاهد من خلاله هذا الهراء. في الحقيقة رفعت بكلامها من روحي المعنويّة وألهمتني الجسارة. وبعد فترة قصيرة تعرّفت على الفتاة العاملة بخزنة السوبر ماركت القريب. كانت فتاة أنيقة وطيّبة اسمها 'داجمار'، لكنّها كانت عجيبة الطباع؛ ففي أوّل مرّة اختلينا فيها معًا بعد ثلاثة أسابيع تقريبًا وكنّا في شقّتها،

خلعت ملابسي في لمح البصر لأجدها تخلع كلّ قطعة من ملابسها بهدوءٍ شديد وترتبها بعناية كبيرة، كأنها ستُعيد كلًّ قطعةٍ إلى رفٍّ في الدولاب. كنّا في الشتاء وكانت ترتدي ملابس كثيرة. كانت تفعل كل شيء بالتصوير البطيء. اعتقدت في البداية أنها تمزح وأن هذه طريقة جديدة للإثارة لا أعرفها، لكنّها كرَّرت الأمر في المرّة التالية وزادت عليها بألاّ ألمس شعرها لأنها كانت في هذا اليوم عند الكوافير. في المرّة الثالثة حين بدأت تعاود طقوسها هذه وكنتُ عاريًا، قمتُ من مكاني وأحضرت المكواة الكهربائية وبدأت أكوي لها الملابس التي تخلعها. استغربت من الأمر، فقلت لها إنني أرى بعض الكسرات على فستانها، تصورتني جادًّا في حديثي، لكن بعد أن انتهيتُ من الكيّ. لبست ملابسي وغادرتها. كانت من هذا النوع المصاب بعصاب الترتيب والنظام. لم نعد نلتقي بعدها، وغيّرْتُ بسببها السوبر ماركت القريب إلى واحد أبعد. بعد ذلك خشيت من أيّ علاقة جديدة. انتابني إحساس غريب بأنّ كلّ فتاة جميلة تُخفي في سريرتها وسواسًا غريبًا غير مرئي. بقيتُ فترة طويلة محترسًا، إلى أن التقيت بفتاة أخيرة وسواسها محبّة لا حدود لها."

تضحك ساندرا ضحكتها الخلابة وتسألني:

"هل تحبّني يا حمزة؟"

"لا طبعًا!"

أقولها وأنا أضع كفّي الدافئة على خدّها. أزيح شعرها برفق وألثم شفتيها المبتسمتين، فتُغمض عينيها وتتنهّد تنهيدتها الجميلة

الشاهقة. أمَسّ جيدها بظهر كفّي فيستطيل عنقها لقبلة جديدة أطول.

ساندرا تكرّر بعض ألفاظي وتضحك من حكاياتي. تنام كرضيع إلى جواري نومتها الصافية العميقة. على طرفي ثغرها تنطبع ملامح ابتسام من بقايا ضحك الليلة، لكن يعكّر جبهتها سطور شفيفة من القلق وشيءٌ ما لا أدركه. لا أجد عزاءً لما ينتابني من أفكار مقلقة.

ففي الوقت الذي يشعر فيه المرء بفرحة عارمة لتعرّفه على إنسان نبيل- يشعر بندم خفي لأنه لم يلتقِ به في وقت مبكر، يلوم نفسه على صدفة ليست بيده وعلى قدَر كان يجهله. هذا هو شعوري الآن تجاه ساندرا. إحساس خفي لا يعزيني بمسئوليتي عن تأخّري في التعرف إليها في سنتي الأولى في فيينّا، وليس بعد خمس سنوات جدّ طويلة. هذه الحسرة لا حيلة لي في أن أمنعها من تكدير راحة بالي. يتزايد شعوري أكثر من أيّ وقت مضى بأنّني مقصّر تجاهها في أشياء كثيرة، كان عليَّ أن أفعلها ولا أدرك ما هي.

تزداد حالة ساندرا سوءًا. فقدان الشهية والهزال واضحان عليها. حالة الغثيان تتكرّر وتبدأ في الشكوى من آلام في البطن والظهر، تفقد الكثير من وزنها في أيام قليلة. أرافقها إلى المستشفى العام في فيينّا لإجراء تحليلات وفحوصات، ثم يتغيّر الأمر من فحوصات روتينية عادية إلى شيء من الجدية والصرامة. تتزايد الفحوصات ويتداولها الأطباء.

تُحجَز أخيرًا في المستشفى. أبقى جوارها حتى المساء المتأخر. وتتوالى وجوه الأطباء بشكل لا يُطَمْئِن. صمتٌ مرعبٌ يكويني وتبقى كلمة واحدة تتكرّر على أفواههم:

"نحن غير متأكدين بعد!"

تكون أسوأ ليلة أنامها وحدي مؤرّقًا في الشقّة. بل تزداد كآبتي حين أجد أن حكيمة قد تقيّأت قبل عودتي وأن حالتها مزرية. أنحني عليها أتأمّلها عن قرب وهي تتحرّك ببطء عليل. أرفعها إلى السرير. تنام هي ولا أنام. أسحب ألبوم صور ساندرا وأقلّب الصفحات لوَقتٍ طويل. أتذكّر الزمن القريب الذي يتحوّل الآن إلى ذكرى. عند الفجر أجد حكيمة لا تتحرّك. أهزّها تموء بصوت خافت. أرتاح مؤقتًا لسماع صوتها. وأتخيّل كيف كنت أضحك مع ساندرا قائلاً:

"إن هذه القطة لو كانت بَشَرًا لصارت بصوتها هذا مغنية جاز."

أنام نومًا قلقًا حتى الثامنة. أهزّ حكيمة من جديد. صوتها يبدو أكثر خفوتًا. أبحث في دليل التليفون عن أقرب طبيبة بيطرية وأذهب إليها بحكيمة. تقول إن حالتها سيّئة جدًّا. تحْقنها وتعطيني بعض الأدوية لها. أعود بها إلى الشقّة وهي كالمخدَّرة. تبدو في غاية الضعف والاستكانة.

في الثانية عشرة أُسرع إلى المستشفى. تترجّاني ساندرا أن أتصل بوالدها فالأمر يبدو جادًّا. يدخل مجموعة من الأطباء وتختفي ساندرا. أتصل بوالدها. بعد حوالي ساعتين يقف والدها وجدّتها وأخوها أمامي

وساندرا لم تظهر بعد.

ليلة أخرى أسوأ من الأولى. يعزّيني تحسُّن حالة حكيمة نسبيًّا. قلبي وكياني عند ساندرا التي لم يقُل الأطباء كلمتهم عن حالتها الأخيرة بعد.

ثم ليلة أخرى دون نوم. وفي نهار اليوم الثالث يؤكّد الأطباء إصابة ساندرا بسرطان في البنكرياس وأن حالتها متقدمة غير قابلة للجراحة. لا يبقى أمام الأطباء سوى المعالجة الإشعاعية والكيميائية بعد أن انتشر هذا المرض الصامت خارج البنكرياس. أبقى جوارها في المستشفى طيلة النهار. تكون في حالة إعياء بدنيٍّ تام. تنام. يتوالى الأقارب والأصدقاء على غرفتها، وأنا أخرج وأدخل كحيوان محبوس في قفص. أتبادل كلامًا مقتضبًا مع الكلّ ولا أعي ما أسمع ولا ما أقول. تقول لي ساندرا، حين تفيق قليلاً عند العصر، إنها ترغب في رؤية حكيمة.

في الليل المؤرّق يصبح وجودي بمفردي في الشقّة أكبر عذاب. أستلقي على ظهري في السرير. تبدو الأضواء الآتية من الخارج على سقف الغرفة مثل خيالات أشباح. أرى في حركاتهم أشكال وحوش تتصارع؛ أشكالاً غريبة لجوارح وطيور متوحّشة وحيوانات ذات ألسنة طويلة وأنياب ومخالب حادّة. أظلّ أتقلّب طويلاً في مكاني وعند الفجر أتوه في نفس الحلم الذي يتكرّر في الأيام الأخيرة، الحلم الذي أحاول أن أحكيه منذ أيام لساندرا في بيت النخيل وفي كلّ مرّة يتوه منّي:

... لا يزال الرجل الأحدب أمامنا في السرداب الطويل؛ الرجل ذو البالطو الجديد والقبعة القديمة، ونحن خلفه. فجأة أسمع أصواتًا تتعالى وتتداخل وتتصايح. يجتمعون في حلقة حول شيء، أسمعهم يقولون: 'صندوق! صندوق!' يحاولون واحدًا بعد الآخر فتح الصندوق، باليد وبالرجل، بالخبط وبالدقّ. حين ينفتح الصندوق تعلو طبقة كثيفة من العفار والغبار. أستغرب أنهم يذكرون أسماء كل ما يعثرون عليه بصوت واضح كأنّهم في مزاد أو سوق. يركضون جميعًا نحو شعاع الضوء الخافت حاملين أو جارّين أشياء لا أراها. أشرئبّ بعنقي من بعيد بفضول وجسدي مرهق. أصيخ سمعي. أقول في سرّي: 'ربما عثروا على كنـــزا!' لكنّي لا أعرف لماذا اندفعت أصلاً في السير هذه المسافة الطويلة معهم وبتلك الحقيبة. أتذكّر ثقلها فأفتحها بسرعة وأُلقي بكتاب الطبخ الضخم جانبًا. تأتيني أصواتهم مختلفة: نسائية ورجالية وخِناثيّة، رقيقة وجشّة وطفولية وبالغة. أسمع:

هذه علامات عسكرية!

وتلك أوسمة!

وهذه ب هـ م ...!

وهنا أزياء موحدة 'يوني–فورم' رجالي وحريمي!

انظروا إنها سيوف رمحية!

لا، تلك س ك ل ...!

هذه أوعية السرّ المقدس!

ودفاتر توفير قديمة!

إنها ف د ر ...!

وهذا كتاب لوصفات أدوية!

وهذه أعلام!

إنّها كتب قوانين قديمة!

لا، نعم، هذه ل ل ل ...!

أسمع أسماء أشياء أخرى ونعوتًا لا أفهمها. أفكّر في أن أفتح معجم «دودِن Duden» للغة الألمانية، أدرك أنني لن أرى، على أي حال أُفضّل الإنصات مع محاولة تذكّر الكلمات المنطوقة. تصلني مع كل شَدّة من الصندوق حفنة من الغبار العَطِن فأضطر لسدّ أنفي بيدي.

يرفع الرجل العجوز الأحدب بطاريته في اتجاه الصندوق ليجعل المجموعة ترى ما تفعل. أتبيّن من مكاني أشباح ظلالهم على الجدران. أرى في حركاتهم أشكال وحوش تتصارع؛ أشكالاً غريبة لجوارح وطيور متوحشة وحيوانات ذات ألسنة طويلة وأنياب ومخالب حادّة. ولا أرى الآن من الكتلة الملتفّة حول الصندوق سوى هذه الظلال المتوحشة على الجدران.

يريدون أن يرفعوا الصندوق الثقيل من مكانه، فيحتاجون إلى همّة الجميع. يبدو أنهم نسوا وجودي. يطلبون العون من الرجل العجوز

الأحدب؛ فيركن البطارية على الأرض في اتجاه الصندوق. تدور ببطء في اتجاه عكسي. يعيدها لاتجاه الصندوق، فتعود للوضع العكسي. يتركها ويذهب إليهم، فيسقط شعاع ضوئها على لوحة زيتية من كتان، ألوانها تتضح بالكاد، مغطّاة بغبار وأنسجة عنكبوت ومعلّقة على مسمار طويل مائل إلى أسفل كثيرًا. عليها صورة امرأة لا يمكن تحديد عمرها، عيناها رائعتان تحملان لومًا واضحًا وفمها ما بين البسمة والتِوَاءة الحزن. يتدلّى فوق اللوحة بشكل عشوائي الصليب المعقوف: علامة النازيين؛ يظهر في حجم ذراع كبيرة من المعدن معلّقًا في سلسلة طويلة على المسمار الذي يحمل اللوحة. يبدو أن الصليب المعقوف معلّق حديثاً بسبب لمعته النسبية.

هنا أقف من مكاني ناسيًا تعبي وإرهاقي حاملاً البطارية، مصوّبًا إياها على اللوحة وأنا متجه إليها كأنّي تعرّفت توًّا على صاحبة الصورة. ينتبهون إليّ. ينادون عليّ كي أساعدهم ويسبّونني لادعائي الطرش.

يبدأ الصليب المعقوف في الاهتزاز أفقيًّا كبندول ساعة كبيرة. يبدو كبيرًا كلّما تقدّمتُ. واللوحة بإطارها الضخم تنزلق ببطء على هذا المسمار الطويل الذي بدأ ينحني أكثر بسبب الثقل. أسمع أصوات الخلق بعيدة، تخفت تدريجيًّا لكنها لا تزال تناديني بأسماء ونعوتٍ غير اسمي.

في الصباح أقوم مرهقًا لا أدري للحظات أين أنا، ولا ماذا أفعل. مصابًا بحالة من اللخبطة الآنية والتشويش الذهني. أحاول فهم مغزى هذا

الحلم الغريب. لا أوفَّق. أبقى لحظات شاخصًا في السقف حتى تستقرّ عيني على حكيمة الرابضة قرب مخدة ساندرا. تقرقر بصوت أعلى يفرحني.

أدخل بمعطفي المنتفخ إلى المستشفى حَذِرًا. لا أجد ساندرا في سريرها. أسأل الممرضة. تُطَمْئِنُ جزَعي بأنّها بخير وستأتي حالاً. أنتظر قلقًا لتدخل ساندرا في روب البيت وهي تدفع أمامها عمودًا معدنيًّا يتحرك بعجلات صغيرة يتدلّى منه خرطوم رفيع بمحلول يسري إلى ذراعها. أذهب إليها وأساعدها في الاستلقاء على السرير. تسمع صوت مواء فتلتفت. أبتسم وأجلس إلى جوارها. أنظر حولي كلصّ ثم أفتح المعطف. فترى حكيمة رابضة عند صدري. لحسن الحظ لا يوجد أحد في الغرفة. أضعها جوارها على السرير مخفيًّا إيّاها تحت الملاءة. لكن حكيمة تخرج وتصعد حتى وجه ساندرا التي تقبّلها سعيدة. وأنا أنظر للخارج محترسًا من أن تأتي طبيبة أو ممرضة. تقول لي ساندرا إن حكيمة تبدو هزيلة. أخبرها بمرضها منذ أيام وذهابي بها للطبيبة البيطرية وأن حكيمة في طريقها للتحسّن وأن عليها ألا تشغل بالها كثيرًا. ثم يأتي 'أبو درش' حاملاً باقة زهور. ويجعل ساندرا تضحك حتى تتألم. وحين يكتشف وجود حكيمة ويعرف ما فعلتُ. يصرف انتباه الممرضة التي دخلت. باستفساره الغريب عن شيءٍ ما. فتساعده الممرضة بطيبة وتغادر معه الغرفة. يأتي والد ساندرا وجدّتها فيما بعد.

ثم بعض الأصدقاء. أتركها في وقت متأخّر حاملاً حكيمة معي بعد أن استقرَّت نائمة إلى جوارها ساعات.

تظلّ الأيام على هذا المنوال: زيارات يوميّة متكرّرة وتدهور في حالة ساندرا، ومع ذلك تبدو على عكس حالتها، متسامحة هادئة، رغم هزالها الشديد وسقوط شعرها الجميل بالكامل. تطلب منّي أن أُحضِرَ لها صورتي وصورة حكيمة لنكون معها في الغرفة دائمًا. تفاجئني بإعطائي ضفيرة طويلة قصّتها من شعرها وحفظتها لي قبل أوّل علاج كيميائي.

أشعر بفقدٍ شديدٍ ووحدةٍ مُوحشة في كلّ مرّة أعود فيها إلى الشقّة. حكيمة لم تعُد تستقبلني كعادتها بموائها الذي أشتاق إليه، ولا رغبة لها في طعام أو شراب. أشعر مثلها بعدم الرغبة في أي طعام أو شراب. الآن ليس هناك متّسع من الوقت لزيارة بيت النخيل، وكيف سيكون دون ساندرا وحكيمة!

ساندرا لا تزال كلّما التقينا أو تحدَّثنا قويّة البأس صبورة وذهنها صافٍ رغم الآلام، أمّا أنا فلا أنجح في إخفاء جزعي في الأوقات التي ألقاها فيها. تقول الممرضات لي إنهن لم يرين من قبل مريضة مثل ساندرا في جَلَدِها. في أوقات وحدتها كانت تدوّن بعض الكتابات في دفتر. قالت لي:

"أريد منك أن تحتفظ بهذا الدفتر يا حمزة!"

"بل أريد أنا منكِ أن تقرئي لي بنفسك ما تكتبين يومًا ما."

تصبح نهاراتي الفيينّاوية كئيبة وتمسي الليالي بلا طعم. أتفق مع

صاحب العمل أن أستمرّ في العمل لديه لنصف يوم فقط في الفترة القادمة ويوافق. أتصل بالعم ركابي وأشرح له الأحوال. يتأسّف كثيرًا ويواسيني بكلام أنا في أشدّ الحاجة إليه الآن. ثم يطلب منّي رقم تليفون ساندرا في المستشفى ليتصل بها، ويفعل. أجدها في اليوم التالي في حالة فرح استثنائية بسبب اتصاله بها. لكننا نتجنّب الحديث عن سفر قريب إلى مصر. تذكّرني ساندرا بالثمانية والعشرين شهرًا التي مرّت بنا معًا لحظة بلحظة. ذاكرتها قويّة الآن. تتذكّر أدقّ التفاصيل وتعيدها وهي في حالة صادقة من الابتهاج والسعادة، بينما أخفي حسرتي وخشيتي ممّا تخبئه الأيام.

تصير نهاراتي منسوجة بأمل كبير. أحسّ بوحدتي رغم التفاف الأصدقاء الذين يزورونني ويزورونها. أصير في أيامي الأخيرة كمن يجلس في قطار متوقّف لزمن طويل وينظر من النافذة إلى قطار مقابل، ثم يلحظ أن قطاره قد بدأ يتحرّك. فيرتاح أخيرًا لمجرّد الحركة وبدء السفر؛ يفرح بالتخلّص من إحساس الانتظار المملّ، لكن سرعان ما يكتشف أن الذي كان يتحرّك هو القطار المقابل وأن قطاره هو لم يبرح مكانه؛ يكتشف أن هذا المنظر الثابت الذي كان خلف القطار يعود من جديد ثابتًا متحدّيًا، فلا تبقى هناك سوى زفرة مرارة لا تخفّف من الكآبة.

أعود في أحد الأيام مبكرًا إلى الشقّة. أعرف أن حكيمة تنام كثيرًا في الأيام الأخيرة. أراها في السرير، في مكان لم تتعوّد أن تنام فيه من قبل. أذهب إليها أجدها مستسلمة تمامًا تنظر بعيون واهنة. أرفعها

فتموء بألم حادّ. أجدها في يدي خفيفة كقطة من القطن. حين أضعها على السرير تموء أيضًا بألم، ثم تتكوّم على نفسها مثلما أضعها كأنها لعبة من القماش. أحادثها بصوتٍ عالٍ:

"ما بك يا حكيمة؟ أتريدين أن تتركيني وحدي؟"

شكلها لا يُطَمْئِن. أجري بها إلى الطبيبة. تسمح لي الممرضة بالدخول في غير دوري بسبب الحالة الطارئة. تتأسف الطبيبة وتقول لي إن حالة حكيمة لا يجوز معها إلا تنويمها ثم تخليصها من عذاب لا أراه.

هكذا في لحظات أصبح أمام أمر واقع. تسألني إن كنت أرغب في البقاء معها أثناء هذه العملية أم سأغادر الغرفة. هكذا في لحظات أصبِح أمام قرار عاجل. أتوسّل للطبيبة لإيجاد أي طريقة لتأجيل الأمر. تهزّ رأسها في هدوء وتؤكّد لي بأنها تتألّم ألمًا مبرحًا لدرجة أنها لا تستطيع معه الحركة. أنظر لحكيمة التي تنظر لي للمرّة الأخيرة وتموء مواءها القديم بضعف شديد. أقول للطبيبة:

"سأبقى معها. لكن احقنيها برفق من فضلك!"

تجهز الطبيبة الحقنة. أقبّل حكيمة مرّات. أرفعها أنظر في عينيها. أشعر بسخونة شديدة في صدري وقلبي. صدري الذي سيصبح باردًا في الأيام القادمة دونها. أتنفّس بحشرجة. الحقنة في يد الطبيبة تبدو قاسية. أشعر بأشدّ الألم وحكيمة تموء مرّة واحدة فقط كأنها طفل صغير يصرخ. ثم تغيب عن الوعي. لتحقنها الطبيبة في قلبها حقنة الرحمة الأخيرة. تتسرّب روحها عبر أصابعي.

أخرج بها من هناك إلى الشقّة. أفوت على البيت وأسير حاملاً حكيمة المستلقية داخل صدري. ألفّ بها في الشوارع القريبة من البيت دون أن أصعد. أمرّ بالبيت لا أدرى كم مرّة مررت به. ولا أدرى السبب الذي يمنعني من الصعود. دفء حكيمة يتحوّل إلى برودة محزنة.

أخيرًا أصعد بطيئًا ثقيلاً. أدخل الشقّة بها. أتصل بساندرا أطمئن عليها ولا أخبرها بما حدث. حين تسألني عن حكيمة أغيّر الموضوع بأنني جهّزت الصورة التي طلبتها، وبأنني سأزورها اليوم عند العصر. تقول إن صوتي مختلف. أدّعي بأنني صَحَوْتُ الآن من نومة عميقة على الكنبة.

أخرج من الشقّة داخل معطفي وعند صدري حكيمة. أشعر ببرودتها وتصلبها. شكلها داخل المعطف يختلف عن كل مرّة كانت بداخله طوال السنوات السبع. تبدو أضأل بكثير وبلا حِسّ. أضع في جيب المعطف جاروفًا صغيرًا. وبعض أعواد البخور التي أعطتني إياها المرأة البكماء قبل سنوات عند جامع الحسين في القاهرة.

لا أدري ماذا ركبتُ، وكيف وصلتُ إلى هنا في بيت النخيل. أدخل. أجلس على المقعد الذي نجلس عليه دائمًا. لا أعرف ماذا أفعل بالضبط. أجلس كتمثال لوقت طويل. ثم أغنّي وأغنّي، أدندن بصوت عالٍ. أرتاح لعدم وجود أحد في المكان في هذا الوقت. صوتي لا يحرج منّي مباشرة بل يخرج من صدري مكتومًا عبر جسد حكيمة ويدي عليها. أتأمّل النخلة ثم أقف. أمسك بالجاروف وأحفر تحت النخلة الوحيدة مباشرة. الأرض صلبة، لكني أهمّ بالعمل السريع، مرّة بالجاروف ومرّة بيدي

وأظافري حتى تتسع الحفرة. أُخرِج حكيمة من صدري أقبّلها وعيونها ما زالت مفتوحة بلمعة منطفئة. أضعها في كيس صغير من الخيش ومعها بعض أعواد البخور. أدفنها وأعود إلى المقعد متهالكًا كأنّي حفرت خندقًا. أجلس أمام النخلة، تحتها يبرُز هذا النتوء الجديد. أتخيّل يوم وجدتها قبل سبع سنوات، صغيرة مشرّدة تعاني مثلي من صقيع الشارع. أتذكّر عمرًا طويلاً معها. أتذكّر كيف كانت حكيمة فأل خير وسبب سعدي في تعرّفي على أجمل حبّ في حياتي. يمرّ شريط الذكريات بحنين صافٍ ليتوقّف عند هذه اللحظة وأمام هذا النتوء تحت النخلة. أقوم لأسوّيه حتى لا يظهر لافتًا للنظر، ثم أختار حجرًا من عند النافورة الجانبية أضعه فوقها شاهدًا لها.

كأنّ النخلة تهتزّ في هذا الوقت. صهد الهواء الدافئ داخل بيت النخيل يثير ما يشبه الدموع في عينيّ. أعود إلى مجلسي وحيدًا مرهقًا أكاد أغيب عن الوعي لولا تذكّر موعدي لزيارة ساندرا.

يتكرّر النداء:

«هذا هو النداء الأخير! تعلن شركة الخطوط الجوية المصرية عن...»

ثم لا أسمع بقية النداء. من خلف زجاج الممرّ السميك المحكم يبدو لي كل شيء مغبشًا غير واضح المعالم. كأنّي أقف أمام مشهد مسرحي عبثي لأشخاص يسيرون متعجّلين في تكرار كابوسي ممِلّ.

حلّفتني ساندرا ألا أبكي أمامها أو وراءها؛ ألا أبكي في غيابها؛ أن أتخيّل وجهها وأن أتذكّر ساعاتنا الجميلة معًا. حلّفتني على أشياء

أخرى كثيرة.

الأوّل من مايو يوافق السبت. تتوقّف المواصلات حتى الظهر. كنت أريد أن أزور ساندرا في المستشفى قبل الظهر؛ فاليوم إجازة من العمل. غدًا الأحد سيوافق عيد ميلادها السابع والعشرين. أريد أن أكون السبّاق بتهنئتي وهديتي قبل أن يأتي الأصدقاء. أقرر في هذا اليوم أن أحجّ إليها مثلما فعلت منذ سنوات في القاهرة. خاصة أنني أحمل نفس الشيء معي: الفانوس الذي أردت أن أهديها إيّاه في مناسبة تأجّلت. أسير الآن إليها على القدمين من الحيّ السابع إلى الحيّ التاسع عبر حارات وشوارع فيينّا. أتخذ طريقًا جديدًا لم أسر فيه من قبل، لا أدري لماذا. الطريق ليس طويلاً مثل الطريق في القاهرة قبل سنوات، لكنه ممطر. لهفتي لرؤية ساندرا ووجهها الوسيم وقت تقديم هذه الهدية، جعلت الطريق طويلاً طويلاً.

سعادتي ما زالت هائلة باسترجاعي للفانوس من التركي بالأمس. أحسن تصليحه بصورة لم أتخيّلها. مررتُ عليه عدّة مرّات في الأسابيع الأخيرة ولم أجده. اعتقدت أنه اختفى للأبد. في سؤالي عنه في المرّة الأخيرة قال جيرانه في المحل المجاور إنه سافر إلى اسطنبول. لكنه عاد. قال لي إنه حمل الفانوس معه إلى تركيا وإنه قام بتصليحه هناك في قريته القريبة في منطقة أزمير، بل وجد المقاسات والألوان المناسبة لمثل هذا الفانوس هناك. قال إن البعض حاولوا شراء هذا الفانوس منه بمبلغ

كبير لكنه رفض لأنّه أمانة. شكرته كثيرًا ودفعت له أكثر ممّا طلب. الآن يبدو الفانوس متألّقًا بالفعل. تسعدني حكاية الفانوس الذي مرّ على ثلاث قارات حتى الآن ليستقر أخيرًا وبعد لحظات في يد ساندرا. أسرع الخطى مبللاً بالعرق والمطر تسبقني أنفاسي اللاهثة.

هذا هو الوجه الذي تمنّيت أن أراه يمتلك هذا الفانوس. تحتضن ساندرا الفانوس بفرحة عارمة، وأنا أكرر لها حكايته الطويلة والمسافة التي قطعتها أنا به على الأقدام في القاهرة وفي ڤيينّا، والمسافة التي قطعها هو حتى أزمير في تركيا. أقوم واضعًا داخل الفانوس شمعة زرقاء أحضرتُها معي، ثم أبدأ في الغناء لها مهنئًا بعيد ميلادها:

"سنة حِلوة يا جميل!.. سنة حِلوة يا جميل!

سنة حِلوة يا ساندرا.. سنة حِلوة يا جميل!"

تريد أن تقوم من مكانها وفي عينيها دموع فرح. أقترب منها وأحتضنها بقوّة فأشعر بوهنها وآهتها. أخفّف من وطأة حضني عليها لكني أبقيها طويلاً في صدري. أشعر بأنفاسها الهادئة تمرّ من صدري. أحسّ بنتوءات ضلوع ظهرها على راحة كفّي.

نقضي وقتًا طيّبًا في هذا الهدوء. نحكي في موضوعات متعدّدة بلا انتظام، كحديث الساعات التي تسبق رحيل المسافر. تسألني بالطبع عن حكيمة. أرتبك. لا أدري هل يحسُن بي الآن أن أكذب عليها. فأيّ كذبة الآن سوف ألوم نفسي عليها ما حييت. لكنّ الحقيقة المرّة ستؤلمها وهي ليست في احتمال آلام إضافية. أقول لها الحقيقة. تذرف دموعها غزيرة

لكنها تستعيد رباطة جأشها في سرعة عجيبة. تقول لي إنها شعرت بذلك في المرّة الأخيرة وأن حلمًا غريبًا راودها عن حكيمة. وأنه لم يكن حلمًا مزعجًا. لكنها رأتها تلهو في مكان جميل مع قطط وحيوانات أخرى كثيرة. أحكي لها عن مكان دفنها تبتسم وتقول لي:

"ما أجمل مثواها! ليتني أستعيد صحتي لأزورها معك!"

رغم سيطرة الحزن نغيّر الأحاديث. تسألني ساندرا إن كنت ما زلت أستمع لأسمهان. أقول نعم. تقول لي إنها بالأمس لم تنَمْ وتَرَدَّدَ على ذهنها أغنيتها حتى وجدت نفسها حافظة لمقاطع كبيرة منها. بدأت على الفور تغنّي بصوتها الهادئ وببحّتها الجميلة أثناء نطقها لحرف الحاء وأنا فرح مذهول من حفظها:

ليالي الأنس في ڤيينّا	نسيمها من هوا الجنّة
متّع شبابك في ڤيينّا	دي ڤيينّا روضة م الجنّة
وليه تُصبر عَ الأيام	تفوت من غير ما تتهنّى
امرح واطرَب	افرح واطرَب
ابعت قلبك يسبح ويطير	في الدنيا دي يلقى له سمير

في اليوم التالي الذي يوافق عيد ميلاد ساندرا السابع والعشرين. تكتظّ غرفتها بكل الأحبّاء. والدها يجلس بالقرب منها يمسك بيدها. جدتها واقفة ثم جالسة ثم واقفة من جديد. تنطق بدعواتٍ خافتة. أمّها أتت متأخرة جدًّا. كانت غائبة في سفر بعيد مع زوجها. تبدو

منهارة تمامًا. ساندرا تتحدّث إليها بمحبّة كبيرة. أخو ساندرا يدخل مع زوجته بباقة وردٍ كبيرة وسوزانّه الصغيرة تقفز إليها كعادتها. تتألم ساندرا وتخفي آلامها بالابتسام. أتابعها من بعيد. لا يغيب وجهها عنّي وهي تهديني من وقت لآخر ابتسامتها العريضة. يسمحون لها في المستشفى بالخروج إلى الغرفة الجماعية لنحتفل بها جميعًا هناك في جوّ جميل مفرح. الممرضات يدفعونها في سريرها وأنا معهم إلى منتصف الصالة. أسمع ضحكاتها للمرّة الأولى بعد وقت طويل. 'أبو درش' ما زال كعادته يثير المرح بين الجميع. يخصّ ساندرا ليحكي آخر مغامراته اليوم حين ركب المترو دون تذكرة ولمّا سأله المفتش عن إبراز تذكرته قال إن اليوم هو عيد العمال. وباعتباره عاملاً في الدولة فمن حقّه ركوب المواصلات في يوم عيده مجانًا. وأنّه ظل يستدرج المفتش الوحيد بالحديث حتى خرج معه من المحطة. ثم قال للمفتش أخيرًا وهو في برّ الأمان:

"أثبت لي الآن أنني كنت في المترو؟"

بعد مغادرة الجميع أعيد ساندرا بسريرها إلى غرفتها أجلس معها هناك. أتوسّل للممرضة أن تسمح لي هذا المساء بالبقاء ساعة إضافية مع ساندرا. تتعاطف معنا وتتركنا معًا. تقرأ ساندرا بعض البطاقات التي وصلتها وتفتح الهدايا. ثم ترجوني أن أحمل معي كل هذه الهدايا إلى الشقّة وأن أدع لها البطاقات والورود والفانوس.

لا أبكي في غياب ساندرا كما وعدتُها. ولو أردتُ فلن أستطيع. كلّ شيء يحدث هكذا فجأة دون مقدمات مثل زلزال يزلزلني ويحطم بهاء الصرح الذي شيّدناه معًا. كل شيء ينتهي أسرع من المتوقّع، كأنّي ما زلت منتظرًا أن ينتهي هذا الحلم- الكابوس المزعج مثل معظم الأحلام التي تنتابني؛ منتظرًا أن أصحو وأعود إلى الحياة. لكن الحلم هذه المرّة يطول، وينال من ساندرا. يتبقّى لي أيام قادمة منقوصة وحنين للذكريات ودفتر يومياتها المكتوب بخط يدها الذي سجّلتْ في صفحته الأولى أغنية أسمهان بحروف لاتينية وسجّلتْ فيه وصيتها أيضًا؛ بأن أعود لزيارة بيت النخيل دون أحزان ودون أسى؛ وبأن أعتبرها في كلّ زيارة جالسة إلى جواري وأن أتخيّل أنّ حكيمة تتنقّل بيننا كعادتها؛ بأن أستمع إلى أسمهان وإلى الاسطوانات التي أهدتني إيّاها؛ بأن أغنّي معها دومًا كما كنت أفعل؛ بأن أستمع إلى موتسارت وباخ لأستعيد أروع لحظات حبّنا؛ بأن أتمّ لها حكايتي الطويلة التي لم أحكها كاملة؛ بأن أسرد عليها أحلامي الجديدة حينما أزورها في مثواها؛ بأن أقرأ دفترها الذي أهدتني إيّاه في المكان الذي أحبّه أكثر من أيّ مكان آخر: في بيت النخيل؛ بأن أدعو كلّ الصديقات والأصدقاء في غيابها الأخير إلى الشقّة وأن نستمع مع روحها إلى الموسيقى التي تحبّها وبأن نتذكّرها كأنها بيننا لأنها ستكون بيننا.

كانت هذه وصاياها الأخيرة المكتوبة التي هزّتني والتي سجّلت كل وصية منها في صفحة منفردة.

أسأل 'أبو درش' عن حاجتي لشخص يمكنه أن ينجز لي مهمّة عاجلة أشرحها له باختصار، فيرسل لي الرجل المناسب. في فجر هذا اليوم أذهب مع الرجل إلى المقابر حاملاً معي الفانوس. هناك أتوقّف في طريقي قليلاً عند قبر ڤاليري، هذا القبر الذي زرته مرّات مع ساندرا. السحب تسمح للشمس مدّ شعور أشعتها بتقتير بالغ. أقف صامتًا. يسألني الرجل إن كان هذا هو القبر المقصود. أهزّ رأسي بالنفي. تمرّ في رأسي مشاهد للعم ركابي مع ڤاليري كأنّي رأيتها. أنطق باسم ڤاليري مرّات محاولاً استعادة صوت من بعيد؛ صوت عم ركابي. يختفي شعاع الشمس فجأة، ثم يتبعني الرجل إلى قبر ساندرا الذي يقع على بُعد مسافة كبيرة على الصف نفسه. يثبّت الرجل الفانوس أعلى رخام قبرها. يتخلل الشعاع ألوانه فيبدو كأنه مضاء. أضع فيه شمعة زرقاء. أدفع للرجل مقابل عمله وأشكره. أبقى وحدي معها. أدور حول القبر مرّات. ثم أقف أمامها طويلاً. ويمرّ شريط آخر من ذكريات قريبة. أظلّ متخشّبًا مكاني حتى تذوب الشمعة تمامًا، فأضع أخرى. أنفاسي تختلج وأحاسيسي ترتبك فأريح نفسي بدندنةٍ خافتة. ثم يخرج صوتي بطيئًا يردّد أغنية من كلمات لا أدري كيف ومن أين تأتي لذهني. أظلّ أغنّي وأغنّي ولهب الشمعة يهزّ كل ألوان الفانوس؛ يهزّ كل ما أرى. غبشة تقف أمام عينيّ كبخار على زجاج.

أقرأ اسم ساندرا الحديث الكتابة على الشاهد وأنحني لأرتّب أكاليل الورود.

أعود لبيت النخيل. أجلس أمام النخلة، الباقية كشاهد حيّ للأحياء والأموات، على لحم صدري ضفيرة ساندرا بعبقها. أرى النتوء أسفل النخلة هبط قليلاً. شعاع الشمس يخلّص نفسه من ركام السحب ويدخل ساطعًا؛ فأضع على عينيّ نظارتي الشمسية. أشعر بالضنى. لا أودّ أن أستسلم للأحزان أو أستثيرها. أودّ أن أسيطر على ذهني وأن أوجّه تفكيري لأيّ شيء آخر غير ما يزاحم رأسي طوال الوقت. لا أستطيع. أسحب وصية من وصايا ساندرا. أتخيّلها إلى جواري وحكيمة بيننا؛ فأحسّ برحمة مؤقتة. أسرح في تذكّر وجه ساندرا، عينيها، فمها، يديها. أسرح في تذكّر نبلها وخفّة روحها. حين أوفّق في استحضارها، أحسّ ببلسم يخدّرني حتى أروح في سبات عميق. لا ينتبه أحد لغيابي عن هذا العالم بسبب نظارتي الشمسية:

أرى نفسي وأنا أولد من رحم أمي عند الفجر تحت نخلة قصيرة كشجرة تين. لا أسمع أصواتًا. وجه أمي مرتاح رغم إعيائها. تنام وأظل صاحيًا متأملاً وجهها. من حولي يبدو كل شيء غريبًا.

في مساء يوم مولدي هذا أصير في عمر ما يقرب من عام. أسمع أصواتًا لا أفهمها. أشمّ رائحة أمي مريحة وأرضع حليبها اللذيذ. في الليل الذي تظهر فيه الشمس، أصير في عمر سنتين أو ثلاث ليدخل أبي علينا للمرّة الأولى. يُخفي الشمس عنّي بجسده الضخم. أراه كأنه يلبس قناعًا مظلمًا. يصيبني رعب من صوته الأجش وأتشبّث بأمي. في صباح اليوم التالي أرى نفسي صبيًّا في السابعة. أركض في دربٍ طويل

دون أن أدري سبب استعجالي. يتوقف ركضي أمام ما يشبه نهرًا أو بحرًا. تأتي إليه حيوانات كثيرة تضمّني إليها فأسير إلى غابة، عن يميني قطة وعن يساري كلب. نقف أمام نخلة شاهقة. تتشاور الحيوانات بأنّ علينا أن نتسلقها نحن الثلاثة والذي يصل إلى أعلاها أولاً سيفوز. أصعد النخلة خفيفًا كالسنجاب، خلفي الكلب، الذي يسبقني في التوّ، ثم تسبقنا القطة. في النهاية أسبقهما بمسافة كبيرة، لأجد نفسي متربّعًا وحدي على تاج النخلة ضاحكًا منتظرًا صعودهما. لكنهما لا يصعدان. فجأة تستطيل النخلة علوًّا. أفرح كثيرًا بهذه اللعبة. لكن حين تبالغ وأرى كل شيء تحتي يتضاءل ويبتعد، أخاف. تميل النخلة لتسقطني في أرض أخرى بعيدة خلف هذا النهر أو البحر الذي كنت عنده. ينغرز ثور ضخم كالجبل على هذه الأرض، حوله جمع من الناس لا يرونه بسبب حجمه الجبّار، يقطعون من لحمه بأظافرهم وأسنانهم ويلتهمونه بنهم. منظره يثير الإشفاق، لكن لا يخرج منه صوت. عيناه تذرفان دموعًا لا تتوقّف، تهطل عليهم كمطر دافئ وهم في استرخاء تام. أنزعج من شكل هؤلاء الناس؛ فوجوههم عادية كالبشر لكن أسنانهم تبرز كأسنان أسماك القرش أو التماسيح ولهم أنياب طويلة بارزة والدماء تقطر منها.

تقف بالقرب من رأس الثور فتاة تقول إنها نباتية لا تأكل اللحم. أخشى أن تكون مثلهم. أنتظر حتى تبتسم فأرتاح لشكل أسنانها. أسير إليها. تمنحني ثمرة تشبه الرمانة، بعد أن أقضمها أجد بي رغبة هائلة لتقبيل الفتاة. تدعني أقبلها.

أروح في القبلة قليلاً لأجد نفسي في بستان ملوّن في وسطه ساحة واسعة، وأناس يمرّون من أمامي يجرّون على الأرض صناديق ثقيلة وأحمالاً أخرى ويهمهمون في أصوات غريبة. من بعيد ألمح رجلاً يقف على منصة عالية ويوجه الناس في لخبطة مقصودة ويضحك في عبث، بينما هم ينفّذون أوامره بكل خضوع ودون تأفّف. بعض أعوانه يجهزون أحمالاً جديدة ثقيلة للقادمين والبعض الآخر يقف بأسواط يلسع بها كلّ من يتوقف أو يبطئ أو يحاول النظر إلى أعلى، ناحية رجل المنصّة. أحاول أن أصرخ لتنبيه الناس، فلا يخرج منّي أيّ صوت. بينما يشير هذا الآمر الواقف أعلى المنصّة بعصاه ناحيتي كمايسترو، فيقترب منّي كل أعوانه في شكل لا يطمئن.

في هذه الأثناء أرى ساندرا تظهر وتأخذ بيدي. أشعر بالأمان حين تصير يدها في يدي. نركض معًا دون خوف. نضحك ضحكًا عاليًا حتى يرنّ في فضاء الساحة، فيتوقف الناس عن الجرّ. من بعيد نسمع أصوات الناس تتعالى أيضًا بالضحك. نتوقف مرتاحين ونرتمي على عشب طري فيروزي اللون. تقبّلني ساندرا وتهمس في أذني:

"ستبقى هكذا معي أبد الدهر!"

تُخرِج شمعة، لا أدري من أين، وتشعلها. تقول لي:

"حاول أن تطفئها!"

أنفخ فيها بكل عزم أنفاسي. لا تنطفئ. تكمل همسها ببحتها الجميلة:

"هذه الشعلة هي روحك يا حمزة. لن يستطيع أحد أن يطفئها، حتى أنت."

أغمض عينيّ في اطمئنان بينما تقترب منّا حيوانات أليفة المنظر لتحوطنا وتربض قربنا؛ من بعيد أرى ناسًا يقتربون. أتعرّف عليهم واحدًا واحدًا كلّما اقتربوا. أصيح في سعادة غامرة باسم كل واحد وواحدة معرّفهم بأسماء أمهاتهم؛ وبينما دفء يد ساندرا يسري في كلّ جسدي، تقول لي في لغة لم أسمعها من قبل لكنّي أفهمها:

"إنها الجنّة! إنها الجنّة يا حمزة!"

من بيت النخيل أخرج كالعائد من سفر طويل. أهيم في الشوارع. أدخل بعض الأمكنة التي كنّا نتردّد عليها. أشعر بفقد كبير. كل الأمكنة تبدو أضيَق ممّا كانت عليه في زياراتي لها بصحبة ساندرا أو مع ساندرا وحكيمة. تتبدّى نفس الأمكنة في لحظة مبالغةً في الوسع أكثر ممّا كانت، كأنّي أجلس في خلاء كبير. إحساس متناقض يُشعرني بانقباض وبتيهٍ في آنٍ. أصوات الناس تأتي إليّ مكتومة أحيانًا أو ترنّ في أذني بسخافة القهقهة. أسمع ضجيجًا عاليًا في كلّ مكان أدخله وأحسّ بوحدتي. أستغرب من قدرة الناس على الضحك هكذا بسهولة. أحاول أن أتذكّر متى ضحكتُ آخر مرّة، دون جدوى.

أغيّر الأمكنة من مقهى إلى آخر طوال المساء والليل المتأخر. لا أدري ماذا أطلب، ولا ماذا أشرب. قبل الفجر أدخل الشقّة منهكًا وبإعياء وغثيان وصداع، حالة مزرية لكنها تنجح قليلاً في صرف ذهني عن فكرة

طائشة. أتصل فورًا بـ 'أبو درش'، أقلقه من نوم عميق في هذا الوقت المبكّر جدًّا. أقول له إنني نويت السفر إلى مصر في أقرب فرصة، وبأنني لا أفكّر في صحّة قراري الآن أم لا؛ فأنا محبط ويائس ووصلتُ لمنتهى الكآبة. أريد أن أعود إلى الجنوب، لعلي أخفّف بتغيير المكان من وطأة نفسي. أقول له:

"البقاء في الشقّة وحدي يكْاد يقتلُني. لا أعرف ماذا أفعل في كل هذا الصمت؟"

يحاول 'أبو درش' أن يهدّئني وأن يقنعني بتأجيل فكرة السفر الآن. يعرض عليَّ الانتقال إليه في شقته بضعة أيام، لكنّي أثنيه عن محاولاته قائلاً:

"هذا الفراغ أكبر من طاقتي يا مصطفى!"

في ظهر اليوم التالي يكون 'أبو درش' قد تصرّف بتجهيز تذكرة سفر لي، للسفر بعد يومين إلى القاهرة.

يتكرّر النداء:

«هذا هو النداء الأخير! تعلن شركة الخطوط الجوية المصرية عن قيام رحلتها رقم ٨٠٢ المتجهة إلى القاهرة ...»

أسمع نفس الجملة تتكرّر. أصل مع 'أبو درش' متأخّرًا إلى المطار في يوم ممطر غائم. يطلب منّي أن أُسرع وأسبقه لأنهي إجراءات السفر

حتى يركن سيارته ويأتي لوداعي. كنت قد حشرت في حقيبة سفري بعض الملابس التي وضعتها دون اختيار وعلى عجل، وفي شنطة يدي وضعت الأحجار الثلاثة السوداء من ودّ النّار وحجر الشيخ الشريف وضفيرة ساندرا وألبوم الصور وصورة لحكيمة ولوحة ڤاليري وشريط أسمهان والاسطوانات التي أهدتني إيّاها ساندرا وأخرى لموتسارت وباخ.

أسير الآن متعرِّجًا بثقلي في دهليز المطار. ثقل الأحمال أكبر في ذهني. لا أدري أيّ طريق أتخذ. لا أنظر إلى لوحات أو إشارات. أسير مع السائرين. أقف قليلاً لأريح نفسي وأضع الشنطة على الأرض؛ وأنا لم أمشِ أكثر من خمسين مترًا. كأنّي أحمل أثقال الدنيا. وقفتي تكون عند باب للطوارئ. رغم سُمْك الزجاج أسمع الرعد يدوّي في السماء. تذكّري لسماع كلمة 'مصر للطيران' يجعلني أخطف الحقيبة من الأرض فتنقطع اليد. أقف في مكاني حائرًا.

أسمع صوت قطة تموء، أعتقد أنها هواجس حكيمة وثقل رأسي وتهيؤاتي. يتكرّر الصوت. أنظر أمامي وخلفي. أرى فقط ناسًا يتحرّكون بسرعة غريبة. باب الطوارئ الذي أركن إلى جواره ينفتح في هذه الأثناء لدخول اثنين من رجال 'الأمن'. أكتشف أن صوت مواء القطة يأتي من خارج هذا الباب، الذي يمكن فتحه من الداخل لأي شخص في حالات الطوارئ، ويُفتح فقط من الخارج لرجال الأمن بمفتاح خاص. أفتح الباب وأواربه قليلاً. يأتي صوت الرعد فظيعًا كأنّه سيدكّ الأرض. السماء رمادية والمطر ينهمر بلا رحمة. أجد بالفعل قطة صغيرة مبللة تموء في

الركن. أناديها لتقترب، لكنها تبدو مذعورة من صوت الرعد. تموء بصوت يذكّرني بحكيمة. أتحرّك نحوها تلقائيًّا والباب ينغلق من خلفي بهدوء. أرفعها وأمسح عنها البلل. أرفعها إلى حضني لأدخل بها صالة المطار، لكنه الباب لا ينفتح إلا من الداخل.

أشعر ببرد شديد وأنا واقف خلف هذا الزجاج السميك المحكم. يبدو لي كل شيء مغبشًا غير واضح المعالم. كأنّي أقف أمام مشهد مسرحي عبثي لأشخاص يسيرون متعجّلين في تكرار كابوسي مملّ.

في الخارج أسمع صوت الرعد فوق رأسي وصوت زخّات المطر ولا أسمع أيّ صوت في الداخل. أرى بصعوبة ما يشبه شخصًا يجرّ حقيبة ثقيلة وعلى ظهره شنطة ظهر كبيرة ويتحرّك في بطء في غير حركة الآخرين. أخبّط من جديد. يقف الشخص ويفتح لي الباب. أجدها فتاة. أشكرها وأقول لها إنني محبوس خلف هذا الباب منذ أكثر من رُبع ساعة، وإنني تأخّرت عن رحلتي. تضحك ضحكة طويلة وتقول إنها تأخّرت أيضًا عن رحلتها لأنّها لم تغيّر توقيت ساعتها وقد فاتَتْهَا الطائرة. ترى في يدي القطة وهي لا تزال ترتعش. أمسح عنها البلل وأنا في بللٍ أكثر منها، لكنها تبدو الآن في حال أفضل ومواؤها العالي يدل على ذلك. تسألني الفتاة:

"هل هي قطتك؟"

أنظر للقطة، فترفع وجهها إليّ كأنها سمعت ثم ترفع قائمتها اليسرى إلى وجهي، فأردّ فورًا:

"نعم!"

"ما اسمها؟"

أقول بلا تردد:

"نور!"

في هذه الأثناء أرى 'أبو درش' راكضًا يلهث. يضحك حين يراني ويهجم عليّ بطريقته ويحتضنني بفرح حقيقي كأنّني أتيت من السفر:

"تأخّرت يا حمزة ها؟! ما أجمل الأقدار! كل تأخيرة وفيها خيرة!"

يتأملني بفرح، أرى في عينيه دموعًا حبيسة، ثم يحوّل حديثه إلى الفتاة. يجذب عجلة قريبة يضع عليها حقيبتي المقطوعة وشنطة يدي، فأدفع العجلة بينما يستأذن الفتاة بطريقته الجذّابة بأن تسمح له أن يساعدها في جَرّ شنطتها ويقول:

"سأدعوكما الآن لقهوة في مقهى المطار حتى تهدأ السماء."

نتحرّك نحن الأربعة: 'أبو درش' ينظر للفتاة والفتاة تنظر إليّ وأنا أنظر للقطة محاولاً التعرّف إلى ملامحها. تموء وهي تخربش وجهي؛ فتكون اللحظة الأولى التي أبتسم فيها منذ وقت طويل. أقبّل 'نور' وأضعها في معطفي عند صدري، تخربشني ثم تهدأ وتُخرج رأسها. نسير معًا إلى المقهى. ولم أعُد أسمع صوت الرعد.

(ڤيينا – أسوان – ڤيينا)

(٢ مايو ١٩٩٨ حتى ١١ يناير ٢٠٠٥)

المؤلف في سطور

طارق الطيب

من مواليد القاهرة (عين شمس، تسجيل ميلاد: باب الشعرية) في الثاني من يناير ١٩٥٩. انتقل في عام ١٩٨٤ إلى فيينّا حيث أنهى دراسته في فلسفة الاقتصاد وهو يعيش الآن فيها ويعمل إلى جانب الكتابة الأدبية بالتدريس في ثلاث جامعات بها

نشر حتى الآن روايتين ومجموعتين قصصيتين وخمس مجموعات شعرية ومسرحية واحدة.

نشرت ترجمات لكتبه في اللغات التالية على الترتيب: الألمانية، الفرنسية، المقدونية، الصربية، الإنجليزية، الإسبانية، الرومانية، ثم الإيطالية. كما له ترجمات في لغات أخرى لنصوص أدبية في العديد من الانطولوجيات والمجلات والدوريات العالمية

شارك في العديد من المهرجانات الأدبية العالمية

حصل على العديد من المنح الكبرى والجوائز منها منحة إلياس كانِتي (Elias Canetti) الكبرى في فيينّا عام ٢٠٠٥ والجائزة الكبرى للشعر في رومانيا في العام ٢٠٠٧

تم تعيينه كسفير للنمسا لعام الحوار الثقافي الأوروبي (EJID) في العام ٢٠٠٨

حصل على وسام الجمهورية النمساوية تقديرا لأعماله في مجال الأدب والتواصل الأدبي داخليا وعالميا، في العام نفسه ٢٠٠٨

حاصل على زمالة "برنامج الكتابة العالمي" وبرنامج "بين السطور" بجامعة أيوا في أميركا، في العام ٢٠٠٨

تم تعيين جائزة باسمه (جائزة الأديب طارق الطيب) من قبل لجهاز تنظيم شئون السودانيين العاملين بالخارج اعتبارا من العام ٢٠١٣، للمبدعين والمبدعات خارج السودان

صدر له مؤخرا: (الرحلة ٧٩٧ المتجهة إلى فيينا) دار العين، القاهرة ٢٠١٤

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوبا على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلا عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً في سلسلة

آفاق عربية

160 خذ ساقيك إلى النبع .... كامل فرحان صالح

161 فـرق التـوقيت .... محمود الريماوي

162 بـرق الليـل .... سالم العوكلي

163 - حين عبث الطيف بالطين .... نجاة عبد الله

164 قصائد روتها الريح .... عذاب الركابي

165 - عشبـة الوهـم .... علي جعفر العلاق

166- رويدا باتجاه الأرض .... إبراهيم زولي

167- ابـن النسـر.......... سمير عبد الفتاح أسحم

168 قصائـد نثـر .... رعد زامل

169 نحت آخر لتمثال المفكر .... مفلح العدوان

170 سراب مختلف ألوانه .... خالد علي سليفاني

171 نداء وقصص أخرى................... سعاد فهد السعيد

172 باقة للوردة وأخرى للقصيدة .... إدريس علوش

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقًا)
ت: 23904096 - 23952496

سلسلة آفاق عربية

قرية «ود النار» التي كانت ود النور، ولكنها تصحرت فصارت حدائقها الغَنَّاء صحراء هجرها أهلها، تلك القرية المنسية التي خرج منها حمزة في أصقاع السودان البعيدة، هاربًا بأحلامه والأحجار الثلاثة التي تمثل ذكرى لقبر أمه وأختيه، والحجر الرابع الذي أخذه أمانة ليعود به الى الأرض التي أُسر فيها أثناء قتاله في الجنوب، رواية «بيت النخيل» هي الصراع بين التقاليد البالية،حيث شيخ الكُتَّاب الذي يجبر الأولاد على شرب الماء الآسن من جردل صدئ قديم يغسل فيه الأطفال ألواحهم التي كتبوا عليها آيات القرآن التي يمليها عليهم الشيخ ليحفظوها، فأصبح الماء مقدسا، ويعت... شيطاناً لأنه أعسر أو ممثل للشيطان.

تصميم الغلاف: أحمد اللباد



www.gocp.gov.eg